

من روائع الأدب الهندي قصة الملك و الدراويش الاربعة

إعداد و ترجمة

د. ديفال احمد جارايش



الهيئة المصرية العامة للكتاب

من روائع الأدب الهندي

قصة الملك والدرأويش الأربعة

ترجمة ودراسة

د. دينا أحمد جاويش



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبره عبد الواحد

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
	القسم الاول : الدراسة
٧	المقدمة
	الباب الأول : ميرامن الدهلوى : بينته وسيرته
١٧	الفصل الأول : الظروف البيئية (سياسية - اجتماعية - ثقافية)
٤٣	الفصل الثانى : حياة ميرامن الدهلوى وآثاره
٦١	الفصل الثالث : الإنتاج الأدبى لميرامن الدهلوى
	الباب الثانى : كتاب باغ وبهار
٧٥	الفصل الأول : التعريف العام بالكتاب
٨٧	الفصل الثانى : باغ وبهار : دراسة موضوعية
١٠٣	الفصل الثالث : البناء القصصى فى «باغ وبهار»
١٢٥	الفصل الرابع : المغزى الفكرى فى «باغ وبهار»
	الباب الثالث : دراسة نقدية لكتاب «باغ وبهار»
١٣٥	الفصل الأول : مصادر باغ وبهار
١٥٧	الفصل الثانى : أسلوب الكتاب
١٨٥	الفصل الثالث : مكانة «باغ وبهار» فى النثر الأردى
١٩٩	الخاتمة
٢٠٣	المراجع

القسم الثانى : الترجمة

المقدمة

المقدمة

عنوان هذه الدراسة هو «كتاب باغ وبهار، لميرأمن الدهلوى ترجمة ودراسة وأول ما يقال في هذا الصدد، أن النثر الفنى فى اللغة الأردية لم يئل من عناية الدارسين المصريين ما ناله الشعر، وهذا ما يدعونا إلى أن نجعل النثر هو موضوع دراستنا هذه، أضف إلى ذلك أننى درست فى رسالتى لنيل درجة الماجستير كتاب «عجائب القصص لشاه عالم الثانى، وهو كتاب نثرى، لذا أثرت أن تكون رسالتى هذه مكملة لمسيرة الكتاب السابق فى مضمار التعرف على النثر الفنى فى اللغة الأردية، ودراسة الكتابين - إن شاء الله - تكون صورة الأدب الأردى، أكثر وضوحاً لدى القارئ العربى.

وهذا الكتاب - موضوع الدراسة - يجمع بين دفتيه قصصاً حيكت على أسنة الدراويش، وتتضمن قيماً إسلامية وأخلاقية وإنسانية، توضح لنا جانباً من الموضوعات الأكثر رواجاً فى الأدب الأردى.

وهذا البحث ينقسم إلى قسمين: قسم خاص بالدراسة وهو القسم الأول، أما القسم الثانى فهو خاص بترجمة المتن إلى اللغة العربية.

وجاء القسم الأول فى ثلاثة أبواب على النحو التالى :

الباب الأول يقع تحت عنوان «ميرأمن الدهلوى بيئته وسيرته، وفى الفصل الأول من هذا الباب تناولت بالوصف فى إيجاز ما أحاط بالمؤلف من ملابسات وأوضاع سياسية

واجتماعية وثقافية، وما كان لهذه الأوضاع من أثر فى أعماق كتابه وأبعاده، وربما كانت السبب فى توفره على كتابة هذا الكتاب.

أما الفصل الثانى فقد تعرضت فيه لحياة المؤلف «ميرأمن الدهلوى» على قدر ما تيسر لى من معلومات، حيث إن المراجع التى تضمنت وصفاً لحياته شحيحة للغاية، وإن كانت تكفى لعرض صورة لحياته نفسها قدر المستطاع.

وفى الفصل الثالث عرفت بإنتاج «ميرأمن» الأدبى، حيث أسند إليه كتاب آخر بعنوان «كنج خوبى» ولكنه أقل شهرة من كتابه «باغ وبهار» لأنه مجرد ترجمة عن الفارسية لكتاب «أخلاق محسنى» لملا واعظ كاشفى سبزوارى، فلا فضل «لميرأمن» إلا الترجمة، ورأيت أن الترجمة متكلفة مما جعل الأسلوب ثقيلاً، وذلك بخلاف الأسلوب فى كتابه «باغ وبهار».

والباب الثانى بعنوان «كتاب باغ وبهار» ويندرج تحته أربعة فصول، أما الفصل الأول فعنوانه «التعريف العام بالكتاب» فعرفت فيه بالكتاب من حيث تاريخ تأليفه وكيفية إخراجة وطبعاته إلى غير ذلك من الأمور الشكالية.

والفصل الثانى تحت عنوان «باغ وبهار» دراسة موضوعية، قمت فيه بعرض ملخص لمضمون الكتاب وموضوعاته.

والفصل الثالث تحت عنوان «البناء القصصى فى باغ وبهار» بينت فى هذا الفصل الطريقة الفنية التى اتبعها «ميرأمن» فى البناء القصصى «لباغ وبهار».

أما الفصل الرابع فبعنوان «المغزى فى باغ وبهار» وهذا الفصل يتعرض لأهم الموضوعات التى يدور حولها فكر الكاتب، وأهم الآراء التى يريد تقديمها للقارئ.

والباب الثالث بعنوان «دراسة نقدية لكتاب باغ وبهار» جاء الفصل الأول بعنوان «مصادر الكتاب» وقد حاولت فيه أن أرد هذا الكتاب إلى المصادر التى أخذ عنها أو أفاد منها المؤلف.

والفصل الثانى بعنوان «أسلوب الكتاب» وقد درست أسلوبه على ضوء الخصائص الأسلوبية للنثر الأردى فى تلك الفترة.

والفصل الثالث بعنوان «مكانة باغ وبهار في النثر الأردني»، وفي هذا الفصل وضحت مكانة هذا الكتاب بين كتب النثر الأردني، وأشارت إلى خصائصه التي يمتاز بها بين كتب النثر في تلك الفترة.

ثم أنهيت هذا البحث بخاتمة استعرضت فيها ما استطعت التوصل إليه من نتائج بعد البحث والدراسة.

ثم يأتي القسم الثاني من الرسالة لترجمة «كتاب باغ وبهار إلى العربية، حتى يكون في متناول القارئ العربي، وليستطيع من خلاله التعرف على الكاتب من ناحية، وعلى الأدب الأردني في هذه الفترة من ناحية أخرى.

وبالله التوفيق..

القسم الأول : الدراسة

الباب الاول

میر آمن الدہلوی : بیٹہ و سیرتہ

الفصل الأول

الظروف السيئة

((سياسة - اجتماعية - ثقافية))

أولا : الحالة السياسية :

لقد سجل «مير أمّن» بنفسه في مقدمة كتابه «باغ وبهار» أن أجداده وآباءه قد عملوا في بلاط المغول، وذكر صراحة اسم الملك «همايون»^(١) كما ذكر «مير أمّن» أيضا أنه عندما أغار «أحمد شاه الإبدالي»^(٢) على كابل ودمر المدينة، وهرب الملك «شاه عالم» صوب الشرق ولم يعد هناك ثمة ملك أو حاكم، مما أتاح الفرصة للإبدالي بأن ينهب ويسلب ويخرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولذا فر منها «مير أمّن»^(٣).

ويستخلص مما ذكر «مير أمّن» أن أسرته كانت وثيقة الصلة ببلاط المغول منذ عهد «همايون» وعليه نرى أنه من الأهمية بمكان أن نلقى الضوء على الحالة السياسية إبان حكم المغول للهند منذ حكم ملوكها العظام إلى عصر تدهورها على يد ملوكها الضعاف مما أفضى إلى زوالها، ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى عصرين هما :

أ - عصر القوة :

يعد «بابر» هو المؤسس الحقيقي للدولة المغولية في الهند، ولد في ١٦ من محرم ٨٨٨هـ / ١٤ من فبراير ١٤٨٣م^(٤) وقد تأتى لـ «ظهير الدين بابر» في عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م أن يسيطر على السند والبنجاب بقلة من جنوده، وذلك بعد تمكنه من هزيمة «اللودهيين» عند «باني بت» شمالي دهل و تزيع على عرش الهند في «آجرا» في شهر رجب من نفس العام، وقبيل وفاة «بابر» عام ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م استطاع أن يسيطر على معظم أرجاء الهند في خلال خمس سنوات فقام بتأسيس دولة المغول وانتصر على «الراجبوت» وواجه ثورات الأفغان وقام بمطاردتهم حتى حدود «البنغال وبيهار»^(٥).

وعلاوة على مقدرة «بابر» العسكرية والسياسية فقد كان شغوفاً بالآداب، وقد كتب خواتمه بقلمه وبتت شخصيته واضحة من خلال كتابه «بابرنامه» الذي طبقت شهرته الآفاق وترجم إلى لغات عدة^(٦).

ثم خلف «بابر» على العرش ابنه «همايون» فواجه الكثير من المصاعب حتى استطاع الأمير الأفغاني «شيرشاه السورى» أن يرغمه على الفرار من الهند فى العاشر من المحرم سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م وقد توجه فى البداية إلى «السند» ومنها إلى «إيران»^(٧).

ولم يستطع «همايون» العودة إلى بلاده ثانية وتنظيم صفوفه إلا بعد خمسة عشر عاماً بمعاونة الشاه «طهماسب الصفوى»^(٨) فهزم خليفة «شيرشاه» وبانتهاء حكم الأفغان السوريين، انتهى حكم السلاطين فى الهند بعد أن دام من عام ٩٦٢هـ/١٢٠٦م إلى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م ودخلت الهند كلها تحت راية ملوك المغول، وقد توفى «همايون» فى العام التالى، وتم دفنه فى المقبرة التى سبق أن أعدها بنفسه والتى تعد واحدة من عجائب الدنيا^(٩).

وبعد وفاة «همايون» اعتلى العرش ابنه «جلال الدين أكبر»، وكان ذلك فى عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م، وقد انتصر على أعداء الدولة واستطاع أن يفتح معظم بلاد الهند، فقام بفتح قلعة «جنور» وضم «راجبوتانا» واتجه إلى «كجرات» وطهرها من أعدائه وذلك عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م، واستطاع أن يضم إلى ملكه بلاد السند وفندهار، وبذلك أصبحت مملكته من الاتساع بحيث شملت الهند كلها، عدا الطرف الجنوبى من شبه القارة^(١٠).

وكما استطاع «أكبر» أن يقر شئون الملك السياسية ويوسع رقعة الدولة، فقد نجح فى تدبير شئون البلاد، فأعاد تنظيم جباية الخراج؛ بحيث يحسب الخراج على أساس خصوبة الأراضى، كما يبدو ذلك من كتاب «أتين اكبرى»^(١١) وقام بالدعوة إلى دين جديد أسماه الدين الإلهى وذلك بعد أن قام بدراسة مستفيضة لمختلف المذاهب والأديان، وكان هدفه من وراء ذلك التوحيد بين أهل الهند^(١٢) كما اشتهر بتشجيعه للعلوم والفنون والآداب، وقد استحدثت اللغة الأردية فى ذلك العهد.

كل هذا دليل على أن هؤلاء الملوك لم يكونوا سلبيين فى حكمهم بل واجهوا ما واجهوا من شوائب واضطروا إلى مجابهة العنف بالعنف، فلم يرثوا العرش كابراً عن كابر فقط، بل ورثوا عرشاً تزلزله الشدائد وتحيط به المخاطر من كل جانب، فحاضوا غمار هذه المخاطر

وكان لهم الفضل فى التغلب عليها إضافة إلى أنهم أصحاب شغف بالأدب، والملك الشغوف بالأدب ورعاية أهله لاشك ملك يفضل سواه، لأن الأدب الرفيع فى أى عصر أمانة على التحضر والرقى .

ثم أسند الملك بعد ذلك إلى «جهانجير» فى جمادى الآخرة ١٠١٤هـ / أكتوبر ١٦٠٥م وقد نهج منهج والده فى حسن معاملة الهنادكة وحرصه على العدل إلا أنه تخلى عن الدين الذى روج له والده، وعاد إلى التمسك بأهذاب السنة (١٣) وكان لتدخل زوجته «نورجهان» أثر كبير فى توجيه سياسة الدولة وما وقع فيها من فتن وحروب، وتوفى «جهانجير» فى ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م ودفن فى لاهور، ومن بعده أثرت الملكة «نورجهان» الزهد فى الحياة العامة وانصرفت عن الحياة إلى عيشة خاصة هادئة، إلى أن وافاها أجلها ودفنت إلى جوار زوجها فى لاهور (١٤).

وهنا نلاحظ أن المرأة فى الهند كانت مشاركة فى توجيه سياسة الدولة، أما انصراف «نورجهان» عن الدنيا بعد وفاة زوجها، فهذا ما يجرى مجرى المعتاد فى الهند فالزوجة بعد وفاة زوجها تتوارى بعيداً عن الحياة الاجتماعية حداداً عليه .

وخلف «جهانجير» ابنه «شاهجهان» الذى كان منفياً فى الدكن لجفوة وقعت بينه وبين أبيه، وعندما بلغه نعى والده بادر بالعودة إلى «آجرا» حيث اعتلى العرش هناك بعد أن خلا له الجو (١٥)، وقد تزوج «شاهجهان» من «ممتاز محل» التى أنجبت له أربعة من البنين هم: «اورنجزيب» «دارا شكواه» «مراد» و«شجاع» (١٦) وقد عمل «شاهجهان» على توطيد نفوذ الدولة فى الدكن، فتمكن من السيطرة على «أحمد نجر» و«بيجاپور» و«جولنده» (١٧) وقد كان حاكماً قديراً بلغت الدولة فى عهده أوج رقيها، وقد ترسم خطى جده وأبيه فى تدبير أمور الملك، واتسم بالحزم والعزم وكان لا يتردد فى إنزال العقاب الرادع بمن يراه يتراجى فى تحقيق العدالة (١٨).

وبعد «شاه جهان» عملاقاً بآثاره الفنية الرائعة ذات الذوق الفنى الرفيع فقد ازدانت الهند فى عهده بالمتنشات المعمارية الفخمة التى مازالت حتى اليوم، ومن هذه الآثار المسجد الجامع فى دهلى ومقبرة «تاج محل» فى «آجرا»، كما بنى القلعة الحمراء لسكناء، وقد سميت بهذا الاسم لأنه بنى سورها من الحجارة الحمراء (١٩).

وقد توفي «شاهجهان» عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م، لكنه فقد عرشه قبلها بسبب رغبته في إسناد ولاية عهده إلى ابنه الأكبر «دارا شكوه» ونشوب صراع كبير بين أبنائه الأربعة تمكن خلاله ثالثهم «اورنجزيب» من الانتصار على إخوته وتولى عرش الدولة المغولية، وكأنما سافته العناية الإلهية ليكون حاكماً فذاً ويصبح على امتداد التاريخ مثلاً طيباً، للملك المسلم الذي يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة. وقد حكم «اورنجزيب» عالم عالمجير، الهند من ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م وحتى ١٠٨٦هـ/١٧٠٧م، واستطاع خلال هذه الفترة أن يجمع ثورات وتمرد «المرهات»، وترتب على ذلك إنزال الخراب والدمار بأراضيهم وتوقف التجارة بها، وتعاقبت حروبهم لمدة ستة وعشرين عاماً وفي الجنوب استطاع كذلك أن يضم مملكتي «بيجابور وجولجند»، في الدكن^(٢٠) وبلغ الإسلام في عهده إلى أرجاء لم يصل إليها من قبل، وبذلك بسط المسلمون سيادتهم على شبه القارة الهندية برمتها، وقد عرف «اورنجزيب» بتمسكه الشديد بالإسلام والسنة وحبّه الشديد للبر، وتعمير المساجد كما كان مولعاً بالعلم، فألفت بإشرافه موسوعة هامة في الفقه الحنفي تعرف بـ «فتاوى عالمجير»،^(٢١).

وبوفاة «اورنجزيب» في عام ١٠٨٦هـ/١٧٠٧م إنتهى عصر المغول العظام، واتجهت الدولة نحو الضعف والانحيار، وبذلك بدأ عهد جديد من تاريخها، استمر رغم ذلك الضعف حتى عام ١٢٣٦هـ/١٨٥٧م.

ويؤخذ مما سبق ذكره أن دولة المغول قامت بفضل ملوك عظام لهم بصير بالسياسة، وقدرة على النظر في عواقب الأمور، وقوة يقهرون بها من يعاديهم وينازعهم في ملكهم، كما أنهم كانوا مصلحين يلقون بالأل إلى رضاء الرعية، ويقفون عند حدود الدين الحنيف في حكمهم، وكانوا كذلك يرعون جانب العلماء والأدباء، ومنهم من كان أديباً مرموق المنزلة وأقاموا العمارات التي مازالت آثارها ماثلة وبذلك يكون العصر الأول عهد خصب ورياء وعهد بناء لدولة استطاعت أن تمكن لنفسها في أراضى الهند الشاسعة ولهذا أطلق على هذا العصر الأول عصر القوة، ولكن دوام الحال من المحال فقد تلت هذه الحقبة من المجد والقوة، حقبة أخرى من الضعف والتدهور.

ب - عصر الانحلال :

اعتلى عرش الهند خلال الاثنى عشر عاماً التي أعقبت وفاة «اورنجزيب» خمسة ملوك، وقد احتدم الصراع على العرش، وانفصلت عن «دهلي» أهم أجزاء الدولة^(٢٢).

فما أن توفي «اورنجزيب» حتى أعلن ابنه «بهادر شاه» نبأ توليه العرش فحاربه أخواه مما اضطره إلى القضاء عليهما (٢٣).

وقد شهدت فترة حكم «بهادر شاه الأول» العديد من الحروب والثورات الداخلية التي قامت بها طوائف الهند المختلفة.

وبعد وفاة «بهادر شاه» في لاهور سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م نشب الصراع مرة أخرى بين أبنائه على تولي الحكم، والذي انتهى باعتلاء ابنه الأكبر «جهاندار» العرش في مارس من نفس العام (٢٤).

وكان «جهاندار» أول ملوك الأسرة المغولية الذي غلب عليه الميل إلى حياة اللهو والمجون، وأبعد ذوى الخبرة عن البلاط إلى أن حضر ابن أخيه «فرخ سير» من «بتنه» وقام بقتله.

وهنا نلاحظ كيف تفككت الأواصر بين ذوى القرى في الدولة المغولية. وهذا نذير ضعف وتدهور لاشك فيه قياساً بما كان من اتحاد بين أفراد هذه الأسرة في العصر الذى سميانه عصر القوة.

ودخل «فرخ سير» دهلى ملكاً في ١١٢٥هـ / ١٧١٣م، وقد أدى الانقسام بين رجال بلاطه إلى استعانة كل شخص بإحدى طوائف الهند، وحينما شعر «فرخ سير» بأن الزمام بدأ يقلت من يده حاول القضاء على نفوذ رجال البلاط، إلا أن أحدهم ويدعى «الشريف حسين» استطاع أسره في ربيع الأول ١٠٩٨هـ / ١٧١٩م ثم كانت وفاته في أبريل من نفس العام (٢٥).

واعتلى ابنه «شمس الدين رفيع الدرجات» العرش بعد «فرخ سير» إلا أنه كان معتل الصحة، فقضى مدة حكمه القصيرة وهى ستة أشهر على فراش المرض.

وخلفه «رفيع الدولة شاهجهان الثانى» تسلك طريق الاستسلام والخنوع، إلا أن الموت لم يمهل إلا ثلاثة أشهر فقط، ولا نعرف له إنجازاً يذكر، ومعلوم أن ملكاً هذا شأنه لا يرجى منه نفع ولا يتوقع منه سلوك يقوم الاعوجاج ويصلح الفساد لأنه كان سلبياً بمعنى الكلمة.

وخلفه ابنه «محمد شاه» وتولى الحكم مدة تسعة وعشرين عاماً (٢٦)، فى عهده تعرضت الهند لغزو «نادر شاه الأفشارى» وأحمد شاه الأبدالى (٢٧).

وبعد وفاة «محمد شاه» ١١٦٠هـ/١٧٤٨م خلفه على العرش ابنه «أحمد شاه» الذي حيكت حوله الدسائس والمؤامرات والخلافات، فعاش حياة مضطربة عاصفة، كما كانت عاقبته أليمة مفاجئة، فقد قبض عليه أحد القواد وسمل عينييه وأجلس مكانه على العرش «عالمجير الثاني» عام ١١٦٧هـ/١٧٥٤م وقد وقع «عالمجير الثاني» في قبضة «المراهتا» وفر ولى عهده «شاه عالم الثاني» إلى الشرق.

وبعد وفاة «عالمجير الثاني» وانتصار «الأبدالي» في حروبه ضد «المراهتا» أقام ابن «شاه عالم الثاني» وهو «جوان بخت» مكانه، وكان «شاه عالم» في البنغال حين ذلك.

وقد عاد «أحمد شاه» إلى أفغانستان بعد أن أبقى له قواداً ونواباً في دهلي، وتوفى في عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م، وظل «شاه عالم الثاني» بعيداً عن دهلي عدة سنوات، فكان ملكه نهياً للثورات والإغارة من كل الأنحاء، وعادت قوة «المراهتا» إلى الظهور على يد قائدهم «مادهوجي» الذي زحف على دهلي واستولى عليها، وأعاد «شاه عالم» وولاه السلطة وقد عينه «شاه عالم» أميراً للجيش كلها وأصبحت امبراطورية المغول في كفالهته (٢٨).

وكان «شاه عالم» يرغب في استرداد البنغال من الإنجليز (٢٩) بمساعدة الأمراء المسلمين، فدارت بينهم عدة حروب، انتهت بانتصار الإنجليز في «بكسر» سنة ١١٤٣هـ/١٧٦٤م، مما اضطره إلى أن يتنازل لهم عن البنغال وبيهار وأوريسه على أن يأخذ الخراج وقيمته مليونان وستمائة ألف روبية، ثم قام أحد القواد وهو «غلام قادر روهيلا» بالانتقام منه لأنه أسره وهو طفل وخصاه وقتل أسرته، فسمل عينييه مما أفقده كل كيانه كسلطان للهند.

وحين قضى «شاه عالم» نحبه عام ١٨٠٦م، خلفه ثاني أبنائه «أكبر شاه الثاني» ليقضى حياته في الدعة والخمول، مما شجع مدير الشركة الهندية «اللورد هستنجز» على أن تصدر أوامر شركته ونشراتها بدون أمر السلطان، ولم يكتف بذلك بل حرص «نواب أوده» على أن ينادى بنفسه سلطاناً للهند (٣٠).

وخلف «أكبر الثاني» ابنه «بهادر شاه الثاني» عام ١٨٣٣م ليعيش على الراتب الذي كان يجريه البريطانيون على أبيه.

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى التي يعرفها البريطانيون بثورة الجنود أو «العصيان» عام ١٨٥٧م، انتهت أيام «بهادر شاه» على عرش الهند، وطويت صفحة الامبراطورية المغولية امبراطورية أبناء وأحفاد «تيمورلنك» بالهند كلها.

ومن هنا نلاحظ بما لا يحتمل شكاً كيف دب الضعف فى الدولة المغولية، وكان مبعث هذا الضعف، هو ضعف ملوكها الذين لم يكن لهم حول ولا طول، وشتان بينهم وبين أسلافهم الذين أقاموا دولتهم على أساس مكين ووطدوا دعائمها بحزمهم وعزمهم.

أسباب انهيار دولة المغول فى الهند :

كان عهد «اورنجزيب» هو العصر الذهبى لدولة المغول بالهند، فقد كانت الهند فى عهده مزدهرة قوية ذات سيادة ترهب جانبها الدول المجاورة، لكن ذلك العهد لم يدم طويلاً فبمجرد وفاة «اورنجزيب» جنحت إمبراطورية المغول صوب الانهيار، وفقدت كثيراً من أملاكها وحيث استولى بعض قادة الجيش على الإمارات وأقاموا فيها دويلات واستغلت طوائف الهند المختلفة الفرصة أحسن استغلال وانقضت على كيان الدولة تنهشه من أجل مصالحها الخاصة، وبدأت الدولة فى الانهيار، وقد ساعدت عدة عوامل على هذا الأمر، مما عجل بسقوطها وأهم هذه العوامل هى :

أ. عوامل داخلية :

وقد تمثلت أهمها فى الصراعات بين طوائف الهند المختلفة والتي خرجت على حكومة المغول، رغبة فى النفوذ والسلطة، وهذه الطوائف هى :

١ - السييك (السيخ) :

كانت أول مرة تظهر فيها هذه الطائفة على مسرح الأحداث السياسية فى عهد «شاه عالم بهادر شاه الأول» ١٠٨٦هـ/ ١٧٠٧م إلى ١٠٩٠هـ/ ١٧١١م. وكانوا فى البداية جماعة صوفية؛ ولكن ما لبثت أن تحولت دعوتهم تحولاً تدريجياً من مجرد دعوة دينية صوفية إلى دعوة مسلحة، ومنذ عهد «بهادر شاه» دببت العداوة بينهم وبين المسلمين. وقد ظل العداء مستحكماً بين المسلمين والسييك على مر الأيام، وقد عانى منهم ملوك المغول طوال فترات حكمهم، فتارة تقضى عليهم الدولة وتكسر شوكتهم وتارة أخرى ينهضون ويتمردون عليها^(٣١).

٢ - المراهتا :

لقد ارتفعت راية المراهتا وزاد قدرهم فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى، وقاموا بآداء أهم الأدوار فى الهند فى تلك الفترة تحت قيادة قائدهم العظيم «شيواجى»^(٣٢) الذى انتهمز

فرصة انشغال «اورنجزيب» بأمر إخوته وصراهم على الملك، وأخذ يهجم على أماكن متعددة، وقد ظلت الدولة مشغولة بأمر «شيواجي» عدة سنوات حتى تم الصلح بينه وبينها. وقد كانت شوكة المراهنة تقوى حيناً وتتكسر حيناً آخر فقد كانوا قوماً محبين للقتل والتخريب ولا تكاد تسنح لهم الفرصة في الانقضاض على ملك المغول حتى ينتهزوها ويستغلونها أسوأ استغلال. وظلت دولة المغول تعاني منهم حتى سقوطها وانهارها.

٣ - الراجبوت :

بدأ ذكر هذه الطائفة منذ عهد الملك أكبر ٩٣٥هـ - ١٥٥٦م حتى ١١١٤هـ - ١٦٠٥م حيث ناوأته هذه الطائفة الدولة المغولية وأصبحت مصدر إزعاج لأكثر، وكانت سبباً أيضاً في القلق والاضطرابات في عهد «جهانجير» ٩٨٤هـ - ١٦٠٥م حتى ١٠٠٦هـ - ١٦٢٧م، وفي عهد اورنجزيب ١٠٨٦هـ - ١٧٠٧م تم فرض الجزية على الهنود من غير المسلمين من جديد بعد أن ظلوا يعفون من دفعها قرابة قرن ونصف القرن وقد أدى هذا إلى شدة غضبهم فسير الملك «اورنجزيب» حملة بقيادة ابنه الأكبر لغزو إمارتهم وضمها إلى أملاك الدولة (٣٣). واستطاع «اورنجزيب» في النهاية أن يقضي على قوة الراجبوت وبذلك قضى على مورد قوى من موارد القوى التي طالما ساندت الدولة في حروبها. وبدأ بناء الدولة يتصدع من جراء ذلك.

٤ - الجات والستاميون :

أدت السياسة التي انتهجها «اورنجزيب» عالمجير، في تدميره لمعابد الهنادكة وأماكنهم المقدسة وإقامته مساجد للمسلمين على أنقاضهم إلى تدميرهم. فثار الجات (الزط) ثورة عارمة عند «ماتيهوا» واستطاع زعيمهم «جكال» أن يقتل نائب السلطان في تلك المنطقة ويستولى على أراضي «سعد آباد» ورغم سقوط هذا الزعيم ومقتله إلا أن قومه راحوا يجنحون إلى التمرد والعصيان من آن إلى آخر حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب في بناء الدولة بعد عهد «اورنجزيب» وجاءت ثورة «الستاميين» على إثر ثورة «الجات». وكان السبب في ثورتهم هو اعتداء بعض الجند على طائفة منهم دون أي سبب، فزحفت جموعهم من «نارنول» عند «موات» تخرب ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب في المدن والقرى حتى بلغت مشارف دهلي، ولم يتأت للسلطان القضاء عليهم إلا بصعوبة (٣٤).

وقد كان تمرد هذه الطوائف وعصيانيها سبباً لإشاعة الفتن والثورات في البلاد مما أدى إلى تفككها وضعفها ثم انهيارها في النهاية.

ب - عوامل خارجية :

١ - الغزو الفارسي :

قام «نادر شاه الأفشاري» بغزو الهند في عهد الملك «محمد شاه» الذي تولى الحكم في ١٠٩٨ هـ/ ١٧١٩م وقد كان أسيراً لملذاته وشهوته، وكان جنوده على شاكلته .

وبعد أن تم «نادر شاه» فتح «أصفهان» أرسل عددًا من السفراء إلى «دهلي» طالبًا من «محمد شاه» أن يجدد علاقاته الطيبة معه ويحول دون غزوات الأفغان على الأراضي الهندية، إلا أن «محمد شاه» لم يستجب له، وفي آخر مرة قام باعتقال سفير «نادر شاه» في «دهلي» لمدة عام دون وجه حق (٣٥).

ومع بدايات عام ١٠٢٠ هـ/ ١٦٤١م علم «نادر شاه» بعدم عودة سفيره فغضب غضبًا شديدًا، وأرسل أوامره إلى «دهلي» لإعادة السفير إلى إيران على وجه السرعة إلا أن «محمد شاه» رد على رسائله دون اكتراث وتحرك صوب «جلال آباد» وبعد أن استولى على معابر شمال غرب الهند، دخل مقاطعة «البنجاب» في رمضان ثم تحرك صوب «دهلي»، وفي ١٥ من ذي القعدة ١٠٢٠ هـ/ ١٦٤١م تمكن «نادر شاه» بسهولة من هزيمة جيش «محمد شاه» وكان عدد القتلى من الهنود عشرين ألفًا، بينما كان عدد القتلى من جيش «نادر» اثنين وأربعين، والجرحى مائتين فقط، ويرجع ذلك إلى أن مقاتلي الهند كانوا يحاربون بالسهام والأقواس، وكان الإيرانيون يقاتلون بالبنادق (٣٦).

وبعد فترة قامت بعض الاضطرابات والفتن بين الأهالي قتلوا فيها بعض جنود «نادر شاه» الذي ما أن علم بمقتل سبعمائة شخص من أتباعه، حتى أصدر أوامره لأحد الأمراء

بإباحة القتل العام في دهلي، وفي النهاية ونزولاً على رغبة «محمد شاه، أمر «نادر شاه، بوقف المذابح والعفو عن بقية الأهالي» (٣٧).

ثم عاد «نادر شاه، إلى إيران، بعد أن ترك جسد الدولة المغولية مثخناً بالجراح وأسباب الضعف والانهيار تسيطر عليها.

٢. الغزو الأفغاني:

وقد قام به «أحمد شاه الأبدالي أو الدارني»، وقد غزا «أحمد شاه، الهند مرتين، وقام بتخريب دهلي أول مرة في يناير سنة ١٧٥٧م، حيث توجه من «كابل، إلى «البنجاب، في خريف سنة ١٧٥٦م، ووصل جزء من قواته إلى «لاهور، في ١٤ أكتوبر، واستولى عليها بعد إخراج الحاكم المغولي «آدينه بك»، ووصل «أحمد شاه، بنفسه إلى «لاهور في ٢ من ديسمبر ١٧٥٦م وقد عسكرت القوات الإبدالية بالقرب من «سرهند، في (١٠ من يناير ١٧٥٧م، وبعد يومين توجهت مقدمة الجيش الإبدالي بقيادة «جهان خان، إلى «باني بت،» (٣٨).

في هذا الوقت كانت دهلي تحت حكم «عالم جير الثاني، من سنة ١٧٥٤م إلى ١٧٥٩م، لكن السلطة الحقيقية المطلقة كانت للوزير «عماد الملك، وعلاوة على ذلك كان «شجاع الدولة، يحكم في «اوده»، ونجيب الدولة في «الدوآب، و«سورج مل جات، يحكم من «على كره، إلى «بهرت بور، حكماً مستقلاً. وبالرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا تابعين لدولة المغول، لكنهم يحكمون حكماً مطلقاً في مناطقهم بالإضافة إلى أن القوة المراهتية كانت في أوجها في الدكن. وفي دهلي كان الملك المغولي العوبة في يد المراهتا، وعندما سمع عماد الملك أن قوات «أحمد شاه الإبدالي، قد وصلت إلى «باني بت، خاف وطلب العون من «نجيب الدولة، الذي طلب مقابلاً لإرسال قواته لمساعدة «عماد الملك، إلا أنه لم يستطع أن يؤديه (٣٩) له فطلب عماد الملك المدد والعون من «سورج مل جات، لكن «سورج مل جات، أيضاً لم يعده بالمساعدة، لأنه قبل أربع سنوات في ١٧٥٣م عندما تحارب «صغدر جنك، ضد الملك المغولي أحمد شاه في دهلي ساعد «سورج مل، «صغدر جنك». ومنذ ذلك الحين وعماد الملك يتعقب «سورج مل، إلا أن الأحوال قد تغيرت بحيث إن عماد الملك الذي كان يتعقب «سورج مل، بدأ يطلب منه المدد والعون، وعندما يئس عماد الملك من «سورج مل، طلب المساعدة من «شجاع الدولة، لكنه يئس منه أيضاً. وكلما بدأ خبر تقدم القوات الإبدالية

إلى دهلي ينتشر أخذ صاحبو الاعتبار والحيثية في التقهقر من العاصمة، وخاف عماد الملك، فطلب من القائد المراهتي «أنتاجي منكيشور» أن يأتي من «جواليار» إلى «دهلي» بقواته ليمنع الفارين. فبدأ المراهتيون في الاستيلاء على أمتعة الفارين وإعادتهم إلى دهلي، وبالرغم من ذلك وصل عدد كبير من الناس إلى «متهرا» والمناطق المحيطة بها^(٤٠). وفي أثناء ذلك كان عماد الملك يتفاوض مع أحمد شاه إبدالي من أجل الصلح، وقدم أيضاً هدية قدرها مائتي ألف روبية. لكن سفير أحمد شاه إبدالي ذهب برسالة إلى عماد الملك مضمونها أنه لا يقبل أقل من مليوني روبية، وطلب الإبدالي أيضاً أن يتزوج بنت الملك المغولي «عالمجير الثاني»، وقبل قبول هذه الشروط لن يرجع عن «باني بت».

وعندما سمع سكان دهلي هذه الشروط زاد عدد الفارين من هناك، وأخيراً وفي ١٩ من يناير ١٧٥٧م وصل «عماد الملك» بنفسه إلى الإبدالي ليتفاوض معه، لكن الملك الأفغاني قبض عليه وعين حليفه السابق «انتظام الدولة» وزيراً لسلطنة المغول، ودخلت مقدمة الجيش الأفغاني في ٢١ من يناير إلى دهلي عابرة نهر «جمنا». وبعد يومين وصل أحمد شاه إبدالي بنفسه بالقرب من دهلي «وزير آباد» وأمسكت قواته بزمام الأمور بالقلعة بعد دخولها «شاه جهان آباد». ونقل «عالمجير الثاني» وأفراد أسرته الملكية من قصورهم إلى القلعة، ودخل «عالمجير الثاني» مع بقية أمرائه في ٢٦ من يناير على أحمد شاه إبدالي^(٤١).

وبعد يومين وفي ٢٨ من يناير ١٧٥٧م توجه أحمد شاه إبدالي راكباً كفاتح إلى القلعة الحمراء وذهب «عالمجير الثاني» إلى مسجد فتح بوري «لاستقبال الإبدالي وذهب به إلى القلعة الحمراء وطلب أحمد شاه إبدالي بعد دخوله القلعة من الوزير الجديد انتظام الدولة مليوني روبية وعندما عجز انتظام الدولة عن الوفاء بهذا المبلغ بدأت القوات الإبدالية في نهب أموال دهلي بطريقة منتظمة حيث قسمت المدينة إلى العديد من الأجزاء، وفرضت الغرامات على كل بيت في المنطقة، وعينت القوات لجمع هذه الغرامات، وقد استمرت أعمال السلب والنهب طوال شهر فبراير^(٤٢).

وتوجه «تيمور شاه» ابن أحمد شاه الإبدالي الذي تزوج بنت «عالمجير الثاني» إلى أفغانستان مع هذه الأموال. وقبل مغادرة دهلي عزل الإبدالي «انتظام الدولة» من الوزارة وعين مكانه «عماد الملك» مرة ثانية، لكن السلطة الفعلية لدولة المغول كانت لنجيب الدولة الذي عين قائداً أعظم.

وعندما غادر الإبدالى دهللى فى ٢١ من فبرابر ١٧٥٧م اتجه بعض سكان العاصمة إلى منطقة «سورج مل جات، فراراً من دهللى، ومن ناحية أخرى كان صبت الأموال الهائلة لسورج مل قد وصل إلى اقصى الأماكن. ولعل هذا هو السبب الذى جعل أحمد شاه الإبدالى بعد ذلك ينهب مناطق أملاك «سورج مل، فتعرضت «متهرا بلب كره، و «رندابن، و «كركل، لعدة حملات إبدالية الواحدة تلو الأخرى.

ورجع أحمد شاه إبدالى إلى الهند بعد النهب والسلب فى مناطق الجات ومعه غنائم كثيرة قدرت ما بين ثلاثة إلى اثنى عشر مليون روبية^(٤٣).

وفى ٢٤ من ديسمبر ١٧٥٩م وقعت الحرب الأولى بين الإبداليين والمراهتیین بالقرب من «تهانسیر، وقد هزم فیها المراهتیون هزيمة نكراء، وتقدم أحمد شاه إبدالى إلى دهللى. ووقعت المعركة الثانية بين الإبداليين والمراهتیین بالقرب من دهللى فى ٩ من يناير ١٧٦٠م وقتل فیها القائد المراهتى، وتشتت القوات المراهتية.

ورغم هزيمة المراهتیین المرة تلو الأخرى على يد الإبدالى فقد أبوا أن يستسلموا ببساطة وتقدم القائد المراهتى «سراشيو بهاء، مع قوات ضخمة إلى الشمال فهاجمت هذه القوات فى ٢٢ من يوليو ١٧٦٠م دهللى فتواجهت القوات الإبدالية والقوات المراهتية فى ميدان «بانى بت، فى ٢٥ من أكتوبر ١٧٦٠م وحتى ١٤ يناير ١٧٦١م^(٤٤).

وأثناء ذلك سارعت القوات المراهتية بطلب الصلح إلا أن أحمد شاه الإبدالى رفض عرضهم، وأخيراً وقع القتال بين الإبداليين والمراهتیین فى ١٤ من يناير ١٧٦١م هزم فیها المراهتیون هزيمة ساحقة وقتل أهم قوادهم وفر باقى القواد من أرض المعركة خوفاً على حياتهم وقام أهل قرية (بانى بت) بنهب المراهتیین. وقد دخل أحمد شاه الإبدالى إلى القلعة الحمراء فى دهللى كفاتح مرة أخرى. وأقام هناك حتى العشرين من مارس ١٧٦١م، وفى تلك الفترة أعملت قواته السلب والنهب فى المدينة وقتل الكثير من أهالى دهللى، وعین أحمد شاه الإبدالى قبیل مغادرته عماد الملك مرة أخرى وزيراً لسلطنة المغول كذلك قام بتعيين نجيب الدولة فى وظيفة القائد العام للجيش ووظيفة «میر بخش، وفى ذلك الوقت كان عماد الملك عند «سورج مل جات، وقبل عودته إلى دهللى أمسك نجيب الدولة بزمام الأمور كلها فى يده وظل فى الحكم بمفرده منذ ذلك الحین تقريباً وحتى وفاته فى ٣١ من أكتوبر

١٧٧٠م واضطر عماد الملك، أن يمد يد الحاجة والعون إلى «سورج مل جات»، لكن الثانى لم يقدم له من العون ما يذكر^(٤٥).

وهكذا نجد أن أحمد شاه الإبدالى دخل أول مرة دهلى فى يناير ١٧٥٧م كفاتح وبعد أربع سنوات بالضبط وفى يناير ١٧٦١م فتح دهلى مرة ثانية ودخل القلعة الحمراء وقد تعرض أهل دهلى فى هذا العهد لشتى أنواع المصائب على يد ذبيهم من الطوائف الأخرى وكذلك على يد الغرباء فهاجروا فارين بحياتهم وقد أجهز «سورج مل جات»، على ما تبقى من جراء هجمة الإبدالين بعد عودتهم إلى بلادهم، واستمرت هذه المصائب والمشاق غير المتناهية حتى وفاة سورج مل ١٧٦٣م^(٤٦).

أما عن الغزو الأفغانى الثانى الذى قام به أحمد شاه الإبدالى فسوف أتناوله بالتفصيل فى الفصل الخاص بحياة المؤلف ميرأمن الدهلوى، حيث كان لهذا الحدث تأثير مباشر على أحداث حياته.

ثانياً: الحالة الاجتماعية إبان حكم المغول :

إن ما كتبه «بابر» فى كتابه «توزك بابرى»، عما شعر به تجاه أهل شبه القارة الهندية يدل على أن الناس كانوا لا يعرفون الطريقة المثلى لإدارة الحديث، وليس لديهم بروتوكول خاص فى إدارة حياتهم الاجتماعية.

ولا يمكن أن نذكر إلى أى حد صدق «بابر» فيما كتب، لكن الحقيقة أنه بعد مجيء المغول إلى شبه القارة الهندية حدث اهتمام شديد بمثل هذه الأمور فتعارف الأمراء والناس كذلك على الألقاب الملكية وكذا آدابها.

ولقد كان كل سلاطين المغول وأمراءهم وأميرائهم يرعون العلم والأدب والفن والموسيقى، وكان بلاطهم فى أبهى جماله وهيبته ووقاره وأعمالهم العمرانية والعلمية العظيمة فى ذلك الوقت دليلاً على رقى المجتمع ورفاهيته فى عهدهم^(٤٧).

فلقد كان المجتمع من الناحية العلمية مقسماً على عدة طبقات، فالطبقة العليا خاصة بالسلطان والأمراء والأميرات وحرمة السلطان وما إلى ذلك، أما الطبقة الثانية ففيها «الراجوات»، والوزراء، وكان السلاطين يختارون الوزراء بأنفسهم طبقاً لشجاعتهم ومواهبهم.

أما الطبقة الثالثة فهي التي كانت تشمل التجار والصناع والأساتذة والأطباء والفنانين والمعماريين وغيرهم، أما الطبقة الرابعة فتشمل الفلاحين وفيها العمال والعبيد أيضاً.

وكان على رأس المجتمع الملك المغولي، وكان الأمراء والعوام على السواء ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير. وكان الواجب على السلطان أن يرعاهم ويعمل على رفاهيتهم، وقد عملت الغالبية العظمى من السلاطين المغول على تنفيذ ذلك وقاموا بأعمال عظيمة كثيرة كانت في غاية الضرورة في ذلك الوقت (٤٨).

ولقد كان السلطان وباقي أفراد الطبقة العليا من المهتمين بالعلوم والفنون والموسيقى؛ فكان بلاط السلطان يزخر بهؤلاء جميعاً، كما كان السياح الأجانب والسفراء يحضرون إلى البلاط كذلك، وكان البلاط المغولي يتميز بقمة الهيبة والوقار كما كان مزيناً ومزخرفاً بشكل جميل. وقد جعل «شاهجهان» عرش الطاووس زينة للبلاط، كما كانت الأصول والآداب الملكية تراعى بصرامة، كما كان يوجد ميل كبير للتمدن والنظام، وقد أثرت حياة القصور على المجتمع بشكل طيب (٤٩).

وقد ذكر السائح الأسباني «منريف» المجتمع المغولي قائلاً لقد أذهلني أن أرى هذا التمدن وهذا النظام.

وقد مدح السائح الألماني «مينت سلو» الذي كان قد حضر إلى الهند في عهد شاهجهان العادات والتقاليد والآداب والرسوم المهيبة الموجودة في شبه القارة (٥٠).

أما حياة الطبقة المتوسطة فكانت تقوم على الاعتدال وكان أسعد الناس حالاً في هذه الطبقة هم التجار وذلك نتيجة رواج التجارة المحلية والعالمية إلا أنهم لم يظهروا تلك الرفاهية حتى لا يبتزهم بعض الموظفين المرتشين (٥١).

وكان العوام مطمئنين ويعيشون حياة هادئة، وكان أكثر الفلاحين من الهنادكة ونتيجة لكثرة الأراضي عاش الفلاحون عيشة ميسورة وكانت الضرائب ترفع عن كاهلهم في حالة خراب المحاصيل، وفي أيام المجاعات كان السلطان يساعدهم بأقصى ما يستطيع. وقد حدث في عهد السلطان «شاهجهان» قحط في عام ١٦٣٢م فساعد «شاهجهان» العوام كثيراً وعمل على تأمينهم من الضياع وأمد الفلاحين بكل ما يحتاجون (٥٢).

العلاقات بين الهنادكة والمسلمين:

لقد كان أكثر سلاطين المغول يتميزون بسعة الصدر وقد عمل «أكبر» على نحو التعصب الدينى بين الهنادكة والمسلمين وعلى إقامة علاقات طيبة بين الطائفتين وبالفعل نجح فى هذا فقد كان الهنادكة يقدسون مشايخ المسلمين وأضرحتهم، كما اطلع المسلمون على الكتب السنسكريتية وكان «داراشكواه» من بين هؤلاء العلماء. وكتب الشعراء المسلمون شعراً جميلاً فى الهندية، وقد ارتدى الهنادكة ملابس المسلمين واستفادوا من حضارتهم وأجادوا اللغة الفارسية وتبوأوا أعلى المناصب^(٥٣).

أسلوب حياة المسلمين:

لقد تمسك المسلمون فى الهند بالحضارة الإسلامية وعملوا على ازدهارها وتقدمها، وقد أثرت أساليب الحياة فى وسط آسيا وإيران على شبه القارة بشكل واضح، وقد تمثل ذلك فى الأدب والعمارة، وقد كان للأساتذة الإيرانيين وعلمائهم وأطبائهم مكانة كبيرة فى المجتمع الهندى، وكان لباس الرجال بوجه عام هو السروال والقميص والعمامة، أما النساء فكان السروال والقميص وغطاء الرأس كما كان المجتمع يهتم بالحلى اهتماماً كبيراً، كما كانوا يحتفلون بالأعياد بشكل كبير ويشاركون فى الأعياد الهندية الأخرى وفى التنزه والرحلات كان الصيد أهم ما يشغلهم^(٥٤).

مكانة النساء:

كان للمرأة أهمية كبيرة فى المجتمع المسلم، وقد شاركت نساء الطبقة العليا فى الأدب والسياسة فكتبت كلبدن بيكم «همايون نامه»، وكانت «جهان دار» مؤلفة من الدرجة الأولى كما كانت تقرر الشعر، وكان لـ «نورجهان» أثر وسيطرة كبيرة على «جهانجير» وظلت تسيطر على زمام الأمور فترة كبيرة. كما كانت «ممتاز محل» زوجة «شاهجهان» الأثيرة متعلمة ومحبة للعلم وقد بنى «تاج محل» تذكيراً لها^(٥٥).

ومع هذا لم يكن للمرأة الهندوسية مكانة تذكر فى المجتمع وكانت فى حالة يرثى لها، فقد انتشرت عندهم عادة «الساتى» التى تحرق فيها المرأة حية بعد وفاة زوجها، ولم يكن يسمح للأرامل بالزواج مرة أخرى^(٥٦).

وكان الحجاب سائداً بين المسلمين في المجتمع الهندي، بل كانت الهندوسيات يتحجبن أيضاً عن الأجانب من الرجال، وكان نظام الحريم يسود البلاط في ذلك الوقت، وكان في حرمك أكبر، أكثر من خمسة آلاف امرأة، وكان الحرمك يضم الكثير من الفيان والراقصات^(٥٧).

وقد ظهر لدى ملوك المغول في عهدهم الأخير بعض المظاهر التي صارت فيما بعد أساساً من أسس الحياة الاجتماعية، مثال ذلك إعطاء أهمية كبيرة للاحتفالات والطقوس بمختلف أنواعها وخاصة طقوس الزواج التي اهتم بها «بهادر شاه» اهتماماً كبيراً فكان يحضر كثيراً من حفلات العرس بنفسه^(٥٨)، وكانت القصور الملكية تنتقل من احتفال إلى آخر، فهناك الاحتفالات الخاصة بالأعياد والمناسبات الدينية عامة إلى جانب الاحتفالات الخاصة بكل من الشيعة والهنداكة، ثم الاحتفالات بقدوم الربيع والمناسبات الخاصة بالقصر حيث كان الناس يجتمعون خارج القلعة في زحام شديد للمشاركة في هذه البهجة حتى صارت هذه الاحتفالات جزءاً من تقاليد الشعب وعاداته^(٥٩).

ثالثاً: الحالة الثقافية إبان حكم المغول:

لم يكن سلاطين الدولة المغولية في الهند رعاة للحركة الفكرية وحماة للعلوم والآداب فحسب؛ بل كان منهم من شارك بقلمه فيها فقد ترك لنا «بابر» وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر ضمنت له الشهرة إلى جانب مهارته العسكرية وتتمثل في كتاب «بابرنامه» وهو عبارة عن سيرته الذاتية وما خاضه من حروب ومعارك. كما وصف الهند وأراضيها وحدائقها وثرواتها، هذا بالإضافة إلى ما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركي كثير كان ينشده في مناسباته المختلفة فقد ترك ديواناً بالتركية^(٦٠) وأشعاراً أخرى كثيرة بالفارسية، وسيرته تلك المعروفة باسم «بابرنامه» أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق. وهو كتاب نثرى تقليدي بالتركية، وقد كتبه بنفسه في لغة تركية جفتائية سهلة، وأسلوبه يدل على ذوق أدبي رفيع كما يدل على تمكنه من أصول الثقافة الإسلامية والآداب العربية والفارسية تمكناً تاماً، وقد تم نقل هذه السيرة إلى اللغة الفارسية في عهد حفيده «أكبر» في أواخر القرن العاشر الهجري، كما تم نقلها إلى بعض اللغات الأوربية في العصر الحديث^(٦١).

وقد راجت اللغة الفارسية وآدابها في عصر «بابر» الذي اجتهد في تشجيع الشراء والأدباء الفرس، كما استضافهم في بلاطه، وقد سلك أتباعه نفس السلوك، ونتيجة لهذا التشجيع فقد هاجر كثير من شعراء الفرس إلى الهند وعملوا في بلاط ملوك المغول^(٦٢).

وقد حفل بلاط «بابر» بالشعراء الذين رافقوه من «كابل»، وعملوا ببلاطه في الهند ومنهم «مولانا شهاب الدين» و«زين الدين خافي»، «أبو المجد فارغى»، «محمد ساريان مريد» (٦٣).

والى جانب ازدهار الحرف والصنائع والزراعة والتجارة والعلوم والفنون في عهد «بابر» فقد ازدهر أيضاً فن تزيين الكتب وفن الخط، كما كان «بابر» نفسه خطاطاً وقد تتلمذ على يد «مير على تبريزي» كما تم ابتكار خط جديد عرف بالخط البابري، وقد اشتهر هذا الخط في عهد «همايون»، وكان كاتبه هو «مير عبدالحى المشهدى الأكبر آبادى» (٦٤).

وكان نسل «بابر» كلهم «بارعين» في فن الخط ومنهم بعض الأميرات مثل «جلدين بيجم» ابنة «بابر» و«جهان دار» و«نورجهان زيب النساء» وغيرهن من الأميرات.

ومن العلماء الأفاضل أيضاً والأدباء الممتازين «غياث الدين محمد خواندمير» المؤرخ الفارسي المشهور صاحب كتاب «حبيب السير» وكتاب «خلاصة الأخبار» وغيرها من الكتب المشهورة، و«مير إبراهيم» أحد أبناء مدينة «هراة» وعازف القانون الماهر.

ومن بين العلماء المقربين إلى «بابر» رائده الخاص الشيخ «مازى»، والشيخ «زين خافي»، مترجم كتاب «واقعات بابري»، و«مولانا «باقى»، وهو أحد كبار علماء عصره (٦٥).

وإذا كان «بابر» قد وضع حجر الأساس للرفق والحضارة فقد أكمل «همايون» المسيرة من بعده، فقد كان مشجعاً للأدباء والفنانين مهتماً بإنشاء المكتبات بالإضافة لكونه عالماً في الجغرافيا والفلك، وعندما فر من الهند إلى إيران ونزل في ضيافة الشاه «طهماسب الأول»، وبمعاونته عاد إلى حكم الهند، وقد اصطحب معه العديد من الأدباء والشعراء الفرس الذين لا قوا كل العناية والرعاية مثل «مولانا «قاسم كاهى سمرقندى» (أكر ٩٨٨هـ) و«خواندمير» الذى جاء إلى الهند ٩٣٤ هـ وكتب في عهد «همايون» كتاب «قانون همايوني»، و«لافى الحماية» والرعاية من «همايون» مثلما وجدها من «بابر»، وكان «همايون» نفسه شاعراً، وقد طبع ديوانه في ٩٥٦ م في «حيدر آباد الدكن».

وكان «ميرزا كامران» من إخوة «همايون» ينظم أشعر بالفارسية وقد طبع ديوانه في «كلكتا»، ومن الأمراء الذين اهتموا بالآداب في عصر «همايون» «بيرم خان خانان» (٩٦٨هـ) الذى رافق «همايون» أثناء سفره إلى إيران وكان متمكناً من الفارسية وله ديوان فيها (٦٦).

ومن علماء الخط المشهورين فى عهد همايون «خواجه سلطان على، الذى تلقب بـ «أفضل خان، فى عهد «أكبر» (٦٧).

وهكذا فإن همايون لم يكن أقل من أبيه شغفاً بالمعرفة وقد حوت مكتبته فى دهلى الكثير من المؤلفات القيمة، وكان شغوفاً بالفلك والرياضيات والنجوم إلى جانب كونه أدبياً متمكناً.

وعلى الرغم من أن «أكبر» كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب إلا أنه كان مهتماً بالعلم والعلماء وفى عهده بدأت اللغة الأردية تخرج إلى النور، وشهد مجلسه المناظرات والمحاورات الدينية والفلسفية والتاريخية، كما ازدهرت فى عهده حركة التأليف والترجمة ولقيت الفنون ولاسيما فن التصوير أكبر رعاية، على العكس من أسلافه الذين شغلوا بالحروب.

وفى الحقيقة فإن الهند لم تعرف قبل «أكبر» ملكاً مثله اجتمع حوله هذا الكم من رجال العلم والأدب (٦٨).

ومن الممكن اعتبار عهد الملك «أكبر» هو العهد الذهبى للأدب الفارسى فى الهند فقد كان بلاطه ملجأ الفضلاء ومأمن الشعراء والأدباء، فقد توجه إلى بلاطه آلاف الشعراء من أقاصى الأرض فكانوا يحظون برعايته وعنايته (٦٩).

وقد جمع «أكبر» مكتبة ضخمة ضمت أربعاً وعشرين ألف مخطوطة نسخها له العديد من الخطاطين وزينها له الفنانون، وكان «أكبر» ينصت لساعات طويلة لمن يقرأ له هذه الكتب والمخطوطات.

وهكذا بلغ درجة رفيعه من الثقافة والعلم رغم كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب. ولم يكن من الغربى وهذه هى روح «أكبر» العلمية أن تنشط فى عهده حركة التأليف والترجمة والتأريخ، وقد عنى المؤرخون الذين أرخوا له بذكر العلماء والأدباء الذين زخر بهم بلاط «أكبر» وقد ذكر صاحب «طبقات أكبرى» (٧٠) بعض هؤلاء العلماء ومنهم على سبيل المثال:

«ملا عبدالقادر بديرانى، «ملا غزالى مشهدى، «ملا قاسم كاهى، «خواجه حسين مروى، «الشيخ أبو الفيض فيضى، «مير فتح الله الشيرازى، الشيخ أبو الفضل، «الشيخ بهاء الدين، «مير عبداللطيف القزوينى،، هذا بالإضافة إلى أن العلوم الإسلامية بدأت تنتشر فى عهد «أكبر» على نطاق واسع فى كل أنحاء الهند، فقد أصبحت مدن «جونبور» «دهلى» «لاهور»

«سيالكوت»، و«أحمد آباد»، وغيرها من المدن مراكز وقواعد لانتشار العلوم الإسلامية لذلك العهد.

كما تغيرت طرق التدريس في عهد «أكبر»، ففي عهد الدولة الخلجية وآل طغلق كانت المؤلفات قليلة في العلوم والفنون، حيث كانت الأهمية في المقام الأول للتأليف في الفقه وأصوله، ونجد في عهد اللودهيين بعض الكتب في العلوم العقلية وهذا يرجع إلى قدوم بعض العلماء والأدباء من إيران وسمرقند حيث كانت الفلسفة والمنطق يلتقيان فيها رواجاً، ومن بين هؤلاء العلماء «شاه فتح الله الشيرازي» (م ٢٤ - م ١) والذي كون حلقة علمية أفاد منها كثير من الناس (٧١).

وقد تميز عهد «أكبر» بكثرة المؤرخين والمؤلفات التاريخية التي أرخت لحياته، وللأحداث التي مرت بالهند في عصره، ومن هؤلاء المؤرخين «ملا عبدالقادر بديواني» مصنف «منتخب التواريخ»، والعلامة «أبو الفضل» مصنف «آئين اكبرى»، و«أكبرنامه». وترجع أهمية «أكبرنامه» إلى أنها عمل رائد في تسجيل وقائع ذلك العصر، وقد ألف على غرارها «جهانجيرنامه»، و«شاهجهان نامه»، و«عالمجيرنامه»، وغيره (٧٢).

وإذا كان عصر «أكبر» هو العصر الذهبي للأدب والثقافة فقد تميز عصر الملك «جهانجير» بكثرة العلماء ورجال الدين الذين انتشروا في كل أنحاء الهند.

وكان في الهند في ذلك الوقت ستة مراكز للعلوم الإسلامية أحدها في «دهلي»، والآخر في «البنجاب»، والثالث في المشرق (جونبور، إله آباد، لكهنو)، والرابع في «الكجرات»، والخامس في «السند»، والسادس في «برهانپور».

ومن العلماء المعروفين في ذلك العصر «ملا عبدالحكيم سيالكوتي»، وقد ذاعت شهرته العلمية خاصة في عهد «شاهجهان»، وفي عهد «أكبر». عندما أسس مدرسة جعله مشرفاً عليها فقام هو والشاعر المشهور «قدس»، بالتدريس فيها. ومن مؤلفاته «رسالة الدرة الثمينة»، وباقي مؤلفاته شرح وحواشي لهذه الرسالة (٧٣).

ومن علماء ذلك العصر أيضاً (ملا محمود جونپوري) الذي حقق شهرته في العلوم العقلية وله في علم الحكمة، كتاب «الشمس البازغة»، وفرائض في شرح الفوائد، وهو في علم

البلاغة^(٧٤)، والعالم الشيخ وجيه الدين أحمد آبادي، وغيره من العلماء والمشايع الذين كانوا في بلاط جهانجير.

وكان جهانجير مبعلاً للدين وتعاليمه وعلمائه وشيوخه، كما كان مولعاً بكتابة يومياته التي سميت «توزك جهانجيرى»، ويتمثل فيها أدبه وبراعته في الكتابة حيث كان أديباً وشاعراً. وقد ألف كتاباً بالفارسية ضمنه نصائحه لأبنائه ويسمى «بندنامه»، كما أنه أمر بترجمة القرآن إلى الفارسية^(٧٥).

أما عهد «شاهجهان»، فقد كان عهد رواج للغة الأردية حيث اتخذها لغة رسمية وعمل على نشرها بوسائل مختلفة حتى أنه أنشأ سوقاً للرجال وآخر للنساء فرض فيه التحدث والتخاطب بالأردية حتى تنمو وتزدهر.

وعهد «شاهجهان»، من الفترات المزدهرة علمياً وثقافياً في تاريخ الامبراطورية المغولية. وقد خصص محمد صالح كنبوه الجزء الثالث من كتاب «شاهجهان نامه» لذكر مشايخ عصر شاهجهان والعلماء والأطباء والشعراء المعروفين في عهده.

ومن مشايخ ذلك العصر الذين حققوا شهرة واسعة الشيخ «سيد محمد بخارى رضوى»، والشيخ «كامل حضرت ميانمير». ومن أشهر الخطاطين «عبدالحق الشيرازى»، «مير محمد صالح تبريزى»، «محمد عارف ياقوت»، «رقم خان مولانا عصمت الله»، «كلوخان»^(٧٦).

وكان عهد «اورنجزيب» من العهود المزدهرة علمياً كذلك وهذا يرجع إلى أنه كان أديباً ومحباً للعلم والعلماء، وكثرت في عهده المدارس والمساجد.

ولقد اعتنى بالثقافة والآداب الإسلامية وعمل على تدوين الأحكام الشرعية والعمل بموجبها، وقد وضع بنفسه كتاباً في علم الحديث جمع فيه أربعين حديثاً وقام بشرحه بالفارسية^(٧٧).

ومن العلماء المعروفين في عصره «شمس الدين على خان جواهر رقم»، «هدايت الله خان زرین رقم»، «مير محمد باقر»، «ميرزا جعفر»، «ميان لعل خان»، «محمد زاهر مير»، «محمد كاظم»^(٧٨).

وكان عهد «اورنجزيب» هو آخر العهود المزدهرة في دولة المغول، وتلاه ملوك ضعاف لم يتركوا أثراً يذكر، وذلك نتيجة لتفكك الدولة وانهارها وعدم توفر الأمان والاستقرار بها.

هوامش الفصل الأول

- (١) ميرامن دهلوى : باغ وبهار مقدمة رشيد حسن خان، ط٤ ، نيودلهى ١٩٩٤م، ص ١٦ .
- (٢) ذكر ميرامن، اسم هذا الملك فى البداية على أنه «أحمد شاه درانى، وهو يلقب باللقبين درانى وليدالى .
- (٣) رشيد حسن خان : مقدمة باغ وبهار، ص ٩ .
- (٤) كلبدين بيكم : همايون نامه، ترجمة رشيد اخترندوى، ط٤ ، لاهور ١٩٧٩، ص ١٤٩ .
- (٥) Sri Ram Sharma "The Religious Policy of the Mughal Emperors. Asia Publishing House. (٥)
Second Edition 1962, p.9.
- (٦) Han, Mountsuart Elphinston, History of India, The Hindu and Mahmetan Periods, Third (٦)
Edition, London 1849, p.381.
- (٧) عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة ١٩٥٨م، ص ١٨٢ .
- (٨) الشاه طهماسب هو ثانى ملوك الدولة الصفوية فى إيران ولد عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣م وحكم من سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م وحتى وفاته سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٦م (زندكائى شاه عباس أول. مجلد أول. تأليف نصر الله فلسفى. جاب أول. تهران ١١٣٣ هـ. ش. ص ٦ .
- (٩) لا توجد معلومات كافية عن تلك المقبرة سوى أن همايون بناها بنفسه، لكن فى عهد ابنه الأكبر بلى بناء عظيما فوق قبر والده يعد اليوم من أقدم الآثار الفنية التى تركها المغول والتى تعتز بها الهند الآن وقد بلى (أكبر) هذا البناء سنة ٩٧٣ هـ - ١٥٦٥ م.
- (١٠) مجلة ثقافة الهند، عدد يونيو ١٩٥٥ .
- (١١) Howorth H. History of the Monguls, 3 VVols. London, 1846, pp. 180-186. (١٠)
- (١٢) عادل زعيتر (مترجم) : حضارات الهند، تأليف جوستاف لويون ، ط١ ، القاهرة ١٩٤٨، ص ٤٢٤ .
- (١٣) W.H. Morland, C.S.I., C.I.E., and Atul Chandra Chatterjee A short of India. Second Edi-
tion, 1944. pp. 223-227.
- (١٤) Elphinstone, Op. Cit, p.467-469. (١٣)
- (١٥) عجاج نويهض (مترجم) : حاضن العالم، لوثررب ستودارد ، مجلد ٣، القاهرة ١٣٥٢ هـ، ص ٣٠٩ .
- (١٦) محمد عبد المجيد العبد : الإسلام والدول الإسلامية فى الهند ، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٩٨، ٩٩ .

- (۱۶) Burn, R. Cambridge History of India. 1992-29 Cambridge, p.330.
- (۱۷) ۵. بیر نیر : شاهجهان آیام اسیری اور عهد اورنجزیب تک : ت خلیفہ سید محمد حسین . کراچی . ۲۰ ، ۱۹۶۷ م ، ص ۴۲ و ۴۵ .
- (۱۷) العبد : الإسلام والدول الإسلامية فی الهند ، ص ۲۱۳ .
- (۱۸) Prasad Ishwari, A short history of Muslem Rule in India Allahabad 1933. p. 541, 543 .
- (۱۹) Mediaval India under Mohammedan Rule (A.D. 712-1764 By: Stanley Lane Poole. M.A., Litt. D London : Adelphi Terrace Fourteenth Edition, 1925, p. 333-334 .
- (۲۰) Duff, Grant. History of the Mahrattas, Vol. 1, 1952, p. 175.
- (۲۱) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ج ۲ ، القاهرة ، دار المعارف ، ۱۹۷۲ م ، ص ۶۴۳ .
- Georg Dunbar, Bt, A history of India from earliest times to the present day. London, (۲۲) 1936, p. 289.
- Ibid, p.259. (۲۳)
- Elpinston, Op. Cit, p. 201. (۲۴)
- Duff, Op., Cit., p. 339. (۲۵)
- (۲۶) العبد : الدول الإسلامية فی الهند ، ص ۱۹۱ .
- (۲۷) سیرد ذکر هذا الفوز عند الحديث عن عوامل إنهيار الدولة .
- (۲۸) حاضر العالم الإسلامي : ج ۴ ، ص ۳۱۲ .
- (۲۹) بدأ المتنافسون الغربيون مرحلة التسابق على السيطرة على الهند ، والصراع فيما بينهم على احتلال أراضيها بعد وفاة اورنجزیب ، كما بدأت الجيوش الأوروبية تستخدم أهل الهند أنفسهم في قواتها مما ترتب عليه أن تفتح أراضي الهند للمستعمرين الأجانب بقوات هندية . وقد بدأت السيطرة العسكرية للإنجليز في الهند في إقليم كرناتكى عام ۱۱۶۸هـ / ۱۷۵۴م ، ثم بدأ الإنجليز في التدخل في شلون إقليم البنغال ودخلوا في صراع مع حكامه ومناوشات عسكرية انتهت بنشوب معركة عسكرية في بکسر، كان من نتائجها السيطرة على الإقليم ، ودخول شاه عالم تحت سيطرتهم وعقد معاهدة ۱۱۷۹هـ / ۱۷۶۵م .
- انظر : كمبلى كى حكومت : مجموعة مؤلفين ط ۴ ، لاهور ۱۹۶۹م . ص ۱۱۳ - ۱۱۴ ، وأيضاً (Dunbor., Op. Cit., P. 352
- (۳۰) الساداتى : ص ۲۹۰ ، ۲۹۲ .
- (۳۱) عبدالمنعم النمر ، ص ۳۰۱ .
- (۳۲) أنوار هاشمى : تاريخ پلك و هند . ط ۵ ، أكتوبر ۱۹۹۰م ، كراچی ص ۳۳۶ .
- (۳۳) عادل زعبيتر (مترجم) غوستاف لويون ، حضارات الهند ، ص ۷۱ .
- (۳۴) الساداتى : ص ۲۲۳ .
- (۳۵) Moreland, Op. Cit., P. 297.
- (۳۶) انظر محمد دبیر سياقى : دوره تاريخ ایران از آغاز تا انقراض قاجاريه ، تأليف حسن برنيا عباس اقبال آشتياني ، تهران ، بدون ت ، ص ۷۰۹ إلى ۷۲۹ .
- (۳۷) عباس اقبال آشتياني : تاريخ مفصل ایران از صدر اسلام تا انقراض قاجاريه ، ص ۷۳۰ .
- (۳۸) Mediaeval Indue Undr Mohammedan Rule (A. D. 712 - 1764) By: Stanley Laneboole.

- Fourteenth 1925, p.417, 418, 419.
- A Short History of Hind - Pakistan Prepared by: Pakistan History Board (۳۹)
Karachi First Edition 1955, P. 342 - 344 - 345.
- A New History of Indo Pakistan Since 1526, By: K. Ali Edition 1985, Lahore, P.162 - (۴۰)
163
- H. M. Elliot, K.C. B. the History of india as told by its own historians. Vol. VIII, Lon- (۴۱)
don, 1977, p. 170
- (۴۲) د. نفیس جهان بیگم: میر امن دہلوی حیات و تالیفات، دہلی، ۱۹۸۶م، ص ۴۱
- (۴۳) میر امن دہلوی: حیات و تالیفات، ص ۱۱۹
- (۴۴) صاحب زادہ عبدالرسول: پاک و ہندی اسلامی تاریخ تا عہد حاضری، لاہور، ب. د. ص ۱۵۳ تا ۱۵۹.
- (۴۵) Elphinstone, Op. Cit, P. 66.
- Fall of the Mughal Empire. By: Firtaluynath Sarkar, Vol. I, Elutte 1971, Chapters 15, 16 (۴۶)
- 17 - 19 - 23
- (۴۷) أنوار ہاشمی: تاریخ پاک و ہند، ص ۳۶۶
- (۴۸) غلام حسین ذوالفقار: اردو شاعری برسیاسی اور سماجی پس منظر: البنجاب، ص ۳۰۱ تا ۳۰۳
- (۴۹) K.M. Panikkar. A Survey of Indian hisotry. Bombaby, 1963, p. 169 - 182
- (۵۰) پاک و ہند، ص ۳۶۷
- (۵۱) المصدر السابق، ص ۳۶۸
- K.M. Panikkar. Op. Cit., P. 173. (۵۲)
- (۵۳) عبدالسلام خورشید (د): تاریخ تحریک پاکستان. ج-۱، ط ۱، اسلام آباد ۱۹۹۳م، ص ۱۵ تا ۱۸.
- (۵۴) نفسہ: ص ۱۷.
- (۵۵) شیخ محمد رفیق و آخرین: تاریخ پاکستان و ہند، ط لاہور ۱۹۸۷م، ص ۴۶۳.
- Eshori Breshad. History of India. Ellah Abad. 1925, p. 294 (۵۶)
- (۵۷) پاک و ہند، ص ۳۶۸، ۳۶۹.
- (۵۸) اشرف صبرحی دہلوی (د): بزم آخر شہر دہلی کی دو اخیر بادشاہوں کا طریق معاشرت ط ۱، لاہور، مجلس ترقی ادب ۱۹۶۵م، ص ۱۳، ۱۵.
- (۵۹) نفس المرجع، ص ۳۸، ۴۳.
- (۶۰) بارثولڈ: تاریخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة ۱۹۳۳م، ص ۱۱۲، ۱۱۳.
- (۶۱) الساداتی: ص ۶۴ و مابعدھا.
- (۶۲) علی اکبر شہابی خراسانی: روابط ایران و ہند یا تأثیر روابط ایران و ہند در ادبیات دورہ صفویہ. تہران، ۱۳۱۶ھ. ش، ص ۳۶، ۳۷.
- (۶۳) محمد إکرام: رودکوتر، ط ۱۰ لاہور ۱۹۸۴م، ص ۲۲، ۲۳.
- (۶۴) محمد علی خان ماہر: علم الحروف یا تحقیقات ماہر. حصہ سوم. دہلی ۱۹۳۴م، ص ۱۳۵.
- (۶۵) کلبدن بیگم: ہمایون نامہ، ص ۱۴۹.

- (۶۶) محمد ریاضی: ادبیات فارسی در شبه قارہ ہند و پاکستان: مقالۃ فی مجلہ وزارت الثقافة والنشر، ص ۶۷ .
- (۶۷) محمود علی خان ماهر: علم الحروف ص ۱۳۵ .
- (۶۸) انور سدید۔ اردو ادب کی تحریکین، ط ۱، کراچی ۱۹۸۳، ص ۲۷۹
- (۶۹) علی اکبر شہابی خراسانی: روابط ادبی ایران و ہند، ص ۳۹ - ۴۰ .
- (۷۰) طبقات اکبری: أحمد عبدالقادر الشاذلی، رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة ۱۹۸۵
- (۷۱) محمد اکرام: رود کوثر، ص ۱۴۲ .
- (۷۲) محمد مصطفیٰ خان شیفتہ: کلشن خار. ترتیب کلب علی خان فائق، ص ۱۶۴
- (۷۳) محمد عبدالمجید العبد: الإسلام والدول الإسلامية فی الهند، القاهرة ۱۹۶۸ م،
- (۷۴) رود کوثر: ص ۳۹۰ - ۳۹۱ .
- (۷۵) صاحب زادہ عبدالرسول: پاک و ہند کی اسلامی تاریخ تا عہد حاضرہ۔ لاہور
- (۷۶) د. بریلر شاہجہان ایام اسیری اور عہد اورنکزیب نک، ت. خلیفہ سید محمد، ۵
- (۷۷) لوئورب ستودارد: حاضر العالم الإسلامی، ت عجاج نویہض، ج ۴، ص ۳۱۱
- (۷۸) رود کوثر، ص ۹۱ .

الفصل الثانی

حياة میراٹن الدهلوی و آثاره

حياته:

يقول أحد المؤلفين أن شخصية «ميرامن الدهلوى» من أكثر الشخصيات قبولاً بين المؤلفين الذين التحقوا بكلية «فورت ولیم» (*) وسيظل عمله العظيم «باغ وبهار» زهرة يانعة في روضة الأدب الأردى على مر الزمان^(١).

إلا أننا للأسف الشديد لا نعلم الكثير عن حياته سوى ما جاء ذكره في ثلاثة مواضع هي:

١- مقدمة «باغ وبهار» حيث كتب بعض العبارات عن نفسه.

٢- ما كتبه في مقدمة كتابه الثانى «كنج خوى» حيث كتب عدة عبارات عن شاعريته.

٣- ما كتب عنه أثناء عمله فى كلية «فورت ولیم» والتي ذكرها السيد عتيق صديقى فى كتابه «جلجست أوراسكا عهد».

فيما عدا ذلك فلا توجد معلومات أخرى عنه، فلم يعرف حتى اليوم تاريخ ميلاده أو تاريخ وفاته على وجه التحديد.

وسنحاول فى البداية أن نعرض ما كتبه «ميرامن» عن نفسه ثم نحاول بعد ذلك الوصول إلى بعض الاستنتاجات من خلال حديثه.

كتب ميرامن ما يلى فى كتابه باغ وبهار:

«أولا سأبين حال العاصى المذنب «ميرامن الدهلوى» فمنذ عهد «هايون شاه» وعائلتى تقدم خدماتها وتضحياتها لكل ملك، وكان كل ملك يرعانا ويرفع من شأننا ويكرمنا ويقطعنا المناصب والإقطاعيات، فأصبحنا أثرياء، فأنعم علينا الملك فى الدفتر الملكى بتلك الألقاب «خانه زاد موروثى»، «منصب دار قديمى»، وعندما وصل حال البيت الذى كان سبباً فى

عمران البيوت إلى حال لا يحتاج إلى بيان، استولى «سورج مل الجاتى» على الأملاك، وخرب «أحمد شاه الدراني» البلاد بعد هجومه عليها، فذقت طعم الخراب ورحلنا عن الوطن الذى هو وطنى ومسقط رأسى وكل آبائنا مدفونون فيه، وغرقت السفينة التى يقودها الملك وتلاطمت أمواج بحر الضياع لعدة سنوات وللغشة بالنسبة للغريق أهمية كبيرة، فمكثت فى «عظيم آباد» لعدة سنوات كسبت فيها وخسرت، أخيراً لم يطب لى العقام ولم تلائمنى الوظيفة، فتركت العيال والأطفال وركبت السفينة بمفردى إلى «أشرف البلاد» «كلكتا» سعياً للرزق، وقضيت فترة بدون عمل، وحدث أن استدعانى «نواب دلاورجنك» وعيننى مدرساً لأخيه الصغير مير محمد كاظم خان، ومكثت هناك حوالى سنتين لكننى شعرت بأن ملاذى ليس هناك، ثم وصلت بواسطة «منشى بهادر على جى» إلى «جان جلجست صاحب بهادر» دام إقباله، وليمن الطالع احتضننى ذلك الشاب، وأرجو أن تكون الأيام القادمة جيدة وإلا فلن أحصل على كسرة خبز، ويتربى فى بيتى عشرة من الصغار والكبار، ويدعون لى «تقبل الله» (٢)

ومما سبق نجد كثيراً من الإجمال وقليلاً من التفصيل، وسنحاول أن نلقى الضوء على تلك الأحداث الواحد تلو الآخر.

١- الوطن والمنطقة والحى :

كتب «ميرامن» فى مواضع متعددة من «باغ وبهار» و«كنج خوى» أنه من دهلى، فقد قال: «وبالنسبة لميرامن فإنه دهلوى...»، كما كتب أيضاً: «إن دهلى هى وطنى ومولدى» (٣).

يتضح من قوله إنه كان «دهلوى» أى ولد ونشأ هناك. والجدير بالذكر أن «ميرامن» أراد بدهلى الأماكن القديمة خارج سور «شاهجهان» وليس «شاهجهان آباد» نفسها، فقد قال فى شأن تعمير دهلى من ناحية شاهجهان: «ثم جعل الملك المدينة دار الخلافة واشتهرت بشاهجهان آباد وإن كانت دهلى منفصلة عنها فتلك مدينة قديمة وهذه مدينة جديدة» (٤) أى أن المدينة التى عمرت داخل السور هى مدينة جديدة، وأما دهلى فكانت منفصلة. وهكذا اعترف «ميرامن» بأن المدينة هى «دهلى»، ويتضح أيضاً أنه كان من المدينة القديمة.

ولم يصرح «ميرامن» فى أى حى من أحياء هذه المدينة كان يسكن وقد كانت حدودها واسعة جداً ولذلك فمن الصعب تحديد الحى، ولكن كان هناك حى فى المدينة القديمة يدعى حى «سيد والحمرة». وقد ذكر بعض الشىء عن هذا الحى فى ملفوظات

وأحوال «شاه فخر الدين» وهو «سيدواره» وهو حى فى دهلى القديمة، كان يسكن فيه مير بديع، وسادات هذا الحى ذو أنساب معتبرة^(٥).

وكان «ميرأمن» من هؤلاء السادة كما يتضح من اسمه، لذا من الجائز أنه كان يسكن فى هذا الحى. وعلى أية حال فإن هذا مجرد افتراض لا يصل إلى درجة اليقين.

٢- أسرته:

لم يذكر «ميرأمن» أسماء أسلافه ولا أجداده، ولا حتى اسم والده، ولم يشر إلى متى جاء أباه إلى الهند ومن أين جاءوا؟

ولكن من هذه الجملة: «إن أجدادى كانوا يقدمون خدماتهم للملوك منذ عهد همايون شاه وما تلاه، يتضح أن أسرته كانت تعمل فى ركاب الملوك منذ عهد همايون^(٦)».

لكن من المعروف أن عهد همايون ينقسم إلى حقبين، الأولى من ديسمبر ١٥٣٠م إلى يونيه ١٥٣٩م، حيث جلس همايون على العرش بعد وفاة والده «بابر» مؤسس دولة المغول فى الهند وذلك عام ١٥٣٠م، ولكن فى نهاية هذه الفترة أى عام ١٥٣٩م حدثت معركة «جوسا» التى انهزم فيها همايون على يد «شيرشاه السورى» واضطر لترك الهند والتوجه إلى إيران، وقد قضى همايون فى إيران ما يقرب من أربع عشرة سنة فى حالة النفى. وفى تلك الفترة كانت أسرة «شيرشاه السورى» تحكم بلاد الهند^(٧)، وفى نهاية الأمر وفى سنة ٩٦٢هـ الموافق ١٥٥٤م توجه همايون بجيشه من «كابل» إلى «البنجاب» وبسرعة شديدة استولى على كل أنحاء الهند، وهكذا فقد بدأ عهد همايون الثانى الذى بقى حوالى سنة حيث توفى «همايون» فى العام التالى ٩٦٣هـ الموافق يناير ١٥٥٦م^(٨).

وعندما رجع همايون من إيران اصطحب معه عدداً كبيراً من القوات، والقواد والحرفيين والمثقفين، وهؤلاء هم الذين أمسكوا بزمام الحكم ومقائيد الأمور فى عهد المغول، ومن المؤكد أن أسلاف «ميرأمن» قد دخلوا فى خدمة الملك فى فترة حكمه الثانية لأن قول «ميرأمن» أن أسلافه كانوا يخدمون ملكاً بعد ملك منذ عهد همايون يشير إلى أن دخلوهم فى الخدمة الملكية كان فى الفترة الثانية وما أعقبها من فترات حكم فيها المغول^(٩).

ونركز أيضاً على هذه الجملة «الميرأمن»: «عندما ضاق همايون شاه ذرعاً بعائلة خان ذهب إلى ولاية السند، وأخيراً عاد وأدب الباقين من أسرة خان، ولم يبق هناك أحد يثير الفتنة والفساد»^(١٠).

نستخلص من هذه العبارة أن التحاق أسرة «ميرآمن» بخدمة المغول واستمرارها في خدمتهم بدأ بعد عودة الملك همايون من إيران، واستعادته لعرش المغول مرة ثانية .

٣- الاسم والتخلص:

كتب «ميرآمن» في مقدمة «باغ وبهار» و «كنج خويى» أن اسمه هو «ميرآمن» كما يوجد أيضا اسم «ميرآمن» على غلاف «باغ وبهار» وفي نهاية الطبعة الأولى، ولا يوجد اسم آخر في أى كتاب من كتب عصره أو في أى مكان يوهم بأن اسمه غير هذا والنسخة الخطية لـ «كنج خويى» التى كتبها «ميرآمن» بنفسه يوجد فى آخر صفحاتها «ميرآمن لطف» بقلم «ميرآمن» .

وبعد كل هذا لا يوجد شك فى أن اسمه كان «ميرآمن» وتخلصه كان «لطف» . وقد كتب «كريم الدين» فى تذكرته بعنوان «أمان ولطف» لتخلص ميرآمان الدهلوى بـ «أمن» وقد اختار هذا التخلص فى أشعاره المختلفة^(١١) .

أى جاء فى هذه التذكرة أن اسمه كان «ميرآمان» وتخلصه (أمن) ، وفى الواقع أنه لا توجد أى صحة لهذا الكلام، ولم يذكر كريم الدين مصادره فى ذلك .

وأما قوله أن «ميرآمن» قد استخدم تخلصه هذا فى أشعاره المختلفة فهذا خطأ تام لأن «ميرآمن» لم يستخدم هذا التخلص فى أى شعر له، كما لم يكتب هذا فى أى مكان، بيد أنه قد استخدم تخلصه «لطف» فى أشعاره، ويتضح من ذلك أن ما كتبه «كريم الدين» بالنسبة لاسمه وتخلصه هو ظن وقياس فقط، وهو أمر لا يمكن قبوله، وتابعه فى ذلك بعض من جاءوا بعده، فقد كتب «محمد يحيى تنها» :

كان اسمه الحقيقى «ميرآمان» وتخلصه (أمن) إلا أنه استخدم تخلص «لطف» فى بعض أشعاره أحيانا^(١٢) .

وهنا لم يذكر «تنها» مصدره، ولكن من الممكن أن يكون قد اعتمد على تذكرة كريم الدين لأنه لا يوجد أحد قبله قال إن اسمه «ميرآمان» وتخلصه «أمن» ، إلا أن الإضافة الأخيرة والخاصة باستخدامه «لطف» تخلصا هى إضافة الأستاذ «محمد يحيى تنها» .

ويقول الأستاذ «سيد محمد» فى كتابه «أرياب نثرارد»^(١٣) :

[يذكر أن اسمه الحقيقي كان «ميرآمان، وتخلصه «أمن، لكنه اشتهر باسم «ميرأمن»]. وقد كتب «ميرأمن» أبياتا في آخر كتابه جاء في آخرها بيت هذه ترجمته:

تو كوني مین لطف یر لطف رکھ
خدايا بحق رسول کبار (**)

فيبدو من هذا أنه كان يتخلص بـ «لطف».

خلاصة القول إن سلسلة الافتراض بأن اسمه كان «ميرآمان» وتخلصه كان «أمن» تصل إلى «كريم الدين» هذا بالإضافة إلى أنه كان له تخلصان «أمن» و «لطف» ومن العجيب أن كاتباً شهيراً وهو الدكتور: سهيل بخاري قد كرر هذا في بحثه المحقق فقال: «إن اسم ميرأمن، كان ميرآمان أما «أمن» و «لطف» فكانا تخلصين له» (١٤).

ولم يذكر صاحب المقال أى مصدر أو مرجع لكن يبدو أنه قد استفاد من «سير المصنفين» و «أرباب نثر اردو» أو من أحدهما.

ويفهم مما تقدم ومن غيره أن «ميرأمن» قد نظم الشعر وتخلص بـ «لطف» فقد قال في مقدمة كتابه الثانى «کنج خوى»:

[قد نظمت آلاف من الأبيات للشعراء الأساتذة التى انتخبها المؤلف (يعنى ملا واعظ سبزوارى مؤلف أخلاق محسنى) من الكتب ووضعها فى مكان مناسب، فقد نظمت هذه الأبيات فى اللغة الهندية حسب ما فهمت وما حاولت قرض الشعر طوال عمرى، ولكن عندما يرد أى مضمون فى ذهنى أقوم بنظمه، وأنا لست بأستاذ لأحد ولا بتلميذ لأحد].

نه شاعر سون مين اورنه شاعر كابهاى

فقط مين نى كى ابنى طبع آزمائى (١٥)

وقد تمت مقارنة عبارة هذه النسخة المطبوعة بالنسخة الخطية حيث كتب «ميرأمن» فى آخر سطر له فى الصفحة الأخيرة لتلك النسخة الخطية لـ «کنج خوى» بقلم «ميرأمن»:

«لطف»، وقد جاء هذا التخلص أيضاً فى آخر بيت لـ «باغ وبهار»:

الطف فى العالم بلطف يا ربي بحق رسول کبار

والأبيات الأردية الأربعة الموجودة في «باغ وبهار» نظمها كلها «ميرامن» طبقاً لقوله، ومنها الأبيات الأخيرة التي توضح التاريخ.

وعلاوة على ذلك هناك كتاب لـ «جلجست» يوجد فيه غزل من ترجمة «ميرامن» وقد ذكر أولاً في هذا الكتاب غزل حافظ ومطلعه كما يلي:

حجاب جهره جان من شود غبارتم خوش اندميکه از ين جهره برده برفکنم^(١٦)
فقد وردت أولاً ترجمة حرة لهذا الغزل الفارسي في اللغة الانجليزية وبعد ذلك ذكرت ترجمة «ميرامن» لطف، والتي جاءت كذلك في فن الغزل.

يقول «جلجست» في شأن ترجمة «ميرامن» لا يوجد في هذه الترجمة حسن البيت الفارسي لكنها مقبولة أيضاً^(١٧).

ومن المثير للدهشة أن د. وحيد قريش يذكر أنه جاء في الكتب المتأخرة أن «ميرامن» تخلصين «امن» و «لطف» ويستدلون على تخلصه بلطف ببيت الشعر الذي سبق ذكره، وقد ذكر أنه لا يوجد في هذا البيت أي قرينة تدل على أن تخلص «ميرامن» كان «لطف» لأنه كان في كلكتا «ميرزا على لطف» مؤلف تذكرة «كلشن هند» وقد كان شاعراً يتخلص بـ «لطف» وقد ذكر «ميرامن» في مقدمة «كنج خوبي» بيتين له. ويقاس على ذلك أن «ميرامن» قد ذكر في «باغ وبهار» أبياتاً للطف هذا، ولم يكن «ميرامن» يتخلص بـ «لطف»^(١٨).

نستنتج مما ذكره «وحيد قريش» أنه يريد أن يقول إن تخلص «ميرامن» كان «امن» ولم يكن «لطف» وإذا سلمنا جدلاً بذلك فلا بد أيضاً أن نسلم بأن الأبيات التي ورد فيها تخلص «لطف» ليست له، والواقع هو أن اسم «ميرزا على لطف» كان أمام صاحب المقال، ولهذا افترض أن هذه الأبيات كانت له، وكل هذه الافتراضات لا أساس لها من الصحة، ففي الحقيقة كان لـ «ميرامن» تخلص واحد هو «لطف» والأبيات التي نسبت إلى «ميرزا على لطف» كانت كلها لـ «ميرامن» لطف.

تعليمه :

لم يذكر «ميرامن» عن أحوال تعليمه شيئاً؛ ولكن من المؤكد أنه كان على دراية تامة بالفارسية، وخير دليل على ذلك كتابه «كنج خوبي» وهو ترجمة أردية «الأخلاق محسن»^(١٩) أحد الكتب الشهيرة في الفارسية، وكان يدرس في المدارس، وعلى الرغم من

أن لغته ليست صعبة إلا أنها ليست سهلة كذلك، فلا يمكن أن يقوم بترجمة مثل هذا الكتاب ترجمة مقبولة إلا من كانت له دراية تامة بالفارسية، ولا يمكن لنا أن نذكر شيئاً مؤكداً عن تعلمه اللغة العربية أو غيرها من اللغات.

مذهبه:

لم يكتب «ميرامن» شيئاً عن مذهبه بصراحة، نعم كتب في بداية «باغ وبهار» و«الصلاة والسلام على آله الذين هم إثنا عشر إماماً» (٢٠).

كما يدعو في نهاية «باغ وبهار» بما يلي:

«يا إلهي بفضلك حقق بغيتي، كما حقق هؤلاء الدراويش الأربعة بغيتهم، بحق الخمسة الأطهار، والاثني عشر إماماً، والأربعة عشر معصوما عليهم السلام، آمين يا إله العالمين» (٢١).

ويتضح من هذه العبارات أنه ربما كان شيعياً.

أولاده وأهل بيته:

يقول «ميرامن» في مقدمة «باغ وبهار» وهو يمدح «جان جلجست» مدير كلية فورت وليم:

[... وعلى الأقل آكل لقمة العيش وأنام بكل راحة وسكون، وينشأ في بيتي عشرة أفراد من الصغار والكبار ويدعون لهذا الفقير] (٢٢).

ويتحدث عن مغادرته «عظيم آباد» إلى «كلكتا» فيقول:

[... ركبت السفينة بمفردي تاركاً العيال والأطفال] (٢٣).

وفهم من هذه العبارة فقط أنه كان صاحب عيال وأولاد.

«وكان في البيت عشرة أشخاص صغاراً وكباراً، ولكن لا يعرف على من كانت تشتمل هذه العشرة؟ وقد ترك «ميرامن» عياله وأطفاله في «عظيم آباد» عند توجهه إلى «كلكتا» لكن يبدو أن زوجته وأولاده لحقوا به بعد ذلك، لأنه قد ذكر في «باغ وبهار» و«كنج خوبي» أن غاية تأليف هذين الكتابين هي تربية الأولاد (٢٤).

وأثبت «ميرزا حامد بيك» في مقاله أن «جانصاحب» كان ابناً «لميرأمن» يقول: «من الأغلب أن «جانصاحب» كان ابناً لميرأمن» ويقوى هذا الافتراض أن الاسم الحقيقي لميرأمن كان «ميرآمان على» وكان اسم «جانصاحب» «ميربهار على». وقد اعتمد صاحب المقال على تذكرة «سخن شعراء» لعبد الغفور نساخ، حيث يقول: «نساخ» عن «جانصاحب»: إن «جانصاحب ميربهار على» خلف «ميرأمن لكتوى» وتلميذ «عاشور على خان بهادر» كان يكتب بأسلوبه الخاص (٢٥).

ثم نقل اقتباس «سيد محمد معين تقوى» مرتب «تاريخ ريختى» مع ديوان «جان صاحب» وهو كما يلي:

لعل «جانصاحب» قد ولد في «فرخ آباد» عام ١٢٣٤ هـ - ١٩ - ١٨١٨ م، وكان اسمه «ميريار على» لكن والديه كانا يناديان به باسم «جانصاحب» على سبيل التذليل وكان والده ميرأمن من سكان فرخ آباد لكنه جاء إلى لكهنؤ في صباه.

ويأتى اسم ابن آخر «لميرأمن» تخلصه «أحسن» فقد كتب «مفتى انتظام الله شهابى» من عام وفاة «ميرأمن» ويبدأ كلامه هكذا: «أحسن» اسمه «ميرأحسن» ابن «ميرأمن» [..].

في الواقع أن كلمة «ابن ميرأمن» هي إضافة من السيد مفتى ولا توجد في الأصل لأن «كلشن هميشه بهار» الذى جعله السيد مفتى مصدراً له لا يوجد فيه إلا ذكر «مرزا أحسن على أحسن» الذى لا علاقة له بـ «ميرأمن» فيجعل السيد مفتى أولاً «مرزا أحسن على» «ميرأمن» ثم جعله ابن «ميرأمن» (٢٦).

وهكذا لم يرد في الأخبار أى ذكر للعشرة الذين يعولهم إلا ابن واحد فقط هو جانصاحب.

مغادرته دهلى:

تشير كتابات «ميرأمن» إلى واقعيتين:

أولاهما: أن «سورج مل جات» قد استولى على أملاك آبائه، الثانية: أن «أحمد شاه الدرانى» قد خرب بيتهم ووطنهم (٢٧).

وبناء على هذين السببين، هاجر «ميرأمن» من دهلى إلى «عظيم آباد» «بتنة» وقد استنتج البروفيسير «ممتاز حسين» في ضوء هاتين الواقعتين أنهما تشيران إلى أنه نفى من دهلى

سنة ١٧٦١م، عندما خرب أحمد شاه الإبدالي، الهند لدرجة أن الناس نسوا عملية التخريب التي قام بها «نادر شاه الإفشاري».

ثم يواصل «ممتاز حسين» قائلا: «إن استيلاء «سورج مل جات» على أملاكه قد حدث أيضا قبل عام ١٧٦١م^(٢٨)، واستولى «سورج مل» على «أكبر آباد» في ١٢ من يونيو ١٧٦١م، لكنه استولى قبل هذا التاريخ على أغلب القصور في «أكبر آباد» وكل هذا يدل على أن «ميرامن» قد نفى من دهلي عام ١٧٦١م.

وقد أشار «ميرامن» في كتابه «باغ وبهار» إجمالاً إلى هذه الوقائع التاريخية وكأن الفترة من شهر يناير ١٧٥٧م وهي السنة التي هاجم فيها «أحمد شاه إبدالي» دهلي وحتى يناير ١٧٦١م هي فترة المصائب الشديدة على أهل دهلي فكما ذكرنا فقد دخل «أحمد شاه الإبدالي» أول مرة دهلي في يناير ١٧٥٧م فاتحاً، وبعد أربع سنوات بالضبط، أي في يناير ١٧٦١م فتح دهلي مرة ثانية ودخل القلعة الحمراء، وقد تعرض أهل دهلي في هذا العهد لشتى أنواع المصائب على يد مواطنيهم من الطوائف المختلفة ومن الغرياء، وقد هاجروا فارين بحياتهم، وقد أجهز «سورج مل جات» على ما تبقى من جراء هجمة الإبداليين بعد عودتهم إلى بلادهم، واستمرت هذه المصائب والمشاق غير المتناهية حتى وفاة «سورج مل» ١٧٦٣م^(٢٩).

يتضح مما سبق أن أهل دهلي قد غادروها مرتين في أعداد كبيرة، وقد حدث هذا مع هجمتي الإبدالي في عامي ١٧٥٧م، ١٧٦١م، والسؤال هنا متى غادر «ميرامن» دهلي؟

في هذا الصدد ننظر إلى العبارة التالية: «... حينما وصلت حالة البيت الذي كان سببا لعمران البيوت إلى حد لا يحتاج إلى بيان استولى «سورج مل جات» على الأملاك وترك أحمد شاه دراني البيت»^(٣٠).

وعندما جاء أحمد شاه إبدالي من كابل في غزوته الأولى ونهب المدينة كان «شاه عالم» في الشرق، ولم يكن هناك وريث للعرش، وصارت المدينة جسدا بلا رأس.

فمن الحقيقي أن وجود الملوك كان نعمة على المدينة إذ خربت من بعدهم وذهب رؤساؤها إلى حيث وجدوا الأمان. واضطر شاه عالم إلى مغادرة دهلي بسبب عما د الملك في مايو ١٧٥٨م، ولم يزل باقيا حتى نهاية عام ١٧٧١م في الشرق^(٣١).

بعد مغادرة «شاه عالم» إلى الشرق بحوالى عامين ونصف وكذلك رحيل الإبدالى عن دهلى بعد غزوته الأولى إنتهز «سورج مل جات» الفرصة واستولى على أملاك الناس وأشاع فيهم الفساد مما دفع الكثيرين إلى الهجرة بعيدا عن ظلمه وجبروته ومنهم «ميرأمن».

ولهذا فإن التاريخ الذى حدده بروفيسور ممتاز حسين لهجرة «ميرأمن» من دهلى وهو عام ١٧٦٠ م يبدو صحيحاً. وقد قال بعض الكتاب الآخرين بهذا رأى أيضاً، وإن لم يكن هذا العام مؤكداً إلا أنه لا يوجد مانع من القول به (٣٢).

على كل حال لقد ترك «ميرأمن» دهلى إلى «كلكتا»، ولعله قد حاول البقاء فى تلك المدن، ولا نعرف أين سكن «ميرأمن» فى «عظيم آباد» وكيف عاش؟ وقد قضى هناك عدة سنوات كانت حياته فيها جميلة أحيانا ومرة أحيانا أخرى، وأخيرا غادر هذه المدينة (٣٣).

وقد كتب الدكتور داختر اريوى، فى كتابه «تطور اللغة والأدب الأردى فى بهار» (٣٤):

[إن ميرشير على افسوس وميرأمن دهلوى أيضا قد وصلا إلى «عظيم آباد» وتمتعا بكرم وجود ابن الملك الكبير «شباب رائى»].

الخلاصة أننا لا نعرف أحواله فى تلك المدة التى أقام فيها بعظيم آباد بالقطع، كل ما عرف هو أنه لم يعجبه الحال هناك ولم يطب له المقام فغادرها.

وصوله إلى كلكتا:

لقد ذكر «ميرأمن» أنه فى النهاية ترك عياله وأطفاله وركب السفينة ووصل إلى «كلكتا» وسعى للحصول على الرزق (٣٥). وقد قضى فيها مدة بدون وظيفة - ومن الممكن أن تعنى كلمة «مدة» هنا شهرا أو سنة - ثم جعله «نواب دلاورجنكك» معلما لشقيقه الأصغر، ومكث هناك حوالى سنتين، ثم رأى أنه لا يستطيع البقاء هناك أكثر من ذلك بعد أن كاد له الخبثاء، ثم توصل إلى السيد «جان جلجست» مدير كلية «فورت ولیم» عن طريق «ميربهادر على حسینی».

يقول عتيق صديقى فى كتابه «جلجست اوراسكاعهد»:

[يبدو من أعمال مجلس الكلية بتاريخ ٢٩ من أبريل عام ١٨٠١ م أنه قد تم تعيين هؤلاء فى القسم الهندى للكلية ككتاب] (٣٦).

وقد ذكر عتيق في هذا الفهرس اسم «ميرأمن، أيضا، ولو عنيًا بلفظ «مدة» الذى ورد فى قول «ميرأمن، أنه مدة عام، ووضعنا مدة سنتين فى ملازمة «نواب دلاورجنك، لا تصح لنا أن «ميرأمن، قد وصل إلى كلكتا قبل أبريل عام ١٨٠١ م بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات على الأقل، ولو سلمنا جدلا بهذا لاستطعنا أن نقوله إنه قد مكث فى «عظيم آباد، حوالى ستة وثلاثين أو سبعة وثلاثين عاما بعد خروجه من دهلى عام ١٧٦١ م.

وعليًا أن نضع فى الاعتبار قولاً آخر «لميرأمن، حيث يقول فى نهاية مقدمة «باغ وبهار: [١. إن هذا العاجز وصل إلى هنا متنزهاً فى كل مدينة ومشاهداً مناظرها] (٣٧).

والمؤلف يعنى بلفظ «هنا، مدينة «كلكتا، ولا يمكن القول أى بلدان تنزه فيها؟ وهل مكث فى أى بلد ليختبر حظه؟ وكم من الوقت مكث؟ فلا يمكننا الرد على هذه الأسئلة، كما لا نعلم هل يعنى بقوله هذا مدة السفر من «عظيم آباد، إلى «كلكتا، أم مدة السفر كلها من دهلى إلى كلكتا؟.

ولابد لنا أن نضع فى الحسبان قوله فى شأن تنزهه فى كل بلد مع المدة المفترضة لمكوته فى «عظيم آباد، لأننا لا ندرى كم كانت مدة السفر؟ وهكذا فإنه من الممكن أن يحدث فرق قليل أو كبير فى تعيين المدة التى مكثها فى «عظيم آباد،.

عمله:

عمل «ميرأمن، فى البداية معلماً ومربياً فى «كلكتا، لدى «ميردلاورجنك، وأخيه الأصغر «مير محمد كاظم خان، ثم أدرك أنه لن يستطيع الاستمرار فى هذه الوظيفة وقد استطاع الاتصال بالسيد «جان جلجست، مدير كلية فورت ولیم (٣٨). فى بداية ١٨٠٠ م، ولكن يبدو من وثائق الكلية أن مجلسها الذى عقد فى ٢٩ أبريل ١٨٠١ م قرر تعيين الأشخاص الواردة أسماءهم فى تلك القائمة، وكان الاسم الأول فى هذه القائمة لـ «ميربهادر على حسینی، الذى كان كاتباً عاماً، وكان مرتبه مائتى روبية شهرياً، والاسم الثانى فى هذه القائمة كان «نزانى جرت منركا، الذى عين كاتباً ثانياً بمرتبه قدره مائة روبية، ثم أسماء هؤلاء الذين كان مرتبهم أربعين روبية، وهم:

١- مرتضى خان

٢- غلام أكبر

٣- نصر الله

٤- ميرامن

٥- غلام أشرف

٦- هلال الدين

٧- محمد صادق

٨- رحمة الله خان

٩- غلام غوث

١٠- كندن لال

١١- كاشي راج

١٢- مير حيدر بخشي (حيدري)

أى أن «ميرامن» و «ميربهادر» على حسيني، قد تقرر تعيينهما فى كلية فورت وليم فى نفس الوقت، وكما سبق أن ذكرنا فإن «ميرامن» قد وصل إلى جلجهرست بواسطة حسيني، ويبدو من هذا أن جلجهرست كان يعرف حسيني قبل هذا التاريخ.

ويؤيد هذا القول إن ميرامن قد تم تعيينه ككاتب فقط، أما حسيني فقد تم تعيينه فى وظيفة «ميرمنشي» فإن لم يكن جلجهرست يعرفه جيداً من قبل، فكيف يصدر قراراً بتعيينه فى منصب «ميرمنشي» مباشرة؟

وعلى أية حال فإن «محمد عتيق صديقي» فى مؤلفه «جلجهرست أوراسكاعهد» قد أورد فهرساً مفصلاً لمصنفي كلية «فورت وليم» وفيه أن تعيين «ميرامن» كان فى ٤ مايو عام ١٨٠١م (٣٩).

ومن الفهرست السابق لا يبدو أن أسماء ما تحت وظيفة «كاتب» قد وردت على هذا النحو من الترتيب نفسه، ولكن البروفيسور «أحمد فاروقى» قد أورها بمثل هذا الترتيب مع بعض التقديم والتأخير، ونستنتج من ترتيبه أن «ميرامن» قد احتل المرتبة الرابعة فى وظيفة ما تحت كاتب (٤٠) (أو كاتب ثانى).

وظل «ميرأمن» موظفاً في كلية فورث ولیم حوالي ست سنوات إلى أن قدم استقالته، وقد أكمل أثناء عمله كتابيه «باغ وبهار» و«کنج خوبی».

استقالته من الوظيفة ووفاته:

عمل «ميرأمن» في الكلية في ٤ مايو سنة ١٨٠١ م وحتى يونيو ١٨٠٦ م، وقد صرح «صديقي» لأول مرة في العدد رقم ١ لمجلة «لغتنام» الأسبوعية من خلال أعمال «فورث ولیم» أن رئيس شعبة اللغة الهندية قد شكّا في ٤ من يونيو عام ١٨٠٦ م من أن «ميرأمن» قد رفض التدريس لأحد الطلاب، وقد اعترف ميرأمن بما ورد في الشكوى المعروضة على مجلس الكلية واعتذر متعللاً بكبر سنه وضعف جسمه وبعد الإطلاع على أقواله توصل مجلس الكلية إلى أن «ميرأمن» يريد الاستقالة من هذه الوظيفة، فقرر المجلس أن يمنحه راتب أربعة أشهر علاوة على راتب الشهر الجاري مع قبول استقالته^(٤١).

وقد ذكر هذا القول خواجه أحمد فاروقي أيضاً في مقدمة «کنج خوبی»، لكنه لم يذكر اكتشاف «عتيقي صديقي».

ولا يعرف أين ذهب وكم بقي على قيد الحياة بعد خروجه من الكلية؟

وقد كتب بروفيسور «ممتاز حسين» في مقدمة «باغ وبهار» أن الشيخ المسن «ميرأمن» قد انتقل إلى جوار ربه في هذا العام أي ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م^(٤٢).

وقد ذكر المؤلف أن مرجع هذا القول إلى «تذكره هميشه بهار» «انصر الله خان خورجوي» الذي ذكر فيه ابن «ميرأمن» ميرأحسن فكتب يقول:

[أسلم أبوه الروح في صباح يوم الخميس سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م]^(٤٣).

وعلى أية حال فإن «ميرأمن» قد عاش حياة صعبة متنقلاً من بلد إلى آخر، ولكنه ترك لنا كتاباً ما زال علامة مضيئة على جبين الأدب الأردی وهو كتاب «باغ وبهار».

هوامش الفصل الثاني

* أسست كلية فورت ولیم نتيجة لتحويل شركة الهند الشرقية من مجرد شركة قامت لغرض التجارة الإنجليزية في إقليم الهند، لشركة تقوم بخدمة الأغراض السياسية والاستعمارية للملكة البريطانية في تلك البلاد، وقد أدرك القائمون على إدارة تلك الشركة أنهم لن ينجحوا في أهدافهم إلا إذا أتقن موظفي الشركة اللغة الأصلية لأهل البلاد حتى يتمكنوا من التوغل في شئون البلاد ويسيطرون على مقاليد الحكم فيها، وبالفعل قام الحاكم العام اللورد ولزلي في ١٨ من أغسطس ١٨٠٠ ميلادية بإنشاء كلية فورت ولیم لتدريس اللغة الأردية وآدابها للضباط الإنجليز من موظفي الشركة وعين السيد جان جلجست مديرا لشعبة اللغة الأردية وآدابها وكان من أهداف كلية فورت ولیم تبسيط الأدب وتنقيته من فئور الصنعة المعقدة حتى يسهل على الأجانب فهمه وتعلمه. ومن الذين التحقوا بالعمل في تلك الكلية - علارة على ميرامن الدهلوي، مير بهادر علي حسين، مير محمد كاظم علي جوان، مير حيدر بخشي حيدري، وقد اختتمت الكلية أعمالها وتوقفت في عام ١٨٥٤ م. وقد أسدت تلك الكلية للأدب الأردی خدمات جليلة بما قدمته من روائع أدبية على يد من التحق بها من أدباء أمثال ميرامن - بهادر علي حسين - وحيد بخشي حيدري.

(انظر: د. سمیع الله، فورت ولیم كالج ايك مطالعه، ط١، نشاط آفست پريس تانده، فیض آباد، أبريل ١٩٨٩ م، ص ١٠ إلى ٥٧. وأيضاً: ایشوری برشاد (داکتر) نیو هستری آف انديا، ريو ايزد ايدشن (اردو) اندين پريس، اله آباد ١٩٤٥ م، ص ٤١١).

(١) د. نفیس جهان بیگم: میرامن دهلوی حیات وتالیفات، ص ٤١.

(٢) باغ وبهار از میرامن دهلوی، مرتبه رشید حسن خان، ص ١٢-١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٦.

(٤) نفس المرجع، ص ٦.

(٥) مقدمة باغ وبهار: رشید حسن خان، ص ٥١.

(٦) میرامن دهلوی حیات وتالیفات: ص ٤٣.

(٧) The Oxford history of India from the earliest times to the end of 1911. By: Vincent. Smith,

C.I.E Oxford 1920, p326,327.

(٨) Cambridge history of India, ed, Six, Richard Burn, Cambridge, 1937.

(٩) میرامن حیات وتالیفات: ص ٤٤.

- (١٠) رشيد حسن خان: باغ وبهار، ص ١٣.
- (١١) كريم الدين: طبقات شعراء الهند، ط ١، لكنهو. الهند، ص ٢٣٦.
- (١٢) محمد يحيى تنها: سير المصنفين، حصه اول، محبوب مطابع، دهلي، ١٩٢٤م، ص ٧٣.
- (١٣) سيد محمد: أرياب نثر اردو، اعتقاد ببلشنك، نيودلهي، ١٩٧٧م، ص ٥٨.
- (**) الطلف في العالم بلطف يارب بحق رسول كبار
- (١٤) القصة الأردنية دراسة تحقيقية نقدية: إسلام آباد، مارس، ١٩٨٧م، ص ١١٦.
- (١٥) ميرأمن: كنج خوي، طبعة القسم الأردو بجامعة دهلي عام ١٩٩٦م، ص ٥.
- لست بشاعر ولا بأخ لشاعر واختبرت نفسي فقط
- (١٦) الأصل الفارسي:
- إن احتجاب وجه حبيبي غبار لجسد ي..
- فما أطيبت تلك اللحظة التي أرفع فيها الحجاب عن هذا الوجه
- (١٧) The strangers infalible East India Guide, p.113.
- (١٨) وحيد قريشي: باغ وبهار، ايك تجزيه، لكنهو، ص ١٨.
- (١٩) سيأتى التعريف بهذا الكتاب بعد قليل.
- (٢٠) باغ وبهار، ص ٤.
- (٢١) المرجع السابق، ص ٢٤٩.
- (٢٢) نفس المرجع، ص ٧.
- (٢٣) باغ وبهار، ص ٦.
- (٢٤) ميرأمن الدهلوي: كنج خوي، ص ٤.
- (٢٥) باغ وبهار، المقدمة، ص ٩.
- (٢٦) ميرأمن حيات وتأليفات: ص ٤٩.
- (٢٧) ورد الحديث عن هذه الوقائع في فصل الظروف البيئية.
- (٢٨) ميرأمن الدهلوي: باغ وبهار، مقدمة ممتاز حسين، ص ٢٤.
- (٢٩) Fall of the Moghal Eimpire. By: Firtolumth Sarkar. Vol. I edition 1971, Chapters. 15, 16, 19, 23.
- (٣٠) باغ وبهار، مقدمة رشيد حسن، ص ١٤.
- (٣١) المرجع السابق، ص ١٤.
- (٣٢) ملحق تشريحات، ص ٢٦٤، الهامش ١٠.
- (٣٣) باغ وبهار، ايك مطالعة، ص ٥١.

- (۳۴) المرجع السابق، ص ۷۰.
- (۳۵) رشید حسن خان: باغ و بہار: ص ۱۲.
- (۳۶) محمد عتیقی صدیقی: جان گلجریست اوراسکا عہد، ط ۲، ص ۱۲۰.
- (۳۷) مقدمہ باغ و بہار، ص ۹.
- (۳۸) Origins of Modern Hindustans Literature, p.105.
- (۳۹) گلجریست اوراسکا عہد: ص ۱۹۸.
- (۴۰) کنج خیری از میرامن دہلوی، مقدمہ خواجہ احمد فاروقی، ص ۱۰۶.
- (۴۱) باغ و بہار: مرتبہ سلیم اختر ص ۲۳۳، وأیضاً کنج خیری: مقدمہ ص ۶.
- (۴۲) باغ و بہار: مقدمہ ممتاز حسین، کراچی ۱۹۵۸ م، ص ۴۸.
- (۴۳) المرجع السابق، ص ۵.

الفصل الثالث

الإنتاج الأدبي لميراث من الدهليز

نسب إلى «ميرامن» عملان هما: «باغ ويهار» و«كنج خوي». وقد بدأ «ميرامن» في تأليف «كنج خوي» في عام ١٢١٧هـ - ١٨٠٢م حيث ذكر «ميرامن» نفسه ذلك صراحة في مقدمة كنج خوي (١).

وقد استغرق تأليف هذا الكتاب عامين فقد أتمه في عام ١٢١٩هـ الموافق ١٨٠٤م، ويعرف هذا من الأبيات التي وردت في آخر كتاب «كنج خوي» فهو يقول:

كنج خوي جب كيايين ني تمام
تهني ايك تاريخ هوئي مجكو ضرور
تب كه دل سي كه كر ميري مدد
وه لكأ كهتي به شادي وسرور
كنج خوي لطف سي معمور سي
ايك كر بدكو كو اس مصرع سي دور
(١٢٥١، ٣٢ - ١٢١٩هـ) (٢)

و«كنج خوي» ترجمة لأخلاق محسنى ذلك الكتاب الفارسي الشهير في الأخلاق وقد ترجمه «ميرامن» نزولا على رغبة «جان جلجست» ليدرس في كلية فورت ولیم، وقد كتب «ميرامن» في مقدمة الكتاب ما يلي:

[أمرني بلطف السيد جان جلجست نعمة الله صاحب الخلق والمروءة ومقدر اللغة الأردية أن أقوم بترجمة أخلاق محسنى الفارسي إلى لغتنا ليدرس في الكلية فقبلت على الرأس والعين] (٣).

وكتاب أخلاق محسنى كان ذا مكانة مرموقة بين كتب الأخلاق الفارسية ومؤلفه هو «كمال الدين حسين بن على كاشفى سبزوارى بيهقى» الذى يعرف عامة بـ «ملاحسين كاشفى» أو «ملاحسين واعظ كاشف» وقد ولد فى قرية بيهقى فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى. وقد تلقى تعليمه هناك ثم اشتغل بالوعظ والتفكير، ثم جاء إلى هراة عن طريق نيسابور ومشهد وقضى أوقاتها فى صحبة مولانا جامى وظل بها حتى توفى عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م .

وألف ملا واعظ كاشفى حوالى أربعة عشر كتاباً من أشهرها:

١ - «جواهر التفسير لتحفة الأمير» وهو تفسير للقرآن فى مجلدين والذى عنوان باسم «على شيرنوائى».

٢ - «جامع الستين» وهو تفسير لسورة يوسف .

٣ - «مواهب عليه» المعروف بـ «تفسير حسينى» .

٤ - «مختصر الجواهر» وهو خلاصة «جواهر التفسير» .

٥ - «روضة الشهداء» وهو مشهور فى موقعه كريلاء ترجم فى الأردية باسم «كريل كته» .

٦ - «أنوار سهيلى» وهى ترجمة لكليلة ودمنة وكانت تدرس لفترة طويلة فى الهند. أما عن «أخلاق محسنى» فقد سمي المؤلف هذا الكتاب بهذا الاسم لأنه ينسب إلى الأمير التيمورى «مير أبو الحسن» . ومن حسن الحظ أنه يتضح من اسم الكتاب نفسه عام التأليف بحساب الجمل وعبارة التاريخ الفارسية التى ترجمها «ميرأمن» نذكرها فيما يلى:

[قلت للقلم إنك قلبت الرأس عقباً، فنور عين الكلام من تراب قدمك، وقد كتب الآن أخلاق محسنى، كله اكتب تاريخ هذا «أخلاق محسنى»] (٤). (٩٠٠ هـ)

ويشتمل «أخلاق محسنى» على أربعين باباً وخاتمة، وقد قام «ميرأمن» بترجمة الكتاب كله لكنه كتب مقدمة ثانية قبل مقدمة الكتاب الأصلية كما أضاف من عنده خاتمة بعد انتهاء الترجمة .

وقد أشار «ميرأمن» في مقدمته إلى بعض النقاط الجذابة؛ فعلى سبيل المثال: شيد الإنجليز على شاطئ البحر في كلكتا قلعة في مواجهة بيت حاكم الولاية يقول عنها «ميرأمن» [لم ير أحد في الهند مثل هذا المكان ولا سمع عنه فلو نظرت من جهة القلعة سيبدوا لك أنه أنف للمدينة. وقد أصبح بسببه شكل المدينة أفضل من ذي قبل وقد بدت القلعة ك رأس والمدينة كجسم] (٥).

وبعد ذلك نظم «ميرأمن» في بيتين من الشعر تاريخ تأسيس بيت الحاكم فيما يلي:

جب بنای مکان عالی شان

وصف کر سکتی نہین بی جس کا زبان

پوچھی دل سی بناکی مین تاریخ

بولابی جفت طاق نو شیروان، (٦)

١٢١٤ هجری - (١٨٠١ - ١٨٠٢ م)

ويشتمل «کنج خوبی» على أربعين بابا مثل «أخلاق محسنی» وتفصيله كما يلي:

الأول: فی العبادة

الثاني: فی الإخلاص

الثالث: فی الدعاء

الرابع: فی الشکر

الخامس: فی الصلاة

السادس: فی الرضا

السابع: فی التوکل

الثامن: فی الحياة

التاسع: فی الغضب

العاشر: فی الأدب

الحادى عشر: فى الهمه

الثانى عشر: فى العزم

الثالث عشر: فى الجد والجهد

الرابع عشر: فى الثبات والاستقامه

الخامس عشر: فى العدل

السادس عشر: فى العفو

السابع عشر: فى الحلم

الثامن عشر: فى الخلق والرفق

التاسع عشر: فى الشفقه والرحمة

العشرون: فى الخير

الحادى والعشرون: فى الجود والإحسان

الثانى والعشرون: فى التواضع والاحترام

الثالث والعشرون: فى الأمانة والديانة

الرابع والعشرون: فى الوفاء والعهد

الخامس والعشرون: فى الصدق

السادس والعشرون: فى مصير الحاجة

السابع والعشرون: فى التأنى والتأمل

الثامن والعشرون: فى المشورة والتدبير

التاسع والعشرون: فى الحزم وبعد النظر

الثلاثون: فى الشجاعة

الحادى والثلاثون: فى الغيرة

الثانى والثلاثون: فى السياسة

الثالث والثلاثون: فى اليقظة

الرابع والثلاثون: فى الفراسة

الخامس والثلاثون: فى كتمان السر

السادس والثلاثون: فى انتهاز الفرصة

السابع والثلاثون: فى رعاية الحقوق

الثامن والثلاثون: فى صحبة الأخيار

التاسع والثلاثون: فى دفع الأشرار

الأربعون: فى تربية الخدم

والأبواب الأربعون لکنج خوى تمثل الصفات الأربعين التى يقول عنها المصنف إن الملوك يحتاجون إليها ولا بد من رعايتها (٧).

وقد أعد مصنف «أخلاق محسنى» كتابه على النحو التالى إذ يذكر أولاً صفة أخلاقية مثل العبادة والشكر والصبر والغضب والشجاعة وغير ذلك ثم يشرحها، مع إلقاء الضوء عليها من خلال حكايات ونصائح لتتضح الصفة ويكون كلامه أكثر تأثيراً، أما كتاب «کنج خوى»، فمختصر بصفة عامة؛ فباب العبادة على سبيل المثال يشتمل على صفحة ونصف فقط، وباب الإخلاص صفحة واحدة، وباب الدعاء يشتمل على ما يقرب من صفحتين، ومع هذا فبعض الأبواب طويلة نسبياً، وعلى سبيل المثال فإن الباب الخامس عشر يحتوى على نحو عشرين صفحة، وأطول باب فى «کنج خوى» هو الباب الأربعون الذى يتعلق بتربية الخدم ويشتمل على اثنتين وستين صفحة. أورد ميرأمن فى بعض حكايات کنج خوى اسم صاحب الحكاية التى قد تكون شخصية تاريخية، وعلى سبيل المثال فقد أورد اسم السلطان سنجر فى إحدى الروايات (٨).

أخلاق محسنى وكنج خوى:

ونذكر فيما يلى بعض الاختلافات بين «أخلاق محسنى» و«كنج خوى» ليتضح الفرق بين الأصل والترجمة .

جاءت حكاية المجرم أمام خايقة خراسان فى الباب الثانى «الإخلاص» لأخلاق محسنى، وقد ذكر فى «كنج خوى» خايقة مصر بدلا من خايقة خراسان (٩).

وقد جاءت قصة البنت الجميلة لعالم مرو فى الباب الثامن والعشرين لأخلاق محسنى التى تبدأ هكذا:

[وكان لأحد علماء مرو بنت بارعة الحسن] (١٠).

ولا يوجد فى ترجمة «ميرامن» اسم المدينة وعبارته كما يلى:

[كان هناك بنت ذات جمال فتان وخصال حميدة لأحد العلماء] (١١).

وترجمة ميرامن فى بعض الأحيان تكون تفسيراً وبياناً للأصل الفارسى بدلا من أن تكون ترجمة محضنة، فهو يغير الجملة الفارسية البسيطة إلى عبارة ذات تصوير فنى جذاب، وذلك بسبب سعة أفقه وقدرته على التخيل.

وعلى سبيل المثال:

وردت فى «أخلاق محسنى» فى قصة يعقوب الليث هذه الجملة:

«جاء يعقوب مرتدياً تمام أسلحته» (١٢).

أما ميرامن فقد فصل القول كما يلى:

[صعد يعقوب إلى أعلى البيت لابساً درعاً فولاذياً وخوذة وسروالاً حديدياً وبورباً حديدياً وقفازات حديدية، وكان يتمنطق بحزام ومتسلحاً بالأسلحة الخمسة وقد ارتدى نظارة معظمه ليرى معسكر الجيش] (١٣).

وقد حذف ميرامن فى بعض المواضع الأسماء المذكورة فى «أخلاق محسنى» مثلاً ذكر مؤلف «أخلاق محسنى» فى الباب الرابع والثلاثين قصة الإمام الشافعى والإمام محمد، ولكن حذف هذان الأسمان من كنج خوى وذكرنا على أنهما شيخان مقربان إلى الله (١٤).

وبالمقارنة بين عبارات أخلاق محسنى وكنج خوى يتضح صدق دعوى ميرامن وهو أنه صاغ مفهوم الأصل الفارسى فى محاوره يومية لدلهى (١٥).

فنجده يضيف، أحياناً لفظة واحدة على العبارة الفارسية فيجعل المفهوم أكثر سعة وتأثيراً، وفى بعض الأحيان يستخدم فى الترجمة الاستعارة أو المحاوره حتى أنه يمكن القول: إن ترجمة «ميرامن» قد فاقت الأصل الفارسى فى بعض المواضع (١٦).

ميرامن شاعراً:

اهتم ميرامن فى ترجمته لـ «أخلاق محسنى» بترجمة النثر نثراً، وترجمة الشعر نظاماً. ولكن ما حقيقة هذه الأبيات المنظومة، يقول ميرامن:

[لقد انتقى المؤلف حوالى ألف بيت للأساتذة من الكتب ووضعها فى موضعها المناسب، وقمت بنظمها بالهندية حسب فهمى، وما أردت طوال حياتى أن أقرض شعراً، لكن المضمون الذى ورد فى ذهنى دون عمد قد قمت بنظمه ولست تلميذاً لأحد ولا أستاذاً لأحد.

لست شاعراً ولا أخ لشاعر

لكننى فقط اخترت مزاجى وطبيعتى (١٧)

ويتضح من خلال أشعار كنج خوى أن ميرامن قد نظم الأبيات الفارسية بلفظها فى الهندية ولهذا يمكن القول: إنه كان ناظماً جيداً وما كان بشاعر.

وإذا كنا قد تحدثنا فى هذا الفصل عن «كنج خوى» فقط فهذا يرجع إلى أن عمله الثانى موضوع رسالتنا سيكون له أحاديث أخرى فى كل أبواب وفصول الرسالة ولن يكون تناوله سريعاً كما فعلنا فى «كنج خوى».

هوامش الفصل الثالث

- (١) ميرامن دهلري، كنج خوي: مدققة خواجه أحمد فاروقي، شعبه اردو دهلي يوني ورستي ١٩٦٦م - ص٠
(٢) كنج خوي، ص ٣٢ .

عندما أتممت كنج خوي

كان من المحتم أن يلم بي الوهن

فقلت للقلب ساعدني

فبدأ يقول بفرح وسرور

كنج خوي معمور باللفظ

لكن أجعل سلبط اللسان بعيدا عن هذا المصراع

١٢٥١ - ٣٩ = ١٢١٩ هـ .

(٣) المرجع السابق، ص ٤٠٣ .

(٤) كنج خوي، ص ٣٢٠ .

(٥) المرجع السابق، ص ٢ .

(٦) عندما أسس هذا المكان الشامخ

عجز اللسان عن وصفه

سألت قلبي عن تاريخ تأسيسه

قال زوج وفردا أنوشيروان،

١٢١٦ هـ (١٨٠١ م - ١٨٠٢ م)

(٧) كنج خوي: ص ١١ .

(٨) كنج خوي: ص ١٩ .

- (۹) اُخلاق محسلی: ص ۸، کَلج خوبی، ص ۱۴ .
- (۱۰) کَلج خوبی: ص ۱۴ .
- (۱۱) اُخلاق محسلی: ص ۸۹ .
- (۱۲) اُخلاق محسلی: ص ۹۵ .
- (۱۳) کَلج خوبی: ص ۱۵۱ - ۱۵۲ .
- (۱۴) اُخلاق محسلی: ص ۱۱۹ - کَلج خوبی، ص ۱۹۰ .
- (۱۵) کَلج خوبی: ص ۴، ۵ .
- (۱۶) میراُمَن دهلوی حیات و تالیفات: ص ۲۴۳ .
- (۱۷) کَلج خوبی: ص ۵ .

نہ شاعر ہون میں اُور نہ شاعر کا بھائی

فقط میں نی کی ابنی طبع آزمائی

الباب الثاني

كتاب باغ وبهار

الفصل الأول

التصريف العام بالكتاب

يعد كتاب «باغ وبهار» من أشهر المؤلفات النثرية في الأدب الأردني وأكثرها جاذبية على الإطلاق، وقد ألف «ميرامن» هذه القصة أثناء عمله بكلية «فورت ولیم» (١).

وبين «ميرامن» بعد الحمد والثناء، سبب تأليف الكتاب فقال:

إنه في عهد الجنرال الحاكم (ماركوس ولزلي) اشتاق السادة العظماء إلى تعلم اللغة الأردنية والحديث بها مع أهل البلاد، وإتمام جميع المهام الملكية بها، فألفت في هذا العام كتب عديدة طبقاً للأوامر (٢).

يقول «ميرامن» إنه بدأ في تأليف كتاب «باغ وبهار» في سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م لكنه نظراً لضيق الوقت أتم هذا الكتاب في بداية سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م، فيقول في نهاية كتابه: [كنت أفكر في أن أسميه «باغ وبهار» إذ إنه اسم جميل، كما أن اسمه هذا يتفق مع تاريخ إتمامه بحساب الجمل، ولهذا أسميته عندما فرغت من تأليفه: «باغ وبهار».

عندما اكتمل باغ وبهار

كان هذا عام ١٢١٧ هـ

والآن سيروا فيه ليلاً ونهاراً

لأن اسمه وتاريخه هو باغ وبهار (٣)

ولمزيد من تأكيد هذا التاريخ يقول «ميرامن» في كتابه «كنج خوي»::

أبدأت هذا الكتاب لتربية أطفال هذا الكثير العيال (يقصد نفسه) بعد إتمام باغ وبهار في

سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م (٤).

لكن هناك قرأتين تدل على أن «باغ وبهار» قد أكمل قبل عام ١٨٠٢ م، فنقدم أولاً في هذا الصدد تقريراً «لجان جلكرست» نفسه قدمه في مجلس الكلية في ١٢ من يناير ١٨٠٢ م، وقد ذكر في هذا التقرير عدد صفحات كل كتاب وبيان رسم الخط، وحساب تكاليف الطبع، كما ذكر في هذا التقرير اسم كتاب «باغ وبهار» لميرأمن في المرتبة السابعة، وعدد الصفحات في هذه النسخة ٤٣٢ صفحة، ومقاسها ربع صغير، وكان هذا الكتاب في رسم الخط الفارسي، ومن المحتمل أن تكون تكاليف طباعة خمسمائة نسخة هو ثمانية آلاف وثمانمائة روبية، وحسب تقرير «جلكرست» أن ثمانية وخمسين صفحة «لباغ وبهار» قد تمت طباعتها في ١٢ من يناير ١٨٠٢ م (٥).

وعندما رفض مجلس الكلية خطة الطباعة التي قدمها «جلكرست» كتب رسالة إلى مجلس الكلية في ٢٠ من يناير ١٨٠٢ م، ولنتأمل هذه العبارة التي وردت في هذه الرسالة: [.. إنني بذلت جهداً حوالى ثمانية أشهر في إعداد ستين صفحة من كتاب جهار درويش أرى «باغ وبهار» ...] (٦).

ويتضح من هاتين القرينتين أن «باغ وبهار» لميرأمن قد اكتمل عام ١٨٠١ م علاوة على أن «ميرأمن» قد أورد طلباً في مقدمة «باغ وبهار» كتب فيه: [جعل هذا الفقير إلى الله قصة «جهار درويش» بعد جهد جهيد في لغة الأردو الفصيح «باغ وبهار»] (٧).

فلو كان هذا الطلب للوظيفة، فمعنى ذلك أنه أكمل «باغ وبهار» قبل أن يتقرر تعيينه في «فورت ولیم» في يناير ١٨٠١ م، لكنه من الممكن ألا يكون هذا الطلب للوظيفة، بل يكون من أجل الحصول على المكافأة والأجر، لأن الكلية قررت في ٣١ من أغسطس ١٨٠٢ م أن تمنح ميرأمن الموظف في الكلية، مكافأة قدرها خمسمائة روبية نظير ترجمته لقصة جهار درويش من اللغة الفارسية إلى اللغة الأردية (٨).

ويرى واحد ممن فهرسوا المخطوطات الأردية للمكتب الهندي أن «باغ وبهار» قد اكتملت في ١٢١٥ هـ / الموافق ١٨٠١ م وكان اسمها «جهار درويش» طبقاً للاسم الأصلي للرواية، لكنها اشتهرت باسم «باغ وبهار» وهو الاسم الذي يتفق وتاريخ الانتهاء منه بحساب الجمل (٩).

ويوفق محمد عتيق صديقي بين هذين التاريخين، فيقول:

«من الضروري أن نبدي في هذا الصدد احتمالاً وهو أنه عندما أجلت طباعة «جهاز درويش» [أي باغ وبهار] مع طباعة الكتب الأخرى، من الممكن أن يكون «ميرامن» قد جعل اسم كتابه «باغ وبهار» بعد إعادة النظر في نسخة «جهاز درويش»، وذكر في هذه المناسبة سنة تأليفه وهي ١٢١٧ هـ الموافق ١٨٠٢ م (١٠).

وهذا الاحتمال هو الأقرب إلى التصديق فيما يتعلق بتاريخ التأليف والطبع بالنسبة لكتاب «باغ وبهار».

مختلف طباعات «باغ وبهار» :

لازال تدوين وتصحيح ونشر قصة «باغ وبهار» يجرى حتى اليوم ويعمل على تصحيح متنه ولغته الدارسون في الهند وباكستان وأوربا.

١- نسخ مخطوطة قديمة :

توجد نسخة خطية «لباغ وبهار» في المكتب الهندي بلندن، ولكن دون ذكر لتاريخ تحريرها، وهي مكتوبة بخط «النستعليق» وبها أخطاء إملائية كثيرة، وفي آخرها كتبت جملة تمام نشر- تمت - والصفحات غير مرقمة، ومتنها كامل.

وطبقاً لنظام إملاء «جلجست»، والذي كان مطبقاً بالالتزام على مطبوعات «فورت ولیم»، فإن علامات أصوات اللين وأصوات المجهول كان لابد من وضعها، وكذلك علامات القراءة، أما في هذه المخطوطة فقليل ما نرى الكسر والفتح والعلامات الأخرى كذلك، ونجد علامات أصوات اللين والمجهول في أوائل الصفحات وأواخرها، ونقل في أواسطها، على أي حال يعلم من هذا، أن كاتب هذه النسخة كانت أمامه بالضرورة نسخة أخرى كتبت طبقاً لنظام «جلجست»، في الإملاء، وإن كنا لا نعلم أي نسخة هذه التي نقل عنها ناقل هذه النسخة موضوع الكلام، ولكنها تطابق نسخة الكتالوج الهندي في الغالب (١١).

كما توجد مخطوطتان «لباغ وبهار» وإحدى هاتين المخطوطتين ملك الدكتور «جان جلجست»، وهي غالباً التي كتب مسودتها «ميرامن» بنفسه، والتي قدمها إلى «جلجست» لينال رضاه، والمخطوطة الثانية ملك لمستتر «جان رومر» والتي كتبت تحت رعاية كل من

«ميرامن» و«رومر» (١٢)، و«جان رومر» هذا كان موظفاً فى شركة الهند الشرقية، وقد ارتبط بها هو و«ميرامن» من سنة ١٨٠٢ م حتى عام ١٨٠٤ م، وعين مدرساً للهندية، ولدى «جان رومر» أيضاً نسخة خطية من كتاب «كنج خوى» لميرامن، والتي أعطاها لمؤسسة «رويال إيشياتك» بلندن (١٣).

٢- النسخ المطبوعة:

طبع «باغ وبهار» مرات عديدة، ولكن من ناحية التدوين، فهناك ثلاث نسخ جديدة بالذكر، الأولى نسخة الكتالوج الهندى والثانية هى التى طبعت لأول مرة كاملة بمطبعة هندوستانى بـكلكتا، والثالثة هى التى رتبها وأعدّها «دنكن فارسى»، وهناك نسخة أخرى جديدة بالذكر وهى التى حققها «مولوى عبدالحق» وفيما عدا ذلك من طبعات فكلها تعتمد على نسخة «عبدالحق» (١٤).

(١) نسخة الكتالوج الهندى:

وهى التى طبعت فى مجلد يجمع بين دفتيه كتباً أخرى بناء على قرارات مجلس كلية «فورت ولیم» والتي اتخذها بعد مراسلات بينه وبين «جان جلجىست» وقد جاءت «باغ وبهار» فى هذا الكتاب فى ١٠٢ صفحة، ولا توجد نسخ للكتالوج الهندى اللهم إلا واحدة فى مكتبة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن (١٥).

وأهمية هذه النسخة أننا نعرف منها أن «ميرامن» قد راجع القصة قبل الطباعة، وثانياً أننا من خلالها يمكننا تصحيح الأخطاء التى وقعت فى الطبعة الأولى، وهذه النسخة كما ذكرنا عبارة عن ١٠٢ صفحة، وكتبت بالخط النسخ، والتزم فيها بقواعد الإملاء الخاصة بـ«جلجىست» (١٦).

ونجد فى هذه النسخة أيضاً بعض العناوين وقد كتبت بالحروف الإنجليزية والبعض الآخر بالحروف الكجراتية (١٧).

الطبعة الأولى ١٨٠٤ م:

وهى من حيث الترتيب الزمنى تعد الثانية ولكنها الأولى من حيث كونها الطبعة الكاملة الأولى، وقد طبعت فى كلكتا عام ١٨٠٤ م، كما جاء فى نهايتها، مع أنه كتب فى صفحتها

الأولى أنها طبعت عام ١٨٠٣ م، وهذا الاختلاف كان مألوفاً في تلك الفترة ونجد له أمثلة كثيرة في ما طبع آنذاك من كتب، وربما يكون السبب في ذلك هو أن التاريخ المكتوب على الصفحة الأولى هو تاريخ إرسال الكتاب إلى المطبعة وبداية الطبع، والتاريخ الذي ورد في الصفحة الأخيرة هو تاريخ تمام الطبع.

ومن هذه الطبعة ثلاث نسخ، الأولى منها موجودة في مكتبة أنجمن ترقى اردو، أما الثانية ففي مكتبة الجامعة الإسلامية بعلي كره، وثالثتها موجودة في مكتبة المكتب الهندي بلندن.

والنسخة الأولى كاملة وتقع في ٢٥٠ صفحة إضافة إلى فهرس وصفحة لتصحيح الأخطاء (١٨).

وبالرغم من إلحاق التصحيح بنهاية النسخة إلا أن بها أخطاء عديدة أشير إليها في الحاشية (١٩).

الصفحة الأولى من الطبعة الأولى:

أشار مولوى عبدالحق في النسخة التي حققها إلى ماكتب على الصفحة الأولى من هذه الطبعة من أن «باغ وبهار» مأخوذة عن «نوطرز مرصع» التي هي ترجمة للقصة الفارسية «جهاردرويش»، ولكن السؤال هو: هل كتب «ميرامن» هذا الكلام بنفسه؟ فإن كانت من عمل «ميرامن» فلماذا لم يشر إلى ذلك في الكتاب؟ (٢٠).

المقدمة:

أما فيما يتعلق بالمقدمة والتي جاءت في تسعة عشر سطراً فيتصور أنها لـ «جان جلجست»، ويرجع هذا التصور إلى ما كتبه «دنكن فاريس» في مقدمة النسخة التي أعدها، وهو أن هذه المقدمة يبدو أنها «لجلجست»، وبالطبع فهذا ليس كلاماً مؤكداً، وينبغي التحفظ حياله، لأنه لم يرد في هذه المقدمة لا في بدايتها ولا في نهايتها اسم كاتبها صراحة، وربما تكون هذه المقدمة ناقصة أصلاً، وسقطت تكملتها ولم تشملها أية نسخة (٢١).

نسخة «دنكن فاريس» ١٨٤٦ م:

قام هذا المستشرق الإنجليزي المشهور، بتحقيق إحدى نسخ «باغ وبهار»، وقد طبعت هذه النسخة أربع مرات، المرة الأولى في لندن عام ١٨٤٦ م، والمرة الثانية عام ١٨٤٩ م في لندن

أيضاً، ويوجد نسخة من هذه الطبعة في مكتبة جامعة (بومباي) ونسخة أخرى في مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا، أما الطبعة الثالثة وهي بنفس مكتبة الجمعية المذكورة وصدرت من لندن أيضاً عام ١٨٥١ م، والطبعة الرابعة كانت عام ١٨٦٠ م بلندن كذلك (٢٢).

وقد كتب المحقق في مقدمته أن متن هذه النسخة كتب طبقاً لمتن الطبعة الأولى (أي طبعة كلكتا) التي صدرت عام ١٨٠٣ م. ومن هنا فإن هذه النسخة على قدر كبير من الأهمية، وترجع أهميتها أيضاً إلى أن النسخة التي حققها «مولوى عبدالحق» كانت قد كتبت طبقاً للنسخة التي حققها «فارس»، وقد طبعت نسخة «فارس» عام ١٨٤٦ م.

وكتب «فارس» في مقدمة الطبعة الرابعة أنه توجد بعض الأشياء التي يمكن الاعتراض عليها في أصل متن «ميرامن»، ومثل هذه الأخطاء توجد عموماً في الكتابات الشرقية (٢٣).

وقد كتب على الصفحة الأولى (الغلاف) لهذه النسخة في السطرين الأخيرين هذه العبارة [...] ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م في مطبعة وليم واتس].

وقد ورد في الصفحة الأخيرة منها، أن سنة الطباعة عام ١٨٤٦ م، ويشتمل متنها على ٢٦٠ صفحة، ثم يليها قاموس مفصل لكلماتها، يحتوي وحده على ١٣٢ صفحة ولم يلتزم «فارس» في نسخته هذه بقواعد إملاء «جلجست» (٢٤).

نسخة مولوى عبدالحق (١٨٦٩ م) :

ليس لهذه النسخة أهمية خاصة إلا أنه ثمة أمرين نستطيع بناءً عليهما أن نجعل لها قدراً من الأهمية، الأمر الأول هو المقدمة التي كتبها «مولوى عبدالحق»، وكتب فيها أن «ميرامن» قد أخذ قصته من قصة «نوطرز مرصع» لميرزا عطا حسين خان (٢٥) وهذا الأمر لم يشر إليه «ميرامن» في ثنايا قصته، وقد أورد «مولوى عبدالحق» الأمثلة التي تبرهن على ذلك، مما يدل على أن «مولوى» لم يطلع على الطبعة الأولى والتي صرح فيها «ميرامن» بأن قصته مأخوذة عن قصة «جهار درويش».

وهناك أمر آخر يجعل أهمية لما كتبه «مولوى عبدالحق»، وهو أنه ألقى الضوء على كتاب «باغ وبهار» في وقت لم يكن معروفاً فيه لدى العامة والخاصة، ومن الجدير بالذكر أن «مولوى عبدالحق» رتب نسخته طبقاً لنسخة «فارس»، وأورد في نهاية تلك الطبعة معجماً للألفاظ الخاصة والصعبة (٢٦).

ونشرت «باغ وبهار» بالخط الهندي في دهلې عام ١٨٦٩ م علاوة على طبعها بالخط الكجراتي (٢٧) في بومباي عام ١٨٧٧ م (٢٨).

تراجم باغ وبهار:

لم تقتصر قراءة «باغ وبهار» على قارئى الأردية فقط بل إنها ترجمت إلى مختلف اللغات في الهند وأوروبا.

وهذا بيان بالترجمات الإنجليزية لـ «باغ وبهار».

١ - ترجم «ايل ايف اسميث» باغ وبهار إلى الإنجليزية في عام ١٨٣١ م ونشرها في كلكتا، وهذه الطبعة نشرت في لندن عام ١٨٥١ م.

٢ - وفي عام ١٨٥١ م نشر «دنكن فارس» ترجمة إنجليزية «لباغ وبهار».

٣ - ونشرت ترجمة إنجليزية أخرى لـ «باغ وبهار» في عام ١٨٥٢ م لإيست وك (EAST-WEKS) في هرت فورد.

٤ - والترجمة الرابعة قام بها (ج. إف. بينس J. F. Bains) عام ١٨٨٧ م وطبعها في كلكتا.

٥ - وترجمة خامسة إلى الإنجليزية قام بها أى بيرى تحت عنوان Stories OF Bagha Bahar، وكان ذلك عام ١٨٩٠ م بلندن.

٦ - وطبع (ليفنتن كرنل ايچ كوينتين H. Quentin) ترجمته الإنجليزية «لباغ وبهار» في كلكتا عام ١٩٠١ م.

٧ - وآخر التراجم الإنجليزية حسب المعروف حتى الآن لباغ وبهار (لراجا جهجوسنج) وطبعها في لاهور عام ١٩٠٤ م (٢٩).

وقد كتب (جارسان دى ناسى) أن «باغ وبهار» قد ترجمت إلى اللغة الأرمنية أيضا، وقد ترجمها (دناسى) نفسه إلى الفرنسية في عام ١٨٦٩ م (٣٠).

وترجم المستشرق التشيكي المشهور (يان مارك Y. MARK) قصة «باغ وبهار» إلى اللغة التشيكية عام ١٨٦٣ م ونشرت في تشيكوسلوفاكيا (٣١).

وترجمت «باغ وبهار» إلى مختلف اللغات الهندية وهذا بيان ذلك:

- ١- ترجمة هندية (لجيوارام جات) لكهنو ١٨٨٧ م.
 - ٢- ترجمة كجراتية في عام ١٨٨٣ م نشرت في عام ١٩٤٠ م (٣٢).
 - ٣- ترجمة إلى البنجابية نظماً وترجمها (أمام بخش شيروى وطبعت) في مطبعة (سنج ميل ببلى كيشنز) في عام ١٩٧٣ م (٣٣).
- وهكذا حظيت باغ وبهار بعناية الكتاب فنسخوها عدة مرات، كما اهتم بها الطابعون فتعددت طبعتها في عدة أماكن، ووصل الاهتمام إلى مداه من خلال الترجمات العديدة وبخاصة في اللغة الإنجليزية حيث ترجمت - على ما نعلم - سبع مرات وقد تكون هناك ترجمات أخرى لم تصل إلينا أخبارها.
- وهذا التعدد في النسخ والطبع والترجمات خير دليل على ذيوع صيت «باغ وبهار» وذيوع صيت مؤلفها ميرامن، ولعل هذا الاهتمام كان الحافز وراء اختيارها موضوعاً لدراسى هذه، وكذلك مشجعاً لى للإقدام على ترجمتها إلى اللغة العربية!!.

هوامش الفصل الأول

- (١) سبق الحديث عن هذه الكلية بالتفصيل في الفصل الثاني من الباب الأول.
- (٢) مير آمن دهلوی: باغ وبھار، مرتبة رشید حسن خان، ص ١١.
- (٣) مير آمن دهلوی: باغ وبھار، مرتبة رشید حسن خان، ص ٢٢٦.
- (٤) مير آمن دهلوی: کتب خربی مقدمه د/ خواجہ أحمد فاروقی. دہلی، ص ٤٢.
- (٥) Origins Modern Hindustani Literature Scenrse Material Gilechrist, By: M, Atique Siddiequi Aligarh, First Edition, 1963,P,10-7.
- (٦) محمد عتیق صدیقی: جلکرسٹ اوراسکا عہد، ص ١٤٨.
- (٧) مير آمن دهلوی: باغ وبھار، مقدمه رشید حسن خان، ص ٣.
- (٨) جلکرسٹ اوراسکا عہد: ص ١٥٣-١٥٤.
- (٩) رشید حسن خان: مقدمه باغ وبھار، ص ٢٢٦.
- (١٠) محمد عتیق صدیقی: جلکرسٹ اوراسکا عہد، ص ١٥٥.
- (١١) رشید حسن خان مقدمه باغ وبھار ص ٦٩.
- (١٢) باغ وبھار از میر آمن مقدمه از سلیم اختر نیودہلی ١٩٧٧ م، ص ٦٨، ٦٩.
- (١٣) مير آمن دهلوی: کتب خربی مقدمه داکتر خواجہ أحمد فاروقی، ص ٣١.
- (١٤) باغ وبھار از میر آمن دهلوی، مقدمه رشید حسن خان، ص ٧٥.
- (١٥) جمیل نقوی: اردو نثر کا ارتقا بارھویس صدی عیسوی سی فورت ولیم کالج تک اردو اکادمی. سندھ۔ کراچی
نقش ثانی ١٩٨٦ م، ص ٤٣.
- (١٦) سہیل بخاری: اردو داستان تحقیقی و تنقیدی مطالعة. اسلام آباد ١٩٨٧، ص ١١٧.
- (١٧) کل کرسٹ اوراسکا عہد: ص ١٥١.
- (١٨) رشید حسن خان: مقدمه باغ وبھار، ص ١٣.
- (١٩) نفیس جہان بیکم: میر آمن حیاة و تالیفات، ص ١٧١.
- (٢٠) جمیل نقوی: اردو نثر کا ارتقا، ص ٤٠.

- (٢١) جديد اردو آدب كا ايك ابتدلى نثر نكار: مطبوعة اسلامك كلجر ١٩٣٩م، ص ٧٥ .
- (٢٢) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص ١٩ .
- (٢٣) المرجع السابق، ص ١٩ .
- (٢٤) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص ٨٧ .
- (٢٥) ستحدث عن هذا الأمر بالتفصيل فى الفصل الخاص بمصادر الكتاب.
- (٢٦) د. نفيس جهان بيكم: ميرامن حياء وتأليفات، ص ١٧٨ .
- (٢٧) للخط الكجراتى: ويكتب به اللغة الكجراتية لغة منطقة كجرات، الواقعة فى سواحل الهند الغربية، واللغة الكجراتية منحدره من أصل سنسكريتى، وأصبحت لغة قائمة بذاتها منذ القرن الثانى للميلاد ولكن بدأت تعرف بهذا الاسم الجديد الخاص منذ القرن السابع عشر، أى بعد أن أصبحت المنطقة مقاطعة خاصة ذات حدود سياسية تعرف باسم كجرات.
- (انظر: محيى الدين الألوائى: الأدب الهندى المعاصر، ط١، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٨٤) .
- (٢٨) كيان چندجين: اردوكى نثر داستانين، ص ٥٨٦ .
- (٢٩) كيان چندجين: ص ٥٨٦، ٥٨٧، أيضا سليم اختر: مقدمة باغ وبهار، ص ٥٩، ٦٠ .
- (٣٠) نفيس جهان بيكم: ميرامن حياء وتأليفات، ص ١٨٠ .
- (٣١) اردوكى نثر داستانين: ص ٥٨٦ .
- (٣٢) نفسه: ص ٥٨٦ .
- (٣٣) سليم اختر: باغ وبهار، ص ٣٤٠ .

الفصل الثاني

بانج وېهار - دراسة موضوعية

فيما يتعلق بموضوع «باغ وبهار» فهو عبارة عن قصة ملك وأربعة دراويش قادت الصدقة هذا الملك إلى لقاء هؤلاء الدراويش، ومن خلال هذا اللقاء تتوالى الأحداث وتتطور لتكتمل القصة في النهاية، والغرض الأساسي من هذه القصة علاوة على التسلية والترفيه، هو إهداء النص والإرشاد ولكن بشكل غير مباشر.

قصة الملك آزادبخت:

وتبدأ القصة بحكاية الملك «آزادبخت»، وهو ملك عادل كريم تحظى الرعاية في ظله بموфор الرعاية والتكريم، ولدى هذا الملك كل ما يصبو إليه الإنسان في حياته من نعم ومتع، فهو ملك لملك واسع مترامى الأطراف، ولا يوجد ما ينقص حياة هذا الملك ويقض مضجعه سوى أنه لم يرزق بولد يكون وارثاً للعرش من بعده، فتملكه اليأس والقنوط وزهد في كل شيء، ولما أدرك وزيره ما هو فيه من ألم وحزن سأل عن السبب فأطلعته الملك على ما يعمل في صدره وأنه بلغ الأربعين من عمره ولم ينجب من يخلفه، وأنه يريد أن يدع أمور الملك ويتفرغ للصلاة والعبادة إلى أن ينتهي أجله، وكان الوزير عاقلاً ذا حكمة وحكمة، فنصح الملك بالتريث في اتخاذ هذا القرار، وحذره من مغبة تركه للسلطنة دون حاكم يمسك بزمام أمورها فتهاك ويسأل عنها وعن الرعاية يوم يقف بين يدي الديان.

واقترح عليه الوزير أن يقوم بمهام الملك في الصباح ويتفرغ للعبادة في المساء ويتنهل إلى الله أن يرزقه بالولد الصالح، فاقتنع الملك بما أشار به الوزير، وذات يوم قرأ الملك في أحد الكتب أنه إن كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن ولم يجد منهما مخرجاً، فعليه أن

يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى ثم يترجه إلى المقابر ويصلى ويسلم على رسول الله ﷺ ويتيقن في نفسه من هوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا.

وعندما اطلع الملك على تلك النصيحة في الكتاب، تذكر قول وزيره «خردمند»، وأدرك تطابق النصيحة مع قول الوزير، ولكنه فكر أنه ليس من المناسب أن يركب ويسافر في هيئة الملوك، بل الأفضل أن يذهب إلى المقابر ليلاً بعد أن يبدل هيئته أو أن يلتحق بخدمة أحد الزهاد أو يسهر طوال الليل، عله يتحقق له المراد في الدنيا والنجاة في الآخرة عن طريق هؤلاء الموتى.

وبعد أن قرر ذلك، ارتدى زياً عادياً وخرج ذات ليلة متخفياً من قلعته آخذاً معه بعض المال، واتخذ طريقه إلى الخلاء حتى بلغ المقابر وكان يصلى على النبي ﷺ، وأثناء سيره هبت عاصفة هوجاء وكانت الريح عاتية، وفجأة لمح الملك على البعد ناراً تتلأأ مثل ضوء النهار، ولما توجه صوب ذلك الضوء أبصر أربعة نساء يرتدون أثعالا بالية ويجلسون في صمت، فانتحى الملك جانباً ووقف يرقبهم، وقطع أحد هؤلاء الدراويش هذا الصمت وقال لبقيتهم ينبغي أن نقطع الليل في الحديث لنسرى عن أنفسنا فيحك كل منا قصته وما مر به من أحداث في حياته شريطة ألا يكذب أحداً فيما يروى عن نفسه، فوافق الجميع على هذا الاقتراح على أن يبدأ صاحب الاقتراح بسرد حكايته أولاً.

قصة الدراويش الأول:

بدأ الدراويش الأول يقص حكايته فقال إنه ولد في بلاد اليمن لأب يعمل رئيساً للتجار، ويملك من المال ما لا يدخل تحت حصر ولم يرزق أبوه بأبناء سواه هو وأخت له، وقد تزوجت الأخت في حياة أبيها، ولهذا استأثر هذا الابن بكل الرعاية والحنان والتدليل من والديه، وتعلم فنون العسكرية وفن الحساب والتجارة وظل يرفل في نعيم أبويه حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، ثم مات عنه أبوه فجأة وتلقته أمه في نفس العام، وبعدها تولى هذا الدراويش أمر نفسه وورث تجارة والده وإدارتها كما ورث عنه أيضاً ثروة طائلة لدرجة أدارت رأسه، وألف حوله رفاق السوء فعلموه الاستهتار والمجون والميسر والشراب وكافة الميزات المباحة والمحرمة إلى أن نفدت ثروته ولم يبق لديه إلا ما يستر بدنه فقط ولم يكن لديه حتى قوت يومه وتكرر له الجميع وابتعدوا عنه، فلم يجد بداً من الذهاب إلى أخته التي

أكرمت وفادته واعتنت به إلى أن استراح واسترد بعض عافيته، وذات يوم نصحته أخته أن يخرج للعمل حتى لا يسخر منه الناس ويتقولون عليه وساعدته بالمال حتى يسير تجارة إلى بلاد الشام ويبيعها ويتكسب منها، وبالفعل أعد الدرويش العدة وأرسل أحد التجار بتجارته إلى دمشق بحراً وتوجه هو إليها برّاً، وحينما بلغ بوابة مدينة دمشق كان الوقت ليلاً والبوابات مغلقة فانتظر خارج السور حتى ينبج الصبح وتفتح الأبواب، وأثناء انتظاره وجد صندوقاً متدلياً خارج السور، فتوجه إليه ليفتحه.

قصة أميرة دمشق :

وظل الصندوق يتدلى من السور إلى أن وصل إلى الأرض وعندئذ توجه إليه الدرويش ليفتحه عليه يجد به كنزاً أو شيئاً ثميناً، وفتح بحرص، فوجد به حساء فائنة جريحة ملطخة بالدماء تتأوه من شدة الألم فحملها وانتظر حتى الصباح ثم دخل إلى المدينة، واستأجر مكاناً للإقامة واستدعى الجراح لعلاجها، وظل يسهر عليها طوال أربعين يوماً وينفق عليها من أموال تجارته إلى أن تماثلت للشفاء، وبعد أن نفذ ماله وأدركت الحساء ذلك أرسلته إلى أحد البساتين وأعطته رسالة أحضر بموجبها أموالاً طائلة، ثم شجعت تلك الحساء على الذهاب إلى أحد التجار لشراء الفاخر من الملابس والحلى.

قصة التاجر يوسف :

وعندما توجه الدرويش الأول إلى هذا التاجر استقبله استقبالاً حاراً ودعاه إلى ضيافته وقد رفض في البداية إلا أن الحساء نصحته بضرورة قبول الدعوة فامتلأ لأمرها ثم طالبته أن يدعو التاجر يوسف، لضيافته بدوره، وأعدت العدة لذلك الحفل وتلك الضيافة، وعندما حضر التاجر يوسف، بصحبة الدرويش الأول وبدأت طقوس الضيافة، لمح الدرويش ضيقاً يبدو في ملامح التاجر يوسف، واستفسر عن السبب، فعلم أن ليوسف معشوقة لا يطيق فراقها ولا طرفة عين، فأرسل الدرويش في طلبها ولما حضرت، أشرق وجه التاجر يوسف وأخذ يمازحها ويبادلها العناق والقبلات ولما دارت الخمر برأسيهما أقدما على مالا يليق من سلوك مشين أمام الحضور وألح التاجر يوسف على الدرويش أن يشاركه الشراب ولم يكف عن إلحاحه إلا عندما امتثل لرغبته، وغاب الجميع عن الوعي ومن بينهم الدرويش، ولما أشرقت الشمس أفاق الدرويش من نومه ولكنه وجد المكان خالياً إلا منه، ولم يجد يوسف أو

الجارية أو معشوقته الحسناء أو أحداً من الخدم، ولما جال في المكان بحثاً عنهم وجد التاجر يوسف والجارية مقطوعى الرأس وملفوفين فى بساط، فطاش صوابه وظل يبكى وينوح حتى اقترب منه خادم الحساء الأمين وعاتبه على مشاركة يوسف وجاريته المجون والسكر ولما سأله عن سبب قتلها؛ أبى أن يجيبه، ولما ألح عليه فى معرفة مكان الحساء، رق له وأخبره بمكانها، وعندما ذهب إليها الدرويش رفضت مقابلته بل أنكرت معرفتها به أصلاً، فهم الدرويش على وجهه حزناً على فراقها ولما أشرف على الهلاك عاد يتوسل إليها لتعفو عنه وشفع له عندها خادمها وكاتم أسرارها، وبعد كثير من الإلحاح منه والدلال من جانبها رق له قلبها وعفت عنه وتزوجته، شريطة ألا يسألها عن أى شئ، ولما عقد القران وتم الزفاف، ظل الدرويش صادكاً عن الحساء لا يقربها قط، وبعد مدة سأله مدهشة عن السبب فى هذا الصدود فأخبرها برغبته فى أن يعرف السر فيما جرى للتاجر يوسف وجاريته، وبعد تردد أخبرته الحساء أنها ابنة ملك دمشق، وأنها وقعت فى غرام أحد الغلمان الذين يعملون فى خدمتها ولما شغفها حياً قريبته منها ووهبته المال دون حساب وهيات له تجارة عظيمة ولكنها استشعرت عدم إخلاصه لها فتوجهت إلى قصره لتتقين من صدق حسها، وهناك اكتشفت خيانتها لها مع جارية وضيعة دميعة قبيحة الخصال ولما ثارت ثائرتها لما شاهدته من علاقتهما خشى العاشقان افتضاح أمرهما، فاستل الغلام خنجره وطعنها به، ثم وضعها فى صندوق وألقاه خارج سور المدينة، إلى أن أنقذها الدرويش الأول، ثم أرسلته إلى هذا الغلام - الذى هو التاجر يوسف - ليعقد معه أواصر صداقة وحلته على دعوته إلى النزول فى ضيافته، ولما كان حفل الضيافة انتهزت الفرصة للانتقام منه هو وعشيقتة وقتلتها، ثم قالت أميرة دمشق للدرويش الأول والآن علينا أن نخفى من هنا قبل عودة أبى الملك، ثم خرجا سراً ليل وأخذا ينهبان الطريق بجواديهما إلى أن بلغ منهما التعب كل مبلغ وكانا قد وصلا إلى شاطئ بحر خضم ليس له نهاية فترك الدرويش الأميرة لتستريح وذهب للبحث عن طريق يسلكانه، ولما رجع لم يجد الأميرة ولم يعثر لها على أثر وأضناه البحث عنها ليل نهار فى كافة الأنحاء دون جدوى ولما تملكه اليأس وأوشك على التخلص من حياته واستعد ليلقى بنفسه من حالق، وجد فارساً ملثماً يحول بينه وبين أن يلقي بنفسه ويبشره أنه سيلقى محبوبته عندما يذهب إلى بلاد الروم ويلتقى هناك بثلاثة دراويش وملك يدعى «آزادبخت»، عندئذ ستحقق بغيته.

والى هنا تنتهى قصة الدرويش الأول ويشرح الدرويش الثانى فى سرد حكايته.

قصة الدرويش الثانى:

هذا الدرويش هو ابن ملك فارس، عاش منعماً مدلاً محباً لمجالسة الحكماء والعقلاء ليسمع منهم سير الخالدين والعظماء، ومنهم حاتم الطائي: إذ حكى له أحدهم ذات يوم قصته مع الملك «نوفل» التي أدرك منها الدرويش مدى جود وسخاء ومروءة حاتم الطائي فأراد أن يقتدى به فبنى فى المملكة بناء عظيماً له أربعون باباً وأخذ يصدق على الفقراء والدراویش الأموال دون حساب ليصفه الناس بصفة الجود، وذات يوم دخل عليه فقير فى هذا البناء ذى الأربعين باباً لطلب الصدقة وقد دخل عليه أربعين مرة حيث دخل فى كل مرة من باب مختلف، فلما استكرر الدرويش هذا السلوك من الفقير غضب الرجل غضباً شديداً وعيره بأنه مدعى للجود والسخاء بالباطل وأن الجواد يجود بكل ما يملك دون أن يتأفف وأن هناك من تفوقه جوداً وسخاءً وهى أميرة البصرة، فهفت نفس الدرويش للقاء تلك الأميرة ليعرف مدى جودها وسخائها، فاستودع ملكه من يأتى من وزرائه لحين عودته وخرج متجرداً من كل شئ متوجهاً إلى البصرة للقاء تلك الأميرة، ولما بلغ مشارف البلاد وجد من مظاهر الكرم والجود ما يفوق الوصف وبعد مدة طلب لقاء الأميرة وبعد إلحاح وافقت الأميرة على لقائه من وراء حجاب وعند اللقاء أعرب لها الدرويش عن مدى إعجابه بها لما عرفه عنها من جود وسخاء لكنه فى دهشة من كثرة ما تنفقه من أموال، وطلب معرفة سر هذا الثراء الفاحش فبدأت الأميرة تقص عليه قصتها.

قصة أميرة البصرة:

فكانت له إنها ابنة ملك عظيم كان له سبع بنات هى أصغرهن، وذات يوم سأل الأب الملك بناته من هو صاحب الفضل فى جعلهم أميرات فسارعت ست منهن بالقول أن الفضل يرجع إليه فى ذلك إلا هى فقط ظلت صامئة إلى أن سألها الملك فطلبت الأمان ثم قالت إن صاحب الفضل فى جعله ملكاً هو أيضاً صاحب الفضل فى جعلها أميرة والملك لملك الملك سبحانه وتعالى، فغضب عليها الأب ونفاها فى غابة موحشة لم تطأها قدم مخلوق من قبل قط، ولما امتثلت لقضائها وصبرت وتضرعت لله أرسل لها من ينقذها، وقد عثرت فى ذلك المكان على كنز عظيم وأموال لا حصر لها، فبنت القصور والمدن والمرابط والموائل لخدمة المسافرين والعابرين واسترضت أباه وأخواتها، وظل أبوها يزورها إلى أن بلغ أجله وهى إلى اليوم تنفق من ذلك المال دون أن ينفد لأنه هبة وعطاء من الله، وعندما سمع الدرويش منها

تلك الحكاية أعجب بها أيما إعجاب وأراد أن يتزوجها، فأوقفت الأميرة موافقتها على شرط ينبغي للدرويش أن ينفذه، ولما سأل الدرويش عنه، قالت له: إن لها تجارة في بلد يعرف به «نيم روز»، وبها شاب يجمع أهل مدينته كلهم أول كل شهر خارج المدينة ويقتل غلاماً دون أن يعرف أحد سبباً لذلك فإن أراد الزواج منها فعليه أن يذهب إلى هناك ويأتيها بالسبب وراء ما يفعله هذا الشاب وعندئذ ستتزوجه في التو والساعة، فوافق الدرويش على شرطها وأعد العدة للتوجه إلى بلاد «نيم روز».

قصة أمير «نيم روز» :

وخرج الدرويش الثاني متوجهاً إلى بلاد «نيم روز» وبعد جهد جهيد بلغ هذا البلد وانتظر إلى أن كان اليوم الأول من الشهر فأبصر الناس جميعاً يتشعرون بالسواد ويقفون خارج المدينة عن بكرة أبيهم إلى أن جاء فتى يافع يركب ثوراً وفي يده سيف ويتبعه غلام يحمل وعاءً في يده وترجل الفتى عن الثور وأمر الغلام بعرض الوعاء على الناس فامتثل الغلام وكان كل من ينظر في الوعاء يبكي وينوح بشدة، ثم رجع الغلام وجثا على ركبتيه أمام الفتى الذي أطح بالسيف رأسه، ثم ارتد عائداً من حيث أتى، ولما رأى الدرويش ذلك المشهد تملكته الحيرة والدهشة وأراد أن يتبع الفتى ليعرف السر، لكن الناس حالوا بينه وبين ذلك، واضطر الدرويش إلى أن ينتظر مطلع الشهر الجديد، ولما حان الموعد تكرر نفس المشهد بنفس الأحداث ثانية وفي تلك المرة أصر الدرويش على تتبع خطى ذلك الشاب مهما كان الثمن، وعلى الرغم من تحذيرات الناس إلا أنه تتبعه، ولما أدرك الشاب أن هناك من يتبعه صب عليه جام غضبه وهدده بالموت إلا أن الدرويش لم يتراجع وظل مصراً على معرفة سره، ولما رأى الشاب إصرار الدرويش أخذه معه، وبعد أن توطدت المعرفة بينهما، أطلععه على السر محذراً له من مخاطر تلك العلاقة، وسر الأمير سروراً لا مزيد عليه وعاش إلى جوارها إلى أن سرق منه الكتاب الذي به اسم الله الأعظم ففقد تلك الحساء، ومنذ ذلك الحين يقوم بما يقوم به في كل شهر حتى يعرف الناس ما أصابه فيدعون له بتحقيق الأمل.

وبعد أن أنهى الأمير قصته، قال الدرويش له لقد احتملت أنا الكثير من المصاعب في سبيل العشق ورغم هذا أعاهدك على أن أسبح في بقاع الدنيا لأبلغك أملك، ثم غادره وطاف في البلدان خمس سنوات لكنه لم يدرك شيئاً وفي النهاية صعد الجبل بعد أن يئس تماماً وأراد أن يلقي بنفسه فإذا بمن يمنعه ويبشره بتحقيق مراده بعد أن يتوجه إلى بلاد الروم ليلتقى

بالمالك «آزادبخت، على أن يصحب معه الدراويش الثلاثة. وإلى هنا تنتهى قصة الدراويش الثانى، وعندما سمع الملك «آزادبخت، قصة الدراويشين خرج من مكمته وتوجه إلى قصره وأرسل فى استدعاء الدراويش الأربعة.

قصة الملك آزادبخت:

وعندما مثل الدراويش الأربعة بين يدى الملك «آزادبخت، أخبرهم أنه استمع إلى قصة الدراويشين الأول والثانى البارحة ويريد أن يستمع إلى قصة الدراويشين الثالث والرابع، ولما رأى أن الدراويش يتوجسون منه خيفة، قال لهم ليطمئنهم سأحكى لكم أنا قصتى أولاً لطمئن قلوبكم، ثم بدأ الملك يروى لهم أنه عندما كان فى مقتبل العمر وأثناء عقده لديوانه العام كان من بين الحضور فى الديوان تاجر أجنبى جاء للتجارة ولما مثل بين يدى الملك قدم له من بين ما قدم من هدايا ياقوتة ثمينة لا مثيل لجمالها وقيمتها، فبهر الملك بالياقوتة وكان يطلبها من الخازن كل يوم ويثنى على جمالها وندرتها ويعرضها على رجال ديوانه فخوراً بها، فاستنكر كبير وزرائه هذا السلوك وطلب من الملك الإذن فى الكلام، ولما أذن له قال الوزير: لا يليق بالملك أن يتغزل فى حجر مهما كانت قيمة هذا الحجر فهو حجر أصم والمفروض على الملك المسلم ألا يأتى بمثل هذا السلوك الذى هو من شيم الكفار وعبداء الأصنام، وعلى كل فهناك من يعلق سبعة يواقيت فى رقبة كلبه فى «نيسابور» والناس هناك يدعونه بـ «عابد الكلب، أو «المفتون بالكلب»، فلما سمع الملك قول الوزير دخله غضب شديد واتهمه بالكذب فيما يتعلق بالرجل «عابد الكلب، وأمر بزج الوزير فى غيابة السجن، عندما علمت زوجة الوزير وابنته بنبأ سجن الوزير تنكرت ابنته فى زى الرجال وخرجت إلى نيسابور لتأتى بدليل براءة أبيها وتطلق سراحه، وعندما وصلت إلى هناك أعلنت أنها ابن أحد التجار جاء ليشتري ويبيع ما معه من بضائع وأبصرت حانوتاً كبيراً يجلس فيه شيخ ذوهيئة عظيمة وإلى جواره على أريكة حريرية ثمينة يتمدد كلب فى دعة ويجلب له عبدان الهواء بالمروحة، وعلى بعد خطوات يوجد قفصان من حديد يقبع فيهما رجلان فى هيئة رثة يحرسهما عبدان أسودان قبيحا الشكل، وقدم الخدم الطعام للكلب فى صحاف من الذهب والفضة، وعندما أكل الكلب وشرب؛ حمل الغلمان بقايا طعامه وقدموها إلى الرجلين الحبيسين، فاندشت ابنة الوزير مما رأت، واقتربت من الشيخ الوقور وحيته وقدمت نفسها له على أنها ابن تاجر، فرحب به الشيخ وأكرم وفادته على خير ما يكون الإكرام، ووقع الشيخ فى حب ذلك الفتى ابن التاجر

وأصبح لا يطيق فراقه، وأراد ابن التاجر أن يستدرج السيد المفتون بالكلب إلى بلاد الروم ليبرهن على صدق أبيه الوزير، فأخبر السيد أنه سيعود إلى بلاد الروم حيث إن والده ينتظره ولا يستطيع أن يفارقه أكثر من ذلك، فحزن الشيخ لفراق ابن التاجر ثم استقر رأيه على مرافقته إلى بلده، وعندما أشرف الشيخ وابن التاجر على مشارف بلاد الروم، بلغ نبأ وصولهما إلى الملك «آزادبخت» الذي أمر بإحضارهما لديه، ولما مثلا بين يديه وجد الملك مع السيد الكلب وفي رقبته قلادة فيها سبع يواقيت ثمينة، فتأكد من صدق الوزير وأمر بالإفراج عنه، وسأل السيد عن سر هذه اليواقيت التي يعلقها في رقبة الكلب على الرغم من أن هذا الأمر يسيئ إلى سمعته ويجعل الناس يتهمونه بالكفر، وبعد ترغيب وتهييب من الملك قال له السيد أنه الابن الأصغر لتاجر من بلاد فارس وأن هذين الرجلين المحبوسين في القفص أخواه، وأنه حبسهم في القفص بعد أن لقي منهما ما لقي من صنوف العذاب والغلر والخيانة، فقد طمعا في نصيبه من ثروة أبيه ودبرا لقتله عدة مرات ولم يكن ينقذه في كل مرة سوى هذا الكلب المخلص الوفي وعلى الرغم من ذلك لم يكن يسيئ إليهما بل يكرمهما ويحسن إليهما فينقلب إحسانه عليهما بالشر والمكر عليه، وعدد السيد للملك مرات الخيانة وطرقها واعترف شقيقاه بصدق ما قاله، ثم عرض جسده على الملك ليتيقن من صدق ما لاقى من أهوال، وتأكد الملك من صدق روايته وأقره بأنه كان محقاً فيما صنع، ثم جاء دور ابن التاجر في الحديث فكشفت ابنة الوزير عن شخصيتها فبهت السيد المفتون بالكلب من كونها فتاة وليست شاباً كما كان يتوقع فأخذ يصرخ ويبكى لأنه كان يتمنى أن يتبنى ذلك الشاب ويهبه ثروته الطائلة فهذا الملك «آزادبخت» من روعه ومن أجل أن يرضيه زوجه ابنة الوزير وأنجب منها ولدين كانا قرة لعينه.

وهكذا انتهى الملك «آزادبخت» من رواية قصته وبعد أن انتهى طلب من الدراويش استكمال حكايتهم فبدأ الدراويش الثالث في سرد حكايته.

قصة الدراويش الثالث: (قصة نعمان سياح)

قال الدراويش إنه ابن ملك من بلاد العجم وهو ابنه الوحيد وقد تربي على اللهو والمرح وذات يوم خرج مع أقرانه لرحلة صيد، وأثناء الصيد رأى غزالاً شاردًا فطارده بفرسه وصقره إلى مكان بعيد ولكنه لم يستطع اللحاق به فرماه بسهم أصابه في ساقه، فجرى الغزال جرياً حتى صعد جبلاً على قمته قصر فدخله، والدراويش من خلفه وسمع من وراء

الباب شيخاً ينوح ويبكى ويدعو الله على من رماه بالسهم، فدخل عليه الدرويش فوجد الشيخ يبكى والظبي ممدداً أمامه وهو يخرج السهم من قدمه، فحياه الدرويش وطلب منه العفو لما بدر منه في حق الظبي، ونام الدرويش لدى هذا الشيخ ولما استيقظ وجد فتاة حسناء في الرابعة عشرة من عمرها، فوقع في عشقها من أول وهلة وألقى عليها السلام لكنها لم تجبه على الرغم من إصراره على أن تجيبه، وفي النهاية اكتشف أنها تمثال من حجر صنعه هذا الشيخ، فسأله الدرويش عن حقيقة هذا التمثال، فأبى الشيخ في بادئ الأمر أن يخبره وبعد إلحاح وتوسل من الدرويش قال له الشيخ أن اسمه «نعمان سياح» وأنه كان تاجراً كبيراً يطوف كل البلدان من أجل التجارة، وفي إحدى الرحلات قرر أن يذهب إلى بلاد الإفرنج فحمل تجارته وتوجه إليها فاستدعته ابنة الملك إلى قصرها لترى ما يحمل من سلع، ولما اطمأنت الأميرة إليه طلبت منه أن يسدى إليها معروفاً وسلمته الرسالة إلى حبيبها وابن عمها في محبسه وأعطته خاتمها ليسهل له مهمته، فتوجه ليسلمه الرسالة وكان حبيباً في بستان بأمر الملك وسلمه «نعمان سياح» الرسالة فسأله السجين عن أحوالها وأثناء حديثهما جاء الحرس وأطبقوا على نعمان من كل الأرجاء ورشقوه بالسهام والنبال وأصابوه بجرح عظيم فقد الوعي على أثره، ولما أفاق وجد نفسه محمولاً على محفة وحمالوه يتحدثون فيما بينهم بأن ملك الإفرنج حبس ابن أخيه لكي لا يسترد ملك أبيه بعد أن كبر وشب عن الطوق، وأعلن للناس أن ابن أخيه مجنون وعين عليه حراسة مشددة، ولما علم برسالة الأميرة إلى حبيبها أرسل في أثر من يحملها، وبعد ذلك احتال الملك بحيلة بإيعاذ من وزيره تجعل الأميرة تقتل الأمير ابن عمها بيدها إلا أن الحيلة فشلت، وظل الأمير في السجن وعادت الأميرة إلى قصرها حزينة ورجع «نعمان سياح» إلى وطنه وقرر أن يبني بيتاً على قمة الجبل ويعتزل الناس فيه. وإلى هنا انتهت قصة نعمان سياح وبدأت قصة الدرويش الثالث.

فبمجرد أن سمع الدرويش الثالث تلك القصة لبس أثمال الفقراء والدراویش وتوجه إلى بلاد الإفرنج وبعد عناء شديد من أجل الوصول إلى قصر الأميرة ورؤيتها استطاع التقرب من أحد أتباعها الذي أخبره بمقتل الأمير المسجون، وهياً له أسباب اللقاء بالأميرة، وتشفع له عندها وبعد تفكير قبلته زوجاً، وخوفاً من بطش الملك قرراً أن يهرباً بعيداً عن يده، وخرجا في جنح الظلام ولما بلغ بهما التعب منتهاه نزلا بأحد البيوت وهناك إلتقيا بصاحب البيت واسمه «بهزاد خان» وكان شهماً كريماً لبثا عنده ستة أشهر تاق بعدها الأمير للعودة إلى وطنه

ورؤية والديه فخرجوا في رفقة «بهزادخان» وبعد قتال مع أعوان ملك الإفرنج نجحوا في أن يركبوا السفينة وتوجهوا إلى بلاد العجم وخرج الملك والد الدرويش في سفينته لمقابلة ابنه الذي أرسل يخبره بعودته وعندما أشرفت سفينة الدرويش على بلوغ الشاطئ قفز فرس الأميرة بها في البحر وقفز خلفها بهزادخان بفرسه ليتقاذها فاخفى الاثنان ولم يظهر لهما أي أثر وأصنى الدرويش البحث عنهما دون جدوى، وكان يخرج كل يوم إلى الميناء ليبحث عنهما ولما فقد الأمل في العثور عليهما هم بإغراق نفسه في البحر فإذا بمن يمنعه ويبشره بأن الأميرة وبهزادخان ما زالوا على قيد الحياة وأنه سيلقاها عندما يتوجه إلى بلاد الروم ويلتقى بالملك «آزادبخت» والدراویش الثلاثة.

والى هنا تنتهى قصة الدرويش الثالث وتبدأ قصة الدرويش الرابع.

قصة الدرويش الرابع:

قال الدرويش الرابع: إنه ابن ملك الصين، وقد تربى في دعة وترف لكن دوام الحال من المحال فقد مات أبوه وهو لم يزل بعد صبياً فأوصى به عمه أن يرعاه ويتولى عنه الملك إلى أن يبلغ سن الرشد، ولما تولى عمه الملك عهد به إلى الحريم ليقيم على تربيته ورعايته وأبعده عن شئون الحكم تماماً ولما كبر الأمير أراد أن يتزوج من ابنة عمه، وكان له خادم أمين أوصاه والده به يدعى «مباركاً» فطلب منه الدرويش أن يشفع له عند الملك ليزوجه ابنته ويوليها الملك، ولما فاتح مبارك الملك في رغبة الدرويش طلب مزيداً من الوقت حتى ينضج الأمير أكثر ويصبح جديراً بالملك والزواج، وبعد فترة طلب الملك من مبارك أن يخلصه من الأمير ويقضى عليه لينفرد هو بالملك دون منازع، وسيجزل له المكافأة نظير قضائه على الأمير، فاصطنع مبارك الموافقة على طلب الملك في نفس الوقت الذي حذره فيه الأمير من بطش عمه الملك به، لكنه أخذ يفكر في وسيلة ليحميه بها، فتذكر أن والد الأمير على صلة وثيقة بالملك «صادق» ملك الجان وأنهما كانا يتبادلان الزيارات والهدايا وفي كل مرة يذهب الملك إلى زيارة «صادق» ملك الجان كان يهدى إليه قرداً من الحجر يسكنه أحد العفاريث، وهذه العفاريث تقوم بأداء أى خدمة لمن يكتنيتها شريطة أن يكون عدد القردة أربعين وقد حصل والد الأمير على تسعة وثلاثين قرداً وبقي واحد، فاقترح مبارك أن يذهب إلى الملك «الصادق» ويرجوا أن يمنحهما القرد الأربعين ليتمكننا من القضاء على عم الدرويش، وبالفعل توجهوا إلى جزيرة الجان ودخلا خيمة الملك وكان يعرف مباركاً فحياه

وقدم له الأمير وذكره بصداقة أبيه له، فرحب به الملك «الصادق»، وحكى له مبارك ما كان من شأن الأمير وعمه الملك وسأله العون، وطلب إليه أن يساعدهما ويقدم له الفرد المتبقى، ويعد تفكير عميق وافق الملك «الصادق»، شريطة أن يقدم له الأمير خدمة وألا يخون العهد وإلا سيكون ذلك وبالا عليه وعرض على الأمير صورة فتاة بارعة الحسن وطلب منه أن يبحث عنها في كافة أرجاء الدنيا، ويأتيه بها، وعندئذ سيمكث من ملكه ويزوجه بابنة عمه، وخرج الأمير ومعه مبارك يبحثان في كل مكان عن هذه الفتاة وجالا في الدنيا لمدة سبع سنين دون جدوى، إلى أن وصلا إلى إحدى المدن وقابلا هناك شيخاً هراماً معدماً وكان كفيف البصر يستجدي الناس، فأعطاه الأمير ديناراً فشكره وانصرف وسار الأمير خلفه فوجده يدخل مكاناً عالياً خارج المدينة وكان المكان خاوياً تماماً ودخل الشيخ ذلك المكان وخاطبه صوت من الداخل يسأله أين كان؟ وأثناء الحديث نظر الدرويش إلى الداخل فإذا به يرى صاحبة الصورة تتحدث إلى الشيخ على أنه أبوها فأذهلته المفاجأة، ولما ثاب إلى رعيه، أخذ يتقرب إلى الشيخ محاولاً أن يتزوج ابنته حتى يأخذها إلى الملك «الصادق»، وطلب يدها من والدها الذي رفض رفضاً قاطعاً خوفاً على حياته وحياة ابنته وقال له أنه لا يستطيع أن يتزوجها لأن أحد الجان وقع في غرامها وقتل زوجها ولى عهد البلاد ليلة زفافها مما عرضه هو وابنته لغضب أهل المدينة جميعاً وعلى رأسهم الملك والد زوجها، إلا أن الدرويش واصل إلحاحه وتوسله حتى وافق الشيخ، ولم يمض وقت طويل حتى قضى الشيخ نحبه، بعد أن تزوج ابنته للدرويش، ونصح مبارك الأمير ألا ينقض العهد مع الملك «الصادق»، وقرر الدرويش أن يصطحب الفتاة ومباركاً ويذهبوا إلى الملك «الصادق»، وأثناء الطريق بكى الجميع فقد وقع الدرويش في غرام الفتاة الحسنة لكن مباركاً حذره من مغبة خيانة العهد ومن بطش الملك «الصادق»، لكن للعشق رأياً آخر فقد تعلق الدرويش بالفتاة وتعلقت به وأخذاً بيكيان ويتوحان طوال الطريق ولما رأى مبارك حالهما أخرج حُقاً من العطر وأعطاه للفتاة وأمرها أن تدهن جسدها به لأن الجن لا يحبون رائحته فريماً يمقت الملك «الصادق»، رائحتها ويتركها للدرويش، ودهنت الفتاة جسدها كله بذلك العطر، وذهب الجميع إلى الملك «الصادق»، ولما اشم الملك الرائحة غضب غضباً عارماً واتهم الدرويش بالخيانة وهجم عليه يريد الفتك به فعاجله الدرويش بطعنة طاربعدها إلى السماء وفقد الأمير الوعي وأفاق ليجد نفسه في صحراء جرداء ولم يجد الفتاة التي يعشقها فأخذ ييكي وينوح، وطاف وجال يبحث عنها في

كل مكان دون جدوى، ولما أيقن فقدتها نهائياً أقدم على التخلص من حياته لولا أن منعه الفارس الملائم وبشره بوجود حبيبته على قيد الحياة وأنه سيجدها عندما يتوجه إلى بلاد الروم ويلتقى بالملك «آزادبخت»، وال دراويش الثلاثة الآخرين.

والى هنا تنتهى قصة الدراويش الرابع.

نهاية القصة :

ولما ختم الدراويش الرابع قصته فى حضرة الملك «آزادبخت» وبقيّة الدراويش، جاء خادم من قصر الملك مهرولاً ليزف إليه البشرى بأن إحدى حريمه قد ولدت له ولداً يغار القمر من حسنه، فتعجب الملك وسأل عمن تكون تلك المرأة فأخبروه أنها من غضب عليها الملك ونبذها منذ بضعة أشهر ونفاها فى قصر وحيدة وكانت حاملاً، والآن وضعت حملها، فلم تسع الملك الفرحة وخف مسرعاً إلى القصر واحتضن ابنه وأقام الاحتفالات فى كافة أنحاء المملكة ابتهاجاً بمولد الأمير، وأثناء تلك الاحتفالات ارتفع صوت البكاء والعويل فى القصر الملكى، وأخبر الخدم والحشم الملك بأن الأمير قد اختفى حيث هبط سحاب من السماء وحمل الطفل وغاب عن الأنظار، وساد الحزن والحداد أرجاء المملكة لاختفاء الأمير الوليد وبعد ثلاثة أيام هبط نفس السحاب بمهد مرصع باللآلىء ووضعوه فى نفس مكانه وتركه واخفى، وكان الأمير نائماً فى هذا المهد يرتدى أفخر الثياب ويلهو بأنفس اللعب، وطوال سبع سنين كان يختفى فى أول خميس من كل شهر لمدة يومين، ويعود فى اليوم الثالث، وذات يوم اجتمع الملك بالدراويش وسألهم كيف يتصرف حيال اختفاء ابنه أول كل شهر وكيف يعرف من يقوم بهذا، فأشار عليه الدراويش بأن يكتب رسالة ويضعها بين طيات ملابس الأمير ويسأل فيها عن شخصية من يأخذه ورغبته فى لقائه، ففعل الملك، فإذا برسالة تهبط عليه من السماء ومضمونها دعوة له ولمرافقيه للقاء وعليهم بركوب العرش الذى سيهبط عليهم من السماء، وركب الجميع ومعهم الدراويش الأربعة، فحملهم العرش وذهب بهم إلى مكان مجهول لكنه غاية فى روعته واكتحلوا بكحل سليمانى فرأوا الجن والحوار يملئون المكان ويتوسط هذا المكان عرش ياقوتى يتربع عليه ملك الجان واسمه «شهبال بن شاه رخ» فنهض من عرشه وحيا الملك «آزادبخت» بترحاب عظيم وأجلسه بإعزاز وعرفه على نفسه وبين له سبب اختفاء الأمير مرة كل شهر، وقال له أن زوجته حملت وكان يرجو أن تلد له ولداً يرثه من بعده، وقطع على نفسه عهداً أنه لو رزق ببنت سيزوجها بولد من أولاد ملوك الإنس يولد

فى الوقت عىنه وبالفعل ولدت له بنتاً فأمر خدامه وحراسه أن يهبطوا إلى الأرض وىبحثوا عند ملوك كل الدنيا من الإنس عن ولد ولد فى نفس الیوم، فأحضرُوا له ابن الملك «آزادبخت، فتعلق قلب شهبال به، لكنه كان ىدرك مدى عذاب والدىه لغبابه لهذا كان يأخذه لمدة یومین فقط ثم یعیده فى الیوم الثالث رافةً بأبویه، وطلب من الملك «آزادبخت، أن یزوجهما، فقبل على الفور وتوطدت الصداقة بین الملكین، ثم سأل شهبال عن الدراویش فأخبره الملك بقصة الدراویش الأربعة وما لحق بهم من مصائب ومتاعب، وطلب مساعدتهم فى الحصول على مآربهم، فقبل الملك شهبال على الفور، ثم جمع أعوانه من الجان فى كل الدنيا وأمرهم بالبحث فوراً عن الأمیرات المختفیات، وجمع بین كل درویش وأمیرته التى یعشقها وفرح الجمع بالنتام الشمل وتحقیق كل منهم بغیته.

والى هنا تنتهى أحداث القصة التى ىختمها «میر آمن، بدعاء الله سبحانه وتعالى أن ىبلغ الجمع أمانیهم مثلما بلغها الدراویش الأربعة والمك «آزادبخت». هذا ملخص القصة من خلال سرد حكايات الدراویش الأربعة.

ویجمل بنا بعد ذلك أن نحكم على القصة من حیث بنائها الفنى ومدى توفر العناصر الأربعة للقصة فیما كتبه «میر آمن»، وكذلك استخراج أهم الآراء والأفكار التى كان المؤلف یرمى إلى التعبير عنها ولیصالها إلى القارئ، وهذا ما سوف ىدور علیه الكلام فى الفصل التالى.

الفصل الثالث

البناء القصصى فى «بانج وبنار»

إذا ما شئنا أن نتحدث عن عناصر العمل القصصى فى «باغ وبهار» فلا بد أن نذكر أولاً أن العمل القصصى لا يستوى ما لم تتوافر له عناصر بذاتها. فهناك حوادث وأفعال تقع لأناس أو تحدث منهم، وبذلك يوجد العنصر الثانى وهو عنصر الشخصية، ووقوع الحادثة لابد أن يكون فى زمان ومكان وهذا هو العنصر الثالث، ثم الأسلوب الذى تسرد به الحادثة والحوار الذى يدور بين الشخصيات، أما العنصر الأخير فهو الفكرة أو وجهة النظر، فكل قصة تعرض بالضرورة وجهة نظر فى الحياة وبعض مشكلاتها، وكل العناصر السابقة ليست سوى أدوات تكشف لنا بها القصة عن طريقة المؤلف فى النظر إلى الحياة وفهمه لها وموقفه العام منها^(١).

(١) الحادثة:

الحادثة فى العمل القصصى هى مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظمة على نحو خاص هو ما يمكن أن نسميه الإطار فى كل القصص يجب أن تقع أمور فى نظام معين، وكما أنه يجب أن تحدث أمور، فإن النظام هو الذى يميز إطاراً عن آخر فالحوادث تتبع خطأ فى قصة وخطأ آخر فى قصة أخرى^(٢).

والحادثة فى قصة (باغ وبهار) حادثة بسيطة للغاية باعتبارها حادثة أولية، اتخذ منها المؤلف ذريعة ووسيلة لتدفق أحداث القصة الرئيسية - وما تفرع عنها من قصص فرعية - تدفقاً منطقياً مقبولاً لدى القارئ، بعد أن مهد المؤلف فى بداية القصة بتعريفنا بشخصية البطل الرئيسى وهو الملك «آزادبخت»، ومدى ما يعانى من ألم وضيق لكونه لم ينجب من يخلفه ويرث ملكه من هنا تبدأ أولى الحوادث فى القصة بخروج الملك «آزادبخت» إلى المقابر.

متخفياً ليلاً ليدعو ويتضرع إلى الله ليرزقه بالولد ويلتقى بعد ذلك بأربعة دراويش يستمع إلى قصة اثنين منهم في المقابر ثم يدعوهم إلى قصره فيقص عليهم هو قصة «خواجه سكپرست - السيد المولع بالكلب»، ثم يقص الدراويشان الآخران قصتهما أيضاً، وقد وفق «ميرأمن» في أن يجعل من الحادثة الأولى رباطاً متيناً يربط به كل الأحداث التالية إلى نهاية القصة، فبرغم أن كل قصة من قصص الدراويش الأربعة كان لها حدث رئيسي تصاعد حتى نهاية كل قصة إلا أن «ميرأمن» قد أوقف أحداث كل قصة بما فيها قصص الدراويش الأربعة عند نقطة واحدة وهي لقاء الدراويش الأربعة بالملك «آزادبخت» في بلاد الروم، وعندئذ تأخذ أحداث القصة الاتجاه نحو لحظة الانفراج وحل العقدة بعثور كل الأطراف على ما يبغيونه وهنا تكون نهاية الأحداث، فقد جعل الكاتب لكل القصص في النهاية عقدة واحدة يؤدي حلها إلى انفراج أحداث القصة الرئيسية وكذلك القصص الفرعية، وأن تكون نهايتها في وقت واحد دون أن يلحظ القارئ أى شطط في الأحداث، أو في العناصر الأخرى إلا في القليل من المواضع.

فمثلاً كان الحدث الرئيسي للقصة كلها هو لقاء الملك (آزاد نجت) بالدراويش الأربعة، فإن الحدث الرئيسي في قصة الدراويش الأول بعد أن نتعرف على شخصيته وأصله ونشأته تأتي الحادثة الرئيسية وهي لقاءه بأميرة دمشق بعد خروجه للتجارة ومن هنا تتوالى الأحداث إلى أن تصل إلى ذروتها باختفاء أميرة دمشق ويأس الدراويش الأول ابن تاجر اليمن من العثور عليها، وبهم بإنهاء حياته فيأتيه رسول الغيب يبشره بالعثور على الأميرة إذا هو توجه إلى بلاد الروم والتقى بثلاثة دراويش هناك، وسيكون تحقيق أمانيتهم مرهوناً بلقاء الملك (آزاد بخت) وعند هذا الانفراج أو الحل الجزئي لعقدة قصة الدراويش الأول تتوقف قصته بتوجهه إلى بلاد الروم ومقابلته للدراويش الثلاثة.

ثم تبدأ قصة الدراويش الثاني ابن ملك فارس فبعد المقدمة تبدأ الحوادث تباعاً بسماعه لقصة «حاتم الطائي»، وجوده وكرمه ثم سماعه بخبر أميرة البصرة وجودها الذي فاق كل حد ووصف وتتوالى الأحداث بمغادرة الأمير لبلاده وعرشه بعد أن خلف أباه في الحكم وتوجهه إلى البصرة ليحظى بمقابلة الأميرة، ويعتبر لقاء الدراويش الثاني بأميرة البصرة هو الحدث الرئيسي في قصته والذي ترتبت عليه بقية أحداث القصة من موافقة الأميرة على الزواج به إلى شرطها أن يأتي الدراويش بسر أمير بلاد «نيم روزه»، ثم سفر الدراويش إلى تلك البلاد

ومعرفته للسر، وخروجه للبحث عن حبيبة أمير بلاد «نيم روز»، وفشله فى ذلك وإقدامه على التخلص من حياته لولا وجود من بشره بتحقيق أمنيته إذا هو توجه إلى بلاد الروم ولقائه بالملك والdraويش الثلاثة، وهكذا يترك الكاتب الأحداث معلقة دون أن ينهيها ويبدأ أحداثاً جديدة .

وكى لا يشعر القارئ بالملل بتتابع قصص draويش الأربعة على التوالى نجد بعد أن ينتهى من قصة draويش الثانى، يقطعها بقصة على لسان الملك «آزادبخت»، وهى قصة «خواجه سكّپرست» - السيد المفتون بالكلب، . وتبدأ الأحداث فى هذه القصة بمقدم تاجر كبير إلى بلاد الروم وتقدمه ياقوتة ثمينة لا نظير لها وإعجاب الملك «آزاد بخت»، وتعلقه الشديد بها مما دفع وزيره المقرب لاستنكار هذا السلوك وتشبيهه للملك بأحد تجار «نيسابور» الذى علق سبعة يواقيت فى رقبة كلب، فيغضب الملك ويسجن وزيره إلى أن يتحقق من صدق روايته، وتتذكر ابنة الوزير فى صورة ابن تاجر يتوجه إلى «نيسابور»، ليثبت براءة الوزير (أبيها)، وهناك تقابل التاجر وتحقق من حكاية الكلب واليواقيت ويعتبر لقاء ابنة الوزير بتاجر «نيسابور» هو أهم أحداث تلك القصة فعليه ترتب ذهاب تاجر «نيسابور» برفقة ابنة الوزير ومقابلته للملك «آزادبخت»، وما تلا ذلك من أحداث حيث يحكى «السيد المفتون بالكلب»، أسباب تعليق اليواقيت فى رقبة كلبه وسجنه لشقيقه وكانت قصته للملك مفعمة بالأحداث أيضاً لكنها تعتبر أحداثاً فرعية بالنسبة للقصة الأصلية، وبمعنى آخر فإن قصة «خواجه سكّپرست» قصة هامشية جداً ولا أثر لها على الأحداث، علاوة على أن شخصية (السيد المولع بالكلب، جاءت مخالفة تماماً لشخصيات draويش الأربعة التى اتصفت بالروحانية، وقد كتب بروفيوسور «چيان چندچين»^(٣) حول هذا الموضوع يقول:

«من المعلوم أن فى قصة «باغ وبهار» خمسة أبطال هم draويش الأربعة، والخامس هو «خواجه سكّپرست»، حيث أن قصة الملك هى فى الأصل قصة «سكّپرست»، وخلال تلك القصص الخمس قصص فرعية فى تغلغل بناء القصة من البداية إلى النهاية.

وتعد قصة (خواجه سكّپرست) هى القصة الوحيدة من بين قصص (باغ وبهار) التى بلغت أحداثها ذروتها، واكتملت كل عناصرها حتى العقدة، ثم حلها ولحظة التنوير والانفراج فيها ثم الخاتمة والنهاية!

ولعل المؤلف آثر أن يكمل تلك القصة الفرعية حتى نهايتها كي لا تتعارض أحداثها مع أحداث القصص الأصلية، أى قصة الملك «آزاد بخت»، وقصص الدراويش الأربعة.

أما فيما يختص بقصة الدراويش الثالث فلوقارناها بقصة الدراويشين الأول والثانى وجدناها مختصرة إلى نصف حجمها تقريباً، وأحداثها بسيطة وبطيئة الإيقاع، ولعل حدثها الرئيسى هو لقاء الدراويش الثالث بشخصية «نعمان سياح»، ويشرع فى قص حكايته التى تعتبر قصة فرعية أيضاً وتمضى الأحداث تباعاً إلى أن تبلغ ذروتها عندما غرقت الأميرة بفرسها فى البحر، وهام الدراويش الثالث على وجهه بحثاً عنها وعن نعمان سياح ويأسه من العثور عليهما وإقدامه على قتل نفسه فى نفس اللحظة التى جاءه فيها رسول الغيب بأن الأميرة على قيد الحياة وأنه سيلقاها ذات يوم إن هو ذهب إلى بلاد الروم والتقى بالملك وبقية الدراويش وتنتهى أحداث هذه القصة بتوجه الدراويش الثالث لبلاد الروم، ولم تكن قصة (نعمان سياح) الهامشية مرتبطة بقصة الدراويش الثالث الأصلية فحسب، بل إنها كانت سبباً فى تسلسل الأحداث، لأن الدراويش الثالث عندما سمع قصة أمير الإفرنج من (نعمان سياح) مضى بنفسه للأميرة الإفرنج وفرا سويماً من وجه أبيها، لكن عندما وصلا إلى بحر المدينة غرقت الأميرة وبشر الدراويش بالعثور عليها عند لقائه بالملك آزادبخت والدراويش.

وقصة الدراويش الرابع تعادل فى حجمها حجم قصة الدراويش الثالث تقريباً، وتشتمل تلك القصة أيضاً على عناصر ما فوق الطبيعة مثل قصة الملك (الصادق) الذى وقع فى عشق ابنة الشيخ الضرير، وقد أرسل الملك الصادق الدراويش الرابع ليبحث له عن حبيبته وبعد بحث طويل يعثر عليها الدراويش ويعتبر لقاء الدراويش بـ (شاه جنات) معشوقة الملك الصادق أهم أحداث تلك القصة حيث يقع فى عشقها ويحاول الاقتران بها، على الرغم من حب الملك الصادق لها، وبعد دخوله فى شجار مع الملك الصادق من أجلها، تختفى الأميرة، ويحاول الدراويش الرابع الانتحار لولا أن هناك من بشره بعثوره على حبيبته إذا توجه إلى بلاد الروم والتقى بالملك «آزادبخت»، والدراويش الأربعة.

أما فيما يتعلق بقصة الملك «آزادبخت»، فهى مرتبطة بقصة الدراويش الأربعة من البداية وحتى النهاية، أى منذ خرج الملك متوجهاً للمقابر ولقائه هناك بالدراويش الأربعة، وحتى انتهاء الدراويش الرابع من سرد حكايته، ثم إنجاب الملك لوريثه وذهابه للقاء الملك (شهبال) ملك الجن مع الدراويش الأربعة، وتحقيق الجميع آمالهم بفضل ذلك الملك، وهكذا نرى الترابط الواضح بين قصة الملك آزادبخت وقصة الدراويش الأربعة من البداية إلى النهاية.

وأخيراً نقول أن «مير آمن» قد وفق إلى حد بعيد على الرغم من طول القصة وتشابك أحداثها. وأنه قد اعترض أحداثها الرئيسية الكثير من القصص الفرعية أو الهامشية. أن يمسك بخيوط الأحداث بمهارة وإقتدار واستطاع أن يستحوذ على اهتمامنا وتطلعنا إلى معرفة ما ستنتهي إليه هذه الأحداث، وبالفعل في النهاية استطاع بعد أن جمع كل الخيوط في عقدة واحدة، أن يحلها أيضاً دفعة واحدة دون أن يفلت منه الأمر. إلا فيما ندر. حتى النهاية، أى أن «مير آمن» نجح في أن يجعل من أحداث قصته عقداً ثميناً لم تنفطر منه ولو حبة واحدة (٤).

(٢) السرد:

حين نقرأ القصة تتمثل الحادثة فيها ولكن من خلال تلك الألفاظ المنقوشة على الورق، أى من خلال اللغة، والسرد هو نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية (٥). وللسرد طرق عديدة، الطريقة المباشرة أو الملحمية وطريقة السرد الذاتى وطريقة الوثائق (٦).

وقد اتبع «مير آمن» فى «باغ وبهار» الأسلوبين الأول والثانى فنجده فى بداية القصة يستخدم الطريقة المباشرة أو الملحمية وفى هذه الطريقة يكون الكاتب راوية من الخارج، فى تلك الحالة يكون الراوية شاهداً وهو بهذا المعنى حاضر لكنه لا يتدخل، ويروى الراوية هنا بضمير الغائب «هو». وهذا يعنى اصطلاحاً أنه راوية غير حاضر (٧).

على سبيل المثال يقول «مير آمن» فى بداية القصة:

«استمع وكنك آذان مصغية واحكم بالعدل، فقد قال الراوى وهو يحكى قصة الدراويش الأربعة. أنه كان هناك ملك عظيم يحكم بلاد الروم يدعى «آزادبخت» كأنه انوشير وان فى عدله وحاتم فى جوده وفضله...» (٨).

وأيضاً:

«وبهذا القصد توجه الملك إلى حيث ينبعث الضوء، فلما اقترب منه، وجد أربعة دراويش مساكين، وقد ارتدوا خرقاً بالية كالأكفان، يجلسون واضعين رءوسهم بين أرجلهم وكانوا صامتين فى عالم اللاوعى...» (٩).

أما الأسلوب الثانى الذى اتبعه أحياناً «مير آمن» فى سرد قصته وهو طريقة السرد الذاتى أى أن يتكلم الراوى بضمير الـ «أنا» وهو عادة بطل يروى قصته فى زمن مضى، فالراوى الآن إذ يبدأ السرد، يتخذ من نفسه - ومن غيره أيضاً - موضوعاً لسرده - وبهذا الأسلوب تحكى الشخصية عن نفسها وتصير رواية (١٠).

وعلى سبيل المثال نجد فى قصة الدرويش الأول، الدرويش نفسه يقوم بدور الراوى ويحكى للدراویش قصته بنفسه مستخدماً ضمير «أنا» مستعملاً الزمن الماضى فيقول:

«يا عباد الله: لتلطفوا إلىّ ولتستمعوا إلىّ كل ما وقع لى أيها الأصدقاء، كان مولدى فى بلاد اليم، وهى بلاد الصالحين، وكان والدى «خواجه أحمد» تاجراً كبيراً...» (١١).

كذلك تحدثت أميرة البصرة عن نفسها قائلة:

«اسمع أيها الشاب الفطن، سلطان هذه المنطقة كان أبى وكان له سبع بنات، وذات يوم أقام الملك احتفالاً وجلس وأحاطت به بناته، وقد تجلين فى أبهى زينة، متحليات بأنفس الجواهر والآلى، فدار بخلد الملك أمر، فنظر إلى بناته وقال: «لو لم يكن أبوك ملكاً ولو كنتن قد ولدتن فى بيت فقير، فمن كان سيدعوكن بالأميرات أو الملكات؟ احمدن الله سبحانه وتعالى على أنكن أميرات، فكل ما تنعن به هو بفضلى، فأجابت ست منهن دفعة واحدة، كل ما يقول جلالكم هو الحق، وخيرنا فى سلامتك، وأما السابعة وهى الأميرة التى تحدثك الآن، وهى أصغرهن سناً لكنها تبدو أرجحهن عقلاً، فقد ظلت صامتة ولم تشاركهن الحديث...» (١٢).

كذلك فى قصة «السيد المولع بالكلب» نجد أن البطل نفسه هو الذى يروى بلسانه قصته للملك «آزادبخت» فيقول:

«أيها الملك!! هذا الرجل الذى على يمنى هو الأخ الأكبر لهذا الغلام، وأما الذى على يسرى فهو الأخ الأوسط لى، وأنا أصغرهما وكان أبى تاجراً فى بلاد فارس، وحينما بلغت الرابعة عشرة من عمري توفى أبى، بعد الانتهاء من مراسم الدفن، جاءنى أخواى هذان....» (١٣).

وهكذا اختار الكاتب الأسلوب المباشر للقصة الرئيسية وهى قصة الملك، ثم لجأ لطريقة السرد الذاتى لقصص الفرعية فجعل أبطالها يروونها بأنفسهم بكل وقائعها، ثم عاد فى

النهاية عند اختتام القصة الرئيسية والقصص الفرعية للإسلوب الأول ليتمكن من أن يصف للقارئ ما آل إليه مصير كل بطل من أبطال قصته .

ولقد وفق «مير أمن» في سرد قصته بطريقة مسلية طريفة مترابطة دون خلل من البداية إلى النهاية، وفي نفس الوقت الذى ساق فيه تعاليمه وأسدى النصيح والحكمة للقراء من البداية المبكرة وحتى آخر حرف فيها، دون أن يشعر القارئ بالملل ودون أن تبدو النصائح والحكم والأخلاق في صورة مباشرة سافرة، بل إن «مير أمن» جعل هدفه هذا يطل على القارئ من بين سطور وثنايا القصة ليستخلصه القارئ ويقتنع به ويعمل به أيضاً، وكان «مير أمن» موفقاً في ذلك إلى حد بعيد.

(٣) البناء:

على الكاتب أن يختار وقائع بذاتها يؤلف بينها ويكون منها البناء الكامل للحادثة (١٤). وإذا نظرنا إلى «باغ وبهار» من حيث بنائها الفني وجدنا أن «مير أمن» اختار لقصته الصورة الانتقائية، حيث لا تكون بين الوقائع علاقة كبيرة أو ضرورية أو منتظمة وعندئذ تعتمد وحدة السرد على شخصية البطل الذى يربط بوصفه النواة الشخصية المركزية بين العناصر المتفرقة، وليس بالضرورة للكاتب فى هذه الحالة أن يعرف كل تفاصيل القصة، قبل أن يبدأ كتابتها، بل يكفى أن يكون فى ذهنه معرفة عامة بالطريق الذى ستتبعه القصة، وبالفعل فقد جعل المؤلف من شخوص قصته مشجباً كلما عنت له فكرة من الأفكار، اختلق شخصية من الشخصيات وألقى على كتفها بالأحداث ليطيل القصة ويفرغ فيها معتقداته وأفكاره، ففى كل قصة من القصص كان يضيف الجديد من الشخصيات وما يستلزمه ذلك من أحداث جديدة، فمثلاً فى قصة الدرويش الأول قدم لنا الكاتب إضافة إلى شخصية الدرويش نفسه شقيقته أيضاً ثم شخصية أميرة دمشق التى أدت بدورها إلى ظهور العديد من الشخصيات مثل شخصية الخادم الأمين والتاجر يوسف والجارية الدميمة وأم الأميرة (١٥).

وفى قصة الدرويش الثانى قدم لنا الكاتب علاوة على الدرويش شخصية الحطاب الفقير وزوجه ثم شخصية حاتم الطائى والملك نوفل والشحاذ الدرويش، وأميرة البصرة وأبيها الملك وشقيقاتها السبع وعندما أراد الكاتب أن يطيل قصته ويكثر من أحداثها طلع علينا بشخصية أمير بلاد «نيم روز» وخادمه، ومن خلال قصة أمير «نيم روز» ظهرت شخصيات جديدة

حركت الأحداث وأضفت عليها الحيوية والحركة مثل شخصيات الناسك الهندي والحرورية (١٦).

وهكذا فى كل القصة كان الكاتب كلما أراد أن يضيف حدثاً جديداً أو يقدم عظة أو عبرة ابتكر شخصيات جديدة ساعدته على تحقيق ذلك الهدف، كما نجح «ميرامن» فى أن يجعل شخصية الملك «آزادبخت» مبرراً قويا للأحداث، ولقاء كل شخصيات القصة ببعضهم البعض، هذا بالإضافة إلى أنه جعل من شخصية كل درويش من الدراويش الأربعة شخصية أساسية ساعدت على تدفق الأحداث فى كل أجزاء القصة.

وها هو ذا المؤلف يقدم لنا فى براعة ست قصص هى قصة الملك «آزادبخت» وهى القصة الأم التى تربط كل القصص الفرعية، وقصص الدراويش الأربعة حيث جاءت قصة كل درويش على حدة فيها كل عناصر القصة، ثم قصة «السيد المولى بالكلب» ثم ربط كل القصص بعضها ببعض دون أن يفلت زمام الأمر من يده مما يعد قدرة وكفاءة من «ميرامن».

(٤) الزمان والمكان:

كل حادثة تقع لابد أن تقع فى مكان معين وزمان بذاته وهى لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما، والارتباط بكل ذلك ضرورى لحيوية القصة لأنه يمثل البطانة النفسية للرواية أو القصة (١٧).

وقد أغفل «ميرامن» عنصر الزمان فى مواضع كثيرة من القصة حيث إنه كان من الضرورى أن يروى حادثة تدوم سنين عدداً، دون أن يراعى أن يتسق زمان تلك الحادثة مع بقية الأحداث كما فى قصة الدرويش الثانى، فقد ترك (أمير فارس) بلاده لعدة سنوات لا نعرف عددها، ليحظى بمقابلة (أميرة البصرة) وعندما التقى بها أرسلته فى مهمة لبلاد «نيم روز» لعدة سنوات آخر، لا نعرف عددها ثم خرج هو بنفسه بحثاً عن عشيقته أمير (نيم روز) لعدة سنوات آخر وتوجه بعد ذلك بأعوام إلى بلاد الروم ليحظى بمقابلة الملك «آزادبخت» والدراويش الآخرين (١٨)، وهكذا كان الزمان فى هذه القصة غير محدد وغير واضح الأبعاد.

وأيضاً فى قصة الدرويش الرابع أى (أمير الصين) حيث استغرق بحثه عن معشوقة ملك الجان عدة سنوات، دون أن يراعى الكاتب تأثير تلك السنوات على شخصية البطل، وعلى سير بقية الأحداث (١٩).

كذلك فى قصة «السيد المولى بالكلى» خرجت ابنة الوزير (خردمند) لتبحث عن دليل براءة والدها إلى نيسابور، لسنوات عديدة دون أن يظهر تأثير تلك السنوات على ابنة الوزير، لا فى ملامحها ولا على سنّها ولا على الشخصيات الأخرى أيضاً (٢٠).

وهكذا فإننا نجد الكاتب فى قصة «باغ وبهار» فقد منه عنصر الترتيب الزمنى فى أغلب المواضع، فاهتم الكاتب بالسرد للوقائع والأحداث، دون الاهتمام بعنصر الزمان وتأثيره على بقية العناصر.

أما بالنسبة للمكان فقد اهتم به الكاتب إلى حد ما أكثر من الزمان بالرغم من أن المعلومات الجغرافية ناقصة وبها كثير من الخلط، فقد كان الكاتب يسمّى البلدان التى جرت بها الأحداث بأسماء لبلدان حقيقية إلا أنها مجرد أسماء فقط، أما صفات تلك البلدان فى واقع الأمر لا تنطبق فى أى شىء على صفاتها فى القصة، فقد كانت مجرد أسماء فقط، أما حقيقة الأمر فهى أن الكاتب قد وصف أماكن وصفات وعادات واحتفالات وشخص مدينة دهلى التى ينتمى إليها، فنحن نشعر بخصائص دهلى المكانية تطل علينا من كل مواضع القصة كما أننا نشتم رائحة عاداتها وتقاليدها واحتفالاتها تفوح من بين كل سطر من سطور القصة.

وفى رأى د. سيد عبدالله: «لقد نجح مؤلف باغ وبهار فى أن يرسم لنا فى جلاء تام صورة زمانه وطبيعة الحياة فيه، فأصبحنا كأننا من خلال القصة نرى أبواب وأسوار دهلى، ونرى أهلها يروحون ويغدون ويتحدثون أمامنا» (٢١).

وعلى سبيل المثال: «الاحتفالات فى «باغ وبهار» كثيرة، وكانت هذه الاحتفالات مظهراً هاماً فى مجتمع ذلك العصر، وكانت الولائم العظيمة إحدى لوازم البلاط الملكى فى تلك الفترة حيث تميزت بالسخاء والوقرة الشديدين، ويمكن أن نرى ونطلع على مظهر تلك الولائم، لنكتشف كل تفاصيل الحياة فى قصور دهلى فى ذلك العصر وما تنقسم به من رفاهة وبذخ، وهذا ما نلاحظه أيضاً فى عرض تلك الولائم والاحتفالات فى «باغ وبهار» فقد كان المؤلف يفرط فى وصف تلك الولائم والاحتفالات لدرجة أنه ينسى أن فاكهة المواسم المختلفة لا تجتمع على مائدة واحدة، ولكنه إيهام الأسطورة، إن حضارة دهلى تتحدث فى «باغ وبهار» وتتحرك صورها وتصور أمراءها، أعيادها، مناظرها وجمالها، ولائها

واحتفالاتها، عاداتها وتقاليدها وآدابها، كل شيء كان في دهلَى في تلك الفترة، وكل ما يمكن أن يكون فيها نجده في (باغ وبهار) فكان (باغ وبهار) صورة ناطقة صادقة للحياة وطبيعي أن الأدب وحده هو الكفيل بتبيان ذلك .

ومن أمثلة أثر البيئة الهندية في قصص «باغ وبهار»، نجد الأخت تودع أخاها طبقاً للعادات الهندية:

«وعقدت روية الإمام الضامن في عضدى، ووضعت علامة (الماست) على رأسى، (*)، وقالت حابسة دموعها: «عش محموداً طيباً، استودعك الله سبحانه وتعالى، أرجع سريعاً كما ذهبت»، (٢٢).

وكذلك وداع الدرويش الأول لعيسى الجراح:

«وشددت على يده قائلاً: «لقد أحييتنى بفضل براعتك وسعيتك لشفائهما؛ ولم ينفذنى من الموت سواك، غنمك الله السلامة، ومنحته نبات «البان»»، (٢٣).

وعند وصفه لمجلس الطرب في حديقة التاجر يوسف يقول:

«حضر إلى المجلس أربعة فتيان في غاية البهاء والحسن، مسترسل شعرهم، وأخذوا يغنون ويصفقون، فلحضر إلى هذا العالم «تان سين» وسمعهم لنسى فنه كله، وبعد أن يسمعه «بيجو باؤر» (***)، ذهب عقله»، (٢٤).

فبالرغم من أن قصة الدرويش الأول تدور أحداثها في «بغداد» و «دمشق»، إلا أن العادات التي وردت بها تخص الشعب الهندي على وجه التحديد مثل عادة توديع المسافرين بروية الإمام الضامن، ووضع الماست على رأسه، وتوديع الضيف بنبات «البان»، كذلك الاستعانة بأسماء فنانى الطرب المشهورين في الهند مثل «تان سين» و «بيجو باؤر» .

ومن العادات الهندية أيضاً أن تحرق المرأة نفسها، بعد أن يموت زوجها وفاء له، مثلما فعلت زوجة «خواجة سك پرست»، السيد المولع بالكلب بعد أن بلغها نبأ موته (٢٥).

فتلك الأمثلة للعادات الهندية الخاصة التي تخللت أحداث القصة، ماهى إلا برهان قاطع على تأثر الكاتب ببيئته مما انعكس على عمله الأدبي الرائع «باغ وبهار» .

(٥) الشخصيات أو الأدوار:

والشخصيات فى «باغ وبهار» تتسم بنفس الخصائص التى تتسم بها الشخصيات فى كل القصص بصفة عامة، فإذا وضعنا هذه الشخصيات أمام أعيننا منذ بداية الحدث الرئيسى لل قصة، ثم أخذنا نتقدم مع هذا الحدث، فإننا سنجد لكل شخصية ما يميزها من حيث الملامح والسلوكيات وسنلمس تطورا فى تلك الشخصيات كلما توغلنا بين ثنايا سطور القصة وإن كان هذا التطور يبدو قليلاً للغاية، فالشخصية الطيبة فى القصة تبدو فى أقصى درجات الطيبة، وكذلك الشخصية الشريرة ولا يبدو عليها أى أثر من آثار تجارب الحياة وخاصة شخصيات الرجال^(٢٦). فهى ليست بالمستوى اللائق فنياً، حيث لا نجد فيها التطور الطبيعى وخاصة شخصيات الدراويش الأربعة^(٢٧) فهم يبدون ذوى ملامح واحدة وسلوك واحد وصفات واحدة من حيث الشجاعة والسخاء والجود، وقدرتهم العظيمة على إنجاز الأعمال التى تتطلب صلاحيات خاصة لكن فى الغالب، فإن القوى الغيبية تتدخل فى إنجاز أكثر تلك الأعمال، لأن هذه الشخصيات تتسم بالجهل فى كثير من أمور الحياة ولا وجود لشخصية رجل فى (باغ وبهار) تسترعى اهتمامنا بقوة شخصيتها وتفردتها فيما عدا بعض الشخصيات الفرعية^(٢٨).

والدراويش الأربعة يشتركون فى صفة واحدة ألا وهى العشق والمحبة، وربما فضل «ميرأمن» تلك الصفة التى يتصف بها معظم شخصيات قصته لأن تلك الصفة كانت هى الغالبة على شخصيات القصص فى عصره من أعلى طبقة إلى أدناها، ومن الواضح بصفة عامة أن كل تلك الشخصيات تفتقد الهمة والميل إلى المثل الأخلاقية ولهذا فإن هذه الشخصيات، مع اتصافها الظاهرى بتلك الصفات (الأخلاق والتدين) إلا أنهم جميعاً كانوا ذوى بأس عظيم، وهم أيضاً يشعرون بالوحدة الموحشة، وهم دراويش فى الظاهر مع أن كلا منهم أمير لملك عظيم، وكل منهم يخرج للبحث لى يصل إلى هدفه، وهو يصل إليه بعد أن يظهر الجرأة والهمة.

«ومع أن الأبطال الأربعة لباغ وبهار ينتمون إلى ممالك متباعدة إلا أنهم يتفقون فى الصفات الشخصية مما يدل على أن ميرأمن صاغ تلك الشخصيات فى قالب واحد من حيث الوصف والسمات الشخصية، ثم منحها أسماء مختلفة»^(٢٩).

فوجد الدرويش الأول وقصته تعتبر أروع جاذبية من حيث الفن القصصى - هو ابن لتاجر كبير يبدد أموال أبيه الطائلة بعد وفاته، لمصاحبه رفاق السوء، ثم يلجأ لبيت أخته بسبب الفقر، مرتدياً رداء القحة وعدم الحياء حيث يلجأ وهو رجل إلى أخته طلباً للعون والمأوى وأخته مثل أى أخت تبذل حياتها لأخيها وتساعده بكل ما تستطيع لتجعل منه إنساناً ناجحاً، وأخيراً تستيقظ نخوته وغيرته، ويبدأ سفره الروحاني، ويجد فى الطريق أميرة دمشق، ويضحى لينقذ هذه الأميرة من الموت، مظهراً سلوك خدمة الخلق وحب الإنسان ويغلب على عشق الدرويش الأول عنصر الخنوع والمذلة وعدم الوقار، لكنه عاشق وفى لا يميل إلى أى امرأة سوى أميرة دمشق بل إنه عندما تبوح الأميرة بسر عشقها، لا يبدو عليه أى تغير فى نخوته ووفائه.

أما فيما يتعلق بالدرويش الثانى (أمير فارس) فإنه بعد أن سمع عن جود وسخاء أميرة البصرة، وضع نصب عينيه أن يلتقى بتلك الأميرة، ولهذا ترك العرش والتاج لوزيره واتجه صوب البصرة وبعد لقائه بأميرة البصرة تقرب إليها وصرح بعشقه لها عن طريق الوساطة، لكن حتى أثناء إظهار العشق كان الدرويش الثانى ذا وقار واقتدار وحياء وخجل، وذهب من أجل الأميرة ليأتى لها بسر أمير نيم روز، ورغم ما فى ذلك من مشقة ونصب لكنه لم يعد بعد أن عرف، بل إنه أظهر روح الإيثار ولازم أمير نيم روز: وخرج ليبحث له عن معشوقته، وعلى كل حال فإن شخصية الدرويش الثانى تتميز بالسخاء والجود والوفاء والإيثار والوقار.

أما الدرويش الثالث (أمير العجم) فإن رحلته الروحية ضعيفة للغاية، فقد صيغت بداية الرحلة بطريقة جيدة وأسلوب حسن حيث رأى الدرويش أميرة الإفرنج فى منامه فوقع فى حبها، ومن أجل هذا الغرض سردت قصة (نعمان سياح) لكن عندما تتوالى أحداث القصة، نجد أن الأمير لم يتحمل فى سبيل عشقه القدر الكافى من الجهد والمشقة، فيما عدا تعرضه للخطر عندما ذهب لبلاد الإفرنج، وسعى فى جنازة عاشق الأميرة وابن عمها رغم ما فى هذا التصرف من خطر على حياته وطبقاً لمقولة - إن الأمراء ينتظرون حتى ينضج الطعام ثم يأكلونه - فعندما تأتى المواقف الصعبة والهامة نجد الدرويش يقف هامئاً متفرجاً فقط، ويخوض القائد الفارس (بهزاد خان) كل المعارك نيابة عنه، وحتى عندما تسقط الأميرة فى .

الماء وتغرق، فإن من يغامر بحياته فى تلك اللحظة ويقفز خلفها بحصانه هو الفارس (بهزادخان)، وهكذا فإننا نجد الدرويش الثالث يحجم أمام المهام الجسام وكأنه لا يقدر عليها، فيما عدا موضع واحد فقط هو الذى أقبل فيه على المخاطرة بحياته حين شارك فى جنازة العاشق القتيل، رغم تحذير الملك من قتل من يشارك فى تلك الجنازة.

والدرويش الرابع هو أمير بلاد (الصين) وبعد وفاة أبيه تولى عمه الملك، ونزل الأمير إلى الحریم لتقوم الخادومات بتربيته، وحينما شب عن الطوق وأراد أن يتولى الملك خلفاً لأبيه، طمع عمه فى الملك وأراد التخلص منه، لولا خادمه الوفى (مبارك) والدرويش فى هذه القصة سلبى تماماً فهو يعتمد على (مبارك) فى كل شىء حتى فى إنقاذ حياته من بطش عمه، وهو منقاد له ويذهب معه إلى الملك الصادق ملك الجان ليطلب مساعدته، فوعده الملك بالمساعدة مقابل أن يأتى الدرويش بالفتاة التى يحبها الملك، فوافق الدرويش على الفور، وعلى الرغم من تحذير الملك الصادق له بألا يخون العهد، إلا أنه خان بالفعل حيث وقع فى حب تلك الفتاة ولم يحفظ عهده مع الملك الصادق، كما أنه بعثقه لهذه الفتاة خان ابنة عمه أيضاً وكان يحبها ويرغب فى الزواج منها، وهذا سلوك معيب. وعلى هذا فإن شخصية الدرويشين الثالث والرابع ضعيفتان فنياً ولا تتركان أى أثر خاص فى نفس القارئ.

وعلاوة على شخصيات الدراویش الأربعة فى قصة (باغ وبهار) فهناك شخصيتان لهما أكبر الأثر فى أحداث القصة وهما الملك (آزادبخت) و (خواجه سكرست - السيد المولع بالكلب).

فقد اعتبر أحد النقاد شخصية (آزادبخت) شخصية بطل رئيسى فى أحداث (باغ وبهار) بل إنه اعتبرها الشخصية الأساسية والمفتاح لأحداث القصة كلها^(٣٠).

وفى الواقع أن قصة (باغ وبهار) ليست قصة الملك (آزادبخت) بل إنها قصة الدراویش الأربعة، ولا تبدو قصة الملك (آزادبخت) فى الظاهر قصة واحدة بل إنها اتخذت وسيلة وذريعة لسرد قصتين آخرتين فقد رأينا فى قصة الملك (آزادبخت) أنه لم يسرد سيرته الذاتية بل حكى قصة (خواجه سكرست) وهى قصة تمثل ضمن ما تمثل : أولاً : الصراع بين أهل الخير وأهل الشر، ثانياً: صدق مقولة «اتق شر من أحسنت إليه»، وثالثاً: قد يكون الحيوان الأعجم خير للإنسان من أخيه الإنسان.

فنجذ في قصة (السيد المولع بالكلب) أنه حينما بلغ شقيقاه أقصى حد من حدود الشر والحد تجاه أخيهما، نرى (السيد) يبلغ أقصى حدود الخير معهما، ويحسن إليهما على الرغم من بطشهما المتكرر به، لدرجة أنه لا يجد مفراً من أن يحبسهما في قفص إنقائاً لشرهما، فقد كان (المولع بالكلب) على دين وخلق، وكم غفر لأخويه سلوكهما المشين معه، لكنه في النهاية اضطر لحبسهما، وفي الظاهر يبدو أن (المولع بالكلب) كان ذا شخصية جذابة، لأن أميرة (زيرباد وسرنديب) عندما وجدته وقد أشرف على الموت، أحبته ودخلت في دينه وضحت بحياتها من أجله، كذلك فإنه كان متمسكاً بدينه وعقيدته لأنه كان عندما يرغب في الزواج يجعل من سيتزوجها تدخل في دينه وتعتنق الإسلام ويعلمها أركانها، فلماذا فإن السيد المولع بالكلب كان جديراً بأن يزوجه الملك (آزادبخت) من ابنة وزيره رغم كبر سنه.

ومن الشخصيات الثانوية للرجال في قصة (باغ وبهار) شخصية التاجر «يوسف» الذي اتصف بحب الدنيا وملذاتها ولو على حساب الآخرين كما أنه غادر عديم الوفاء سافكاً للدماء لم يتورع عن قتل الأميرة على الرغم من كل ما قدمته إليه وصنعتة من أجله.

كذلك شخصية وزير الملك (آزادبخت) الذي يدعى «خردمند» وقد كان صادقاً ومحباً للحق حتى ولو ضحى بحياته، فقد واجه الملك «آزادبخت» بأن سلوكه حيال الافتتان بالجوهر، وهي حجر، أمر غير لائق، وفيه خروج عن الدين مما عرضه لسخط الملك وأوقعه في السجن، حتى استطاعت ابنته تخليصه من حبسه.

كما أننا نتأثر بفروسية ومروءة (بهزادخان) فقد كان شهماً شجاعاً يخف لنجدة الآخرين حتى دون أن يعرفهم، وهو الذي قاتل جيوش أمير الإفرنج دفاعاً عن الدرويش الثالث وقفز وراء الأميرة في البحر لإنقاذها مما عرضه للغرق معها.

بالمقارنة بين شخصيات الرجال وشخصيات النساء في (باغ وبهار) نجد الشخصيات النسائية أكثر حيوية وتعتبر من أحسن ما كتب «ميرامن» (٣١).

ومن تلك الأدوار النسائية دور بطلة قصة الدرويش الأول (أميرة دمشق) وهو دور مهم ومؤثر ففي هذا الدور توجد الصفات الطيبة ظاهرياً ومعنوياً معاً، وحالة الألم التي وجدها عليها الدرويش الأول عندما كانت جريحة وحبيسة في الصندوق بعد خيانة حبيبها لها

وإقدامه على قتلها، جعلت القارئ يهتم بها ويتعاطف معها وهذه هي الألفاظ التي وردت على لسانها:

«الحب والمعروف الذي أسديته لك هل هذا جزاؤه؟ اطعنى مرة ثانية. إننى فوضت أنصافى وإنصافك إلى الله، (٣٢).

فهى تثير فى القارئ انفعالات الرقة والرحمة وندرك أن الأميرة حتى وإن فاضت روحها فهى ثابتة فى العشق، لكن الأحداث التالية تثبت لنا أن أميرة (دمشق) قد تفوهت بهذه الألفاظ وهى تحت ضغط الألم والخطر وليس عن طيب خاطر، لكنها ما أن ساحت لها الفرصة حتى انتقمت ممن ظلمها وجنى عليها وهو التاجر يوسف، وجاربه فقد قتلتها شر قتلة، وهكذا نجد شخصية أميرة (دمشق) تنضج وتتطور مع نمو الأحداث وهى تتشكل فى كل موقف طبقاً لمقتضى الحال، فهى أيضاً تنسى وتتجاهل أحياناً ما أسداه لها الدرويش الأول من معروف وجميل، لكنها تعود وتقربه إليها وتتزوج عندما تتيقن من صدق مشاعره وحبه الجم لها ولثباته فى عشقها.

وبطلة قصة الدرويش الثانى فى (باغ وبهار) هى أميرة البصرة، وهى شخصية سخية جداً بدرجة تفوق (حاتم الطائى) فى جوده وكرمه، وهى مؤيدة للحق وصادقة وتؤمن بالقضاء والقدر فبسبب قول الحق يلومها أبوها الملك شديد البأس، لكن إيمانها الشديد بالقضاء والقدر يوصلها إلى مخزن ملء بالكنوز والنفائس لكن عندما حكى لها خادمها قصة عن أمير مدينة «نيم روز» تقرر الأميرة دون معقولة لقرارها أن من يأتى لها بخبر هذا السر الذى يجعل الأمير يقتل رجلاً فى مطلع كل شهر، ستتزوج وتكون طوع أمره، وكأنها تريد أن ترى من سيتزوجها مغامراً، مما يؤكد إيمانها بالقضاء والقدر أيضاً.

أما بطلة قصة الدرويش الثالث والدرويش الرابع أى أميرة الإفرنج وابنة الفقير الهندى الأعمى، فلا نجد فيهما أى جاذبية ولا روعة، فأميرة الإفرنج ترتضى فى أحضان الدرويش الثالث - بعد مقتل حبيبها - مثل الثمرة الناضجة (٣٣) دون أى عناء أو مشقة.

أما بطلة قصة الدرويش الرابع فهى تمثال مجسم للتسليم والرضا فبعد مقتل زوجها فى ليلة الزفاف، تقضى أياماً مظلمة مع أبيها الأعمى الفقير، وفى الظاهر لا يوجد فى قلبها أى شعلة لعشق تجاه أى شخص، وعندما تلتقى بالدرويش الرابع تحافظ على إتزانها على الرغم

من أنها تميل إليه دون سبب معلوم، فهي بسيرة في كل شئون حياتها منذ زوجها أبوها من ابن الملك، ثم زواجها من الدرويش الرابع أيضاً، وخضوعها لرغبة الدرويش في أن تذهب للقاء الملك «الصادق» ملك الجان، ثم موافقتها على الهروب منه أيضاً، فهي شخصية تنتقل من موقف إلى موقف مثل قطعة الشطرنج، دون أن تبدو منها أى خطوة تؤكد قوة شخصيتها، أو تتخذ أى موقف وتتمسك به حتى النهاية.

وثمة أدوار للنساء عديدة علاوة على أدوار النساء الأصلية، والتي لها دور ذو أثر كذلك، وأهم تلك الأدوار دور ابنة وزير الملك (آزادبخت) التي نجحت في إحضار (السيد المولع بالكلب) إلى قصر الملك (آزادبخت) لعلو همتها واستقلالها ودأبها، فقد نجحت في أن تطلق سراح أبيها من محبسه وأسلوب فكر ابنة الوزير وأسلوب عملها منطقي خالص، فإنها لا تتساق وراء انفعالاتها، ورغم حداثة سنّها، فإنها كانت رابطة الجأش عندما بكت أمها، ولامتها، وتذرت بالصبر والثبات، وقد قامت بالعديد من الحيل لتوقع (السيد المولع بالكلب) في حبالها، وإخفاؤها لأنوثتها يدل على أنها شديدة الحذر ذات فطنة ودهاء في سلوكها.

ونفأثر أيضاً بوفاء وثبات قدم زوجتي (السيد المولع بالكلب) أى ملكة (زيرباد) وأميرة (سرانديب) فهاتان المرأتان تدخلان في دين الله على يد (السيد المفتون بالكلب) وانتحرت أميرة سرانديب بعدما علمت بمقتل زوجها، كما ماتت أميرة (زيرباد) حزناً على مولودها.

وأقصر أدوار النساء لكنه دور حيوى هو دور تلك المرأة التي تتميز بالخبيث والدهاء الشديدين والتي شبيهها (ميرامن) - بخالة الشيطان - والتي وردت في قصة الدرويش الثالث - إنها ظهرت في القصة للحظة واحدة، ولكنها تترك في قلوبنا وأذهاننا، أثراً لا تمحى بسبب خداعها ومهارتها حيث احتالت على أميرة الإفرنج وادعت أنها عجوز معدمة لتطلع على سرها وتنال مكافأة الملك، وأخذت منها خاتمها الخاص لتبرهن للملك على صدقها.

ومما يسترعى النظر أن الكاتب قد استعان بعناصر ما فوق الفطرة وما وراء الطبيعة من جان ومردة وعفاريت في أحداث قصته واستخدام عناصر ما وراء الطبيعة سمة من سمات الأدب الأردى خاصة في إرهاباته الأولى تأثراً بالملاحم والأساطير، حيث لجأ الكاتب لهذا الأسلوب لإضفاء عنصر التشويق لقصصهم، ولضمان جذب إنتباه القارئ لها، ولاقتناع أهل

ذلك الزمان بوجود الجان والمردة، وما لديهم من قدرة على حل الأمور المستعصية والمعضلات (٣٤).

وعى اختلاف موضوعات القصص الأردنية القديمة، إلا أنها تتفق في شيء واحد، هو أنها تكاد تكون أحداثها ووقائعها وطريقة عرضها وبيانها واحدة لأنها اعتمدت على الجن والعفاريت أحياناً، أو على القصص العجيبة والغريبة في أحيان أخرى (٣٥).

فلم تخل قصة منها من ذكر الطلاس والسحر والجن والعفاريت والملك الذي لم يرزقه الله بالولد، ثم ببركة أحد المتصوفة الذي يدعو له دعوة صالحة يرزق بالولد (٣٦). وفي أثناء أحداث هذه القصة أو تلك، نرى حكايات العشق والغرام والصراع بين الإنس والجن والأمراء والسحرة (٣٧)، وكل ذلك ممكن ومقبول في دنيا الأساطير والقصص الهندية القديمة.

وقصة «باغ وبهار» شأنها شأن القصص الأخرى قد اعتمد مؤلفها على عناصر ما فوق الفطرة، لكنه لم ينجح كثيراً لاستخدام ذلك العنصر إلا في الضرورة فقط، ولم يخرج في توظيف شخصياته الخارقة عن إطار الحض على الصداقة والوفاء، ووضعها في دوائرها المناسبة مما أضفى جاذبية على قصته.

ونجد عناصر ما فوق الفطرة أو شخصيات العفاريت والجن في مواضع قليلة في «باغ وبهار» دون إسراف، لكنها مؤثرة وذات دور فعال في تطور الأحداث، وأول المواضع التي ورد فيها ذكر للجان والعفاريت، كان في قصة أمير «نيم روز» حيث ظهرت شخصية ابنة ملك الجن التي تسكن «جبل قاف»، ولولا وقوع أمير «نيم روز» في غرام تلك الصغرى لما أصيب بالجنون ولا التقى بالدرويش الثاني وتوالت أحداث القصة ولا كان هناك سبب وجيه لسرد الكاتب لقصة (أمير نيم روز) ضمن أحداث القصة الرئيسية (٣٨).

كذلك ظهرت شخصيات الجان مرة أخرى في قصة الدرويش الرابع متمثلة في شخصية الملك «الصادق» ملك الجان، الذي كان صديقاً لوالد الدرويش الرابع ملك الصين، وقد استخدم المؤلف شخصية الملك «الصادق» ليخرج الدرويش الرابع من أزمتته الأولى مع عمه الملك، كما جعله سبباً في اتصال الأحداث، ولقاء الدرويش بمعشوقة الملك «الصادق» والفوز بها.

وشخصية ملك الجان هنا شخصية تتمتع بمواصفات نبيلة سامية، حيث إنه يعرف حق الصداقة لصديقه ملك الصين الراحل ويهب لنجدة ابنه عندما لجأ إليه، ويمتد الخيانة

ونقض العهود، حيث نجده يحذر الدرويش من مغبة الخيانة وسوء عاقبتها، وشخصية الملك الصادق تتفوق على شخصية الدرويش (أمير الصين) وتبدو أعظم نبلاً ورقياً، في حين يبدو الدرويش خائناً للعهد متذبذب المشاعر (٣٩).

وتتجسد عناصر ما فوق الفطرة في خاتمة القصة أيضاً متمثلة في شخصية ملك ملوك الجان «شهبال»، الذي جعل منه المؤلف سبباً في إطلاق سراح الأميرات المختطفات من قبل الجن وتزويجهن للدراويش الأربعة، وتزويج ابنته لابن الملك «آزادبخت». وشخصية ملك الجان «شهبال» شخصية هامة لها عظيم الأثر في أحداث القصة، وعلى الرغم من أن ظهورها على مسرح الأحداث لم يستغرق إلا وقتاً قصيراً للغاية، إلا أن تلك الشخصية تعتبر شخصية محورية حيث اعتمد عليها المؤلف في انفراج عقدة كل قصص «باغ وبهار» مما أدى إلى بلوغ الأحداث منتهاها (٤٠).

وقد نجح «مير آمن» إلى حد بعيد في توظيف عناصر ما وراء الطبيعة من جان ومردة في المواضع التي رأى أنها تستلزم هذا التوظيف دون مبالغة أو إفراط أو شطط في أحداث القصة، فجاء هذا التوظيف مشوقاً وجذاباً، مما أضفى على القصة المزيد من الجودة والانتقان.

هوامش الفصل الثالث

- (١) عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، ط٧ القاهرة ١٩٧٨م، ص١١٢.
- (٢) Muir, Edwin. The Structure of the Novels, The Hogarth Press, London,, 1949, p. 16.
- (٣) اردوكى نثرى داستانين: ص٣٧٩.
- (٤) زهرا معين: باغ وبهار كاتنقيدى مطالعة، ص٨٣.
- (٥) ميشيل بوتور: بحوث فى الرواية الجديدة، ت. انطونيوس، بيروت ١٩٨٢م، ص١١٧.
- (٦) يمنى العيد: تقنيات السرد الروائى، ط١، لبنان، دار الفاريسى ١٩٩٠م، ص٩١.
- (٧) حسن بحراوى: بنية الشكل الروائى، المركز الثقافى العربى، بيروت ط١٩٩٠، ص١١٩.
- (٨) باغ وبهار: ص٧١.
- (٩) باغ وبهار: ص٨٠.
- (١٠) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائى، ط١، بيروت ١٩٨٩، ص٣١٤.
- (١١) باغ وبهار: ص٨٢.
- (١٢) باغ وبهار: ص١٥٧.
- (١٣) باغ وبهار: ص٢٠٥.
- (١٤) R. Bourneuf et, R. Ouellet, "L' Univers du Roman", Ed. Puf, 1981, p.86.
- (١٥) باغ وبهار: ص٧١ إلى ١٣٢.
- (١٦) باغ وبهار: ص١٣٣ إلى ١٨١.
- (١٧) B. Volette; "Esthetique du Roman Modern", Paris, 1972, p. 93.
- (١٨) باغ وبهار: ص١٣٣ إلى ١٨١.
- (١٩) باغ وبهار: ص١٨٣ إلى ٢٦٣.
- (٢٠) باغ وبهار: ص٢٨٧ إلى ٣١٩.
- (٢١) ميرأمن سى عبد الحق نك: ص٤.

- * بعض العادات الهندية لجلب الرزق والبركة للمسافر .
(انظر : قمرآستان : آداب سلطنت ورسوم معاشرت، ط۲ ، غضنفر اکادمی ، پاکستان ، کراچی، ب.ت ، ص۵۶) .
- (۲۲) باغ وبهار : ص۸۷ .
- ** نبات البان : نبات له لون أحمر قانئ ويستخدم في تظهير الغم ويعطيه الناس في الهند لبعضهم البعض على سبيل التحية والبركة .
(فرهنگ آصفیة : سید أحمد دهلوی ، لاهور ، مكتبة سهیل (ب . ت) ص۱۰۷) .
- (۲۳) باغ وبهار : ص۹۱ .
- * (تان سین) (بیجو یار) : من أهم الموسیقیین الذین برزوا فی العهد المغولی فی الهند .
(انظر : ایس . ایم . اکرام ، وحید قریشی (د) : دربار ملی . ت . عبدالحمید یزدانی ، ط۱ ، کراچی، ۱۹۴۷م، ص۱۰۳) .
- (۲۴) باغ وبهار : ص۹۶ .
- (۲۵) باغ وبهار : ص۱۵۴ .
- (۲۶) فخر الإسلام اعظمی : سب رس سی خطوط غالب تک . اشاعت اول . دسمبر ۱۹۸۵م ص۷۸ .
- (۲۷) بروفسور محمد أرشد کیانی : قصة تکراری کار ارتقا . لاهور . د.ت . ص۱۴ وما بعدها .
- (۲۸) سید وقار عظیم : ہماری داستانیں . اردو مرکز . لاهور . ط۲ ص۸۵ .
- (۲۹) سلیم اختر : باغ وبهار کانتقیدی مطالعة : ص۷۹ .
- (۳۰) چیان چندچین : اردو کی نثری داستانیں : ص۳۷۹ .
- (۳۱) ہماری داستانیں ص۸۷ .
- (۳۲) رشید حسن خان : باغ وبهار ، ص۳۲ .
- (۳۳) ممتاز حسین : مقدمة باغ وبهار ، ص۴۱ .
- (۳۴) بروفسور حمید خان : مقدمه سفینه ادب (حصرة نثر) لاهور . اکتوبر ۱۹۶۶ م ، ص۱۰ .
- (۳۵) رام بابو سکسینہ : تاریخ ادب اردو، ترجمة میرزا محمد العسکری - غضنفر اکادمی . کراتشی . پاکستان ب.ت، ص۴۹۹ .
- (۳۶) د. أبو اللیث صدیقی : آج کا اردو ادب . کراچی . ط۲ ، ۱۹۸۲ م ، ص۱۷۴ ، ۱۷۵ .
- (۳۷) اس . ام . معین قریشی اردو زبان و ادب . ط۱ ، کراچی ، اپریل ۱۹۸۶م ، ص۶۷ .
- (۳۸) انظر : باغ وبهار ، من ص۱۸۳ إلى ۲۶۳ .
- (۳۹) باغ وبهار : من ص۲۸۷ إلى ۳۱۹ .
- (۴۰) باغ وبهار : من ص۳۱۳ إلى ۳۱۷ .

الفصل الرابع

المعنى الفكرى فى «بانج وبهار»

لم يكن الهدف من القصص القديمة مجرد التسلية والترفيه فقط وإنما كانت تقصد إلى تعليم شيء ما أيضاً و«باغ وبهار» من هذا النوع (١) .

فهذا الكتاب يعد من الكتب القلائل التي تتعرض للأخلاقيات في الأدب الأردى بل إنه - كما يرى البعض - يعد بحق صحيفة مجسمة للأخلاق (٢) .

فقد وضع «مير أمّن» قيمة الأخلاقية وألقى الضوء على محاسن الإسلام والمسلمين فى كل موضع من «باغ وبهار» على لسان شخصيات قصته وساق الحكم والمواعظ والصفات الإنسانية الرفيعة لكن على نحو غير مباشر مما زاد فى روعة القصة . جعل «مير أمّن» من الجانب الترفيهى والجانب الأخلاقى التعليمى خطين متوازيين يسيران جنباً إلى جنب من بداية القصة إلى نهايتها .

والأخلاق والحكم والمواعظ فى «باغ وبهار» لا حصر لها وبما أن المجال لا يتسع هنا لذكرها كلها فسوف أقدم بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر والقليل أمانة على الكثير :

ففى قصة الدرويش الأول عندما رغب الملك «أزادبخت» فى التخلّى عن العرش والخروج من المملكة للسياحة والسفر يقدم لنا المؤلف درساً فى ضرورة عدم تنصل المسئول من مسئوليته والراعى عن رعيته فيقول على لسان الوزير :

«يا قبلة العالم اطرح هذا الوهم عن قلبك، فلست من يترك العالم فى صراع مستمر وقد أقيمت هذه السلطنة بجد واجتهاد سموكم العظيم ، ولو أفلت زمام هذه البلاد من يد جلالتك ولو للحظة وخرجت نتيجة للجهل والحمق، فستفنى وتنهار تماماً لا قدر الله ، كما أنه فى يوم القيامة .

عندما يسألك ربك ويقول لك : «لقد وليتك على هذا الملك وحملتك مسئولية الرعية فليست من رحمتنا وجعلت الرعية فى حيرة واضطراب فيماذا ستجيب على هذا السؤال ؟ عندئذ لن تجديك العبادة فى ذلك اليوم المهيب شيئاً ، ولهذا فقلب الإنسان هو بيت عبادة الله وسيسأل الملك عن عدله فقط... والسياسة فى الغابات من شأن النساك والزهاد، وليست من شيم الملوك (٣) .

ومن القيم الأخلاقية التى حرص المؤلف على إبرازها ، قوله فى سوء عاقبة من يصاحب رفقاء سوء ويأمن لهم :

«الخلاصة أن شيطان الإنسان إنسان مثله، فضلت الطريق القويم وتبدل الزمان ، وبدأت ممارسة الغناء والرقص فى كل وقت ونسيت التجارة واشتغلت بالميسر، فلما رأى الرفاق والخدم أننى غافل تمام عن ثروتى ونجارتى، بدأوا يأخذون منها ويسرقونها وأنا لا أدرى شيئاً عن النفقات والمصاريف، من أين تأتى ولا إلى أين تذهب ، فالمال بلا حساب والقلب قاس ومع تلك الحال حتى لو أننى كنت أملك خزائن قارون لم تكن لتبقى، وفجأة أصبحت فقيراً لم يبق لى من اللباس سوى ما يستر بدنى، وتكرلى كل الناس حتى أصدقائى وندمائى بل إننى كنت إذا التقيت بهم فى الطريق يشيخون بوجوههم عنى، (٤) .

ودرس أخلاقى ثالث يتمثل فى ضرورة خروج الرجال للعمل لتكون رجولتهم حقه نقول أخت الدرويش الأول: يا عزيزى أنت أخى ونور عينى وتذكرك لوالدى ولقد طابت نفسى لمقدمك لكن الله تعالى خلق الرجال للكسب والكد والعرق، أما الدعة فى البيت فليست من شيم الرجال، والرجل الذى يلزم البيت يتعرض للملام (٥) .

وهذه حكمة تحض على العدل حيث يقول : «العدل واجب وينبغى للإنسان ألا يجانب العدل والإنصاف» (٦) وكما قال فى الوفاء بالعهد : «كى تكون رجلاً ينبغى أن تفى وأن تكون فعالاً قولاً» (٧) .

وفى قصة الدرويش الثانى أورد الكاتب قصة «حاتم الطائي» كاملة لما فيها من كرم ورفعة خلق وشهامة ومرءة وإيثار (٨) .

وهذا درس آخر ونصح بنبذ رذيلة الطمع يقول على لسان الدرويش الثانى :

«من حرف الفاء الفاقة، ومن حرف القاف القناعة، ومن حرف الراء الرياضة، فمن لا يعمل بهذه الأحرف فليس بفقيه، فكل وأنفق مما حصلت عليه منى، ثم عد وأطلب منى مرة ثانية فإن الصدقة تمنح لرفع الفاقة لا لجمعها وادخارها أيها الطماع، (٩) .

وهذا درس فى التواضع تقول أميرة البصرة: «ليس من اللائق التفاخر بالملك والحديث عنه فى الدنيا لأن كل الناس سواء فى الحقيقة، إلا من شرف بدين الإسلام فهو الأفضل»، (١٠) .

كذلك أراد «مير آمن» أن يعلمنا أن القدر حتم والقدر لا بد وأن يقع، وقد أيد نظريته هذه بكثير من القصص مثل قصة غضب الملك من أميرة البصرة وطردها فى حالة من العسر الشديد ثم غناها مرة أخرى (١١) . وقصة جنون أمير «نيم روز» فى السنة الرابعة عشرة من عمره (١٢) .

وفى قصة الملك «آزادبخت» يقدم لنا المؤلف نصيحة بالتريث والتأنى فى الحكم فعندما أمر الملك «آزاد بخت» بقتل وزيره «خردمند» حينما شعر أنه يكذب عليه وقف سفير ملك الفرنجة بين يدي الملك وقال : «التمس من جلالكم أن تتحقق من تقصير الوزير، فقلت له: «وهل هناك ذنب أكبر من الكذب؟ خاصة أمام الملوك؟ فقال السفير : «لم يثبت كذبه، ربما كان كل ما ذكره صدقاً ومن غير المناسب الآن قتل البريء»، (١٣) .

وهذه نصيحة أخرى بالصبر على البلاء على لسان ابنة الوزير «خردمند» : قالت ابنة الوزير: «يا أمى العزيزة!! إن القدر لا يُحارب، عندما يبطل الإنسان عليه بالصبر وبالأمل والرجاء فى الفضل الإلهي، فإنه كريم لا يدخل الإنسان فى مأزق إلا وعنده منه المخرج» (١٤) .

ويقدم لنا درساً فى نعمة رضاء الوالدين على لسان ابن التاجر (ابنة الوزير) يقول : «والد هذا الإنسان قد سمح له بالسفر لعام واحد فقط، ولو تأخرت فإنه يموت فى شيخوخته، ورضاء الأبوين من رضاء الله، فلو أنهما غضبا على أخشى أن يدعوا على فأكون محروماً فى الدنيا والآخرة»، (١٥) .

أما قصة «السيد المولع بالكلب» فهي كلها عبارة عن درس فى ضرورة الوفاء والإخاء والعدل والصدق، كما يبين الكاتب أيضاً فضائل الدين الإسلامى وحמיד خصاله وينفر من الكفر والإلحاد ويحث على الإيمان ولنر ما ورد على لسان «السيد المولع بالكلب» من سخط

على الكفر وترغب للأميرة في اعتناق دين الإسلام قلت : «الإنصاف شرط، لو تكرمت فلتفكرى في أن الخالق الذى خلق الحبيب مثلك من قطرة ماء ووهبك هذا الحسن والجمال لتخلبى لب آلاف البشر فى آن واحد، هل هو جدير بالعبادة ؟ وما الصنم حتى تعبدينه ؟ إنه حجر نحته الناحتون وجعلوا له صورة وخدعوا به الحمقى من الناس الذين أضلهم الشيطان وهم يعتقدون أن المصنوع هو الصانع، فالذى يصنعونه بأيديهم يحنون رؤوسهم أمامه، ونحن المسلمين نعرف الذى خلقنا ونؤمن به، وقد جعل لهم جهنم وجعل لنا الجنة، ولو شرفت الأميرة بشرف الإسلام، فستدرك حلالة الإيمان وتفرق بين الحق والباطل وتدرك خطأها، (١٦) .

وفى قصة الدرويش الرابع يقدم المؤلف لنا عظة فى ضرورة الحياء قالت الحسناء : أيها الشاب اتق الله لا تنظر إلى غير محرم فالخجل والحياء من حسن الأدب (١٧) .

وأيضاً درس فى الأمانة قال لى : هذه أمانه للملك «الصادق»، واحذر أن تخونه فيها (١٨) .

أما القصة بتمامها فهى عبارة عن درس كبير فى ضرورة الصبر على الشدائد والآلام وأنه فى النهاية لابد أن يدرك الإنسان مقصده ومطلبه طالما كان هدفه نبيلاً وشريفاً، كل تلك الأسباب جعلت لكتاب «باغ وبهار» أهمية خاصة فى تاريخ القصة فى الأدب الأردى «فباغ وبهار» هى الإرهاصات الأولى وأول نموذج للقصة المكتوبة فالعناصر التى تميز الرواية من شخصيات ومشاهد وخلفية اجتماعية ثقافية وأهداف إصلاحية لا تخلو منها «باغ وبهار» يمنحها أهمية خاصة فى تاريخ الأدب الروائى، كما أن «باغ وبهار» تعتبر بمثابة وثيقة وخريطة للحياة الاجتماعية والحضارية فى الفترة التى ألفت فيها، وشخصيات تلك القصة تقدم دليلاً حياً على ذلك أيضاً.

فتلك القصة بكل ما تحويه تعكس صورة حية لحضارة العصر كذلك لغتها وأسلوب بيانها وما ورد فيها من نصائح وحكم وأخلاق ، كل هذه الأسباب مجتمعة تجعلنا نتفق مع معظم النقاد على أهمية «باغ وبهار» ، مما جعل لها مكانة فى تاريخ الأدب الأردى حتى اليوم .

هوامش الفصل الرابع

- (١) مولوى سيد محمد : باغ ويهار ايك مطالعه ، اشاعت اول . اعجاز ببلشذك هاوس ، نى دهلى . أبريل ١٩٨٣ م ، ص ٢٣٤ .
- (٢) كلج خويى : مقدمة ، خواجه أحمد فاروقى ، ص ٧٠ .
- (٣) باغ ويهار : ص ٧٦ .
- (٤) باغ ويهار : ص ٨٤ .
- (٥) باغ ويهار : ص ٨٦ .
- (٦) باغ ويهار : ص ١٠٩ .
- (٧) باغ ويهار : ص ١٣٨ .
- (٨) انظر باغ ويهار : من ص ١٣٥ إلى ص ١٣٩ .
- (٩) باغ ويهار : ص ١٤٠ .
- (١٠) باغ ويهار : ص ١٥٠ .
- (١١) باغ ويهار : ص ١٥٧ إلى ١٦٥ .
- (١٢) باغ ويهار : ص ١٦٦ إلى ١٨٢ .
- (١٣) باغ ويهار : ص ١٨٧ .
- (١٤) باغ ويهار : ص ١٩٠ .
- (١٥) باغ ويهار : ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
- (١٦) باغ ويهار : ص ٢٣١ .
- (١٧) باغ ويهار : ص ٢٩٧ .
- (١٨) باغ ويهار : ص ٣٠٤ .

الباب الثالث

دراسة نقدية لكتاب «باغ وبهار»

الفصل الأول

مصادر باغ وبهار

شفاهة . وبسبب دعاء مرشده «نظام الدين» راجت هذه القصة فى الفارسية(١) .
وقد ترجم «ميرامن» - على حد قوله - قصة الدراويش الأربعة بناءً على طلب «جلجرت»،
فى المحادثة الهندية الخالصة(٢) .

والقصة الفارسية «الدراويش الأربعة» التى نسبها «ميرامن» إلى «أمير خسرو»
تعتمد على الحكايات السمعية والشفهية لاعلى الواقع، وعلى وجه العموم قد تنسب أى
قصة أو واقعة إلى شيخ صالح تبركاً به وذلك درءاً لتلك النظرة المتشككة التى كان ينظرها
علماء ذلك الزمان للقصص والحكايات ظناً منهم أنها تفسد الأخلاق، وهكذا قالوا عن «وامق
وعذرا» و«يس ورامين»(٣)، ولهذا فقد نسبت قصة «جهار درويش» إلى «أمير خسرو» وذكرت
معها قصة «نظام الدين أولياء» حتى تكتب لها الشهرة والذیوع وحتى لا يظن بها بعضهم ظن
السوء(٤) .

ومن المصادفات العجيبة أن شخصية «أمير خسرو الدهلوى» قد أثرت تأثيراً واضحاً فى
الأدب الفارسى كما نسبت إليه كل القصص المعقدة والحكايات الغريبة مثل من كانت أم
«أمير خسرو» وكم كان بارعاً فى الموسيقى؟ ومادوره فى ابتكار آلة الطبل والعود؟ وما هى
علاقته بالانشاد؟ وهل صنف «امير خسرو» «خالق بارى» أم أحد غيره؟ وهل كتب
«امير خسرو» كتاب «أفضل الفوائد» المشتمل على أقوال «نظام الدين أولياء» أم غيره؟ والأشعار
الهندية التى تنسب إلى «امير خسرو» هل هى من فيض قريحته أم منسوبة إليه؟ أو قصة
«الدراويش الأربعة» التى نسبها «ميرامن» إلى «امير خسرو» هل هى تصنيفه أم لغيره؟

وقد حاول كل من له إلمام بمؤلفات وأحوال «أمير خسرو» أن يجيب عن تلك التساؤلات وقد وصلوا في بعض الأمور إلى نتيجة طيبة.

وقد كتب أحد النقاد مقالاً مفصلاً ومدعماً بالأدلة عن قصة «ال دراويش الأربعة» الفارسية وهو ملحق بمقالات شيراني، ولم يكن أمام «شيراني» سوى النسخة الخطية لقصة الدراويش الأربعة التي كتبها (محمد علي المعروف بمعصوم علي خان) فاستنتج «شيراني» في ضوء الشواهد الداخلية والخارجية، أن «باغ وبهار» ليس إلا ترجمة للنسخة الفارسية «لمعصوم علي خان» وأنها ليست لأمير خسرو الدهلوي ونلخص دلائل «شيراني» فيما يلي:

١ - لم يذكر «أمير خسرو» أو أي مؤلف من مؤلفي التذاكر ممن تناولوا سيرته أي شيء يتعلق بـ «جهار درويش».

٢ - ألقت كتب عديدة حول حياة «نظام الدين أوليا» وأقواله ذكرت فيها أحواله بالتفصيل، دون أن يرد في أي منها ذكر لقصة «ال دراويش الأربعة».

٣ - كتبت النسخة الخطية الفارسية لقصة «ال دراويش الأربعة» في القرن الثاني عشر الهجري على وجه التقريب ولم يعثر على أي نسخة قبل هذا التاريخ، ويبدو أن هذه القصة ألقت حوالي القرن الثاني عشر، فلما اشتهرت هذه القصة قبل هذا التاريخ لأشير إليها في «آئين اكبرى» الذي وردت فيه أشهر القصص في ذلك العهد،

٤ - ورد ذكر «أمير خسرو» و «نظام الدين أوليا» في نسخة «ال دراويش الأربعة» لأمير أحمد خلف شاه محمد ولم يرد لهما ذكر في قصة «ال دراويش الأربعة» التي ألفها «حكيم محمد علي المخاطب بمعصوم علي خان».

٥ - جاءت في كتاب «ال دراويش الأربعة» الفارسي أشعار «الحافظ» و «فغانى» و «نظيرى» و «عرفى» و «شاهبور» الذين كانوا لاحقين لـ «أمير خسرو» وورد القليل من أشعار وأقوال الشيخ «سعدى» الذي كان معاصراً لـ «أمير خسرو».

٦ - وقد ذكرت في مواضع عديدة من كتاب (جهار درويش) عملة «التومان» و «الأشرفى» وهاتان العملةان راجتا بعد عهد «أمير خسرو» كما أن «التومان» عملة إيرانية خالصة ولم تترج في الهند في ذلك الوقت.

٧ - ذكرت خلال القصة أسماء العديد من المناصب مثل (قورچيان وكشكچيان واشك آقايان، وكيل السلطنة خزانه دارو وامير آخور وغيرها) وقد راجت هذه المصطلحات في الهند بعد مجيء المغول إليها، ولا توجد أسماء هذه المناصب في عهد «امير خسرو».

٨ - وردت في القصة الفارسية هاتان العبارتان:

(مذهبي هو محبة الأئمة الاثنى عشر وأداء الصلاة والسلام) (يجب عليك وقت المصلحة أن تظهر التقية وأن تسجد للصنم بغير تذمر).

ويتضح من هاتين العبارتين أن مؤلف القصة الفارسية كان شيعياً اثني عشرياً، ومعروف بالقطع أن «امير خسرو» كان سنياً.

واستخلص «شيراني» من تلك الشواهد أن «باغ وبهار» ليس ترجمة لقصة «چهار درويش» الفارسية التي ألفها «امير خسرو» بل إنها ألفت بعد فترة طويلة من عهده^(٥).

ومال «مولوى عبد الحق» إلى اعتبار «باغ وبهار» ليست ترجمة عن «چهار درويش» لأمير خسرو الدهلوي، ورجح أن يكون «ميرامن» قد وضع أمامه «نوطرز مرصع» لـ «ميرزا عطا حسين تحسين خان» وكان دليله على ذلك التشابه بين الكتابين في الكثير من المواضع^(٦).

ويقول «سيد قدرت نقوي»:

«لم تكن لدى الشيخ عبد الحق في ذلك الوقت نسخة «فورت ولیم كالج» إذ كتب على الغلاف الخارجى لنسخة فورت ولیم كالج الآتى: «باغ وبهار تأليف ميرامن الدهلوي ومصدرها نوطرز مرصع المترجمة عن قصة چهار درويش الفارسية لعطا حسين خان».

وقد أكد «جلجست» هذا الأمر في المقدمة أيضاً فقال:

«إن أول من ترجم قصة چهار درويش إلى الأردية هو مير حسين عطا خان تحسين وأسماءها «نوطرز مرصع» ولكنها تعتبر ترجمة غير فصيحة من الناحية الأدبية، إذ أن فيها فقرات ومحاورات وجمل من العربية لاتحصى، أما ميرامن والذي يعمل في «فورت ولیم كالج» فقد ابتعد عن أسلوب حسين هذا، وتبنى اسلوباً سهلاً بسيطاً ونجح فيه إلى حد كبير ويمكن أن يعرف هذا علماء اللغة الأردية^(٧).

وهكذا أيضاً ذكر «مستر ايل ايف سميث» في تمهيده لباغ وبهار التي ترجمها إلى الإنجليزية وطبعها: «لقد أخذ مير أَمَن قصة باغ وبهار من نوطرز مرصع لتحسين» (٨).
وبناءً على هذه الأقوال كلها فإن «مير أَمَن» برىء من التهمة المنسوبة إليه (ترجمته عن جهاز درويش الفارسية) إلا أنه حقيقة لم يذكر «نوطرز مرصع» في المقدمة لأسباب عدة منها:

- ١- أنه كتب ذلك على غلاف الكتاب وفي مقدمة «جلجست» فليس من المناسب التكرار.
- ٢- من المسلم به أن «نوطرز مرصع» كان عند «مير أَمَن» وكذلك النسخة الفارسية أيضاً المجهولة المصدر والمؤلف إذ أننا نجد أحياناً اختلافاً بينه وبين «نوطرز مرصع»، وعلاوة على الكتابين السابقين فقد كانت القصص المروية شفهيّاً على ألسنة الناس في هذا الموضوع محفوظة لدى «مير أَمَن» ويغلب على كتابه طابع هذه القصص المسموعة، أما «نوطرز مرصع» فهو يخلو من ذلك.

ومن المرجح أن «جلجست» كان قد اختار «نوطرز مرصع» ليقدمه إلى مجلس كلية «فورت ولیم» لكن عندما قدم هذا الكتاب إلى المجلس، قرر المجلس أنه ليس على المستوى المطلوب واللائق، فأشار «جلجست» على «مير أَمَن» بترجمته، ولكي يحسن من موقف كتاب «نوطرز مرصع» جعله مصدراً لباغ وبهار، وقد قبل «مير أَمَن» هذا الاقتراح على مضض، ولهذا لم يذكر ذلك في المقدمة، و«جلجست» نفسه يعترف بأن «مير أَمَن» ابتدع أسلوباً جديداً، والكلام هنا عن الأسلوب حيث إن القصة والشخصيات وغير ذلك كان موجوداً من قبل سواء أمام تحسين أو «مير أَمَن» والفرق بينهما في الأسلوب فقط ولذا فإننا لانستطيع أن نقرر أو نسلم بأن مأخذ «باغ وبهار» هو «نوطرز مرصع» من عدمه دون أن نعقد مقارنة بين الكتابين لنخلص إلى نتيجة.

باغ وبهار ونوطرز مرصع:

تعد قصة «نوطرز مرصع» هي أول ترجمة أردية منشورة لقصة «جهاز درويش» قام بها «مير محمد حسين عطاخان» المتخلص بـ «تحسين» ويعتبر تحسين عميد الهاشميين الرضويين بمدينة «آناواه» وكان والده «محمد باقرخان شوق» أستاذاً في الشعر والخط، وقد بلغ تحسين أيضاً في الأردية والفارسية شعراً ونثراً وفي فن الخط إلى درجة رفيعة، وقد لقب في

فن الخط بـ (مرصع رقم) وفي الغالب ترجع تسميته لمؤلفه في الأردنية «نوطرز مرصع» إلى هذا السبب^(٩).

وليست لدينا أية معلومات عن المراحل المبكرة لحياة تحسين والغالب أنه ارتبط بجنرال «اسمته» في «بنته» وقد رافقه إلى «كلكتا»، ومكث «اسمته» في الهند منذ يناير ١٧٦٨ م وأغلب الظن أنه رحل عنها في نهاية عام ١٧٦٩ م، وأثناء السفر إلى «كلكتا» أسمعته عزيز لديه قصة «جهار درويش» ليسرى عنه، فلما سمعها «تحسين» أراد أن ينقلها إلى اللغة الأردنية ولم يقم «جنرال اسمته» في «كلكتا» فترة طويلة بل عاد إلى إنجلترا وعند رحيله عن «كلكتا» توسط «تحسين» ليتولى منصب «وكيل نظارت» في «بنته»، فتوجه «تحسين» من «كلكتا» إلى «بنته»^(١٠) لكنه عزل من منصبه بسبب شكاوى الحساد، وأخيراً توجه إلى «فيض آباد» للبحث عن وظيفة بعد أن أقام في «بنته» عاماً أو عاماً ونصف، وعمل عند الحاكم الإنجليزي كابتن «هارير» وحدث هذا عام ١٧٧٢ م تقريباً ولعله التحق ببلاط «شجاع الدولة» عن طريق كابتن «هارير»، وقد تحين الفرصة ذات يوم وأسمع «نواب شجاع الدولة» بعض المواقف من قصة «نوطرز مرصع» فأعجب بها وأمره أن يكملها^(١١)، فبدأ في إتمامها، وأتمها بعد عدة أيام وأراد أن يقدمها إليه إلا أن موت «شجاع الدولة» قد حال دون ذلك، وعندما تولى «آصف الدولة» العرش أراد تحسين أن يقدم مؤلفة إليه فأضاف بعض كلمات المديح في الديباجة وقصيدة في مدحه ثم قدمها إليه ونجح في مهمته^(١٢).

وهكذا تم تأليف «نوطرز مرصع» في سنة ١٧٧٥ م بعد بدايته عام ١٧٦٨ م وقد ألف «نوطرز مرصع» في لغة أردية مغلقة للغاية مشحونة بالألفاظ والتراكيب الفارسية، وعلى حد قول «مهرجند كهترى» مؤلف قصة «ملك محمد وكيترو افروز» يقول «لم يستطع الإنجليز طباعة هذا الكتاب نظراً إلى أن تحسين ألفه في ألفاظ ثقيلة فصيحة وعبارات ثقيلة وموزونة»^(١٣).

وقد اعترض «جلجست» أيضاً - في مقدمته للطبعة الأولى الإنجليزية لـ «باغ وبهار» - على تعقيد والتواء ألفاظ «نوطرز مرصع» واستعمال الفارسية والعربية بغير ضرورة^(١٤).

ونقدم فيما يلي أهم الاتفاقات والاختلافات في قصة «باغ وبهار» و«نوطرز مرصع» والتي تتعلق عموماً بالأحداث.

والجدير بالذكر هنا أنه توجد اختلافات فى الأسلوب والتفاصيل إلى جانب الاختلافات الرئيسية .

فالاختلاف الرئيسى بين «نوطرز مرصع» و«باغ وبهار» هو الاختلاف فى ترتيب القصص والحكايات ففي «نوطرز مرصع» تأتى قصة الدرويش الثالث بعد قصة الدرويش الثانى مباشرة وبعد ذلك تأتى حكاية الملك «فرخ سير بادشاه» .

لكن فى «باغ وبهار» يتحدث الملك «آزاد بخت» بعد قصة الدرويش الثانى مباشرة أى قبل إيراده قصة الدرويش الثالث .

يوجد فى «نوطرز مرصع» مقدمة بروفيسور نور الحسن هاشمى اسم الملك «فرخنده سير» وإن كان المؤلف قد ذكر فى الهامش أن اسم الملك قد جاء فى بعض الكتب على أنه «فرخ سير» وفى البعض الآخر على أنه «آزادبخت» وفى معظم النسخ «فرخنده سير» (١٥) .

لكن المؤلف بنفسه كتب اسم الملك (فرخ سير) عندما كتب فهارس القصص فى بداية الكتاب، وأيضاً كتب هذا الاسم بلفظ واضح عندما بدأ قصة هذا الملك .

أما «باغ وبهار» فاسم الملك فيها هو «آزادبخت»، وذكر فى «نوطرز مرصع» أن عمر الملك «فرخنده سير» كان حوالى خمسين سنة (١٦) .

وجاء فى كتاب «باغ وبهار» أن عمر الملك «آزادبخت» أربعون سنة (١٧) .

وذكر فى «نوطرز مرصع» أن «فرخنده سير» كان ذات يوم مع صديقه، إذ رأى وجهه فى المرآة فوجد شعراً أبيض فى لحيته السوداء (١٨) .

أما باغ وبهار فجاء فيه أن الملك كان ذات يوم فى قصره مشغلاً بالذكر والتسبيح وبعد أداء الصلاة لمح وجهه فى المرآة فوجد شعراً أبيض فى شاربته (١٩) .

أخيراً أراد «آزادبخت» أن يتخلى عن أمور السلطنة فمنعه وزيره الذكى من هذا، وإتفق الملك مع الوزير وقرر منذ ذلك اليوم أن يجلس كل صباح فى القصر ليمارس مهام الملك، ويشغل بعد الظهر بالآذكار والأوراد والاستغفار ويدعو الله لما فيه الخير له (٢٠) .

ولكن الملك فى «نوطرز مرصع» كان يشغل فى النهار بأمور المملكة ومهامها، وبالليل كان يزور المقابر (٢١) .

أوجه الخلاف بينهما فى قصة الدرويش الأول:

جاء فى «باغ وبهار» أن والد الدرويش الأول كان ملك التجار خواجه أحمد (٢٢).
وأما «نوطرز مرصع» فجاء فيه أن والد هذا الفقير هو ملك التجار بدران ذكر اسمه (٢٣).
وكما يوجد اختلاف فى الأحداث، نجد اختلافاً أيضاً فى مواضع عديدة فى الكتابين من حيث التفاصيل وكيفية العرض، فعلى سبيل المثال:

يذكر «مير آمن» تفاصيل مراسم العزاء فى وفاة ملك التجار كما يلى:

«اجتمع فى سرادق العزاء لملك التجار كل من الأقرباء والأجانب والصغار والكبار، ووضعوا عمامة ملك التجار على رأس الدرويش الأول بعد قراءة الفاتحة ترحماً عليه، وقالوا له مواسة لقلبه: هكذا يموت والد كل شخص ووالدته، فاصبر!

وجمع الخدم كل الأموال، وعندما رأى اللصوص والانتهازيون والمجاهلون هذه الأموال، تقربوا إلى الدرويش الأول وشغلوه بالملذات والشهوات (٢٤).

ويقول تحسين:

«بعد عدة أيام من وفاة ملك التجار اجتمع الأقارب وقدموا التعزية لابنه وفرجوا عن قلبه الكسير، ولكن ما أن فرغ الحزين من أداء مراسم التعزية حتى بدأ يحتفل مع أصدقائه، ويلهو ويتنزه (٢٥).

وانتهت ثروة والد الدرويش الأول بعد مدة وجيزة فتبدلت أحواله. يقول تحسين فى هذا الصدد: وصلت أحوال الدرويش الأول إلى أنه لم يبق له إلا قلنسوة على الرأس وحزن فى القلب، وتركه أصدقائه وأحباؤه، فبقى وحده فى المدينة كقرص الشمس، وأخيراً ذهب إلى أخته متجرباً من الحياء (٢٦).

وعلى خلاف هذه المبالغة يصور «مير آمن» هذه الأحداث فيقول: «إذ وصلت أحواله إلى أنه لم يبق لديه إلا القلنسوة وما يستر العورة، وتركه كل من كان يأكل ويوافق على كل ما يقوله، بل لو قابله أحد منهم فى الطريق لأعرض عنه، كما تركه الخدم والحشم، حتى لم يبق له عود يأكله ثم يشرب الماء، وعانى من فاقة شديدة، حيث إنه لم يجد طعاماً وشراباً

لمدة يومين ولم يقدر على تحمل الجوع فارتدى رداء عدم الحياء ووصل إلى مدينة أخته والتقى بها (٢٧).

يذكر تحسين: إن الدرويش الأول كان يقضى الليل خارج سور دمشق، إذ رأى أن الصندوق ينزل من السور فأخذه الدرويش إلى حيث يجلس وفتحته فوجد به فتاة جميلة مجروحة (٢٨).

وأما باغ وبهار، فلم يذكر فيه أن الدرويش ذهب بالصندوق إلى مكانه، بل إنه اقترب من الصندوق فألقى صندوقاً من الخشب (٢٩).

يقول تحسين: إن التاجر يوسف عندما جاء إلى الدرويش كضيف قام الدرويش بإجابات ضيافته تعظيماً وتكريماً له ولم يقصر في ذلك قط (٣٠).

فقد اختصر تحسين تفاصيل الضيافة بينما أسهب مير أَمَن في سردها يقول: «وصل التاجر يوسف إلى الدرويش تلبية لدعوته فجاء إليه غلامان جميلان حاملين زجاجة الشراب وشرعا يسقيانه» (٣١).

وهكذا نرى إلى آخر القصة.

أوجه الخلاف بينهما في قصة الدرويش الثاني:

يبدأ الدرويش الثاني قصته بمدح وطنه بلاد فارس قائلاً: إن أصفهان نصف الدنيا (٣٢).

لكننا لا نجد مدحاً لفارس أو أصفهان في نوطرز مرصع (٣٣).

يقول تحسين: إن نوطر غريم حاتم الطائي، قال: من يأتي برأس حاتم سينال مائتي دينار كجائزة (٣٤).

ولكن مير أَمَن يقول: من يبحث عن حاتم ويأتي به هنا، سينال خمسمائة دينار من الملك (٣٥).

يقول تحسين: وعندما بدأ الدرويش الثاني اقتداء بحاتم سلسلة السخاء والجود في مكان ذي أربعين باباً جاءه ذات يوم فقير من أحد الأبواب وسأله فأعطاه، ثم جاء من باب آخر وسأله الصدقة فأعطاه، ثم جاء من باب ثالث ورابع وخامس إلى آخره وقد أعطاه الدرويش في كل مرة مسأله (٣٦).

ولم يذكر تحسين ماذا كان الفقير يأخذ من الدرويش.

ولكن «مير آمن» يذكر ذلك بإيضاح فيقول: «ذات يوم جاء فقير إلى من باب أمامي وطلب منى شيئاً فأعطيته ديناراً واحداً، ثم جاء من باب آخر وطلب منى دينارين فعرفته لكننى أغضضت عيني وأعطيته حاجته، وهكذا جاء ودخل من كل الأبواب وأضاف ديناراً واحداً فى كل مرة، وأنا أيضاً تجاهلت وأعطيته ما سألتنى وأخيراً جاء من الباب الأربعين وطلب منى أربعين ديناراً فأعطيته إياها» (٣٧).

جاء فى «باغ وبهار» أن الناس فى بلاد «نيمروز» كانوا يجتمعون فى ميدان فى مطلع كل شهر وينتظرون مجيء شاب وكان غلام ذلك الشاب يأخذ شيئاً من يد مولاه ويريه للناس، وكان من يرى ذلك الشيء يبكى بصوت عال (٣٨).

لكن جاء فى «نوطرز مرصع» أن من كان يرى تلك الصورة يشرع فى مدحها ويصفها بصفات جميلة (٣٩).

أما بالنسبة لقصة أميرة البصرة والتي قصها على الدرويش الثانى.

يقول «مير آمن»: «إن العرش المرصع للملك كان موضوعاً على سرير مربع ثمنه مائة وخمسة وعشرون ألف روبية، أعدته الأميرة له بصفة خاصة» (٤٠).
وأما تحسين فلم يذكر ذلك على الإطلاق.

وعندما عرف الملك أن الملكة هى ابنته الأميرة التى طردها قال: «أخبروا الملكة أن تحضر إلى هنا ومعها الأميرات على وجه السرعة، وبمجرد وصولهن تناول الملك الطعام معهن» (٤١).

لكن بيدرو من رواية «نوطرز مرصع» أن الملك تناول الطعام أولاً ثم استدعى الملكة ومن معها، يقول تحسين: «إن الملك جلس متحيراً متعجباً بعد تناوله الطعام ثم دعا الملكة والأميرات» (٤٢).

وفى «باغ وبهار» كان الملك يأتى طوال حياته بمفرده وأحياناً يصحب الملكة معه أيضاً ويدخل القصور (٤٣).

ولكن تحسين لم يذكر ذلك.

أوجه الخلاف بينهما فى قصة الملك «آزادبخت» :

سبق أن ذكرنا أن قصة الملك «آزادبخت» تبدأ فى «باغ وبهار» بعد قصة الدرويش الثانى، وأما فى «نوطرز مرصع» فتبدأ فيه قصة «فرخنده سير» أو «آزادبخت» بعد قصة الدرويش الثالث.

جاء فى «باغ وبهار» أن «آزادبخت» دعا الدراويش الأربعة وقدم لهم طعام الإفطار فتناولوه أمامه^(٤٤).

وأما «نوطرز مرصع» فلم يرد به ذكر لوجبة الإفطار. قال «آزادبخت» للدراويش إننى كنت معكم بالليل عندما كنتم تكون قصصكم، فسمعت أحوال اثنين منكم والآن أريد أن أسمع من الاثنين الآخرين^(٤٥).

وأما «نوطرز مرصع» فجاء فيه أن «آزادبخت» قال: «إننى سمعت فى الليلة الماضية حقيقة أحوال الأصحاب الثلاثة، والآن أنا فى انتظار سماع قصة الدرويش الرابع^(٤٦)».

ذكر «مير آمن» فى «باغ وبهار» أن تاجراً كان يسكن فى «نيسابور» قد علق اثنتى عشرة حبة من ياقوت فى قلادة، ووزن كل حبة سبعة مثاقيل، وقد علق هذه القلادة فى عنق كلب^(٤٧).

وأما «نوطرز مرصع» فجاء فيه وزن حبة الياقوت كما جاء فى «باغ وبهار»^(٤٨) لكنه لم يذكر كم كان عدد حبات الياقوت، ثم يقول تحسین بعد ذلك: إنه كان فى القلادة أربع عشرة ياقوتة^(٤٩)، وبعد أن نطق الوزير بهذا الكلام، أمر الملك بإدخاله السجن بعد شفاعته مندوب الإفرنج، وأنذره إن لم يعدل عن قوله هذا أو يثبتته خلال عام فسينال عقاباً شديداً^(٥٠).

وأما «نوطرز مرصع» فلم تذكر فيه مدة عام. جاء فى «باغ وبهار» أن سن السيد عابد الكلب كان واحداً وخمسين سنة^(٥١).

وأما «نوطرز مرصع» فلم يذكر شيئاً عن سنه. ابنة الوزير التى وصلت إلى السيد عابد الكلب متتكرة فى هيئة ابن تاجر تعرف نفسها قائلة: «وطن هذه النكرة هو بلاد الروم، وتسكن منذ زمن فى استانبول، والذى تاجر ولا يستطيع أن يتحمل مشقة السفر بسبب كبر سنه، لذلك أرسلنى لأتعلم التجارة»^(٥٢).

وأما فى «نوطرز مرصع» فلم تتحدث فيه ابنة الوزير عن وطنها بشيء وتقول فقط: «إن والدى تاجر وأرسلنى إلى هذه الولاية مع أسباب التجارة ليختبرنى» (٥٣).

رأى السيد أخويه يقومان بخدمات فى القافلة فجاء فيها إلى البيت وكرمهما، ولكن ذات ليلة أيضاً أراد أخواه أن يقتلاه، فإذا بالكلب يهجم عليهما فاستيقظ الناس وقبضوا عليهما، بعد ذلك حبسهما السيد فى القفص (٥٤).

ولكن رواية «نوطرز مرصع» تختلف هنا تماماً فجاء فيها أن السيد جاء بأخويه وعينهما فى خدمة ملك الإفرنج ويعد عدة أيام كانت زوجة السيد تنتزه فى الحديقة إذ رآها الأخ الأوسط فأصبح مغرمًا بها، ثم أخبر أخاه الأكبر حيث اتفقا على قتل السيد.

وذات ليلة كان السيد نائماً وذهبت زوجته لقضاء الحاجة، إذ جاء الأخوان وجثما على صدر السيد، وأوثقاه بالحبال ثم ألقياه فى البحر، وعندما استرد السيد وعيه رأى الغسالين يغسلون الثياب ويدعونه للأكل حتى حل المساء وأراد الغسالون أن يذهبوا إلى بيوتهم فأخفوه فى الأعشاب لكى لا يضره أى حيوان بالليل، وبات السيد الليلة وهو فاقد الوعي حتى أشرقت الشمس، فاستيقظ ورأى أرضاً خصبة فاقترب منها فرأى هناك الأحباش يتناولون الحمص، فقدموا إلى السيد حفنة من الحمص تناولها السيد ثم نام وفى اليوم الثانى طحن السيد القمح وخبزه، وسر الحبشيون بهذا العمل، ثم غادر السيد ذلك المكان، ومشى ثلاث ليال وكان يأكل فى الطريق أى شيء حتى وصل فى اليوم الرابع إلى باب القلعة (٥٥).

وتتفق رواية «باغ وبهار» مع رواية «نوطرز مرصع» عند باب القلعة، ولكن فى «باغ وبهار» تبدأ من هنا قصة جديدة للشباب الأذربيجانى.

يقول تحسين: «إن ثلاثة أقفال كانت معلقة بباب قلعة كورستان» (٥٦).

ولكن ميرامن يقول: «إن قفلاً كبيراً كان معلقاً بباب قلعة كورستان» (٥٧).

عاش السيد وزوجته بعد ابنة الوزير عيشة طيبة لمدة عام، بعد ذلك ماتت ابنة الوزير بسبب سقوط الحمل (٥٨).

وأما باغ وبهار فجاء فيه أنها عاشت عيشة طيبة لمدة عامين (٥٩).

قضى السيد مع ابنة وكيل الملك فى قلعة جورستان ثلاث سنوات، وأنجبا فى هذه المدة طفلين^(٦٠).

وجاء فى «باغ وبهار» أن الشاب الآذربيجانى علم ابنة وكيل الملك أركان الإسلام، وأقرأها كلمة الشهادة، ثم تزوجها، وأنجب منها خلال ثلاث سنوات طفلاً واحداً فقط^(٦١). وهكذا إلى آخر القصة.

قصة الدرويش الثالث:

وردت قصة الدرويش الثالث فى «باغ وبهار» بعد قصة الملك «آزادبخت»، وأما «نوطرز مرصع» فوردت فيه قصة الدرويش الثالث قبل قصة «آزادبخت»، أو «فرخنده سير». خرج الدرويش الثالث الذى هو أمير العجم مع أصدقائه للصيد، وكان يطلق الصقر على الطيور المختلفة حتى وصل إلى مكان بعيد^(٦٢).

وأما «نوطرز مرصع» فورد فيه ذكر الأصدقاء فقط ولم يرد فيه ذكر الطيور. يخبر «نعمان سياح» الدرويش الثالث عن مميزات مدينة الإفرنج قائلاً: إن جميع الشوارع فى كل سوق وكل حارة مستوية وممهدة وقد غسلت ورشت بالماء وبالغاة النظافة تخلو من أى شائبة حتى وإن كان قشة والمباني متنوعة وتضاء الأنوار بالليل على طرفى الشارع، ورأيت خارج المدينة كثيراً من أنواع الزهور والفواكه التى لا مثيل لها إلا فى الجنة^(٦٣).

وأما «نوطرز مرصع» فلم يذكر فيه إلا مدينة مینوسیر^(٦٤).

وعندما جاء مندوب أميرة الإفرنج ليدعو نعمان السياح اعتذر نعمان بأنه مجهد مكدود، وودع السيد بالعطر والتنبول^(*)^(٦٥).

ولم يذكر تحسين فى «نوطرز مرصع» العطر والتنبول.

رجع «نعمان سياح» من عند أميرة الإفرنج وهو مفتون بها، فيقول نعمان: «عندما خرجت كان العالم كله ظلاماً فى عيني، وكنت أريد أن أقول شيئاً لكنه كان يخرج من فمى شىء آخر كالمجنون، وعندما رآه أصدقاؤه فى هذه الأحوال نصحوه بأن يبتعد عن مكان العشق^(٦٦)».

وأما رواية «باغ وبهار» فتختلف قليلاً عن رواية «نوطرز مرصع» فيقول السياح - طبقاً لرواية باغ وبهار -: هكذا وصلت إلى القصر لكنني كنت مسيطراً على حواسي، وبدأ الأصدقاء والأحباء يسألونني لماذا تبدلت أحوالك هكذا؟ قلت: لقد ارتفعت الحرارة في المخ بسبب الذهاب والعودة (٦٧).

يقول الدرويش في نهاية قصته: «إنني أردت بعد غرق الأميرة وبهزادخان أن أذهب إلى ذلك الجبل الذي كان طريقاً للعشاق، وأنهى حياتي، فإذا بالشيخ صاحب الرأي السديد، يقول لي: إن الأميرة وبهزادخان على قيد الحياة» (٦٨).

ولكن رواية «باغ وبهار» تقول: إن الدرويش قال «ذات ليلة جلست على شاطئ البحر وأردت أن أغرق نفسي فدخلت في الماء حتى وصل الماء إلى عنقي، ثم أردت أن ألطم الأمواج، حتى وصل ذلك الراكب مرتدى النقاب، وأخذ بيدي، وقال لي: اطمئن، إن الأميرة وبهزان خان على قيد الحياة» (٦٩).

قصة الدرويش الرابع:

يقول الدرويش الرابع الذي هو أمير بلاد الصين: إن عمر هذا الفقير كان خمس سنوات عند وفاة والده (٧٠).

ولم يذكر في «باغ وبهار» عمر الدرويش بل جاء فيه فقط: «إن هذه الحادثة وقعت بدون توقع ومات قبله العالم الذي كان والد هذا اليتيم» (٧١).

عندما ذهب «مبارك» بالأمير إلى عمه أي ملك بلاد الصين طلب الملك المنجمين وتحدث معهم عن زواج الأمير، أدرك المنجمون قصد الملك وقالوا: سيكون القمر تحت عقرب لمدة ثلاث سنوات، وسيكون يوم العيد إن شاء الله بعد أربع سنوات (٧٢).

ولكن جاء في «باغ وبهار» أن هذا العام كله غير سعيد ولا يوجد أي تاريخ سعيد في أي شهر قمري، فلو انقضى هذا العام بخير وعافية، كان العام القادم مناسباً للاحتفال بعمل خير (٧٣).

وعندما أتم الدرويش الرابع قصته جاءت البشرية من القصر أن جارية «آزادبخت» «ماه رو» قد أنجبت ولداً للملك (٧٤).

وأما نوطرز مرصع فلم يرد فيه ذكر اسم الجارية بل ورد فيه اسم الملك ، فرخنده سير، (٧٥).

وعندما طار الملك فرخنده سير وال دراويش الأربعة إلى ملك الجان بالعرش السليمانى أغمى على هؤلاء الخمسة (٧٦).

وأما باغ وبهار فلم يذكر فيه أن هؤلاء الخمسة قد فقدوا الوعي.

كانت هذه الاختلافات بين الكتابين على سبيل المثال لا الحصر، لكن كما أنه يوجد اختلاف فى بعض المواضع من الكتابين، توجد أيضاً مواطن اتفاق وتطابق بينهما فى الأحداث والجمل ونكتفى هنا بأن نقدم بعض الأمثلة على هذا التطابق فى التعبيرات والجمل باختصار:

نوطرز مرصع

والد هذا العاجز ملك التجار الذى اسمه
(ص ٧٨)
أخيراً ارتدبت نقاب عدم الحياء ووصلت
إلى شقيقتى (ص ٨٠)
أدركت فى ذلك الحين أنه لعلها أميرة لأى
بلاد لأجل ذلك تتحدث بالعقل (ص ٩١)
بعد وصولها كالمصيبة المفاجأة عانقت
الشاب، فكان الخسوف أحاط بالقمر
ص ١٠٣ - ١٠٤ .

قام عزيز من ناحية وقال: أيها الأصدقاء
لا توجد علاقة بين العقل والعشق
(ص ١١٤)

قالت بعد استماعها لهذا القول، حسناً هل
بدأ الزكام يصيب الضفدع أيضاً؟

باغ وبهار

والد هذا العاجز ملك اسمه السيد أحمد
(ص ٢٧)
أخيراً ارتدبت نقاب عدم الحياء وقصدت
الذهاب إلى شقيقتى (ص ٢٩)
ثم عرفت أنها أميرة لأى بلاد تلك التى
تتحدث بالعقل والقلب (ص ٣٦)
عانقت تلك العفريتة ذلك الشاب الجميل،
فكأن الخسوف قد أصاب البدر الكامل
(ص ٤٣)

قال رجل قائم فى ناحية : أيها الأصدقاء
إن العشق ضد العقل (ص ٤٣)

قالت بعد استماعها لهذا القول غاضبة:
ما شاء الله هل تعشق غيرى، هل أصاب

- (ص ١١٢-١١٣) فعل السيد حسب الإرشاد (ص ١٢٦)
والأ أين أنت وأين أنا؟ (ص ١٣٠)
حديقة.. ومعها خادمة مثل القطعة مع
الجمال (ص ١٣١)
إذ رأيت أن أسباب الضيافة لم تجهز
(ص ١٣٩)
بل ما أعجبنى هذا الأسلوب (ص ١٤٢)
يا عزيزي إننى حاتم (ص ١٥٣)
هذا العلم الموجود على العرش ثبته
(ص ١٥٣)
رماه على الأرض وقال : يا بابا لماذا
تغضب؟ (ص ١٥٦)
الآن دلى بعيدة (ص ١٥٧)
لا أحتاج إلى أى شيء من أموال الدنيا
(ص ١٦٥)
وأنا أيضاً أتمنى وأشتاق إلى زوج منذ مدة
(ص ١٦٧)
إن الكلمة كانت فى الحقيقة كلمة كفر
(ص ١٧٧)
عندما وصل الشاب عند باب الحديقة
صرخ صرخة مهيبه حتى فتح الباب
بنفسه (ص ١٨٨-١٨٩)
بعد الفراغ من الصلاة .. قال أين
الدرويش؟ (ص ١٩٠)
- الزكام الضفدع أيضاً (ص ٤٧)
فعل السيد حسب الأمر (ص ٥٥)
والأ أين أنا وأين أنت؟ (ص ٥٧)
خادمة مع الحديقة كأن القطعة فى عنق
الجمال (ص ٥٨).
فرأيت أن أسباب الضيافة لم تجهز هنا
(ص ٦٤)
بل ما أعجبنى حمقك (ص ٦٦)
يا عزيزى أنا الذى هو حاتم (ص ٧٣)
ثبت العلم على العرش (ص ٧٤)
رمى كل شيء على الأرض وقال: اسكت
يا بابا لا تغضب هكذا (ص ٧٧)
الآن دلى بعيدة (ص ٧٧)
إننى لا أحتاج إلى مال الدنيا (ص ٨٢)
وأنا أيضاً أتمنى من مدة أن أتزوج
(ص ٨٤)
هذه الكلمة كلمة كفر (ص ٩١)
وصل ذلك الشاب إلى الباب وصاح
صيحة مهيبه ففتح ذلك الباب بنفسه
(ص ١٠٠)
عندما أنهى الصلاة نادى أين الدرويش؟
(ص ١٠١)

وبعد أن استعرضنا بعض الاختلافات والاتفاقات بين كتابي «باغ وبهار» و«نوطرز مرصع» لا يمكننا أن ننفي إطلاع «مير آمن» على قصة «نوطرز مرصع» «لتحسين خان» لكن إطلاع «مير آمن» على قصة «نوطرز مرصع» لا يعني أنه نقلها نقلاً حرفياً، بل المرجح أنه قد اطلع على نسخة فارسية «لچهار درويش» لا يعرف مصدرها، ونسخة لـ «نوطرز مرصع» ولعل هذا هو السبب وراء الاختلاف في كثير من المواضع بين الكتابين.

الخلاصة هي سواء أكان مصدر «باغ وبهار» من حيث القصة والشخصيات والأحداث قصة «نوطرز مرصع» أو القصة الفارسية «لچهار درويش» إلا أن طريقة السرد والبيان والتفاصيل والجزئيات كلها من فيض قريحة «مير آمن» ومن ابتكاره ومن تأليفه، وهذه الأمور هي روح الكتاب وهي التي ترفع من قيمته.

هوامش الفصل الأول

- (١) رشيد حسن خان: مقدمة باغ وبهار، ص ١١.
- (٢) باغ وبهار: رشيد حسن خان، ص ١١.
- (٣) وامق وعذرا: هي إحدى قصص العشق الفارسية التي تناولها شعراء كثيرون منهم ناصر خسرو، ونظامي والخاقاني ومولوى وسعدى، سواء أفردوا لها منظومات مستقلة أو أشاروا إليها في أشعارهم فقط. (انظر: لغت نامه: على اكبر دهخدا، ص ٢٧٩).
- ويس ورامين: وهي من قصص الغرام التي اشتهرت في الأدب الفارسي وكان أول من ألفها هو فخر الدين الجرجاني، ومن الخطأ نسبتها إلى شاعر غيره، كما أشار إليها شعراء كثيرون كنظامي والمولوى وسعدى، (انظر أيضا: لغت نامه، ص ٢٧٩).
- (٤) حافظ محمود شيراني: باغ وبهار دراسة وتحقيق، ص ٧٧.
- (٥) مقالات حافظ شيراني: ص ٤٢.
- (٦) مولوى عبد الحق: مقدمة باغ وبهار، ص ١٤.
- (٧) فورت ولیم کالج ایک مطالعہ. ڈاکٹر سمیع اللہ، شعبہ اردو سلطانپور: ط ١، ١٩٨٩ م، ص ١٣٦.
- (٨) سید قدرت نقوی: میر امن کی معترضین اشاعت اول، دہلی، ١٩٨٣ م، ص ١١٥.
- (٩) اردو دائرۃ معارف اسلامیة: زیر اہتمام دانشکاء پنجاب. لاہور. جلد ٦ طبع اول ١٣٨١ھ/ ١٩٦٢ م.
- (١٠) رام بابو سکسینہ: تاریخ ادب اردو، ترجمہ میرزا محمد عسکری. کراچی. پاکستان. ب. ت. ص ٤٠٣.

- (۱۱) نوطرز مرصع: مرتبه نور الحسن هاشمی، آله آباد، ۱۹۵۸ء، ص ۲۷.
- (۱۲) اردو دائرۃ معارف اسلامية: جلد ۶ ص ۱۲۰۷.
- (۱۳) المقدمة: ص ۱۹، ۲۰.
- (۱۴) گل کرسٹ اور اسکا عہد: (ضمیمہ ص ۹۱).
- (۱۵) نوطرز مرصع: ص ۶۵ ورقم المتن والهامش (۳).
- (۱۶) نوطرز مرصع، ص ۶۶.
- (۱۷) باغ و بہار: رشید حسین خان، ص ۱۷.
- (۱۸) نوطرز مرصع: ص ۶۶.
- (۱۹) باغ و بہار: ص ۱۷.
- (۲۰) باغ و بہار: ص ۲۲.
- (۲۱) نوطرز مرصع: ص ۷۵-۷۶.
- (۲۲) باغ و بہار: ص ۲۷.
- (۲۳) نوطرز مرصع: ص ۷۸.
- (۲۴) باغ و بہار: ص ۲۸.
- (۲۵) نوطرز مرصع: ص ۹.
- (۲۶) نوطرز مرصع: ص ۷۹-۸۰.
- (۲۷) باغ و بہار: ص ۲۹، ۳۰.
- (۲۸) نوطرز مرصع: ص ۸۴.
- (۲۹) باغ و بہار: ص ۲۲.
- (۳۰) نوطرز مرصع، ص ۱۰۳.
- (۳۱) باغ و بہار: ص ۴۳.
- (۳۲) باغ و بہار: ص ۷۱.
- (۳۳) نوطرز مرصع: ص ۱۵۰.
- (۳۴) نوطرز مرصع: ص ۱۵۱.
- (۳۵) باغ و بہار: ص ۷۲.

- (۳۶) نوطرز مرصع: ص ۱۵۶.
- (۳۷) باغ و بهار: ص ۷۶-۷۷.
- (۳۸) باغ و بهار: ص ۸۶.
- (۳۹) نوطرز مرصع: ص ۱۷۰.
- (۴۰) باغ و بهار: ص ۹۶.
- (۴۱) باغ و بهار: ص ۹۷.
- (۴۲) نوطرز مرصع: ص ۱۸۴.
- (۴۳) باغ و بهار: ص ۱۱۵.
- (۴۴) باغ و بهار: ص ۱۱۵.
- (۴۵) باغ و بهار: ص ۱۱۵.
- (۴۶) نوطرز مرصع: ص ۲۴۱.
- (۴۷) باغ و بهار: ص ۱۱۸.
- (۴۸) نوطرز مرصع: ص ۲۴۴.
- (۴۹) نوطرز مرصع: ص ۲۴۸.
- (۵۰) باغ و بهار: ص ۱۱۹.
- (۵۱) باغ و بهار: ص ۱۲۱.
- (۵۲) باغ و بهار: ص ۱۲۳.
- (۵۳) نوطرز مرصع: ص ۲۴۹.
- (۵۴) باغ و بهار: ص ۱۷۱-۱۷۲.
- (۵۵) نوطرز مرصع: ص ۲۸۵-۲۸۶.
- (۵۶) نوطرز مرصع: ص ۲۸۷.
- (۵۷) باغ و بهار: ص ۱۷۵.
- (۵۸) نوطرز مرصع: ص ۲۹۲.
- (۵۹) باغ و بهار: ص ۱۸۰.
- (۶۰) نوطرز مرصع: ص ۲۹۵-۲۹۶.

- (٦١) باغ ويهار: ص ٨٣ .
- (٦٢) باغ ويهار: ص ١٨٧ .
- (٦٣) باغ ويهار: ص ١٩١ .
- (٦٤) نوطرز مرصع: ص ٢١٢ .
- (*) التنبول: نوع من أنواع الأعشاب الهندية المعطرة للفم والتي تقدم للضيوف على سبيل الترحاب (فرهنگ آصفيه: ص ٥١٩) .
- (٦٥) باغ ويهار: ص ١٩٢ .
- (٦٦) نوطرز مرصع: ص ٢١٧ .
- (٦٧) باغ ويهار: ص ١٩٣ .
- (٦٨) نوطرز مرصع: ص ٢٣٨ .
- (٦٩) باغ ويهار: ص ٢٠٧ .
- (٧٠) نوطرز مرصع: ص ٣٠١ .
- (٧١) باغ ويهار: ص ٢٠٨ .
- (٧٢) نوطرز مرصع: ص ٣٠٣ .
- (٧٣) باغ ويهار: ص ٢١٠ .
- (٧٤) باغ ويهار: ص ٢١٨ .
- (٧٥) نوطرز مرصع: ص ٣٢٢ .
- (٧٦) نوطرز مرصع: ص ٣٢٤ .

الفصل الثاني أسلوب الكتاب

ترجع القيمة الأدبية التي يتمتع بها كتاب (باغ وبهار) بالدرجة الأولى إلى الأسلوب الذي كتب به، فهو يجمع بين بساطة اللغة وسحر البيان.

وتتبع بساطة اللغة وسهولتها عند «ميرامن» من اعتداله في استخدام ألفاظ اللغة الفارسية وتراكيبها واستخدام ألفاظ لغات الهند المحلية، كذلك تتبع السهولة في استخدامه للغة الحوار التي تدور على ألسنة العامة في مدينة دهلي. أما سحر البيان فهو ما يتجلى في بلاغة التعبيرات الأدبية الاصطلاحية وهي ما يطلق عليها في الأردية مصطلح (محاورة)^(١) وكذلك يبدو في كثرة إيراد المحسنات مثل السجع والطباق.

الخصائص اللغوية:

تتميز لغة كتاب (باغ وبهار) بالاعتدال في استخدام ألفاظ اللغة الفارسية وألفاظ لغات الهند المحلية. فقد أدى اعتماد اللغة الأردية على الجمع بين ألفاظ لغات الهند المحلية وألفاظ الفارسية والعربية والتركية إلى السماح للأدباء باستخدام ما يشاءون من ألفاظ تلك اللغات. وحين نشأ الأدب الأردى على الاقتداء بالأدب الفارسي أدى ذلك إلى زيادة المزج بين ألفاظ اللغة الفارسية - على وجه الخصوص - وألفاظ لغات الهند المحلية، وكان هذا المزج سبباً في وجود تيارين متوازيين في اللغة الأردية أحدهما فارسي والآخر هندي، وحينما يغلب الأثر الفارسي في عهد، يزيد معه استخدام ألفاظ اللغة الفارسية ويقل استخدام الألفاظ الهندية، وحينما يزيد الأثر المحلي يزيد معه استخدام الألفاظ الهندية ويقل استخدام الألفاظ الفارسية حتى صار هذا المد والجزر جزء من تاريخ اللغة الأردية، وكان ذلك سبباً في وجود التباين بين لغة الأدباء في الهند على اختلاف المكان والزمان^(٢).

وكان الأدباء في الدكن (في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي) يكتثرون من استخدام ألفاظ لغات الدكن المحلية مما أدى إلى عدم فهم الكثير من أعمالهم الأدبية في العصر الحديث.

ومع بداية القرن الثامن عشر الميلادي ظهر في «دهلي» حركة أدبية تنادى باستبعاد الثقيل من ألفاظ لغات الهند المحلية واستبدالها بألفاظ فارسية وهي ما يطلق عليها في الأدب (اصلاح زبان)^(٣)، ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي تزامن في الهند هذان التياران، فكان الأدباء الذين ينتمون إلى أصل غير هندي مثل «مؤمن» و«غالب» في دهلي و«ناسخ» في مدينة لكهنؤ^(٤) يبدأون بتعلم الفارسية منذ الصغر وكذلك الكتابة بها قبل الأردية ولهذا بدا أثر اللغة الفارسية واضحا في إنتاجهم الأدبي. أما الأدباء مثل «انشاء» في لكهنؤ و«ذوق» و«نظير أكبر آبادي» و«بهادر شاه ظفر» في دهلي^(٥) فكانوا يجلبون قدر اللغة الأم ولا يتعقبون الألفاظ والتراكيب الفارسية إلا ما أصبح جزء من بنيان اللغة الأردية لا يمكن الاستغناء عنه، ولهذا بدا في إنتاجهم الأدبي الأثر الهندي أكبر وأوضح^(٦).

ويمثل «ميرآمن» حد الاعتدال بين استخدام كل من الألفاظ والتراكيب الفارسية والألفاظ والتراكيب الهندية. فلم يستخدم من ألفاظ الفارسية وتراكيبها إلا ما صار مألوفاً وأصبح يدور على ألسنة العامة. ولم يستخدم من ألفاظ لغات الهند المحلية ما قد يستخدم في مقاطعة دون أخرى، واقتصر على ما يستخدم في مدينة (دهلي) وهي المدينة التي يطلق النقاد على لغة أهلها (تكسالي اردو) أي (الأردو الفصيح)^(٧) وقد ذكر «ميرآمن» في مقدمة كتابه أنه لم يستخدم سوى لغة أهل دهلي رغم أنه قضى الكثير من حياته بعيداً عنها، لأنه عاش مطلع حياته بها وخبر كل شيء فيها ورأى قصورها ومهرجاناتها، وكان ذلك سبباً في صحة لغته وسلامتها^(٨) كما أشار «جلجست» إلى عدم اتجاه «ميرآمن» إلى الإقبال على استخدام ألفاظ الفارسية مثل بعض الأدباء المعاصرين له، فقال في تعليق قدمه في الطبعة الأولى «لباغ وبهار»:

[إن ميرآمن أخرج النثر الأردی من عقدة الفارسية إلى شمس عصر جديد]^(٩).

ويقدم «ميرآمن» في كتابه التراكيب الإضافية والوصفية طبقاً لقواعد اللغة الأردية في

مواضع، ويقدم التراكيب الإضافية والوصفية على شاكلة التراكيب الإضافية والوصفية في اللغة الفارسية في مواضع أخرى. فمن المعروف في قواعد اللغة الأردية أن المضاف إليه يسبق المضاف ويأتي بينهما حرف إضافة^(١٠) فنقول (أحمد كي كتاب) بمعنى (كتاب أحمد) أما في الفارسية فنأتي بالمضاف ثم المضاف إليه فنقول (كتاب أحمد) بمعنى (كتاب أحمد). وكذلك الصفة فهي تأتي في الأردية قبل الموصوف^(١١) فنقول (اچھا آدمی) بمعنى (رجل طيب). أما في الفارسية فنأتي بالموصوف غالبا قبل الصفة فنقول مردِ خوب بمعنى رجل طيب.

ومن نماذج استخدام «ميرامن» للإضافة الفارسية «کنج قارون» بمعنى كنز قارون، فيقول:

(اس ور خرجی کی آکی، اکر کنج قارون کاهوتا، توہی وفانہ کرتا) (ص ۲۹)

(لو کان لدى هذا المبذر، خزانة قارون فلن تبقى)

وكذلك قوله:

(اس جوان نی بری نیب تاب سی تیاری ضیافت کی کی) (ص ۳۹)

وترجمته (إن هذا الشاب قد أعد العدة لحفل الضيافة على أكمل وجه).

ومن نماذج التراكيب الإضافية التي أوردها «ميرامن» وأتى فيها بالمضاف إليه أولا طبقا للقواعد الأردية (جوانی کی عالم) أي (عالم الشباب) فيقول: اس جوانی کی عالم مین کیتکی کی شراب یاکل کلاب کهنجوانیی) (ص ۲۹) وترجمته (وفي عالم الشباب استخدم خمر الكيتكي أو زهرة الجلاب) وكذلك (آدمی کا شیطان) أي شیطان الإنسان.

يقول: «غرض آدمی کاشیطان آدمی، (ص ۲۹)

«الخلاصة فإن شیطان الإنسان إنسان».

وكذلك قوله «انکھون کی پتلی، بمعنى (إنسان العين) وقوله (مان باپ کی موتی) أي

ذكری الأب والأم.

يقول: «تومیری آنکھون کی پتلی اور مان باپ کی موتی می کی نشانی ہی،

بمعنى: «إنك إنسان عيني، وأثر لذكرى أبي وأمي» .

ومن نماذج التركيب الوصفى التى قدمها «ميرامن» على الطريقة الفارسية فأتى بالموصوف قبل الصفة (خلعتين فاخرة) بمعنى (خلعة ثمينة) .

فيقول: «جو خلعتين فاخره اور جواهر بيشى قيمت، سرکار مين بادشاه كى اور اميرون كى، درکار مطلوب هوتى، اسى كى يهان بهم پهنجتى» .

بمعنى: «وكانت تصل إليه الخلع الثمينة والجواهر النفيسة التى يستخدمها الملوك والأمرء» .

وكذلك قوله (خواصين شيكل) بمعنى (الوصيفات الجميلات) .

يقول: «اور لڑكيان عمدون كى اس كى مصاحبت مين اور خواصين شيكل خدمت مين رھتین، (ص ۱۱۹)» .

بمعنى: «وكانت تصحب معها بنات الحكام وتكون الوصفيات الجميلات فى خدمتها، وكذلك قوله «دو پنجر آھنى، بمعنى «قفصان حديدان، فيقول: «اس مين دو بنجرى آھنى لتكتى هين، (ص ۱۲۲)» .

بمعنى: «ويعلق به قفصان حديدان» .

وتوجد فى كتاب «باغ وبھار، بعض التراكيب الوصفية على الطريقة الفارسية ولكن يمكن وضع الكسرة الوصفية تحتها كما يمكن قراءتها بدون كسرة أيضا، وكان ذلك طبقاً لما هو شائع فى لغة دهلى فى ذلك العصر (۱۲)» .

ومن أمثلة هذه التراكيب قوله «دو حبشى بد هيئت مسلح، اى «حبشيان قبيحان مسلحان،» .

فيقول: «دو حبشى بد هيئت مسلح دونون طرف كھريى هين، (ص ۱۲۲)» .

بمعنى: «ويقف مسلحان حبشيان قبيحا الشكل» .

وكذلك قوله: «دو غلام امرد خوبصورت اس كى خدمت كر رھى هين، (ص ۱۲۲)» وترجمته: «يخدمه غلامان أمردان حسنا الصورة صغيران» .

ومن أهم مميزات لغة كتاب «باغ وبھار، كثرة ايراد التراكيب اللفظية التى يمكن أن

نقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: التراكيب التي تتكون من لفظين مترادفين قد يكون أحدهما أكثر تأثيراً أو سعة. وهذه التراكيب تصفى على الجمل تنسيقاً وانسجاماً خاصاً، وتزيد اللغة فصاحة وسلاسة.

ومن أمثلة هذه التراكيب ما يلي:

«راهی مسافر جنکل میدان مین سونا اچھالئی جلی جاتی، (ص ۱۶)

«العابر المسافر یمشی فی الغابة والوادی لاعباً بالذهب والجواهر،

- «ایک تویہی فقیر جو کفنی سیلی بھنی ہونی مرشدون کی حضوری مین حاضر اور بولتا ہی» (ص ۲۷)

«هذا هو الفقير الذي يمثل في خدمة المرشدين ويتكلم لابساً ثمله وكفنه،

- «مجهـ فقیر نی برمی چاؤ جوز سی مان باب کی سائی مین برورش بانی، (ص ۲۸)
«أنا الفقير الذي تربيت مدلاً منعماً في ظل أبوي،

- «کونی سر پر بورھا برانہ رھا، (ص ۲۸)

«لم يبق على رأسی أی شیخ أو كبير،

- «راہ بانٹ مین اکر کھین بھینٹ ملاقات ہو جاتی، (ص ۲۹)

«لو قابلتہ والتقیّت به فی طریق أو سبیل،

- «اور تیسری پھر میوی خشک وتر پھل پھلاری... اینی روبرو کھلا کر جاتی، (ص ۳۰)

«وفی العصر تقدم إلى الفواكه الجافة والطازجة اللينة، وتجعلنی أكلها أمامها،

- «مین نی اسی اونی بونی بیج دالا اور دار ودرمن مین خرج کرنی لکا، (ص ۳۵)

«أنا بعته بثمان رخيص بخس وبدأت أنفقه فی العلاج والدواء،

- «اور تاکید پر کھانی کی کر رہی ہی کہ خبر دار بامزہ هوا اور آب و نمک بو باس

درست ہی، (ص ۴۲)

»وتؤكد بالنسبة لكل طعام أنه لابد وأن يكون ذا مذاق طيب ويكون ماؤه وملحه ورائحته ونكهته على خير ما يرام».

- میں تلاش میں ناؤ نواری کی جساؤں... اکڑ حکم ہو تو کھات بات اس دریا کا دیکھوں، (۶۸)۔

»أنا أذهب لأبحث عن سفينة أو قارب... لو تأمري أذهب لأرى ساحل أو شاطئ لهذا البحر»

- »جس کو مشکل کتھن پیش آوی، تو میں اس کو آسان کر دوں، (ص ۶۹) «من تعترضه مشكلة أو معضلة، فأنا أدللها له».

- »ہماری طالع میں یھین لکھا ہی کہ روز لکریان تورین اور سر پر دھر کر بازار میں بیچیں، تب نون روتی میسر آوی، (ص ۷۳)

»لقد قدر علينا أن نقطع الحطب كل يوم ونحمله على رؤوسنا ونبيعه في السوق فنحصل على قوتنا من ملح وخبز وعيش».

- غرض دونوں ہی مجھی خوب خورد خام کیا، (ص ۱۴۲)۔

»الخلاصة أنهما استفلا صغر سنی وحدائنی».

القسم الثاني: من التراكيب اللفظية عند ميرامن، هي التي تتكون من لفظين، يمكن أن يؤدي أحدهما المعنى كاملاً فيغني عن الآخر، ولكنه يأتي باللفظ الثاني مطبقاً للغة الحديث المستخدمة في دهل في ذلك الوقت، وطبقاً لما يدور على ألسنة الناس، وهذه الصيغة موجودة في لغتنا العربية أيضاً فنحن نقول (الصحة والعافية) و(الهناء والشفاء) و(أهلاً وسهلاً) وغير ذلك من الأمثلة التي تجرى على الألسنة يومياً، ومن أمثلة هذه التراكيب:

- »اور کی آدمی مرہم کی تیاری کی لئی کچھ بیس پاس رہی تھی، (ص ۳۴) «وكان هناك عدة أشخاص يطحنون شيئاً لإعداد المرهم،

- »بغیر پوچھی کجھی اتنا مال.. میری حوالی کیا، (ص ۳۷) «قدم إلى هذا القدر من

المال، دون أن يسألني أو يلج علي،

- «اس جوان نی بری ایب تاپ سی تیاری ضیافت، کی کی» (ص ۲۹) «أعد هذا الشاب حفلاً فخماً لاستعجاباتي».

- «دیکھتا ہوں تو نازنین سادی خوزادی؛ بن کھنی پاتی .. خبر کیری مین ضیافت کی لک رہی ہی» (ص ۴۶)

«عندما رأيتها وجدتها ذات دلال وبسيطة دون حلي، تطمئن علي أن كل الأمور قد هيئت لبدء حفل الضيافة».

- «چکک سی اک جہار بھون بھان کر کھالیتی» (ص ۶۷)

«يشوون الطعام على النار ويأكلونه».

- «برن دن کی عرصی مین، شرج مرج کھینچتا هو اشهر نیمروز مین جاپہنچا» (ص ۹۸).

«وصلت مدينة نيم روز خلال عام بشق الأنفس»

- «ماری درکی کی لڑھتا پرتا پھار سی نیچی آیا» (ص ۱۴۷)

«نزلت من الجبل متدحرجاً خوفاً»

- «ایک کتا لھو مین شور بور پر ہی» (ص ۱۵۵)

«ويجد كلب ماطخاً بالدماء»

- «کونا کنھرادیکھنی لکی» (ص ۱۵۷)

«بدأت تنظر في كل الأنحاء»

القسم الثالث: من تراکيب «باغ وبھار» اللفظية هي التي نجد فيها لفظين متضادين تقريباً، وهي ترد في «باغ وبھار» متتالية في بعض الفقرات مما يبرز المعانی ويوضحها ويمتّع القارئ ويثير خياله.

ومن الفقرات التي أورد فيها «میرامن» العديد من الألفاظ المتضادة قوله:

- «تمام آدمی چھوئی پری لڑکی بورھی، غریب غنی، شھر کی باھر چلی» (ص ۸۶)

«ذهب كل الناس خارج المدينة صغيرهم وكبيرهم، طفلهم وكهلهم، فقيرهم وغنيهم».

ويوجد في كتاب «باغ وبهار» بعض الاختلافات في قواعد اللغة عما هو متبع في قواعد اللغة الأردنية في العصر الحالي^(١٣)، فقد استخدمها «ميرامن» طبقاً لما هو متبع في عصره، ثم نالها التعديل والتغيير في العصور التالية ومن أمثلة هذه الاختلافات:

١ - إضافة (ان) إلى الفعل عند إسناده إلى جمع المؤنث، فمن المعروف في قواعد الأردنية المستخدمة اليوم أن حرفي (ان) يستخدمان في جمع الاسم المؤنث فنقول (لركي) بمعنى فتاة ونجمعها (لركيان) بمعنى فتيات، ونقول (بجي) بمعنى طفلة ونجمعها (بجيان) بمعنى طفلات. أما في إسناد الفعل لجمع المؤنث فنضيف حرفي (ين) عند تصريف الفعل في الماضي فنقول (جلين) بمعنى سرن و (دورين) بمعنى جرين، أما في «باغ وبهار» فنرى في بعض المواضع أن (ان) مضافة إلى الفعل عند إسناده لجمع المؤنث، ومن أمثلة ذلك قوله:

- «يه باتين هوتيان تيهين» (ص ١١١)

وترجمته «هذه الأقوال تقال»

وقوله - «يه سما ديكه كر، كهورون كي ياكين دال ديان» (ص ١٨٨)

وترجمته «وعندما رأيت هذا المشهد، أرخيت لجام الفرس».

٢ - استخدام حروف (كآ، كى) بعد فعل الكينونة، فمن المعروف في القواعد المستخدمة اليوم أن (كآ، كى) يستخدمان عند تصريف الفعل في زمن المستقبل^(١٤). فنقول (كهاني كآ) بمعنى سيأكل و (كهاني كى) بمعنى سيأكلون، ولكن «ميرامن» يستخدم (كاوكى) مع أداة الكينونة فيقول (هى كآ) و (هين كى).

ومن أمثلة ذلك قوله:

- «آيانى كون هين كى كه ايسى بلا مين كرفنار هونى هين» (ص ١٥١) بمعنى «من هذا

الذى أصبح أسيراً لهذه المصيبة».

٣ - استخدام الفعل المساعد (چاهنا) بعد صيغة الماضي المطلق بدلاً من استخدامه بعد المصدر. فمن المتبع في الأردنية الحديثة أن يستخدم الفعل المساعد (چاهنا) بمعنى الرغبة بعد المصدر من الفعل^(١٥)، فنقول (ديكهنا چاهنا هى) بمعنى أراد النظر، لكن «ميرامن»

یستخدامه بعد صیغة الماضی المطلق فیقول (دیکھا جانی)، ومثال ذلك قوله:

- «جو کچھ ہوسوہو چل کر دیکھا جانی، (ص ۲۴)

«فلیحدث ما يحدث ولتذهب لنرى».

۴ - إختلاف نهاية الفعل الماضی الذى يسبق (نا) المصدرية المنتهى بحرف الألف مثل (أنا - جانا - بلانا) فمن المتبع اليوم أن نضيف حرف الياء إلى هذه المصادر قبل إضافة الياء المجهولة فنقول (آئی - جانی - بلانی) (۱۶). لكن «میرامن» يستخدم حرف الواو فيقول (آوی - جاوی - بلاوی) وكان ذلك شائعاً في أشعار تلك الفترة. ومن أمثلة ذلك قوله:

- «خدا کری بادشاہ کی مرضی آوی جو روبہ رو بلاوی، (ص ۱۸، ۱۹) «جعل الله الملك يوافق على مقابلتی».

- دل کو اس غفلت دنیا دی سی ہشیار رکھی اور عبرت سی روی، (ص ۱۲۳)
«فلتوقظ قلبك من غفلة هذه الدنيا، وتأخذ العبرة،

۵ - استخدام الفعل في زمن المضارع الحالى وذلك عند روايته لأحداث القصص. ولا يستخدم الزمن الحالى في مثل تلك المواضع في عصرنا الحالى (۱۷) يقول:

- «دیکھا تو ایک تخت یچھا ہی اور اس پر ایک پری زاد عورت .. عجب ادا سی دیکھتی ہی، (دیکھ رھی ہی) (ص ۱۸۹) «رأيت سريراً مفروشاً تجلس عليه حورية ... وتنظر بدلال عجيب»

- «پت کی چون اکھار کر دیکھا تو دولہا سر کتا ہوا پرا تریتھتا ہی اور دلہن کی منہ سی کف چلا جاتا ہی اور اسی متی لہو مین لتھری ہونی بی حواس پری لولتی ہی (لوت رھی ہی) (ص ۲۱۹) .

«وعندما خلعت الباب، وجدت العريس مقطوع الرأس، والدم يتدفق من فم العروس، وهي تتدحرج على الأرض الملطخة بدماء العريس دون وعی».

۶ - استخدام (کر کر) کصیغة وصفية للفعل (کرنا) بدلاً من (کرکی) الٹی تستخدم في عصرنا الحالى (۱۸) فيقول:

«ایک دن شیش محل مین نماز ادا کرکر وظیفہ پر ہر رہی تھی، (ص ۱۷)۔

«وكان يسبح بعد أداء الصلاة في القصر البللوري»۔

۷ - استخدام بعض أشكال للفعل المتعدى لم تعد مستخدمة في الوقت الحالي مثل قوله:

«جئنا كها سكا كها ليا باقى ان سبهون كو انها ديا اور شكر نعمت كحه بهجاي،

(ص ۹۰)۔

«أكلت ما استطعت وتركت الباقي لهم وحمدت الله»۔

«جس بادشاہ علی الإطلاق نی آپ کو بادشاہ بنایا، انہیں نی مجھی بھی بادشاہ

زادی کھوایا، (ص ۹۲)

«الملك المطلق الذى جعلك ملكاً هو أيضاً من جعلنى أميرة»۔

۸ - عدم وجود فرق في استخدام ضمائر الخطاب (تم، آپ) و (تمہارا - آیکا) فمن السائد

اليوم في المخاطبة أن ضمير (آپ) يستخدم في الدرجة القصوى للتعظيم لكن «ميرامن،

استخدم هذين الضميرين في نفس المواضع تقريباً فيقول:

«خردمند یہ وعدہ سن کر خوش ہوا اور دونوں ہاتھ اٹھا کر دعا دی کہ جب تک یہ

زمین وآسمان بریا ہیں تمہارا تاج و تخت قائم ہی، سر خردمند، عندما سمع هذا الوعد

ورفع يديه ودعا الله قائلاً: أبقي الله تاجك وعرشك، ما بقيت السماء والأرض»۔

«لی قبلہ!! کیا کہوں کاش کی تمہاری خدمت مین بندگی پیدانہ کی ہوتی،

(ص ۱۲۶)۔

«يا ملاذی، ماذا أقول ليننى لم أكن خادماً لك»۔

۹ - عدم وجود فرق في استخدام تصريف الفعل في صيغة الأمر، فمن المعروف في

قواعد اللغة أن للأمر ثلاث صيغ، فمن الفعل (كرنا) نقول:

(كر أو كرو أو كي جي) وهذه التصاريف متدرجة في التبجيل والاحترام، فلا نقول لطفل

صغير (كي جي) ولا نقول لملك أو وزير (كر) ولكن هذا الفرق لا يبدو واضحاً في «باغ وديار،

فقد استخدم (كرو - كي جي) على السواء في حالة الاحترام القصوى: يقول: «درويش كوشه

نشین متوکلون سی مدد لیجی اور روز راتب یتیم اسیر عیال دارون، محتاجون اور راند بیواؤن کو کر دیجی... پروردگار کی عنایت پر نظر رکھنی، (ص ۲۱)۔

«استعن بالدرایش المعتكفين والمتوكلين، وأجر في كل يوم راتباً للیتیم وصاحب العیال والمعدمین والأرامل... وانتظر عناية الله،»

«قبلة عالم، اس تصور باطل کو دل سی دور کرو، (ص ۲۰)

۔ «يا قبلة العالم ابعد هذا التصور الباطل عن قلبك،»

وتوجد في «باغ وبهار» صيغة أخرى للأمر أصبحت متروكة اليوم في الكتابة لكنها مازالت تستخدم في لغة الحديث التي تدور على ألسنة الناس يومياً. وهذه الصيغة تتكون بإضافة (يو) إلى أصل الفعل فيقول (كربو) من (كرنا) و (جانيو) من (جانا) ومن أمثلة ذلك قوله: «أكر تجهي هماری خاطر منظور هی تو بمركز هماری بات مین دم نه ماریو جوهم کھین سو بلا عذر کی جانیو۔ اپنا کسی بات مین دخل نه کربو، (۳۶)»

«لو تنشد رضائی، فلا تتأخر في الامتثال لأمری، افعل ما أقول دون تقصير. ولا تتدخل فيما لا يعنیک،»

۱۰ - استخدام أداة النفي (نه) بدلاً من (نهین) وهذا عكس ما يستخدم في الأردية الحديثة فقد اقتصرت الكتابة على استخدام (نهین) في معظم الأحيان. ومن أمثلة استخدامه (نه) للنفي قوله:

«مین نه قبول کرتا تھا اور وہ بھی نه مانتا تھا، (۸۲)

«إننی كنت لا أقبل وهو أيضاً لا يوافق،»

۔ «اس کی تواضع مدارات کسونی نه کی، (ص ۸۲)

«لم یقم باستضافته أى شخص،»

ولكن «میرامن» يستخدم (نهین) مع الفعل في بعض الأحيان مثل قوله: «پر مین کجه نهین چاهتا، (ص ۸۳)»

«لکنی لا أريد شيئاً،»

۱۱ - اشتقاق بعض المصادر من الاسم أو الصفة وهذا ما يطلق عليه اصطلاحاً (المصدر الجعلى) ومن أمثلة ذلك اشتقاق مصدر (ننکیانا) بمعنى التعرية من صفة (ننکا) بمعنى «عارى، واشتقاق مصدر (بتیانا) بمعنى التحدث من كلمة (بات) بمعنى حديث، ومن أمثلة ذلك قوله:

- «جلدى کوچ کرو نهين تو اب کاروان پر کر کرسب کو ننکیا لین کی، (ص ۱۵۴)».

«ارحل بسرعة وإلا فسوف نسطو على القافلة وننهبها».

- «دوپیدای انتهائی لیبی جاتى هين اور ايس مين بتیائی هين، (ص ۱۵۴)».

«وكانا رجلان يحملانى ويتحدثان فيما بينهما».

- «اور آپ كهورى كو تنکیا كر اس فوج طرف پهرا، (ص ۲۰۵)».

«وركل فرسه وتوجه إلى الجند».

- «موچھون پر تاووی کر، چرھوان جوتا ارایا، (ص ۱۰۸)».

«قتل شاریه وانتعل حذاء».

۱۲ - استخدام الاسم الموصول (كه) بمعنى الذى بدلا من (جو) أو (جوكه). فمیرا من یبدأ الجمال الوصفیة بـ (كه) متأثراً بأسلوب الكتابة الفارسیة مما یضفى على هذه الجمال الوصفیة قدرا من الصعوبة على عكس الجمال التى لا تبدأ بالاسم الموصول (۱۹). ومن هذه الجمال قوله:

- «آكى روم ك ملك مين كونی شهنشاه تها كه نوشيروان كى سعى عدالت اور حاتم كى سى سخاوت اس كى ذات مين تهى، (ص ۱۶)».

«وكان فى بلاد الروم ملك كأنه انوشيروان فى عدله وحاتم الطائى فى سخائه».

- «ليكن فرزند كه زندكائى كا يهل هى، اس كى قسمت كى باغ مين نه تها، (ص ۱۷)».

«لكن الأولاد ثمرة الحياة، لم يثمروا فى بستان حظه».

ويوجد فى «باغ وبهار» عدد كبير من الألفاظ المهجورة حالياً أو طرأ تغيير على معناها. وتوجد قائمة لمثل هذه الألفاظ فى كل الطبعات المشهورة للكتاب. ومن أمثلة هذه الألفاظ (كسو) التى أصبحت (كسى) بمعنى شخص و (كبهو) فأصبحت (كبهى) بمعنى مرة

و(كدهو) أصبحت (كدهر) بمعنى جهة و (جدهو) أصبحت (جيدهر) .

ومن الألفاظ التي حدث تغيير في مفهومها بمرور الزمن، ولا تستخدم الآن بنفس المعاني التي استخدمها «ميرامن» لفظ (قبيلة) التي استخدمها بمعنى (بيوى) أى زوجة فيقول:

«قبيله كوبه سبب محبت كى ساته ليا، (ص ٣٤)

«أخذ الزوجة معه بسبب محبته لها» .

وكذلك استخدم لفظ (رندى) بمعنى (عورت) أى امرأة فيقول: «وه جوان اور اس كى رندى، دونون سر كتى پرى هين» (ص ٤٤) .

«ذلك الشاب وزوجته كانا ملقيين على الأرض مقطوعى الرأس» .

كذلك (يتيم) بمعنى (غلام):

«اس كواس جوان نى وه چیز جو هاتھ مين تھى، دى وه يتيم لى كرايك سرى، سى، هر ايك كو دكھاتا جاتا تھ» (ص ٨٦) .

«قدم ذلك الشاب له ما فى يده، فأخذه الغلام وعرضه على الناس الواحد تلو الآخر» .

ومن الملاحظ أن بعض ألفاظ «باغ وبهار» تختلف فى طريقة كتابتها عما هى عليه الآن. ويرجع ذلك إلى أن نطقها فى الماضى مطابقاً لإملائها الذى كتبه «ميرامن» ومن أمثلة هذه الألفاظ (تهينته) فأصبحت (لَهيَه) بمعنى خالص .

فيقول: «جان جلكر» صاحب نى .. لطيف سى فرمايا كه اس قصه كوتھنيھ هندوسنانى كفتكر مين ... ترجمه كرو، (ص ١١) .

«أمرنى جلجركست أن أترجم هذه القصة فى اسلوب هندى خالص» .

ولفظ (بهوكھ) فأصبح (بهوك) بمعنى الجوع فيقول:

«تاب بهوكھ كى نه لاسك» (ص ٢٩) .

«ما استطعت أن أصبر على الجوع»

ولفظ (سامهنى) فأصبح (سامنى) بمعنى أمام يقول:

- «تين بار كَرَد به بهرا ارو سامهنى آكر كهرا هوا» (ص ٥٠) .

«طاف حولى ثلاث مرات ثم مقل أمامى» .

ولفظ (بينچ) فأصبحت (بيچ) بمعنى البيع فيقول:

- شهر مين اس كو بينچ لاؤ، (ص ٤٦)

«قم ببيعها فى المدينة»

ولفظ (تهانبون) فأصبح (تهان) بمعنى مكان فيقول: - كيهان تلك ابنى تئين تهانبون،

(ص ١١٢)

«إلى أى درجة، سوف أتماسك»

ولفظ (مانى) فأصبح (مان) بمعنى أم فيقول:

- «مانى بينى كاكم هونا چهپايا» (ص ١٢١)

«أخفت الأم خبر فقد ابنتها»

* * *

ورغم السلاسة والسهولة التى يصف بها جميع النقاد لغة «ميرامن» إلا إنه هناك مواضع فى القصة نرى فيها بعض التعقيد الذى قد يرجع سببه إلى التقديم والتأخير فى أجزاء الجملة، أو إلى ادخال جمل فرعية فى الجمل الرئيسية وعلى سبيل المثال يقول:

- «مين نى اس كا دل بهت بى اختيار شوق مين ان كى خريدارى كى پايا» (ص ٥٨)
«وجدت قلبه فى شوق عظيم لشراء تلك الأشياء»

فنراه فى هذه الجملة قام بتقديم لفظ (بى اختيار شوق) وتأخير المضاف إليه فأتى به قبل الفعل على عكس ما هو متبع فى ترتيب الجملة الأردية .

وكذلك قوله:

- «ايك بار لوندى ميرى خاطر تركستان سى ميرابا پ لاياء» (ص ١٣٦) «ذات يوم جاء أبى بجارية من أجلى من تركستان» .

ففى هذه الجملة نرى «ميرامن» قدم جميع المتعلقات على الفاعل، على عكس الجملة الأردية التى تبدأ بالفاعل .

وكذلك قوله: «اسى بندر مين جهان مين حاكم تھا بعد تين چار سال كى ايك روز بالا خانہ محل كى كہ بلند تھا واسطى سیر اور تماشى دریا و صحرا كى مين بينها تھا اور هر طرف ديكتها تھا» (ص ۱۷۲، ۱۷۳).

«وفى تلك المنطقة التى كنت حاكماً لها، صعدت أعلى قصرى بعد ثلاثة أو أربعة سنوات لأنعم بجمال الطبيعة، وكنت أطلع هنا وهناك».

ونلاحظ هنا تقديم الجار والمجرور على الفاعل وتقديم المضاف على المضاف إليه على عكس ما هو متبع، وكذلك يقول:

- «به موجب، حكم بادشاه كى، اس آدهى رات مين كه عين اندهيرى، تهى، ملكه كو جونرى بهونرى مين پلى تهين اور سوانى اپنى محل كى دوسرى جكه نه ديكتهى تهى بهوتى لى جاكرايك ميدان مين كه وهان پرندہ پرندہ مارتا انسان كانتو كيا ذكر جهور كر چلى آنى» (ص ۱۹۲).

«امتثالاً لحكم الملك، حملنا الأميرة المدللة - التى لم ترى أى مكان سوى قصرها - فى ليلة مظلمة وتركانها فى مكان لا يستطيع الطير أن يطير فيه فما بالك بالإنسان».

ونلاحظ هنا تداخل الجمل الفرعية فى الجملة الرئيسية مما يضيف نوعاً من التعقيد على العبارة.

الخصائص البلاغية:

أورد «ميرامن» فى كتابه «باغ وبهار» عدداً لا حصر له من التعبيرات الأدبية الاصطلاحية التى تميزت بالفصاحة والبلاغة فحققت للقصة العديد من المزايا، فهى اختصار للجمل، لأنها قد تأتى فى صورة تشبيه أو استعارة أو كناية، فيقدم التعبير الأدبى الواحد معانى العديد من الجمل والعبارات وبهذا يصير التعبير أداة جيدة للإيجاز. كما أن التعبيرات الأدبية تبين لنا مدى رقى المجتمع الذى يستخدمها وتعكس الأفكار والمشاعر التى يواجه بها الناس المواقف المختلفة فى ذلك العصر. يقول ممتاز حسين (أن ميرامن يفضل الإيجاز بفطرته ولهذا يستخدم التعبيرات الأدبية والاستعارات والبدائع بكثرة) (٢٠).

ومعظم تعبيرات «باغ وبهار» مازالت تستخدم حتى اليوم في اللغة الأردنية في نفس الموضع، مثال ذلك:

- «دم ناك مين آيا» (ص ١٦٦)

بمعنى «بلغت الروح الأنف» وهو تعبير يبين مدى شدة الضيق.

- «سر بر خاك أرأنا» (ص ١٧٣)

بمعنى «يهيل التراب على رأسه» وهو كناية عن شدة الحزن.

- «تم نى سانب آستين مين بالى هين» (ص ٢٢٣)

بمعنى «لقد ربيت الأفعى في كمنك» وهذا التعبير كناية عن من يأمن جانب الخائن ويحسن إلى اللئيم.

- «اور تو بستى كو چهور كر جنكل بهار كيون سيتاهى» (ص ٢٦٧) بمعنى «لماذا تركت القرية وتتشبث بالجبل والغابة».

فالمصدر هنا هو «سينا أن يخطط أو يلصق» وهو في هذه العبارة كناية عن التصاق الإنسان بمكان معين وتمسكه الشديد به.

- «ما ندكى كى سبب خوب بيت بهر كر سوياء» (ص ٢٦٦)

بمعنى «ومن أجل البقاء ملأت جوفى ونمت».

فالمصدر (بيت بهرنا: يحشو البطن) كناية عن الأكل حتى الشبع.

وهناك بعض التعبيرات التي هجرت تقريباً، ولكنها لا تمثل أى خلل عند القراءة، بل أنها تصفى على القصة طابعاً خاصاً، حتى أننا لو استطعنا الاستعاضة عنها بتعبيرات حديثة ربما تفقد القصة طابعها وشدة تأثيرها.

ومن أمثلة هذه التعبيرات التي لم تعد متداولة حالياً قوله:

- «جو مرد نكهو هو كر كهر سيتا هى اس كو دنيا كى لوك طعنه مهتا ديتى هين» (ص ٣٠).

- إن الشخص الذى يلزم البيت بسبب الكسل، يطعن الناس في سيرته،

- «تھوری عرصی مین سب زخم بھر کر انکور کر لائی» (ص ۳۵)

«التأم - طاب كما يطيب العنب - الجرح خلال عدة أيام».

- «مین یہ بات سنتی ہی کانهہ ہو کیا» (ص ۴۷)

«عندما سمعت هذا الخبر تجمدت في مكاني».

ويوجد الكثير من التعبيرات الأدبية الفارسية الأصل بين تعبيرات «ميرامن» وقد حدث بعض التغيير في هذه التعبيرات مع تطور اللغة ومنها ما قد أهمل. ومن أمثلة هذه التعبيرات التي قدمها «ميرامن» مترجمة عن الفارسية تعبير (انتظار کھینچنا) من التعبير الفارسي (انتظار کشیدن) فيقول:

- «وہ مونہ ہی پر بیہا میرا انتظار کھینچ رہاتھا» (ص ۳۹)

«وكان ينتظرني جالساً على الكرسي».

- «وتعبير (قطع کرنا) من التعبير الفارسي (قطع کردن)

فيقول - «سقاوت کاجامہ خدانی اس عورت بر قطع کیاہی» (ص ۷۸)

«إن الله عز وجل أوقف، رداء الجود والسخاء على تلك المرأة».

وتعبير (دست بہ سر ہوا) من التعبير الفارسي (دست بہ سر کردن) .

فيقول: - «مین اسی مختار کار جان کر اور دیرینہ سمجھ کر دست بہ سر

ہوا» (ص ۸۴)

«ولما أدركت أنه صاحب الأمر والحنكة فأديت له التحية»

وتعبير (عقد باندھ کرنا) من المصدر الفارسي (عقد بستن) فنقول:

- «اس ملک مین ملکہ سی عقد باندھ کر رھنی لگا» (ص ۱۷۱) .

«تزوج الملكة وبدأ يعيش في هذه البلاد».

وتعبير (کپرون مین نہ سمایا) من التعبير الفارسي (درجامہ نکنجیدن)

فيقول: «یہ خوش خبری سن کر مین ایسا پھولا کہ کپرون مین نہ سمایا» (ص ۲۲۳)

«عندما سمعت هذا الخبر ضاقت بي ملابسی».

ضرب الأمثال :

وقد استعان «ميرامن» فى قصته «باغ وبهار» بضرب الأمثال ليضفى على أسلوبه رونقاً وجده، والمثل هو خلاصة تجارب المجتمع عبر السنين الماضية ويكون جملة واحدة أو عدة جمل طويلة كانت أم قصيرة، ويوظف المثل فى مناسبات معينة ليزيد الكلام قوة وتأكيذاً، وتكون جملته جملة تامة تؤدى المعنى المطلوب فى الوضع المراد ويجوز التقديم والتأخير فى ألفاظه، ويستعمله أهل اللغة جميعاً من العامة والخاصة (٢١)، واللغة الأردنية تحتوى على ذخيرة عظيمة من الأمثال، ويرجع هذا إلى أن الأمثال العربية والفارسية والهندية قد انصهرت فى بوتقة واحدة ودخلت فى حوزة الأمثال الأردنية وفى صميم نسيجها، ووراء كل مثل من الأمثال تكون سلسلة طويلة من الخبرات الإنسانية والطبائع البشرية، وخاصة فى الحكايات الأدبية التى تحفل بالتجارب الإنسانية والطبائع البشرية وتربط خبراتنا وأحاسيسنا بالتجارب الماضية بواسطة ضرب المثل الذى (يضم البحر فى القرية) أى أن ضرب المثل وسيلة جيدة للإيجاز والاختصار والفصاحة والبلاغة فى آن واحد (٢٢).

وهذه نماذج لما ورد فى قصة «باغ وبهار» من أمثال:

- «كس برتى پرتتا پانى» (ص ٥١)

وترجمته: «أنت لا تعرف من يخدعك، أى أن الإنسان قد يحسن الظن بمن لا يستحق أو كما نقول فى أمثالنا العربية (من تظنه موسى تجده فرعون).

- «اونت چرهى كتا كانى» (ص ٥٩)

«من ركب على الجمل، يعتبر غيره كلباً،

ويطلق على من أصابه الغرور ويعتقد أنه أكبر وأعظم الخلق، وغيره حقير.

- «صورت نه شكل چولهى مين سى نكل» (ص ٦٠)

«ليس لديك شكل جميل، أخرج من الفرن،

ويطلق على قبيح الشكل الدميم الذى يفرط فى التجميل بلا طائل.

- «منتى نهين كرم كى ريكها ان آنكهون كى سبب پرسب كچه ديكها» (ص ٦٣)

- «عمل الإنسان لا يمحي، والناس تعرف كل شئ لأن لها عيون ترى بها،
- «كتي كى دم كو باره برس كاروتب بهى تيرهى رهى، (ص ١٧٢)
«لا يستقيم ذيل الكلب حتى ولو دفن فى الأرض اثنى عشر عاما،
ويطلق على من يكون منحرف السلوك ولا يغير من طبعه ويعود إلى جادة الصواب أبدا
مهما حاول الناس معه.
- «كهر بين رهى نه تيرته- كنى موندا مندا فضيحت تهى، (ص ٢٤١)
«لم يعد إلى البيت أو إلى المعبد، وذاع صيته وساءت سمعته،
ويطلق على من يرمج بالإتهامات وهو لم يقترب إثما.
ويوجد فى «باغ وبهار» مثنى من المحادثات فى صورة حوار بين شخصين، وعلى
الرغم من أن معظم هذه المحادثات تتميز بالصنعة والتكلف فى لغة الحوار، إلا أننا إذا كشفنا
نقاب هذا التكلف اتضح لنا بساطتها وارتجالها. ومن الجدير بالذكر أن هذا التصنع والتكلف
كانا من سمات الحياة فى ذلك العصر، خاصة فى بلاط الملوك، وعند الحديث مع الأمراء
والأميرات (٢٣).
ومن أمثلة هذه المحادثات ما جاء على لسان أخت «الدرويش الأول» حين تقول :
- «أكرجه ملاقات سى دل بهت خوش هوا، ليكن بهيا تيرى يه كيا صورت بنى،
(ص ٣٠).
«رغم إن قلبى قد فرح بلقائك فرحا شديدا، لكن انظر يا أخى فى أى هيئة تبدرو؟».
ونلاحظ جواب الدرويش:
- «اچها اب تم مان كى چكر هو، جو كهو سو كرون، (ص ٣١)
«حسنا، فأنت الآن فى مكان والدتى، وكل ما تقولينه سأفعله،
ويقول التاجر يوسف حينما رأى الدرويش الأول:
«أو مهربان برى راه دكهانى، (ص ٣٩)

«أقبل يا عزيزی، لقد ترقبت الطريق طويلاً،

ونلاحظ في قصة (حاتم الطائي) (٢٤) حوار الشيخ الحطاب وزوجه العجوز:

- «برهيا بولی که اکَر همارى دن کچه بهلى آتى تو حاتم کو کهين هم دیکه پائ اوراس کو پکر کر نوفل کی پاس لی چاتى تو وه پاتج سواشرفى دينا اور هم آرام سى کهاتى، اس دکه دهندى سى چهوت جاتى، (ص ٧٢) .

«قالت العجوز: لو واتانا الحظ، لوجدنا (حاتم الطائي) فى أى مكان لذهبنا به إلى نوفل فمحننا خمسمائة دينار، ونعمننا بالراحة والسكينة وتخلصنا من تلك المصائب» .

فأجابها الشيخ قائلاً:

- «جور هى نى کها کيا ترتر کر تى هى همارى طالع مين بهى لکها هى که روز لکر يان تورين اور سر پر دهر کر بازار مين بيچين، تب نون رونى میسر اوى... (ص ٧٣) .

«قال الشيخ: لماذا تثرثرين؟ لقد قدر علينا أن نقطع الحطب ونحمله على رؤوسنا ونبيعه فى السوق حتى يتيسر لنا الخبز والملح» .

ويقول أمير (نيم روز) للحرورية التى جاءت إليه:

- «مين نى کها کى اجى، اب پهر کب ملاقات هوکى؟ يه کيا تم نى غضب کى بات سنائى، اکَر جلد آو کى تو مجه جيتا پاؤ کى، نهين تو يچتاؤ کى، (ص ١٠٥)

«قلت يا عزيزتى متى ألقاك مرة ثانية؟ لماذا أسمعتنى هذا الخبر غير السار، إن أتيت بسرعة فستجديننى على قيد الحياة، وإلا فستندمين» .

وهذه أمثلة بسيطة ولم يرد فيها أى لفظ صعب، ويتضح من هذا أن المؤلف قد كتب هذه الحوارات بلغة الحديث اليومي للعامة بمنتهى الدقة والمهارة، ويعيداً عن أى تكلف.

وتوجد فى قصة «باغ وبهار» نماذج شائعة وطريقة لحوارات بلغة (الريختى) (٢٥) أى لغة أحاديث النساء، وقد كتبها «ميرامن» على لسان النساء فبدأ الحديث يحمل الطابع النسائى.

وتعتبر قصة (باغ وبهار) هى القصة الوحيدة التى تشتمل على لغة الريختى الخاصة بأواخر القرن الثامن عشر فى دهلئ . ولا تقتصر فائدة الكتابة بلغة أحاديث النساء على مجرد العرض الشيق الطريف لأحاديث النساء، أو بث الروح فيها، بل إنها تقدم لنا صورة للحضارة

والعادات والتقاليد الموجودة في هذا العصر، وتعكس لنا صورة حية للمجتمع وما يجري داخل القصور (۲۶)۔

ومن نماذج الأحاديث النسائية هذه العبارات التي جرت على لسان شقيقة الدرويش الأول فتقول:
- «ای بیرن تو میری آنکھوں کی پٹلی اور مان باپ کی مونی متی کی نشانی ہی تیری آنی سی میرا کلیجا تھند ہوا... لیکن مردوں کو خدا نی کمانی کی لپی بنایا ہی، کھر مین بیہی رہنا ان کو لازم نہین نہین تو مین اپنی چہری کی جوتیان بنا کر تجھی پھٹاؤن اور کلیجی مین دال رکھوں، (ص ۳۰، ۳۱)

«یا اخی! أنت هدب عینی، وتذکار من أبوی، وسر قلبی بمقدمک إلى... لكن الله عز وجل قد خلق الرجال للعمل، ولا یلیق بهم أن یجلسوا بالبیت وإلا فقد کان یمكنی أن أصنع الحذاء من جلدي وألبسک إياه وأسکنک فی قلبی،»
وقالت الأخت وهی تودع أخيها عند سفره:

- آنسو پن کر بولی سدهار ور، تمہین خدا کو سوئی پیتھ دکھاتی جاتی ہوا اسی طرح جلد اپنا منہ دکھا ئیو، (ص ۳۱)

«قالت بعد أن هطلت دموعها وهی تودعه، الآن استودعک الله وأری ظہرک وأنت ترحل فعد مسرعاً لأری وجهک،»

وأيضاً تحدثت أميرة دمشق إلى الدرويش الأول معنفة ومهددة فقالت:

- چہ خوش آب ہماری عاشق ہین؟ میندکی کوہی زکام ہوا.. اگر کسی اوزنی بہ حرکت بی معنی کی ہوتی، پرور دکار کی سون اس کی بوتیان کتوا چیلون کو بانٹی، (ص ۴۷)۔

«یا فرحتک! سعادنتک عاشق لی؟ أصاب الصفدع الزکام، لو سلك غیرک هذا السلوک معی، فمائة قسم بالله لکننت مزقته إریاً إریاً، وألقیت به إلى الصواری،»

وعندما عادت أميرة دمشق بعد غيبتها عن القصر أنبتھا أمھا ولامتھا قائلة:

«ای کم بخت ناشدنی!... کاش کی تیری عوض مین پتھر جنتی تو صبر آتا اب بیہی توبہ کر، جو قسمت مین تھا سوہوا، اب آکی کیا کری کی، جیوی کی یا مری کی، (ص ۶۴-۶۵)

«أيتها التعسة الرضيعة، ليتنى كنت قد ولدت حجراً بدلاً منك فكنت صبرت على هذا،
الآن توبى واستغفرى، قد قدر ما قدر، والآن ماذا ستفعلين، ستعيشين أم تموتين؟»

ولعل الحوار الذى دار على لسان المرأة الماكرة مع أميرة الإفرنج هو أكثر الحوارات
جاذبية وحرارة فى الأدوار النسائية «لباغ وبهار، ولتستمع إلى حوارها:

- «مين غريب رنديا فقيرنى هون - ايك بيتى ميرى هى كه وه دوجى سى پورى دنون
دردزه مين مرتى هى اور مجه كواتنى وسعت نهين كه اهى كاتيل چراغ مين جلاون
كهانى پينى كو تو كهان سى لاؤن؟ اكر مركنى، تو كور كفن كيون كر كرون كى اور
جنى، تو داني جناني كوكيا دون كى، اور جچا كو شهبوارا، اجهوانى كهان سى بلاون كى،
آج دو دن هوئى هين كه بهو كى پياسى پرى هى صاحب زادى اپنى خير، كچه تكرأ
پارچه دلا تو اس كوپانى پينى كا آدها رهو، (ص ۲۰۲) .

«إننى فقيرة لى بنت حبلى تتضور جوعاً، وليس فى مقدورى أن أشعل موقداً، فمن أين
أتى بالطعام؟ وإن ماتت ابنتى كيف أكفنها؟ وإن وضعت فمن أين ادفع للقابلة وأقدم لابنتى
مايلزمها فى ذلك الحين؟ إن ابنتى جائعة وعطشى منذ يومين، أيتها الأميرة، إن تكرمت
وتفضلت فاعطنى شيئاً تنقوت به ابنتى، .

ويقدم لنا نثر «ميرامن، ريطاً وتجانساً جميلاً بين الجمل والألفاظ خاصة تلك التى وردت
فى جمل الحوار عن غير عمد بالسليقة. وقد اهتم «ميرامن، فى بعض المواضع بإيراد الألفاظ
التي تقدم السجع، وكان يحتذى فى ذلك أسلوب النثر الفارسى الرصين وبخاصة (جلستان
سعدى) (۲۷) الذى ذكره فى مقدمة (كنج خويى) (۲۸) .

والألفاظ المسجعة لدى «ميرامن، قد تكون فى جملة واحدة، وقد تكون فى جملتين أو أكثر
وقد تكون فى أواسط الجمل أو قد تكون فى أواخرها كالشعر، ويبدو أحياناً أن «ميرامن، يقدم
ويؤخر أجزاء الجمل كى يتمكن من السجع والترصيع، وتبين الأمثلة التى سبق ذكرها فى
إطار الحوارات التزام «ميرامن، بالسجع، ومن الأمثلة التى يتضح فيها أيضاً السجع قوله:

- «نظر كى مجال نه تهى جواس كى جمال پر تههرى، (ص ۳۵)

«لا يمكن للنظر أن يقع على جماله،

- «مین دل کی شوق سی اور اتھکھیلیون کی ذوق سی هر روز انعام بخشش دینی لکی،
(ص ۵۴)

«وقد شرعت فی منح الجوائز یومیا من شوق قلبی،
- «تب انھون نی فرمایا کہ مرتضیٰ علی میرانام ہی اور میرا بھی کام ہی، (ص ۶۹)
«فقال اسمی (مرتضیٰ علی) وهذا هو عملی،
- «مین یہودی سی پوچھون کہ ایسی کیا تقصیر کی ہی، جس کی بدلی یہ تعزیز کی
ہی، (ص ۱۳۷)۔

«فسألت الیہودی ما هو ذنبه، حتی یعاقب هذا العقاب،
- غرض دونون نی مجھی خوب خورد خام کیا اور حضرت یوسف کی بہانیون کا سا
کام کیا، (ص ۱۴۲)

«الخلاصة استغلا صغر سنی وسذاجتی، وفلا معی كما فعل اخوة یوسف،
وفی نہایہ حدیثنا عن أسلوب «میرامن، نستطیع أن نوجز خصائص أسلوبه فی أنه كان
أسلوباً سهلاً ممتنعاً فعبارته تبدو سهلة فی ظاهرها ولكن من الصعب محاكاتها والكتابة علی
منوالها. ولتقدم فی النہایة هذه العبارات التي تضم الجمل القصيرة المسجعة والتي راعی
فیها الموسيقى الناتجة من المشاکلة بین الحروف. فیقول علی سبیل المثال:

- «اتنی مین ناؤ برھ کنی اور دریا کی لھر مجھی کھین سی کھین لی کئی غوطی پر
غوطی کھاتا تھا اور موجون مین چلا جاتا تھا آخر تھک کیا خدا کو یاد کرتا تھا کچھ بس
نہ چلتا تھا، (ص ۱۴۰، ۱۴۱)

«أثناء ذلك أبحرت السفينة، وحملتني الأمواج إلى مكان بعيد، وصارعت الأمواج حتی
تعبت، وأخيراً أخذت أذكر الله وأصبحه لكنني لا أستطیع أن أفعل شيئاً.
- «اكر كهانا وهان كهائيو تو پانی یهان پیجیو، (ص ۱۹۴)۔

«لو تأكل الطعام هناك، فلتشرب الماء هنا، .

وهكذا كان تميز الأسلوب فی «باغ وبهار، السبب فی التفاف القراء والكتاب والنقاد حولها
والإشادة بها واعتبارها من أفضل ما كتب فی اللغة الأردية، وهذا ما سنتحدث عنه فی
الفصل التالي.

هوامش الفصل الثاني

- (١) (محاورة) لفظ يطلق في الأردية على التعبير الأدبي الاصطلاحي الذي له معنى متعارف عليه وقد يستمد مدلوله من مجرد فهم معاني كلماته منفصلة. وهو يتكون من لفظين أو أكثر وقد تستخدم هذه الألفاظ في غير معناها المعجمي، وقد تحتاج لعبارة أو جملة أخرى لتؤدي المعنى المراد، ومن أمثلتها (غم كهانا) فمعناها هو (الحزن) رغم أن المعنى الحرفي لألفاظها هو (أكل الحزن) وقد استخدم لفظ الأكل مجازاً. وكذلك (رئكَ لانا) معناها (يسبب الفضيحة) رغم أن المعنى الحرفي لها هو (يأتى بلون) وقد استخدم لفظ لون مجازاً.
- (الطاف حسين حالي: مقدمة: شعر وشاعري باهتمام اسحاق على علوي. لكةهر (د.ت)، ص ١٢٢، ١٢٣. سيقى آتش لكةهرى: همارى محاوره. لاهور. (د.ت) ص ٦).
- (٢) أنور سديد: اردو ادب كى تحريكين، ط ١، كراچى ١٩٨٥، ص ٢٣٦ - ٢٤٤.
- (٣) عبد السلام اللدوى: شعر الهند، ج ١، مطبع معارفى اعظم اكّره (د.ت) ص ٣٤ - ٣٦.
- (٤) (مؤمن): هو مؤمن خان مؤمن (١٢١٥هـ - ١٨٠١م / ١٢٦٨هـ - ١٨٥٢م) أحد أعلام مدرسة الشعر الأردى في دهلى في النصف الأول من القرن ١٩ الميلادى. يتميز في نظم الغزل، وقد قدم أجداده من كشمير إلى دهلى في عهد شاه عالم ثانى والتحقوا بالعمل في البلاط كأطباء ملكيين، وتبدو في الشعر عند مؤمن شدة التأثير باللغة الفارسية التى تمكن من التعبير بها عن أحاسيسه الدقيقة.
- (عبادت بريلى: مؤمن اور مطالعه مؤمن ط ١ لاهور. اردو دنيا، ١٩٦١م، ص ٢٠ - ٢٥).
- (غالب): هو ميرزا أسد الله خان غالب المتخلص بغالب (١٢١٢هـ - ١٧٠٧م / ١٢٨٥هـ - ١٨٦٩م) هو أحد أعلام مدرسة الشعر الأردى في دهلى في النصف الأول من القرن ١٩م قدم أجداده إلى دهلى في عهد شاه عالم ثانى وولد غالب في (أكرا) وحصل فيها علومه ثم انتقل إلى دهلى وكان معاصراً لذوق ومؤمن وعمل استاذاً للملك بهادر شاه ظفر ويعد إنتاج غالب قمة ما وصل إليه الرقى العقلى بالهند، كما توجد له علامات بارزة في تجديد اللغة وقد وصل التأثير بالشعر الفارسى إلى أقصى حدود الاعتدال في أشعار غالب.
- (عبادت بريلى - غالب اور مطالعه غالب، ط ١، لاهور ١٩٦٩، ص ٤).
- (ناسخ): يعتبر المؤسس الحقيقي لمدرسة لكةهر في الشعر الأردى، وهو أحد علماء اللغة المتبحرين الذين وضعوا قواعد جديدة للنظم وأدخلوا تعديلات على اللغة وقد اشتهر بالتجديدات التى أضافها على أسلوب الغزل، وقد عاد ناسخ وتلاميذه إلى نزعة الإنجاء إلى الفارسية التى بدأت مع حركة اصلاح اللغة في دهلى في بداية القرن الثامن عشر الميلادى (١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م).

- رام بابو سكسنه تاريخ ادب اردو، ت. مرزا محمد عسکری، کراتشي، غصنفر اکیدمی (د.ت).
- (۵) (انشا) (م ۱۲۳۲ھ / ۱۸۱۸م) کان شاعرا فی بلاط شاه عالم ثانی ويعتبر من أعلام الشعر فی لکهنو، ويعتبر كذلك أحد علماء اللغة الهندية إلى جانب إجادته للعربية والفارسية وقد قام بجهود كبيرة للمحافظة على کيان اللغة الأردية والاحتفاظ بجذورها الثقافية.
- (قدرت الله شوق: تذکرة طبقات الشعراء، ط ۱. لاهور. مجلس ترقی ادب، ۱۹۶۸، ص ۴۰).
- (ذوق): هو محمد ابراهيم ذوق (۱۲۰۴ھ - ۱۷۸۹م / ۱۲۷۱ھ - ۱۸۵۴م) أحد الدعائم الأساسية لمدرسة الشعر الأردی فی دهلی فی النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادی وترجع ملكته إلى دوره الواضح فی حركة الاتجاه نحو الاستقلال التدريجی عن الشعر الفارسی، كذلك لاستخدامه أسلوب مميز يجمع بين الفصاحة والبلاغة وكان أفضل من نظم القصيدة الأردية فی عهده والمعهود التالية، وزاده فضلا توليه منصب أستاذ الملك.
- (انظر: تنوير أحمد علوی: ذوق سوانح اور انتقاد. ط ۱. لاهور. مجلس ترقی ادب ۱۹۶۳م، ص ۲۸).
- (نظير): نظير أكبر آبادی شاعر يتمتع بمكانة كبيرة نظراً لعمره المديد لكنه تميز عنهم جميعا بانفراد به وصف الطبيعة الهندية وخاصة حيوانات الغابة ومعارك الطيور. والمتبقي من أشعاره حوالی ستة آلاف بيت تشمل التصوف والفلسفة بحيث أنه يعد من كبار الفلاسفة والأخلاقیین.
- (محمد جميل أحمد: اردو شاعر براك نظر. ط ۱. کراتشي ۱۹۸۵م، ص ۱۰۸ - ۱۱۱).
- (ظفر): هو أبو ظفر محمد سراج الدين بهادر شاه الثاني آخر ملوك المغول فی الهند، وتخلص فی أشعاره بظفر، وكان شاعرا حساسا له أربعة دواوين تضم جميع أغراض وقوالب الشعر الأردی وكانت لديه القدرة على النظم فی العديد من لغات الهند المحلية فله أشعار فی اللغة البنجابية ولغة البشتو، وقد تلمذ فی الشعر على يد شاه نصير ثم ذوق ثم غالب، كذلك كان راعيا للشعر والثقافة وجعل من قلعة الحكم مركزاً للاشعاع الثقافي.
- أحمد جعفری: بهادر شاه ظفر اور انکا عهد. ط ۳. لاهور. شيخ غلام علی، ۱۹۶۹م، ص ۳۷، ۳۸.
- (۶) ابتسام صالح الدين (د): رسالة دكتوراه بعنوان «مدرسة الشعر الأردی فی دهلی فی النصف الأول من القرن ۱۹ الميلادی»، جامعة القاهرة ۱۹۸۹م، ص ۳۴۷ - ۳۵۵.
- (۷) محمد حسين آزاد: آب حیات لاهور سنک بېلی کشنز، د.ت، ص ۵۸، ۵۹.
- (۸) رشيد حسين خان: باغ وبهار، ص ۱۵.
- (۹) باغ وبهار کانتقیدی مطالعة: ص ۱۰۸.
- (۱۰) مولوی عبد الحق: قواعد اردو، ۱۹۹۴م، اشاعت سولهوين - انجمن ترقی اردو، ص ۱۵۷ - ۱۶۱.
- (۱۱) نفسه: ص ۶۵ - ۷۲.
- (۱۲) مولوی عبد الحق: قواعد اردو، ص ۱۶۷.
- (۱۳) سيد قدرت نقوی: ميرامن کی معترضین نئی دهلی، ط ۱، ۱۹۸۳م، ص ۱۰۶.
- (۱۴) مولوی عبد الحق: قواعد اردو، ص ۹۵.
- (۱۵) نفسه: ص ۸۵.
- (۱۶) قواعد اردو: ص ۹۲.
- (۱۷) قواعد اردو: ص ۹۴.

- (١٨) مولوی عبد الحق: قواعد اردو، ص ١٦٣.
- (١٩) قواعد اردو: ص ٧٨.
- (٢٠) مقدمة باغ و بهار: ص ١٢٧.
- (٢١) د. سیفی آتش لکهنوی: ہماری محاورى ص ٧.
- (٢٢) Taylor, A., Standard Dictionary of Falhlor Mythology and Legend, Funk and Wagnalls, Co. N.Y. 1950, Vo 1.2, p.602.
- (٢٣) کلیم الدین أحمد: اردوزبان اور فن داستان کوسرفراز، ص ١٥٥.
- (٢٤) حاتم الطائی: هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائی وكنيته أبو سفانة وأبو عدى، وأجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة حاتم الطائی وهرم بن سنان وكعب بن مامة، وحاتم أشهرهم ذكراً، أدرك مولد النبى ﷺ ومات قبل مبعثه وحاتم من فحول الشعراء.
- (انظر: جمال الدين محمد بن محمد بن نباته المصرى: سرح العيون، ط٤، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٢٧٨هـ).
- (٢٥) الريختى: لفظ (ريختى) هو المونث من لفظ (ريخته) والمقصود بها لغة أحاديث النساء، أى الألفاظ والمصطلحات الخاصة بالنساء وكان أول من أدخلها على النظم الأردى الشاعر سعادت ياررينكين فى لکهنو، فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى، ثم شاعت بعد ذلك فى الأدب الأردى. (سيد أحمد دهلوى: فرهنگ آصفیه - ک - ماده ريختى - لا هور، د.ت).
- (٢٦) عبد السلام الندوى: شعر الهند، ج١، مطبع معارف اعظم کره، د.ت، ص ٨٩.
- (٢٧) گلستان سعدى: مؤلفه هو مشرف الدين مصلح بن عبد الله سعدى الشيرازى، شاعر كبير من شعراء القرن السابع الهجرى، تلقى علومه ومعارفه فى شیراز ثم استكمل تعليمه فى بغداد، له کلیات تشتمل على قصائد وغزلیات وقطع وترجیع بند ومقالات وقصائد عربية، من أهم مؤلفاته کتاب البرستان الذى ألفه عام ٦٥٥هـ، والگلستان الذى ألفه عام ٦٥٦هـ وموضوعاته تدور حول الأخلاق والحكمة من خلال القصص والحکایات، وهو يتمتع بأسلوب بديع وعبارات رصينة.
- (انظر لغتنامه: تألیف على أكبر دهخدا، جلد هشتم، زیر نظر: دکتر محمد معین و دکتر سید جعفر شهیدی ١٢٥٨ - ١٣٣٤ هـ. ش، چاپ اول از دوره جدید بهار ١٣٧٣ مؤسسة انتشارات و چاپ دانشگاه تهران ص ١٢٠٤).
- وانظر کتاب گلستان بتصحیح و حواشی عبد العظیم جرجانی بانظریات جدید، مطبع دوم کتابخانه و مطبعة علمى در سنة ١٣١٠ شمسی رمز (یه).
- (٢٨) میرامن دهلوی: کنج خوبی، ص ٤.

الفصل الثالث

مكانة «بانج وپهار» في النشر الأردني

لم يحظ أى كتاب فى الأدب الأردى بما حظى به كتاب «باغ وبهار» من اهتمام وتقدير وشهرة دامت حتى يومنا هذا ، إذ يعد كتاب «باغ وبهار» أول صحيفة فى النشر الأردى الحديث، ويكفى مؤلفه «ميرامن الدهلوى» فخراً أن كتابه لا يزال يدرس بعد مرور قرن ونصف من الزمان على تأليفه وقام الكثير من الكتاب باختصاره وتبسيط حكاياته وإدخاله فى المناهج الدراسية نظراً لما تحويه قصصه من تعاليم أخلاقية ودروس ومواعظ ولا زال تدوين وتصحيح ونشر قصة «باغ وبهار» يجرى حتى اليوم، ويعمل على تصحيح متنه ولغته الدارسون فى الهند وباكستان وأوروبا، ولعل من أفضل الطباعات التى صححها الدارسون الأوربيون طبعة «دنكن فاريس» التى نشرت فى لندن سنة ١٨٤٦م، وطبعة (كلكتا) سنة ١٨٠٣م والطبعة التى نشرت بواسطة مطبعة (مصطفائى كانپور) فى ١٨٥٤^(١).

ومن أهم العلماء الهنود الذين اهتموا «بباغ وبهار» أبو الأردية (مولوى عبد الحق) الذى يعتبر أول محقق نشر «باغ وبهار» فى (انجمن ترقى اردو) وكتب مقدمة له، كذلك نشر بروفيسور (سيد وقار عظيم) طبعة لـ «باغ وبهار» فى لاهور عام ١٩٥٢م.

كما نشر بروفيسور (ممتاز حسين) فى نوفمبر ١٩٥٨ م نصاً (لباغ وبهار) وكتب مقدمة مفصلة له.

ونشر (رشيد حسن خان) نصاً لـ (باغ وبهار) من خلال مكتبة جامعة نيودلهى المحدودة عام ١٩٦٤م.

هذا بالإضافة إلى أنه نشرت ترجمات عديدة للكتاب، فقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية والأرمينية والتشيكية وهنا نشر ترجمته إلى العربية ضمن هذه الرسالة.

ولعل ذيوع صيت الكتاب وشهرته يرجع إلى عدة أسباب وأهمها:

١- الأهمية الأسلوبية:

أسلوب «باغ وبهار» الفريد هو السر الحقيقي في شهرة الكتاب علاوة على لغته، فبالرغم من أن لغة الكتاب هي نموذج للغة السليمة منذ أكثر من قرنين، إلا أن لغته ما زالت تلتقي في كثير مع اللغة في هذه الأيام، فقد حرص «ميرامن» على عدم استعمال الألفاظ الهندية بكثرة كما كان الشأن في زمانه^(٢) كما أنه كان يستخدم ألفاظا سهلة خاصة به بدلا من الألفاظ السائدة مما يضمن حسنا على حسن الأسلوب^(٣).

وقد اعتبر أسلوب «ميرامن» من الجواهر الثمينة لأن الأساس الذي قام عليه «باغ وبهار» هو السلاسة والبساطة والجاذبية^(٤).

وأثنى على «ميرامن» منذ طباعة «باغ وبهار» كل النقاد، وألقوا الضوء على خصائصه النثرية وأسلوبه المثالي، يقول المفكر الأوروبي «دنكن فريس» الذي قضى عدة سنوات هامة من حياته في تدوين وطباعة «باغ وبهار»:

[... ترجم عطا حسين خان «جهار درويش الفارسي» بعنوان «نوطرز مرصع» لكنه لم يلق قبولا كنموذج لهذه اللغة بسبب كثرة المحاورات الفارسية والعربية والأسلوب المفرط في الصنعة والمحسنات اللفظية، ثم جاء ميرامن ليزيل هذا النقص فكتبه من ترجمة عطا حسين الذي سبق ذكرها الآن]^(٥).

كان أسلوب «ميرامن» مباشرا سلسا وانسيابيا فقد كان كل ما عليه أن يفعله هو أن يجعل مستوى كتابته مساويا لمستوى حديثه لأنه كان يتحدث بلغة دهلي أي (اللغة الفصحى)^{(٦)*}.

وكان أسلوب «ميرامن» سببا في إشادة د/ جرجست مدير كلية «فورت ولیم» به حيث يبدو من التعليق الذي كتبته على الطبعة الأولى «لباغ وبهار» أن «ميرامن» قد أخرج النثر الأردی من عباءة الفارسية وعقدتها إلى شمس عصر جديد فيقول:

[في كلامه - ميرامن - براعة حقيقية تجعل الإنسان يظن أنه كتب هذه القصة بنفسه]^(٧).

ويقول سير سيد أحمد خان ما ملخصه:

١٠٠] إن «ميرأمن» الذى فاق الجميع بعد أن كتب «باغ وبهار».. يملك قدرة كاملة على كتابة النثر»^(٨).

وفى الحقيقة فإن أهمية الكتاب ترجع إلى أنه يمكننا من رصد التغيرات فى القواعد، والتغير الذى طرأ على اللغة منذ تأليف الكتاب من قرن ونصف.

و«لباغ وبهار» خاصية يتميز بها عن كل المؤلفات المعاصرة له أو اللاحقة به وهو استخدامه أسلوب المحاوره وهذا طبقاً لقول «ميرأمن» نفسه حيث قال: «عندما يبلغ النثر أعلى مرتبة يكون بذلك قد تمكن من استخدام أسلوب المحاوره»^(٩).

واستخدم «ميرأمن» المحاورات على نحو صحيح وفطرى^(١٠)، واستخدام المحاورات على نحو فطرى لا يعد إسرافاً فيها، بل إنه شكل جميل من أشكال الاكتفاء الذاتى، فالمبالغة بمعنى تقديم صورة للحياة الفردية أو الاجتماعية فى مثل من الألفاظ لا وسيلة له إلا عن طريق المحاورات الجيدة والمناسبة، وكذلك فإن نثر «ميرأمن» قد نفخت فيه الروح باستعمال المحاورات^(١١).

وتجنب «ميرأمن» فى أسلوبه استخدام التفتية والسجع لكنه لم يهملها تماماً، لأننا نجد فى بعض المواضع استخداماً للسجع.

وقد أيد د. سيد عبد الله هذا رأى حيث يقول: إن «ميرأمن» عندما كان يشرع فى استخدام لغة المحاوره كان يستخدم السجع أحياناً^(١٢).

ومن أهم الخصائص التى يتميز بها «باغ وبهار» حبكة القصة ولغتها، فقد اتسم أسلوب «ميرأمن» بالسهولة الواضحة والتى كان يتطلبها العهد الذى كتب فيه، تميزت الكتب التى كتبت فى عهد «فورت ولیم» بنفس الخصائص، إلا أن ما يميز «باغ وبهار» عنها هو استخدامه للغة المحاوره والمحادثة وخلق محاسن أدبية رفيعة، ونفس الشيء فى سلاسة البيان وفصاحته نجدها على مستوى أدبى رفيع^(١٣)، أما القصة ففيها لطف ومتعة لا يدانيها أى متعة فى كتاب آخر، و«ميرأمن» عندما يكتب بلغة شرفاء دهلى تتناثر منها الورد ويشعر القارئ كأنه قد ألقى عليه بظلال من السحر، وكذلك طريقة «ميرأمن» فى حبكة القصة، حيث إن القارئ عندما يبدؤها لا يتركها إلا عندما تنتهى.

«باغ وبهار، مرآة اجتماعية وحضارية لعصره:

لكل قصة أو حكاية ميزة خاصة تتميز بها ومن أهم المميزات التي تميز القصة الجيدة هي أن تكون مرآة تعكس سمات وحضارة وعادات عصرها وتلك الصفة هي أيضا أهم ما يميز «باغ وبهار» على وجه الخصوص، فهو يعتبر صورة ناطقة لكل ما يتعلق بحضارة ومدنية وأسلوب الحياة في عصره فكما يقول كيان جند: «إن لميرأمن إحساسا خاصا في قصته لكل ما يتعلق بدعوى ولهذا فكل تفاصيل الحياة في دعوى منقوش ومحفوظ في «باغ وبهار»^(١٤).

فكل ما يتعلق بحياة الأمراء في دعوى طعامهم وشرابهم، أماكن إقامتهم، أنبيائهم، وعاداتهم اجتهد «ميرأمن» أن يصوره بأسلوب خاص في كتابه، واهتم «ميرأمن» على وجه الخصوص بتصوير الاحتفالات والمآدب وهذا يرجع إلى أن «ميرأمن» نفسه قد عاصر ملوك المغول وأمراهم لفترة ليست بالقصيرة^(١٥).

وكانت هذه الاحتفالات جانبا هاما من المجتمع في ذلك العصر، وكانت اللوائح العامة إحدى لوازم البلاط الملكي في تلك الفترة حيث تميزت بالسخاء والوفرة، ويمكن أن نطلع على بعض مواصفات هذه المآدب واللوائح في هذا النموذج:

«وفي تلك الأثناء كنا قد بلغنا المنزل، ففوجئت بمظاهر البهجة والزينة بادية على البيت، ووجدت كل الأرجاء نظيفة تفوح منها رائحة العطر، والحراس قائمون بالباب، فعقدت الدهشة لساني لكنني تيقنت من أنه بيتي فدخلته، ووجدت الرياش والمتاع والطنافس في كل مكان، ورأيت كثيرا من التحف والنفائس، وكانت المصابيح مضاءة في الطاقات وقد ازدانت تلك الطاقات بالورود والزهور، ورائحة البخور والصندل تفوح وتنبعث من كل الأركان، والقناديل مضاءة بالشمع الكافوري في الردهات والممرات، والثريات تتدلى من كل مكان، وكل شخص يؤدي واجبه ويشغل موقعه المحدد، ومن المطبخ تصدر أصوات القدور والأواني ومكان الماء على أتم استعداد، فقد وضع الماء في الأباريق ولف في القماش ليبرد، وصفت الآنية والصحاف والأكواب ووضع الثلج في الأباريق.

والخلاصة لقد كان كل شيء على أتم الاستعداد للحفل والضيافة، والراقصات والراقصون الذين يرتدون زي النساء والمنشدون يجلسون في زي فاخر وينشدون الأغاني على إيقاع الموسيقى^(١٦).

ففى تلك الولايم كانت تتوافر كل الأشياء التى تتعلق بها، وهذا يشرح الحالة الذهنية الخاصة بتلك الفترة، إذ إن كل هذه الأشياء دائما تكون وليدة الثروة والغنى الفاحش، وكانت الأموال وفيرة فى القصور الملكية ولذا فإننا نجد مثل هذا البذخ الشديد فى القصور الملكية فى الحفلات التى يعرض لها «باغ وبهار» وعلى سبيل المثال:

«عادت الوصيفة واصطحبتنى إلى قصر الأميرة وعندما ذهبت وجدت على الجانبين صديقات الأميرة، فوصيفاتها [بيكنيان، قلماقديان تركنيان حبشنيان ازيكنياه كشميرنيان] وحشمها وخدمها وقيانها كل حسب منزلته طبقاً للرسوم الملكية وكان المكان زائراً بالخدم والحشم، فكيف أصف هذا المشهد وأى لفظ يعبر عن كثرة الحضور، فصدرت منى زفرة رغمًا عنى واختلج قلبى لكننى تماسكت وسرت بين هذا الجمع ناظراً لهذا المشهد وثقلت قدماى فقد كانت الوصيفات على قدر عظيم من الحسن والجمال لدرجة أننى عندما كنت أمر بواحدة منهن لا أستطيع أن أغادرها إلى الأخرى، وكانت الأرائك مصنوعة من خشب الصندل... (١٧).

و «باغ وبهار» بوجه عام تعتبر مرآة ثابتة تعكس لنا الحياة فى ذلك العصر إلى أبعد مدى، فللشخصيات فى «باغ وبهار» سلوك اجتماعى وحضارى خاص فى تسير وتحدث وتزى وتسمع على نحو معين ولها أسلوبها الخاص فى التفكير والعمل، كما أن لها معتقداتها الاجتماعية الخاصة.

ويتضح فى «باغ وبهار» السمات النفسية والاجتماعية والعاطفية للشخصية الدهلوية، وإذا تفقدنا القصة من البداية إلى النهاية وجدنا سمات حضارة دهلى الاجتماعية تتجلى فى المشاهد والشخصيات والحوار بوضوح ملحوظ (١٨).

ف نجد مراعاة مقام الناس فى الحديث ومراتبهم واختيار الوقت المناسب للحديث، وكذا نلاحظ التواصل والدقة والاحترام والتلميحات أثناء الحديث وهذا كله من مميزات دهلى فعلى سبيل المثال:

نجد فى قصة الدرويش الأول الطريقة المثلى لحديث الوزير «خردمند» إلى الملك «آزادبخت» ملك الروم التى تعكس كيفية الحديث إلى الملوك والعظماء فى ذلك الزمان فيقول «خردمند» للملك:

«جعل الله عبدك وخادمك قداء لسلامة جلالتكم وخلد الله ملكك، لكن اعتزالك يا ملجأ وملاذ الدنيا على هذا النحو تضيع به السلطنة سدى» (١٩).

كذلك نلاحظ طريقة الحوار المذهب بين شخصيات القصة مثلاً فى قصة «السيد المولع بالكلب، نجد فى حديث الأخ الأصغر إلى شقيقه ما يدلنا على هذا: «فقلت: يا أخواى، ماذا تقولان؟ أنا غلامكم، ولا أدعى بأننى أخ لكما، مات أبونا وأنتما فى منزلة أبى، أريد خبزاً يابساً ليقيم أودى، وسأقوم على خدمتكم، ولا شأن لى بالتقسيم والتوزيع، أنا أسد جوعى ببقايا طعامكما وأكون برفقتكما» (٢٠).

هذه لهجة وجهاء دهلى الخالصة والتي نجد لها أمثلة لا تحصى فى «باغ وبهار».

كما كتب «ميرامن» عن مختلف طبقات المجتمع الهندى دونما وعمد منه حيث نجد أقسام الموظفين والخدم والفقراء والمتصوفة كما كانوا فى الهند فى ذلك العهد، وصور لنا صفات الأم والأصدقاء والأخت (٢١)، وما تتصف به تلك الشخصيات فى البيئة الهندية، ولنلاحظ هذا الحوار بين الأخت وشقيقها فى قصة الدرويش الأول:

«ذات يوم بدأت أختى - التى هى بمثابة الأم لى وتقوم على راحتى - تحدثنى قائلة: يا عزيزى أنت أخى ونور عينى وتذكارتى لوالدى ووالدتى ولقد طابت نفسى بقدمك فحينما أراك أصبح كالحديقة وأنت لى البرعم...» (٢٢)

ولنلاحظ سلوك الأم تجاه ابنتها رغم علمها بأنها مذنبة فى قصة الدرويش الأول:

«ويعد أن سمعت أمى هذا الكلام منى، أشفقت على وغلبتها عاطفة الأمومة وكتمت عيى وأمرت بإعداد كل ما يلزم الحفل والضيافة» (٢٣).

ومن سمات المجتمع فى ذلك الوقت الحرص على الصداقة وورد فى «باغ وبهار» ذلك الحديث الذى دار بين الدرويش الأول والتاجر يوسف:

«يا أخى إن كنت تريد أن تسلك هذا المسلك معى، فلم أبديت الصداقة أولاً؟ فالسلام له قيمة كبيرة بين الأصدقاء ولدى الكرام من الناس، فأنشرح صدرى لحديثه ووجدت أنه ليس من المروءة أن أكون معه على تلك الحال، فجلست إكراماً له وقلت أنا طوع أمرك ورهن إشارتك، فسر كثيراً لقولى وضحك قائلاً لى لك تشرفنى فى دارى اليوم فسأقيم حفلاً لاستقبالك لنتسامر بعض الوقت ونتناول العشاء سوياً» (٢٤).

ومن يقرأ «باغ وبهار» يرى عهد «محمد شاه وأحمد شاه» ملوك المغول بكل تفاصيله والمعتقدات السائدة في ذلك العصر، فقد رسم «ميرامن» صوراً مثالية لملوك ووزراء وأمراء تلك الفترة، ولننظر لهذا الوصف المثالي للملك «آزادبخت» في قصة الدرويش الأول وكيف كان مثالا للعدل مما أشاع الطمأنينة لدى الجميع:

«كان هناك ملك عظيم له ملك الروم، يدعى «آزادبخت»، كأنما هو في العدل أنوشيروان، وفي الجود والسخاء حاتم، وكانت مدينة «قسطنطينية» التي يسمونها الآن «إستانبول» حاضرة ملكه، أما رعيته فكانت في رغد من العيش وخلو في البال، فكل إنسان آمن في نفسه نهاره كيوم العيد، وليله كليلة البراءة، وما اتسعت المملكة لشحاذ أولص أو متسول أو محتال، وما أوصدت قط ليلاً أبواب الدور، أما الحوائث فهي مفتوحة في اتصال ودوام، وفي سوح الغابات وما أكثرها في طريق المسافرين يسعك أن تنام أو تسير دونما سؤال من أحد من أين وإلى أين» (٢٥).

وهذا تصوير لشخصية الأمير كما رسمها «ميرامن» في قصة الدرويش الثاني، وكيف كان الأمراء يعدون إعداداً جيداً حتى إذا ما كانت الفرصة لتوليهم الملك كانوا على قدر المسؤولية:

«وقد هيا لي والدي، ملك هذه السلطنة منذ الصبا، أستاذاً بارعاً في كل مجال وفن ليعلمني أصول وقواعد وقوانين المملكة، لأصبح ماهراً في شتى أنواع المعرفة، وبفضل الله عندما بلغت الرابعة عشرة من عمري كنت قد برعت في كل العلوم، وتعلمت آداب الحديث، وكيف أحسن الجلوس والقيام ورسوم الملوك، وكان شغلي الشاغل وما أصبو إليه ليل نهار هو أن أجلس في مجلس الحكماء والأدباء لأستمع إلى سير الملوك وأحوالهم وسير أولى العزم والمشهورين» (٢٦).

أما وصفه للجراح ففيه يقول:

«وخرجت للبحث عن طبيب (جراح) وسألت أهل المدينة عنه وأين يقيم؟ فقال لي أحدهم: «هناك طبيب ماهر وحكيم في فنه وفريد في براعته، لو قصده شخص فإنه بفضل الله وبحكمته يدرك بفيته، وهو يقيم في هذا الحي واسمه عيسى» (٢٧).

وعندما يصف «ميرامن» أى مدينة فى قصته فكأنه يصف إحدى مدن الهند ومدينة دهلى فى هذا العهد على وجه التحديد ولننظر لوصف مدينة الإفرنج فى «باغ وبهار»:

«فوصلنا إلى تلك البلاد فى خلال عدة شهور، ووجدت أن الشوارع فى الأسواق ممهدة والأزقة مرصوفة ومسطرة وكانت نظيفة بكل معنى الكلمة، وليس بها شائبة واحدة، وكانت المباني من طرز مختلفة ألوان متعددة والمصابيح مضاءة فى كل موضع وكانت الحدائق خارج المدينة تشتمل على زهور نادرة وفواكه عجيبة لعلها لا توجد إلا فى الجنة، (٢٨).

كما أبرز «ميرامن» أيضا على عمد أو غير عمد الكثير من المعتقدات التى كانت سائدة فى عصره فى الفترة التى عاش فيها «ميرامن» كانت دولة المغول تجتجح للإنهيار بعدما واجهت الهجمات الشرسة لكل من «أحمد شاه ابدالى» و«نادرشاه درانى» (٢٩). مما نتج عنه ميل كثير من الناس إلى العزلة والانطواء واعتبار التصوف هو النجاة والخلص ولهذا اختار «ميرامن» لأبطال قصته أن يكونوا دراويش ومتصوفة وكان الخلاص من أزماتهم يأتى دائما بظهور الفارس المثلث أو الخضر عليه السلام وهو رمز إلى المرشد الذى يرشد السالكين.

فى نهاية قصة الدرويش الأول نجد الدرويش يقول:

«وهمت بأن ألقى بنفسى بل ورفعت قدمى فأمسك بيدي شخص فى تلك اللحظة، وعندئذ ثبت لرشدى فرأيت فارسا يرتدى ملابس خضراء، يضع على وجهه نقابا وقال لى: «لماذا تريد أن تتخلص من حياتك؟ فالقنوط من رحمة الله كفر، ولا بد أن يكون الرجاء رفيقك حتى الموت، فى خلال ثلاثة أيام ستلتقى بثلاثة دراويش مثلك فى بلاد الروم هم أيضا فى هذه المحنة، وتجشموا مثلك المتاعب والمصاعب، ستجد أيضا ملك يدعى «آزادبخت» وهو كذلك يواجه مشكلة عويصة، وعندما سيلتقى بكم أنتم الأربعة، فسوف يتحقق مراد كل منكم على خير وجه» (٣٠).

ومن بين المعتقدات السائدة فى تلك الفترة أيضا اللجوء إلى زيارة القبور عند الشدائد أو قضاء الحوائج فى قصة الدرويش الأول أن الملك «آزادبخت» خرج متخفيا للمقابر ليدعو بقضاء حاجته:

«وذات يوم قرأ الملك فى أحد الكتب، أنه إذا كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن، ولم يجد منهما مخرجا، فعليه أن يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى، ثم يتوجه إلى المقابر

ويصلى ويسلم على رسول الله ﷺ، ويتيقن في نفسه من دونيته وهوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا ويبكى متعتا معتبرا ويتدبر قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق كثيرا من قبله من ذوى المال والجاه، وبعد أن دار الزمان بهم صاروا ترابا... وعندما يفكر الشخص في هذه الأمور في نفسه يدرك أن الدنيا كالفراشة، فينفتح قلبه كالبرعم ولا يحزن من أى شيء ولا على أى شيء،^(٣١).

كذلك استعانة أهل هذا العصر واعتقادهم فى الغيبيات ومخلوقات ما وراء الطبيعة وخاصة الجن وأن أمانيتهم من الممكن أن تتحقق بواسطتهم فعلى سبيل المثال جاء فى قصة الدرويش الرابع ما يلى:

«قال: قصة هذه الأشياء التى تراها، أن أباك تصادق منذ شبابه مع الملك «صادق» ملك الجن وكانا يتزاوران، فكان يذهب إليه مرة فى كل عام، ويهدى إليه التحف والعطور والنفائس، ويقيم هناك حوالى شهر وعند مغادرته يعطيه الملك «صادق» قردا من الزمرد وكان الملك يأتى بهذا القرد ويضعه فى هذا السرداب ولا يعرف هذا الأمر إلا أنا»^(٣٢).

كل تلك الأمثلة توضح أن «باغ وبهار» يعتبر صورة صادقة للمجتمع الهندى الذى كان يعيش فيه المؤلف، آدابه ورسومه وعاداته، وهو بذلك يتمتع بأهمية تاريخية، لأنه يعكس لنا الحياة الاجتماعية والمعتقدات الذهنية لذلك المجتمع خلال تلك الفترة.

ہوامش الفصل الثالث

- (۱) باغ وبہار: مقدمہ سلیم اختر، ص ۲۴۱۔
- (۲) مولوی سید محمد: باغ وبہار ایک مطالعہ، ص ۲۳۴۔
- (۳) د. گیان چند جین، اردو نثر کی داستان، ص ۲۲۷۔
- (۴) کلیم الدین احمد: اردو زبان اور فن داستان کوسر فراز، ص ۱۵۵۔
- (۵) ناغ وبہار: رتبہ سلیم اختر مقدمہ، ص ۶۸۔
- (*) (۱) اے اردو معلیٰ
- (۶) تاریخ الادب الأردی: ترجمہ محمد صادق، ص ۲۱۰۔
- (۷) باغ وبہار کا تنقیدی مطالعہ: ص ۱۰۸۔
- (۸) آثار الصنادید: سیر سید احمد خان، ط ۲۱، دہلی، ص ۱۰۶۔
- (۹) فورت ولیم، ایک مطالعہ، ص ۱۳۸۔
- (۱۰) انظر الفصل الخاص بأسلوب الكتاب.
- (۱۱) د. سید عبد اللہ: نثر باغ وبہار الحی، ص ۸۹۔
- (۱۲) میرامن سی عبد الحق تک: ص ۳۷۔
- (۱۳) رشید حسن خان: باغ وبہار، ص ۱۳۔
- (۱۴) گیان چند: اردو نثر کی داستان، ص ۳۷۹۔
- (۱۵) محمد ارشد کیانی، افسانوی نثر، لاہور، ص ۳۰۔
- (۱۶) میرامن دہلوی: باغ وبہار، ص ۹۸، ۹۹۔
- (۱۷) باغ وبہار: ص ۱۵۳، ۱۵۴۔
- (۱۸) محمد ارشد کیانی: افسانوی نثر، ص ۳۰۔
- (۱۹) باغ وبہار: ص ۷۶۔
- (۲۰) باغ وبہار: ص ۲۰۵۔
- (۲۱) کلیم الدین احمد: اردو زبان اور فن داستان کوسر فراز ص ۱۵۵۔
- (۲۲) باغ وبہار: ص ۸۶، ۸۵۔
- (۲۳) باغ وبہار: ص ۱۲۷۔

- (٢٤) باغ ويهار: ص ٩٤.
- (٢٥) باغ ويهار: ص ٧١.
- (٢٦) باغ ويهار: ص ١٣٣، ١٣٤.
- (٢٧) باغ ويهار: ص ٨٩.
- (٢٨) باغ ويهار: ص ٢٦٩.
- (٢٩) انظر الفصل الأول من الباب الأول.
- (٣٠) باغ ويهار: ص ١٣١.
- (٣١) باغ ويهار: ص ٧٨، ٧٩.
- (٣٢) باغ ويهار: ص ٢٩١.

الخاتمة

فى نهاية هذا البحث أخص أهم النتائج التى تأتى لى التوصل إليها بعد هذه الدراسة التحليلية والنقدية لكتاب «باغ وبهار» فأقول أولاً إن التوفيق حالفنى فى اختيارى لهذا الكتاب موضوعاً للدراسة لأنه كتاب منشور، ولم يحظ النشر حتى الآن من اهتمام الدارسين فى مصر بمثل ما حظى به الشعر الأردى من دراسات من خلال العديد من الرسائل الجامعية السابقة .

بدأت البحث بالتعرف على تاريخ الدولة المغولية فى قيامها وازدهارها وتدهورها، وتتبع أثر ذلك فى الحياة الأدبية .

كما سعت إلى التعرف على حياة «ميرامن» وهى حياة اكتنفها الغموض لشح المراجع التى تحدثت عنه وبخاصة فى مصر ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله . كذلك عرفت بكتابه الثانى «كنج خوى» وبالنظر فيه تبين أنه أصعب أسلوباً من «باغ وبهار» كما أنه لا يتمتع بشهرته أيضاً .

وقد عرفت بباع وبهار وما تضمنه من قصص وموضوعات كما وضحت المنهج الذى اتبعه المؤلف فى القصص «لباغ وبهار» وكذلك وضحت المغزى الفكرى والأهداف الأخلاقية والتربوية وراء تأليف «باغ وبهار» والتى رفعت من شأن الكتاب الذى استحق أن يدرس دراسة وافية .

وعند دراستى لمصادر هذا الكتاب تبين أنى اعتمد على كتاب بعنوان «نوطرز مرصم» للميرزا عطا حسين تحسين خان» وبعد عقد الموازنة بين الكتابين ثبت لى أن «ميرامن» لم

يكن مقلدا تقليدا ببغاويا بل إنه أضاف كثيرا من بذات أفكاره، وأخرج الكتاب فى أسلوب خاص به، مما حدا بالنقاد إلى أن يشيدوا بحسن صنيعة.

كما درست أسلوب الكتاب دراسة واعية، وكان لابد من هذه الدراسة لأهميتها، ولشرح ذلك أقول إنه استبان لى بعد دراسة أسلوب هذا الكتاب أن أسلوبه من السهل الممتنع، وهذه النتيجة تؤيد حقيقة هامة فى الأدب الأردى، وهى أن كلية «فورت ولیم» كان لها شعار خاص فى الأدب وهو عرض الأدب فى أسلوب سهل واضح رغبة منها فى التيسير على موظفيها من الإنجليز فى تعلم اللغة الأردية، وكتاب «میرامن» هذا يعد مثالا هاما لهذا المنهج الذى دعت إليه هذه الكلية، فعنى الكتاب من بعده بالكتابة فى أسلوب سهل، وهجروا الأسلوب القديم المثقل بالبديع، والذى يستغلق على الفهم، وبذلك ظهرت مدرسة جديدة فى الأدب الأردى كان رائدها هو «میرامن».

أما حين تحدثت عن منزلة هذا الكتاب، فقد نداعت الأفكار وتشتعت، فألممت بما تضمنه من حكم ومواعظ وعبر ومثل وقيم، وكان هذا الكتاب لذلك موضع دراسة إلى اليوم فى المدارس الهندية والباكستانية، وذلك لأهمية ما تضمنه، ولوضوح معانيه وسلاسة أسلوبه، وهو بذلك يشبه كتاب «مکستان» لسعدى فى الفارسية، و«كليلة ودمنة» لابن المقفع فى العربية.

كما أن هذا الكتاب طوفت بنا قصصه فى قصور سلاطين المغول، فأظهرتنا على طرف من توارخهم، كما أنها مضت بنا بين طبقات الشعب فأوقفتنا على أوضاعهم وأحوالهم، ولهذا جمع كل ما ينبغى معرفته خصوصا عن بلد هذا المؤلف وهى مدينة «دهلى».

ثم ترجمت هذا الكتاب «باغ وبهار» إلى اللغة العربية وقد ترجمته ترجمة حرفية مع حرصى على استقامة العبارة العربية على قدر طاقتى.

وبالله التوفيق

قائمة المراجع

المراجع

أولا المراجع العربية:

- آلان روب جريبه: نحو رواية جديدة، ترجمة: محمد إبراهيم مصطفى، دار المعارف، مصر.
- أحمد السعيد سليمان (دكتور): تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٢ م.
- بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، القاهرة ١٩٩٣ م.
- جمال الدين الشيال: تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٦٨ م.
- جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري: سرح العيون، المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الرابعة، ١٢٧٨ هـ.
- جمال سعيد (دكتور): الملحمة والرواية، كتاب الفكر.
- جوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٨ م.
- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط١، ١٩٩٠ م.

- حميد الحميداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م.
- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م.
- سهيل بخاري: القصة الأردنية، دراسة تحليلية ونقدية، إسلام آباد مارس، ١٩٨٧ م.
- عبدالسلام ندوي: شعر الهند، جزء ١، مطبع معارفى أعظم كره، بدون تاريخ.
- عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٨ م.
- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، ط٧، القاهرة، ١٩٧٨ م.
- لوثرروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامى (الجزء الثالث)، ترجمة عجاج نويهض، تعليقات وحواشي: شكيب أرسلان، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.
- محمد عبدالمجيد العبد: الإسلام والدول الإسلامية في الهند، القاهرة، ١٩٦٨ م.
- محمد كامل الخطيب: الرواية والواقع، دار الحداثة، سلسلة النقد الأدبي.
- محيي الدين الألواني: الأدب الهندي المعاصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٢ م.
- ميشيل بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: أنطونيوس، بيروت، ١٩٨٢ م.
- يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي، ط١، لبنان، دار الفارابي، ١٩٩٠ م.

ثانياً: المراجع الأردية:

- أبو اللیث صدیقی: آج کا اردو ادب، کراچی، الطبعة الثانية، ۱۹۸۲ م.
- أحمد جعفری: بهادر شاہ ظفر اور انکا عہد، لاہور، شیخ غلام علی، الطبعة الثالثة، ۱۹۶۹ م.
- اس ایم اکرام، وحید قریشی (د): دربار ملی. ت. عبدالحمید یزدانی، ط۱، کراچی، ۱۹۴۷ م.
- اس. ام. معین قریشی: اردو زبان و ادب، کراچی، الطبعة الأولى، أبريل ۱۹۸۶ م.
- أشرف صبروحی دهلوی: بزم آخر در شهر دہلی ک دو اخیر بادشاہوں کا طریق معاشرت، ط۱، مجلس ترقی ادب، ۱۹۶۵ م.
- الطاف حسین حالی: مقدمة شعر وشاعری، باہتمام: اسحاق علی علوی، لکھنؤ، بدون تاریخ.
- أنوار ہاشمی: تاریخ پاک و ہند، کراچی بک سینٹر ملیر ٹاؤن شہ، کراچی، ۱۹۹۰ م.
- أنور سدید: اردو ادب کی تحریکین، کراچی، الطبعة الأولى، ۱۹۸۳ م.
- (ایس۔ ایم۔ اکرام۔ وحید قریشی۔ د۔): دربار ملی۔ قومی زندگی کی کہانی، معاصرین کی زبانی، ترجمہ وتعلیق: خواجہ عبدالحمید یزدانی، کراچی، الطبعة الأولى، ۱۹۴۷ م.
- ایشوردی برشاد (د): نیو ہستری اف انڈیا ریو ایزد اید شن (اردو)، اندین بریس، آلہ آباد، ۱۹۴۵ م.
- بیر نیر (د): شاہجہان آیام اسیری اور عہد اور نجریب تک، ترجمہ: خلیفہ سید محمد حسین، کراچی، الطبعة الثانية، ۱۹۶۷ م.
- تنویر أحمد علوی: ذوق سوانح اور انتقاد، لاہور، مجلس ترقی ادب، الطبعة الأولى، ۱۹۶۳ م.
- حامد حسن قادری: داستان تاریخ اردو، لکشمی نرائی اکروال ناشر کتب، آجرا، ۱۹۹۶ م.

- حافظ محمود شیرانی: مقالات حافظ محمود شیرانی، الجزء الثالث، ترتیب: مظهر محمود شیرانی، مجلس ترقی ادب، لاہور، الطبعة الأولى، ۱۹۶۹ م.
- حمید احمد خان (بروفیسور): مقدمة سفینه ادب (حصہ نثر)، لاہور، اکتوبر، ۱۹۶۶ م.
- رام بابو سکینہ: تاریخ ادب اردو، ت: میرزا محمد عسکری، کراچی، پاکستان، بدون تاریخ.
- زاہرا معین: باغ و بہار کا تنقیدی مطالعہ، ط ۱، لاہور، ۱۹۸۶ م.
- جمیل نقوی: اردو نثر کا ارتقا بارہویں صدی عیسوی س فورٹ ولیم کالج تک مختصر خاک، اردو اکادمی، سندھ - کراچی، نقش ثانی ۱۹۸۶ م.
- سلیم اختر: باغ و بہار کا تنقیدی مطالعہ، اشاعت اول، دہلی، ۱۹۸۳ م.
- سمیع اللہ (د): فورٹ ولیم کالج ایک مطالعہ، نشاط آفست پریس تانہ، فیض آباد، الطبعة الأولى، اپریل ۱۹۸۹ م.
- سہیل بخاری: اردو داستان تحقیقی و تنقیدی مطالعہ، اسلام آباد، الطبعة الأولى، ۱۹۸۷ م.
- سید احمد دہلوی، فرہنگ آصفیہ، اربعہ مجلدات، لاہور، مکتبہ سہیل، بدون تاریخ.
- سید عبداللہ (د): باغ و بہار کی زندہ نثر، اشاعت اول دہلی، اپریل ۱۹۸۳ م.
- سید قدرت نقوی: میرامن کی معترضین، ط ۱، دہلی، ۱۹۸۳ م.
- سید محمد محمد: اریاب نثر اردو، اعتقاد ببلشنگک ہاوس، نئی دہلی، ۱۹۷۷ م.
- سید محمد مولوی: باغ و بہار ایک مطالعہ، اعجاز ببلشنگک ہاوس، نئی جہلی، اشاعت اول اپریل ۱۹۸۳ م.
- سیر سید احمد خان: آثار الصنادید، دہلی، الطبعة الثانية، بدون تاریخ.
- سیفی آتش لکھنوی: ہماری محاورہ، لاہور، بدون تاریخ.
- صاحب زادہ عبدالرسول: پاک و ہند کی اسلامی تاریخ تا عہد حاضرہ، لاہور، بدون تاریخ.

- ضیاء الدین بارانی: تاریخ فیروز شاہی، کلکتا، ۱۸۶۵ م.
- عبادت بریلوی:
- غالب اور مطالعہ غالب، الطبعة الأولى، لاہور، ۱۹۶۹ م.
- مؤمن اور مطالعہ مؤمن، طبعة لاہور، اردو دنیا، ۱۹۶۱ م.
- عبدالسلام خورشید: تاریخ تحریک پاکستان، الجزء الأول، اسلام آباد، الطبعة الأولى، ۱۹۹۳ م.
- علی عابد: أصول انتقاد ادبیات، مجلس ترقی ادب، لاہور، الطبعة الثانية، ۱۹۹۶ م.
- غلام حسین ذو الفقار: اردو شاعری کاسیا سی اور سما چی بس منظر، سلسلة نثریات شرقیة، لاہور، جامعة پنجاب، ۱۹۶۶ م.
- فخر الإسلام اعظمی: سب رس س خطوط غالب تک، اشاعت اول دسمبر ۱۹۸۵ م.
- قدرت اللہ شوق: تذکرة طبقات الشعراء، لاہور، الطبعة الأولى، مجلس ترقی ادب، ۱۹۶۸ م.
- قمر آستان: آداب سلطنت ورسوم معاشرت، غضنفر اکادیمی، پاکستان، کراچی، الطبعة الثانية، دون تاریخ.
- قدوسی: إعجاز الحق، تاریخ سندھ، الجزء الثاني، کراچی، الطبعة الأولى.
- کلیم الدین: فن داستان گوئی، بتنه، الطبعة الأولى، بدون تاریخ.
- کلبدن بیکم: ہمایون نامہ، ترجمة: رشید اختر ندوی، لاہور، الطبعة الثانية، ۱۹۷۹ م.
- کیان جند (د): اردو کی نثری داستانیں: انجمن ترقی اردو پاکستان، کراچی، ۱۹۶۹ م.
- محمد ارشد کیانی: قصہ نکاری کا ارتقا، لاہور، بدون تاریخ.
- محمد اکرام: رود کوثر، لاہور، الطبعة الأولى، ۱۹۸۴ م.
- محمد حسین آزاد: آب حیات، لاہور، الطبعة الثامنة، بدون تاریخ.
- محمد جمیل احمد: اردو شاعر برایک نظر، کراتشی، الطبعة الأولى، ۱۹۸۵ م.
- محمد رفیق وآخرون (شیخ): تاریخ پاکستان وھند، لاہور، ۱۹۸۷ م.

- محمد عتیق صدیقی: جلگہ رست اور اسکا عہد، انجمن ترقی اردو، ہند، علی گڑھ، ۱۹۶۰ء۔
- محمد مصطفیٰ خان شیفتہ: گلشن خار، ترتیب: کلب علی خان فائق۔
- محمد یحییٰ تنہا: سیر المصنفین، حصہ اول، محبوب مطابع دہلی، ۱۹۲۴ء۔
- محمود علی ماہر خان: علم الحروف یا تحقیقات ماہر، حصہ سوم، دہلی، ۱۹۳۴ء۔
- ملا حسین واعظ کاشفی، اخلاق محسنی، لکھنؤ، ۱۳۱۳ھ۔
- مولوی سید محمد: باغ و بہار ایک مطالعہ، دہلی، الطبعة الأولى، ۱۹۸۳ء۔
- مولوی عبدالحق (د): قواعد اردو، الناظر برس، لکھنؤ، ۱۹۱۴ء۔
- قواعد اردو، اشاعت سولہویں، انجمن ترقی اردو، ۱۹۹۴ء۔
- میر امن دہلوی:
- باغ و بہار، مرتبہ رشید حسن خان، مکتبہ جامعہ لمیٹڈ نیو دہلی، ۱۹۷۴ء۔
- باغ و بہار، مرتبہ سلیم اختر، ایجوکیشنل پبک ہاؤس، علی گڑھ، ۱۹۷۷ء۔
- باغ و بہار، مقدمہ: ممتاز حسین۔
- کنج خوبی، مرتبہ خواجہ احمد فاروقی، شعبہ اردو دہلی یونیورسٹی، ۱۹۶۶ء۔
- میر محمد حسین عطا تحسین خان: نوظہر مرصع، مرتبہ پروفیسور سید نور الحسن ہاشمی، آلہ آباد، ۱۹۵۸ء۔
- نادم سینا پوری: فورت ولیم کالج اور اکرام علی، ادارہ فروغ اردو لکھنؤ، ۱۹۵۹ء۔
- نفیس جہان بیگم: میر امن دہلوی حیات و تألیفات، دہلی، ۱۹۸۶ء۔
- وحید قریشی (د): باغ و بہار ایک تجزیہ، نصرت ببلشرز۔ حیدری مارکیٹ امین آباد، لکھنؤ۔
- وقار عظیم: ہماری داستانیں، اردو مرکز لاہور، طبع دوم، بدون تاریخ۔
- جدید اردو ادب کا ایک ابتدائی نثر نگار، مطبوعہ اسلامک کلچر، ۱۹۳۹ء۔

- كاروان ادب: مجموعة مقالات، فيروز سنتر، لاهور، الطبعة الثانية، ١٩٧٣ م.

- كمبني حكومت: مجموعة مؤلفين، نيا اداره، لاهور، الطبعة الرابعة، ١٩٦٩ م.

ثالثا: المراجع الفارسية:

- ذبيح الله صفا (دكتور): تاريخ ادبيات ايران، تهران، ٢٥٣٦ شاهنشاهی.

- عباس اقبال آشتياني: تاريخ مفصل ايران از صدر اسلام تا انقراض قاجاريه.

- علي اكبر شهابي خراساني: روابط ايران و هنديا تأثير روابط ايران و هند در ادبيات دوره صفويه، تهران، ١٣١٦ هـ. ش.

- محمد دبیر سیاقی: دوره تاريخ ايران از آغاز تا انقراض قاجاريه،، تأليف: حسن بيرنيا، عباس اقبال آشتياني، تهران، د.ت.

- نصر الله فلسفی: زندگانی شاه عباس اول، جلد اول، تهران، چاپ اول، ١٣٣٤ هـ. ش.

- سعدی شیرازی: گلستان، تصحيح و حواشی عبدالعظيم جرجانی بانظريات جديد، طبع دوم کتابخانه و مطبعه علمی در سنة ١٣١٠ شمسی رمز (يه).

رابعا: رسائل الدكتوراه:

- ابتسام صالح الدين: مدرسة الشعر الأردی فی دهلی فی النصف الأول من القرن ١٩ الميلادی، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨٩ م.

- أحمد عبدالقادر الشاذلی: طبقات أكبری، رسالة دكتوراه تحت رقم ٤٣٤، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٨٥ م.

- عبدالعزيز محمد مصطفى بقوش: أمير خسرو الدهلوی وفصته شیرین و خسرو، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٦٩ م.

خامسا: المجلات والدوريات:

١ - باللغة العربية:

- مجلة ثقافة الهند، عدد يونيو ١٩٥٥ م.

٢ - باللغة الفارسية:

- مجلة هنر ومردم، العدد ١٥٨، طهران، طبع وزارة الثقافة والنشر.

سادسا: دوائر المعارف والمعاجم:

أ - الأردية:

- اردو دائرة معارف إسلامية، زیر اهتمام دانشکاه پنجاب، لاهور، جلد ٦، طبع أول، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م.

ب - العربية:

- حسين مجيب المصرى: المعجم الفارسى العربى الجامع، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٨٤ م.

ج - الفارسية:

- على أكبر دهمخدا: لغت نامه، زیر نظر: دکتر محمد معین و دکتر سید جعفر شهیدی، ١٢٥٨ - ١٣٣٤ هـ. ش، جاب أول از دوره جدید بهار ١٣٧٣ هـ. ش. مؤسسة انتشارات و چاپ دانشکاه تهران.

سابعاً: المراجع الأجنبية:

- Ali, K. A New History Of Indo - Pakistan Since 1526. Lahore, 1985.
- Boumeuf, R., Quellot, R. "L'Univers Du Roman" Ed. Pub. 1981, P. 86.
- Burn, R. Cambridge History Of India. Iv Vols, Cambridge, 1922 - 29.
- Duff, Grant. History Of The Mahrattas, Vol. 1, 1952.
- Duder, George. A History Of India From The Earliest Times To The Present Day. London 1936.
- Elliot, H. M. The History Of India, As Told By its Own Historians.
Vol. VII, VIII Edited And Continued By John Dowson, M.R.A.S., London, 1877.
Elphinstone, H.M History Of India, The Hindu And Mohmeton Periods. Third Edition, London 1849.
- Gibb, E.G.W. A History Of Ottoman Poetry. Vol II Edited By Edward G. Browne M.R., London, 1902.
- Howorth, H. History Of The Mongols. 3 Vols. London, 1846.
- Ishwari, P. A Short History Of Muslem Rule In India. Allahabad, 1933.
- Lane -- Poole: Medievel India Under Mohmmmeden Rule. London, 1917.
- Moreland, W.H. And Chetterjee, A.C. A Short History Of India.
Second Edition, London, 1944.
- Muir, E. The Structure Of The Novele. The Hogarth Press, London, 1949.
- Pakistan History Board. A Short History Of Hind - Pakistan, First Edition, Karachi, 1955.
- Panikkar, K.M. A Survey Of Indian History, Bombay, 1963.
- Spear, P. Twilight Of The Mughuls, Studies In Late Mughul Delhi.
Cambridge, University Press, 1951.
- Sarker, J.N. Fall Of The Mughol Empire. Second Edition, Rev.
Calcutta, M.C. Sarker, 1949 - 52.
- Sharma, S.R. The Religious Policy Of The Mughol Emperors. Aria Publishing House, Second Edition, 1962.

- Siddoequ, M.A. Origins Of Modern Hindustani Literature Scenrse Material Gilchrist. Aligarh, First Edition, 1963.
- Smith, V. The Oxford History Of India From The Earliest Times To The End Of 1911. C.I.E Oxford 1920.
- Taylor, A. Standard Dictionary Of Folklor, Mythology And Legend, Vol. II, Funk And Wagnalls Co. N.Y. 1950.
- Volette, B. "Esthetique Du Roman Moderne" Paris, 1972, P. 93.

القسم الثاني: الترجمة

الِقْ إِلَى سَمْعاً وَلِيَكُنْ حَكْمُكَ عَدْلًا قَالَ الرَّأْيُ وَهُوَ يَقْصُ قِصَّةَ الدَّرَاوِيْشِ الْأَرْبَعَةِ:

كَانَ هُنَاكَ مُلْكٌ عَظِيمٌ لَهُ مُلْكُ الرُّومِ يَدْعَى «أَزَادْبَخْت» كَأَنَّمَا هُوَ فِي الْعَدْلِ «أَنُوشِيروَان» وَفِي الْجُودِ وَالسَّخَاءِ حَاتِمٌ، وَكَانَتْ مَدِينَةُ «قُسْطَنْطِينِيَّة» الَّتِي يَسْمُونَهَا «اسْتَانْبُول» هِيَ حَاضِرَةُ مُلْكِهِ، أَمَّا رَعِيَّتُهُ فَكَانَتْ فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ وَخُلُوٍّ فِي الْبَالِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ آمِنٌ فِي نَفْسِهِ نَهَارَهُ نَهَارَ الْعِيدِ وَلَيْلَةَ الْبَرَاءَةِ، وَمَا اتَّسَعَتِ الْمَمْلَكَةُ لَشَحَاذٍ أَوْ لَصٍّ أَوْ مَتَسَوِّلٍ أَوْ مُحْتَالٍ وَمَا أُوصِدَتْ قَطُّ لَيْلًا أَبْوَابُ الدُّورِ، أَمَّا الْحَوَانِيْتُ فَهِيَ مَفْتُوحَةٌ فِي إِتِّصَالٍ وَدَوَامٍ، وَفِي سَوَاحِلِ الْغَابَاتِ وَمَا أَكْثَرَهَا فِي طَرِيقِ الْمَسَافِرِينَ فَيَسْعُكَ أَنْ تَنَامَ أَوْ تَسِيرَ دُونَمَا سَوَالٌ مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَيْنَ وَإِلَى أَيْنَ؟ وَقَدْ انْطَوَتْ تَحْتَ سُلْطَانِ هَذَا الْمَلِكِ آلَافُ الْمَدَنِ وَيُؤَدِّي إِلَيْهِ الْخَرَاجُ عَدِيدٌ مِنَ السَّلَاطِينِ، وَمَعَ سَعَةِ هَذَا الْمَلِكِ وَعَظَمَتِهِ إِلَّا أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَغْفُلُ لِحُظَّةٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ وَافِرَ الْحِظِّ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَزَهْرَةَ الدُّنْيَا إِلَّا الْوَلَدَ الَّذِينَ هُمْ بِهَجَةِ الْحَيَاةِ فَقَدْ خَلَّتْ مِنْهُمْ رَوْضَةُ حَيَاتِهِ، وَكَانَ يَقْضِي جُلَّ وَقْتِهِ مُفَكِّرًا فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَعَقَبَ كُلَّ صَلَاةٍ كَانَ يَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَائِلًا:

«يَا إِلَهِي لَقَدْ مَنَحْتَ عَبْدَكَ الضَّعِيفَ مِنْ جُودِكَ وَفَضْلِكَ الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ، لَكِنْ لَا بَدَّ لِهَذَا الْبَيْتِ الْمَظْلَمِ مِنْ قَنَدِيلٍ فِي هَذَا رَاحَةٍ لِقَلْبِي لَقَدْ عَدِمْتَ مِنْ يَحْمِلِ اسْمِي وَيُرَوِّى ظِمْئِي، وَأَنْتَ سُبْحَانَكَ مَالِكٌ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي خَزَائِنِكَ، فَلْتَهَبْنِي وَلَدًا يَخْلُدُ ذِكْرِي وَيَحْفَظُ مَلَكِي».

وَعَلَى هَذَا الْأَمَلِ عَاشَ الْمَلِكُ حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَذَاتَ يَوْمٍ وَبَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَأَخَذَ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِ مُلْكِهِ، وَقَعَ بَصَرُهُ فَجْأَةً عَلَى مَرَاةٍ أَمَامَهُ وَلَمَحَ شَعْرَةَ بَيضاءَ

فى فوده تتلآلآ كأنها خيط من لجين، وما أن رآها الملك حتى ترقرق الدمع فى مقلتيه وزفر زفرة حارة، وقال فى نفسه:

«وأسفاه على عمرك الذى ضاع هباءً منثورا فى مسعاك إلى الجاه والمال وحرصا عليهما، والآن ماذا أنت صانع بما تحصل لديك من أسباب الملك؟ فلسوف تدع كل شىء فى النهاية ويأتيك رسول الأجل ملك الموت. وكلما مر يوم من العمر قل جهدى وضعف بدنى حتى ليتراءى لى أنه ليس مقدراً أن يولد لملكى وارث، وإننى فى النهاية سأموت وأدع كل شىء فالأجدر بى أن أتخلى عن تاجى وعرشى وأقضى البقية الباقية من حياتى فى ذكر خالقى سبحانه وتعالى».

وبعد أن جال هذا فى خاطره، خرج إلى الحديقة ورد تحية رفاقه.

ثم تحدث إليهم قائلاً: «عليكم ألا تأتونى بعد اليوم، اذهبوا إلى الديوان العام وليقم كل منكم بأداء وظيفته. وبعد ذلك انتحى الملك ركنا من الأركان وأنشغل بالذكر والعبادة، ولم يكن له شغل إلا البكاء وتصعيد الزفرات. ومضت الأيام بالملك على هذه الوتيرة، فما كان يطعم إلا ثلاث تمرات، ويحتسى من الماء القليل ويظل ليلاً ونهاراً فى محرابه حتى شاع هذا الأمر فى الرعية وعرفه الناس فى أرجاء المملكة وأدرك الناس أن الملك نفذ يده من الملك وأثر عليه العزلة، وهب الطامعون يعيشون فى الأرض فساداً فى محاولة للاستيلاء على مقاليد الحكم فأعلنوا عصيانهم (وما دام هذا شأن الحاكم فلزام أن يخل نظام الحكم وتتزلزل أركانه) وبلغ خبر العصاة من كل صوب إلى البلاط فاجتمع أمراء البلاط ليتدبروا الأمر لتحقيق المصلحة.

وأخيراً رأى الأمراء ضرورة التوجه إلى الوزير العاقل الحكيم المقرب إلى الملك والموقر من قبله وصاحب المنزلة الرفيعة لدى جميع الحاشية، فتوجه إليه جمع من الأمراء والوزراء قائلين له: هذا هو حال الملك وهذه هى حالة الدولة، ولو تهاننا وتغافلنا عن هذه المحنة التى ألمت بمملكتنا لذهب الملك أدراج الرياح، فنحن الآن فى مشكلة خطيرة. وكان الوزير المحنك اسمه «خردمند» وهو اسم على مسمى وقد تكلم قائلاً: مع أن الملك كان قد منع مقابله، لكن لنمض إليه جميعاً وإن شاء الله سيسمح لنا الملك بمقابله، قال ذلك وذهب ومعه الجميع إلى الديوان العام ثم تركتهم وتوجه إلى الديوان الخاص، وأرسل الحاجب ليستأذن الملك ويقول

له: هذا الشيخ الخاضع المائل أمامك الآن، لم تكتحل عيناه منذ عدة أيام بجمال الدنيا، وإننى أمل أن يطمئن خاطرى بعد أن أتزود بنظرة إلى جلالتك وأقبل أقدامكم الشريفة.

فأبلغ الحاجب هذا القول إلى الملك، ونظرا لمكانة الوزير لدى الملك وعلمه بإخلاصه وحكته وشهامته، قال الملك بعد تريث: «ادعو خردمند للدخول فأقبل الوزير وقدم التحيات والتعظيمات وقبل الأرض بين قدمي الملك، ثم رفع رأسه ونظر إلى الملك، فوجده فى أعجب هيئة وقد تورمت عيناه من كثرة البكاء وشحب وجهه وامتعق لونه.

فساء «خردمند، ما صار إليه حال الملك فخر على قدميه، وعندئذ رفع الملك رأسه بيديه وأمره قائلاً: انظر إلى وقر عيننا والآن دعنى وشأنى ولا ترهقنى أكثر من ذلك وعليك بإدارة شئون السلطنة.

وما إن سمع «خردمند، قوله حتى بكى بكاءً مرأً وسالت دموعه حتى اخضلت لحية وقال للملك: جعل الله عبدك وخادمك فداءً لسلامة جلالتك وخلد الله ملكك، لكن اعتزالك يا ملجأ وملاذ العالم على هذا النحو تضيع به السلطنة سدى وتذهب أدراج الرياح، وستكون العاقبة وخيمة فى النهاية، ترى أى هاجس قد مر على خاطرك المبارك يا جلالة الملك؟ إن كان هذا الهاجس هو حرمان هذا البيت من وارث فمن الأفضل أن تطلعنى على سرك حتى أعرض عليك ما يرد على فكرى القاصر، لقد منحنا الرفعة من أجل اليوم الذى نيسر فيه الراحة والسعادة لملكنا، فإذا وقع ملكنا فى الحيرة بسبب شئون الحكم لا قدر الله فمتى إذا سنفيد ملكنا؟»

قال الملك: «الحق ما تقول أيها الوزير إن ما يختلج فى قلبى ويعتمل فى عقلى قد خرج عن نطاق تصرفى - اسمع يا خردمند لقد استنفد حكم هذه السلطنة كل عمري، وما يؤلمنى ويقض مضجعى أن السنين قد مرت والآن لم يبق سوى الموت، وقد وصلتني رسالته متمثلة فى شعرة بيضاء تخللت شعرى الأسود، إنها بمثابة من يقول لى: (لقد نمت الليل بطوله والآن جاء الصبح أفلا تستيقظ؟) وإلى الآن لم أرزق بالولد الذى تقربه عينى، ولهذا أخذ منى الحزن كل مأخذ وتمكن من قلبى، ولهذا زهدت فى كل شىء وما أريده هو أن أبتعد وأنصرف عن المال والجاه وأدع كل شىء وأخرج إلى الغابات والجبال فلا يرانى أحد قط، وهكذا أقضى أيام الحياة المعدودة، وإذا ما طاب لى مكان أقمت به، وانشغلت بالعبادة، ربه.

يكون ذلك خيراً في النهاية، فأنا لم أجد للدنيا متعة ولا لذة، وبعد أن قال الملك هذه العبارة زفر زفرة حارة وطأطأ رأسه.

وحينما كان هذا الملك أميراً كان الوزير «خردمند» وزيراً لوالده، وكان أبوه يكن له محبة عظيمة لعلمه وحسن تدبيره فأخذ يحدثه قائلاً: لا يليق بجلالتك أن تياس من روح الله سبحانه وتعالى، فإن الذي أخضع لسلطانك ثمانية عشر ألف ملك كيف يشق عليه أن يهبك الولد؟ فيا قبلة العالم رد هذا الوهم عن قلبك، فلست من يترك العالم في صراع مستمر، وقد أقيمت هذه السلطنة بجهد واجتهاد جلالتك العظيم، ولو أفلت زمام هذه البلاد من يد جلالتك ولو للحظة وخربت نتيجة للجهل والحمق، فستفنى وتنهار تماماً لا قدر الله، علاوة على ذلك ففي يوم القيامة عندما يسألك ربك ويقول لك: لقد وليتك على هذا الملك وحملتك مسئولية الرعية فيمت من رحمتنا وجعلت الرعية في حيرة واضطراب «فبماذا ستجيب على هذا السؤال؟ عندئذ لن تجدك العبادة في ذلك اليوم المهيب شيئاً، ولهذا فقلب الإنسان هو بيت عبادة الله، ويسأل الملك عن عدله فقط. فلتغفر لغلامك تجاوزه، فإن الخروج من البيت والسياسة في الغابات من شأن النساء والزهاد، وليس من شيم الملوك، فلا يليق بسموك السياحة في الغابات والجبال وقصر حياتك على ذكر الله والزهد في الدنيا، ولتنتصت لهذا البيت:

من بحث في الغابة عم عند ربه

كمن بحث في المدينة عن ابنه وهو في حصنه!!

فإن تقبل عرض من يبغى انصافك وفداءك فمن الأفضل أن يتوجه ملاذ العالم في كل لحظة إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء فسبحانه وتعالى لا يقف ببابه محروم، ولتقم بمهامك الملكية بالنهار ولتحكم بين الرعية والغرباء بالعدل والإنصاف فتتعم رعبتك بالأمن ويظلمها الله سبحانه وتعالى بظلمه، ولتشتغل بالعبادة ليلاً فتكثر من الصلاة على النبي ﷺ والتوسل به ولتتصدق على المحتاجين والنساء والعباد، ولتجراتاً على اليتامى وذوي العيال وعائلي الأراذل والمساكين، فبهذه الأعمال الطيبة وبركة النوايا الحسنة، يكون الأمل معقوداً في رحمة الله بأن يبلغك مقصود قلبك وكل أمانيك وأن يمحو عن مزاجك الشريف كل ما علق به من كدر وهم، وأن يضع الخالق بعنايته سعادة ورضاء خاطرهم الشريف موضع العناية والاعتبار وأن يفعل ما يرضيك في العاجل إن شاء الله.

وهكذا أخذ الوزير «خردمند» يواسي الملك ويشد من أزره بهذا القول، فقال الملك (آزادبخت): من الأفضل أن نؤدى ما اقترحته أولاً وعندئذ فليقض الله أمراً كان مفعولاً.

وعندما اطمأن قلب الملك لحديث الوزير توجه إليه بالسؤال: وما حال أمراء الدولة ورجال الديوان وكيف تتقلب بهم الأمور؟، فأجابه الوزير قائلاً: كل أركان الدولة تلهج بالدعاء لقبلة العالم وتفتديه بالمال والروح، وهم فى غاية الاضطراب والقلق عليكم، فلتتفضل عليهم بالنظر إلى حسنكم المبارك ليطمئن خاطر الجميع، فهم الآن فى الانتظار فى الديوان العام.

فلما سمع الملك ذلك قال: «بمشيئة الله تعالى سأعقد الديوان غداً، فلتأمر الجميع بالحضور».

ولما سمع «خردمند» هذا الوعد سر سرورا لا مزيد عليه ورنع يديه بالدعاء قائلاً: أدام الله ملك جلالكم مادامت السماء والأرض، ثم استأذن فى الانصراف وخرج سعيداً، وحمل هذه البشرى للأمراء فانصرف كل منهم إلى منزله فرحاً سعيداً، وعمت الفرحة العارمة أنحاء المملكة، وعلم الرعية أن الملك سيعقد الديوان غداً، وفى الصباح وقف الجميع أمراء ووزراء وأركان دولة الصغير والكبير كل حسب منزلته، ليمثلوا بين يدى الملك، وظلوا فى انتظار مقدمه.

وعندما أصبح الصباح، رفعت الأستار وخرج الملك وتربع على عرشه المبارك، دقت الطبول فى كل جنبات القصر، وفى البداية قدم الحضور الهدايا والنذور والتحيات بين يدى الملك، فرد الملك تحية كل منهم وفقاً لمنزلته، ومكانته منه فسر الجميع وطاب خاطرهم. وعندما انتصف النهار نهض الملك ودخل إلى قصره وأمر بالطعام ويعد أن تناوله أخلد إلى الراحة والنوم، ومنئذ قرر الملك أن يعقد الديوان صباحاً، ثم يقرأ الكتاب (القرآن) ويتلو الأوراد والتسابيح بقية اليوم، ويقف بين يدى الله سبحانه وتعالى يستغفره ويتوب إليه ويتوجه إليه بمطالبه وأمانيه.

وذاث يوم قرأ الملك فى أحد الكتب، أنه إن كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن ولم يجد منهما مخرجاً، فعليه أن يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى ثم يتوجه إلى المقابر ويصلى ويسلم على رسوله ﷺ، وأن يتيقن فى نفسه هوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا

وبيكى متعظلاً معتبراً ويتدبر قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذى خلق كثيراً من قبله من ذوى المال والجاه، وبعد أن دار الزمان بهم صاروا تراباً طبقاً لذلك القول:

إذا نظر (دياكبيراً)^(١) إلى الطاحونة

بكى قائلاً: هكذا يسحق من يقع بين شقى الرجا

والآن من ينظر إلى سكان تلك المقابر لا يجد لهم من أثر سوى حفنة من تراب، وقد خلفوا وراءهم فى الدنيا ثرواتهم وآلهم وذوئهم ومعارفهم وخدمهم وحشمهم وخیولهم وأقوالهم ولم تجددهم هذه الأشياء نفعا، بل إنهم أصبحوا مجهولين لا ذكر لهم ولا تعرف أحوالهم، وهل أكلتهم الأرضة والنمل والثعبان؟ وماذا مر بهم؟ وما آل إليه حالهم؟ وعندما يفكر الشخص فى هذه الأمور فى نفسه يدرك أن الدنيا كالفراشة، فيتفتح قلبه دائماً كالبرعم ولا يحزن من أى شيء ولا على أى شيء، وعندما اطلع الملك على تلك النصيحة فى الكتاب، تذكر قول وزيره وخردمند، وأدرك تطابق النصيحة مع قول الوزير، ولكنه فكر أنه ليس من المناسب أن يركب ويسافر فى هيئة الملوك، بل من الأفضل أن يذهب للمقابر متخفياً ليلاً بعد أن يبدل ملابسه ويتنكر أو أن يلتحق بخدمة أحد الزهاد أو النساك أو يسهر طوال الليل، فربما يتحقق له عن طريق هؤلاء الموتى المراد فى الدنيا والنجاه فى الآخرة.

وبعد أن قرر الملك ذلك، ارتدى رداء عادياً ذات ليلة وأخذ معه بعض المال وخرج متخفياً من القلعة واتخذ طريقه إلى الخلاء ووصل إلى المقابر وكان يصلى على النبى ﷺ سليم النية صافى القلب، وأثناء سيره هبت عاصفة شديدة وعصفت ریح عاتية، وفجأة نظر الملك فأبصر على البعد نارا تتلألأ مثل كواكب الصبح، فحدث نفسه قائلاً: إن هذا الضوء فى تلك الظلمة والريح الشديدة لا يخلو من حكمه، فهذا مصباح لو أشعل لا يستطيع شيء أن يطفئه، ولا تقدر أى ریح عليه، وأيا كان هذا الضوء وأيا كان هذا المصباح الذى ينبعث منه، فلا بد أن أذهب إلى حيث يوجد وأعرف حقيقته، فربما أضییء قنديل بيتى من نور هذا المصباح فأجد مراد قلبى.

وبهذا القصد توجه الملك إلى حيث ينبعث الضوء فلما اقترب منه، وجد أربعة من النساك المساكين وقد ارتدوا خرقاً بالية كالأكفان، يجلسون واضعين رؤوسهم بين أرجلهم وكانوا

صامتين كأنهم فى عالم اللا وعى، وهم فى حالهم هذا كمن سافر مفلسا معدما مخلفا وراءه وطنه وعشيرته متحيرا مشغولا متألما لفراقهم، وقد تجمدوا فى أماكنهم وكأنهم نقش على جدار وبجوارهم سراج خافت الضوء موضوع على حجر لا يطفئه الهواء قط وكأن السماء هى فانوسه الذى لا خطر منه .

ولما رأى الملك «آزادبخت» هذا المشهد قال لنفسه: من المؤكد أن أمنيئك سوف تتحقق ببركة هؤلاء الزهاد وستينع شجرة أملك الذابلة بهم، فلتمض إلى خدمتهم ونقص عليهم خبرك، وتشاركهم مجلسهم، فربما يدعون الله رحمة بك ويتقبل الله دعاءهم، وأراد أن يتقدم إلى حيث يجلسون لكنه تريت لحظة وقال لنفسه: «أيها الأحق لا تتسرع ولتتمهل قليلا فأنت لا تعلم من يكون هؤلاء؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ وأنى لك أن تعرف إن كانوا شياطيناً أو وحوشا صحراوية وقد تمثلوا فى صورة الإنسان وجلسوا على هذا النحو وتلك الحال، فليس من الأفضل الإسراع والتدخل فيما بينهم، بل أحسن أن تنتحى جانباً وتختبئ لتعرف حقيقة هؤلاء الدراويش، وفى النهاية جلس الملك مستتباً فى أحد الأركان صامتا لا يشعر به أحد، وأخذ ينظر إلى هؤلاء الدراويش ويستمع إلى حديثهم، وفجأة عطس أحدهم وحمد الله، فاضطرب الآخرون لانبعاث هذا الصوت، فرفعوا فتيل المصباح ليضىء أكثر وتوجهوا إلى فراشهم وشرعوا فى تدخين النار جيلة، وقال أحد هؤلاء الأحرار: أيها الأحياء والرفاق فى كل مكان، لقد همنا على وجوهنا فى كل مكان فترة من الزمن ولكن بحمد الله سبحانه وتعالى ويعونه التقينا سوياً اليوم فى هذا المكان، ولا نعلم ماذا سيكون المصير غدا؟ هل سنبقى معاً أم نفترق؟ والليل طويل كالجيل وليس من المستحب أن نخلد إلى النوم الآن، والأفضل أن يقص كل منا ما مر به فى حياته شريطة ألا يكذب قط، وبهذا الحديث قطع الليل، وعندما ينقضى معظمه، نخلد إلى النوم.

فقال الجميع: أيها المرشد لقد قبلنا كل ما اقترحت على الرأس والعين، لكن لتبدأ أنت أولاً وتحكى لنا حكايتك حتى نفيد منها:

رحلة الدرويش الأول

اتكأ الدرويش الأول على ركبتيه، وشرع فى سرد قصته قائلا: يا عباد الله، لتلتفتوا إلى،
ولتستمعوا إلى كل ما ربي:

استمعوا إلى سيرتى بأذن مصفية
استمعوا فقد تبدلت أحوال الزمان بى
وإن كل ما ربي من الشدائد والصعاب
سوف أبينه لكم فاستمعوا إليه

أينما الأصدقاء، كان مولدى فى بلاد اليمن وهى بلاد الصالحين وكان والدى دخواجه
أحمد، تاجرا كبيرا وملكا للتجار، ولا يدانيه أى ثرى ولا يفوقه أى ملك فى ذلك الوقت، فقد
كان يملك كثيرا من القصور وله وكلاء مندوبون للبيع والشراء وكان فى بيته الآلاف من
الروبيات والسلع والبضائع، رزقه الله باثنين من الأولاد، الأول هو أنا الفقير إلى الله الحاضر
فى خدمة المرشدين فى لباس رث متواضع ويتحدث إليكم الآن، وأختى التى زوجها والدى
فى حياته تاجرا وكانت تعيش فى بيت زوجها، والخلاصة كنت وحيدا فريدا فى هذا البيت
الثرى فتصوروا مدى حب الوالدى، فلقد نشأت وترعرعت فى ظل والدى فى كل نعمة
وهناء، وبدأت أتعلم فنون الحرب والقتال وفن حساب التجارة والدفاتر وكذلك قضيت أربع
عشرة سنة من عمرى فى لامبالاة، ولم يخطر ببالى أن ينزل بى أى شدة فى الدنيا، لكن
فجأة توفى أبى وأمى كلاهما فى عام واحد بقضاء الله وقدره.

بعدها أصبت بحزن شديد أعجز عن بيانه، فبغثة أصبحت يتيمًا وما بقى لى أحد من
الكبار يعيننى، وكنت أبكى دائما على هذه المصيبة التى حلت بى فجأة، فصمت عن الطعام
والشراب، وانقضى أربعون يوما واجتمع فى الأربعين الأقرباء والمعارف وغيرهم، وبعد
الفراغ من قراءة الفاتحة، عينونى خليفة لأبى وأوصونى قائلين: لن يبقى أى أب أو أى أم
فى الدنيا إلى الأبد فكل نفس ذائقة الموت ونحن أيضا سنموت يوما، فاصبر وتول أنت
مسئولية البيت فقد أخذت مكان أبيك، فلتلتفت إلى تجارتك ومعاملاتك.

وبعد العزاء رجع كل منهم إلى بيته، ثم حضر الوكلاء والعملاء والخدم، وسلموا على
وقالوا: الق نظرة مباركة على الأموال والبضائع، وحينما رأيت فجأة هذه الأموال الطائلة

جحظت عيناى دهشة، أمرت بإعداد غرفة الاستقبال، فزين الخدم البيت بالأثاث الأنيق والمتاع الفاخر والستائر الجميلة وغيرها، وعينت لنفسى أفضل الخدم، وارتديت لباساً فاخراً وجلست على الأريكة مستندة إلى الوسادة، وصاحبنى وقتها رجال كذابون طماعون متملقون وكنت أصحابهم ليل نهار، وكانوا يتحدثون عنيًا ولغوا ويقولون: أنت شاب، اطلب الخمر والورد وجالس الحسان وشاركهن الخمر.

الخلاصة أن شيطان الإنسان إنسان، فضلت الطريق القويم وتبدل الزمن، وبدأت ممارسة الغذاء والرقص فى كل وقت ونسيت التجارة واشتغلت بالميسر والمقامرة، فلما رأى الرفاق والخدم أننى غافل تماماً عن ثروتى وتجارتى، بدأوا يأخذون منها ويسرقونها وأنا لا أدري شيئاً عن النفقات والمصاريف، من أين تأتى ولا إلى أين تذهب؟ فالمال بلا حساب والقلب قاس، وفى تلك الحال حتى لو أننى كنت أملك خزائن قارون فإنها لن تبقى، وفجأة أصبحت فقيراً لم يبق لى من اللباس سوى مايستر بدنى، وتنكر لى كل الناس حتى أصدقائى وندمائى، بل إننى كنت إذا التقيت بهم فى الطريق أشاحوا بوجوههم عني، وتركنى الحرس والخدم ولم يبق لى من يسأل عن أحوالى إلا الهم والحزن، ولم يبق لدى شىء من الحمص لكى أقتات به كما لم يعد عندى ما أشربه، وقضيت يومين بدون طعام، لكننى لم أقدر على الجوع أكثر من ذلك، فأردت أن أذهب إلى أختى لكن الندم كان يساورنى لأننى لم أصنع معها أى معروف منذ وفاة أبى ولم أرسل لها أى رسالة، بل إنها أرسلت لى عدة رسائل للمواساة ولتعزىنى فى وفاة أبى لكننى لم أرد عليها لذا كنت متردداً ولا أريد الذهاب إليها، لكن لم تكن لى حيلة ولم يكن لى ملجأ سواها، وفى النهاية عقدت العزم وذهبت إليها راجلاً بعد مشقة طويلة، فنظرت أختى إلىى وبكت بكاءً حاراً على ما آل إليه حالى، وتصدقت بمالها على الفقراء من أجلي وقالت لى: إننى مسرورة جداً بلقائك لكن بالرغم من ذلك فأنا مندهشة لما أنت فيه من سوء الحال واعتلال البدن فكيف حدث هذا؟ فلم أستطع أن أجيبها وفاضت عيناى بالدمع، فأمرت بحياكة لباس جديد لى، فاغتسلت ولبسته وخصصت لى سكناً فاخراً عندهم لأقيم فيه، وكانت تعد لى الإفطار كل يوم من الحلوى والعصائر، والغذاء والعشاء من الأرز مع اللحم والكباب والفواكه وغيرها ولا تتركنى إلا بعد الفراغ من الطعام، وكانت تقوم على راحتى وتستضيفنى بأحسن ما تكون الضيافة، فشكرت الله عز وجل آلاف

المرات لأننى وجدت هذه الراحة بعد مشقة طويلة، وقضيت عند أختى بضعة أشهر مأكناً ومستريحاً فى البيت.

وذاث يوم بدأت أختى - التى هى بمثابة الأم لى - والتى تقوم على راحتى - تحدثنى قائلة: يا عزيزى أنت أختى ونور عيى، وتذكرك لوالدى ووالدى، ولقد طابت نفسى بقدمك، فحينما أراك أصبح كالحديقة وأنت لى البرعم، لكن الله تعالى قد خلق الرجال للكسب والكد والعرق، والراحة بالبيت ليست من شيم الرجال، والرجل الذى يلزم البيت يطعن الناس فيه خاصة وأن كل من بالمدينة صغيراً وكبيراً يقول بعد أن يراك هنا بدون سبب: إنه أهدر ثروة أبيه ويعيش عائلة على زوج أخته، وهذا الأمر يخذل كرامتى وكبريائى وكذلك أنت، ولنا فى هذا القول ذلة ومهانة، ولوالدينا فضيحة وسوء سمعة وأنا لا أستطيع أن أخفيك عن عيون الناس، فأرجوك أن تسافر، وستبدل تلك الأحوال إن شاء الله وتحسن وسيعقبها الفرح والسرور. ويعد أن استمعت إلى قولها اشتعلت غيرتى واستحسننت هذه النصيحة منها وقلت: يا أختاه أنت بمثابة الأم لى، مرى بما تشائين وسأمتثل إن شاء الله ويعد موافقتى على هذا الأمر ذهبت أختى ثم عادت مع الجوارى بالأموال وقالت: «ستخرج قافلة التجار إلى دمشق، فلتشتر بهذه الأموال سلعاً واعطها لتاجر أمين واستكتبه صكاً موثقاً، واستعد أنت أيضاً للسفر إلى دمشق، ويعد أن تصل إليها سالماً إن شاء الله، أحص مالك وأرباحه واعرفه جيداً، وإلا فلتقم أنت بالبيع بنفسك».

فذهبت إلى السوق واشترت البضائع وسلمتها إلى تاجر كبير واطمأننت بكتابة الوثيقة وقراءتها، وسافر التاجر بالسفينة بحراً، وأردت أنا أن أسلك طريق البر، وعندما هممت أن أودع أختى منحتنى ثوباً وفسساً جميلاً، وعلقت بسرج الفرس وعاءً مملوءاً بالمأكولات والحلوى وقربة للماء، وعقدت روية الإمام الضامن فى عضدى، ووضعت علامة الماست على رأسى وقالت حابسة دموعها: عش محموداً، أستودعك الله سبحانه وتعالى، أرجع كما ذهبت.

فقرأت فاتحة الكتاب وقلت: فليحفظك الله لقد قبلت نصيحتك، ثم امتطيت الجواد وتوكلت على الله وقطعت المنزلين فى منزل، والمسافة فى نصف الوقت حتى بلغت مشارف دمشق. وحينما وصلت إلى باب المدينة، كان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل، وقد أغلق الحرس

البوابة، وتوسلت إليهم كثيراً كي أدخل وقلت: أنا مسافر، وجئت من بلاد بعيدة مسرعاً، فافتحوا كي أدخل وأنال قسطاً من الراحة فأجابوني بغلظة قائلين: «لا يسمح لنا أن نفتح البوابة في تلك الساعة من الليل فلماذا جئت الآن؟» فلما سمعت ردهم الصريح ترجلت عن فرسى وفرشت سرجى بالقرب من سور المدينة وجلست عليه، ثم بدأت في المشي لأسهر، ولما انتصف الليل هدأ كل شيء، فإذا بى أرى صندوقاً يتدلى من جدار الحصن، فعقدت الدهشة لسانى وتساءلت في نفسى وقلت ما هذا؟ ربما أرسل الله سبحانه وتعالى خزينة الغيب (طاقة القدر) لطفاً بأحوالى، وتوجهت حيث الصندوق خائفاً وبعد أن استقر على الأرض، وجدته صندوقاً خشبياً ففتحه بحرص، ووجدت به حساء بارعة الحسن تخب الألباب، وكانت جريحة ملطخة بالدماء تتأوه من شدة الألم، مغلقة العينين تتحرك شفهاها وتتمتم ببعض الكلمات وتقول: «أيها الشقى، ناقض العهد، أيها الظالم، هل هكذا يكون جزاء الخير والحب؟ فلتضرب كما تشاء، لقد فوضت الأمر إلى الله، هو الذى يعدل بينى وبينك وسحبت خمارها على وجهها وهى غائبة عن وعيها فى ذهول ولم تلتفت إلى».

ولما رأيت حالتها وسمعت منها ما سمعت تساءلت في نفسى: أى ضيع ظالم طعن تلك الحساء الغائنة؟ وماذا دار فى خاطره؟ وكيف امتدت يده إليها؟ فمحبته باقية فى قلبها حتى الآن، فهى لا تفتأ أن تذكره ذلك الذى بطش بها، وبينما كنت أحدث نفسى سمعت تلك الحساء صوتى وفجأة رفعت نقابها عن وجهها وفى تلك اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليها، كدت أفقد وعيى واختلج صدرى وارتعد قلبى، وتماكنت نفسى بكل صعوبة، وتجرات وسألته: «أصدقينى القول من أنت؟ وماذا حدث لك؟ فلو حكيت لى فسوف تريحين قلبى».

وبعد أن سمعت سؤالى أجابت على مهل على الرغم من عدم قدرتها على الكلام قائلة: «الحمد لله أن حالى هذا من أثر الجرح فماذا أقول؟ إن الإنسان ضيف على الحياة، وحين همت روحى بالخروج أرسل الله إلى رجلاً رحيماً، فقد أخفى تعس الحظ الصندوق وألقاه فى مكان، ولكن ببركة الدعاء نجوت أنا ونلت أنت الثواب، وصمتت بعد أن قالت ذلك».

وطوال الليل لم يكن بيدى ما أستطيع أن أفعله، فرفعت ذلك الصندوق وأحضرتة عندى وظللت أعد الساعات المتبقية على انقضاء الليل وأنبلج الصبح كي أدخل المدينة وأحاول قدر استطاعتي علاجها، وكانت الساعات المتبقية من الليل كأنها جبل فوق قلبى وصدرى، وعندما بزغ الفجر بفضل الله وصاح الديك وبدأت أصوات الناس فى الانبعاث صليت صلاة

الفجر ووضعت الصندوق فى جوال، وبمجرد أن فتحت أبواب المدينة دخلتها على الفور، ورحلت أسأل كل من ألقاه من الناس أو أصحاب الحوانيت عن مكان أستاذجره، وبعد بحث وتنقيب استأجرت مكاناً جديداً فسيحاً وأول ما فعلته أننى أخرجت تلك الحساء من الصندوق واخترت لها مكاناً مناسباً وأرحتها به، وتركتها مع رجل وقور، وخرجت للبحث عن طبيب (جراح) وسألت أهل المدينة عنه وأين يقيم؟ فقال لى أحدهم: هناك طبيب ماهر وحكيم فى فنه وفريد فى براعته لو قصدته شخص فإنه بفضل الله وبحكمته يدرك بغيته، وهو يقيم فى هذا الحى واسمه عيسى.

وبعد أن سمعت هذه البشرى ذهبت على الفور وأخذت أبحث عن العنوان حتى وصلت إلى الباب، فرأيت رجلاً ذا لحية بيضاء يجلس فى رواق البيت، وجواره بعض الرجال يعدون المراهم ويمزجونها، فحييت الرجل وسلمت عليه بتوقير وقلت: لقد جئتك بعد أن سمعت عن شهرتك وبراعتك، والذى حدث هو أننى خرجت من بلدى للتجارة، وأخذت زوجتى معى لمحبتى لها، وعندما اقتربنا من هذه المدينة كان المساء قد حل بنا، ورأينا أنه من الأفضل ألا ندخلها ليلاً، فجلسنا تحت شجرة بالميدان فهاجمنا اللصوص واستولوا على الأموال والأمتعة وطعنوا زوجتى ولم يكن بيدي ما أستطيع فعله فقطعت ما بقى من الليل على أحر من الجمر. وعندما أشرق الصبح دخلت المدينة واستأجرت بيتاً وتركتها به وجئت إليك من بعيد، ولقد وهبك الله الكمال والبراعة فلتتكرم على الغريب المسافر، ولتأت معى وتشرف بيتى وتراها، وإن كتبت لها النجاة فسيكون معروفاً كبيراً منك وسأكون مطيعاً لك طوال حياتى، وكان عيسى الجراح عارفاً بالله رحيم القلب، فجاء معى بعدما أدرك مدى خوفى وجزعى من حديثى معه، ويعد أن نظر إلى جروحها طمأننى قائلاً: بفضل الله ستشفى تلك السيدة من جراحها خلال أربعين يوماً.

الخلاصة أن هذا الرجل غسل كل الجروح بماء نيم، وطهرها وخاط الجرح خياطة متقنة، وما بقى من الجرح فقد أخرج حقاً من جيبه ودهنه ثم ربطه وقال برفق شديد: سوف أحضر مرتين يومياً كى أعتنى بها وأرعاها، والحركة ممنوعة حتى يشفى الجرح، ولتصبوا فى قمها حساء الدجاج عوضاً عن الطعام ولتسقوها شراب ماء الورد بريح المسك حتى تسترد عافيتها، قال ذلك واستأذن فى الانصراف فشكرته شكراً جزيلاً وشددت على يده قائلاً: لقد أحيينتى بفضل براعتك وسعيك لشفاها، ولم ينقذنى من الموت سواك غنمك الله السلامة ومنحته

نبات «البان»، وأذنت له بالانصراف وودعته وكنت أقوم على خدمة تلك الحساء ليل نهار، وحرمت الراحة على نفسى، وتضرعت لله سبحانه وتعالى أن تسترد عافيتها يوماً بعد يوم.

وبالصدفة حضر ذلك التاجر واعطانى مالى الذى كان أمانة لديه، وبدأت فى إنفاقه على علاجها ودوائها، ودوام الطبيب على الحضور، وخلال فترة وجيزة التأمت واندمت كل الجروح، وبعد عدة أيام اغتسلت الحساء غسل الشفاء، وانتابتنى فرحة عارمة وكافأت عيسى الجراح بالخلع أو الأموال وأجلست فاتنتى على أريكة نفيسة، وتصدقت كثيراً على الفقراء والمساكين، وكنت فى ذلك اليوم كمن ملك فى يده ملك الأقاليم السبعة، وبعد أن شفيت تبدل لونها وأصبحت تتلأأ كالشمس وتلمع كالذهب الخالص ولا يستطيع أحد أن يطيل النظر إلى حسنها البارع، والفقير قائم على خدمتها بإخلاص، وكنت أمتثل لكل ما تأمرنى به، أما هى فقد كانت تنيه بحسنها وفتنتها، ومالها من رفعة شأن وعزة وشرف، وذات مرة توجهت إلى بنظرها وقالت: انتبه إن كنت ترغب فى أن تكون إلى جوارى، فلا تعترض على أمر أمرك به قط ولتقم بأداء كل ما أمرك به بلا اعتراض ولا تتدخل فى شئونى على الإطلاق، ولا تسألنى وإلا فستندم.

ومن هذا المنطلق كان يبدو أنها تبغى أن أعمل خادماً لديها، أما أنا فكنت لا أفعل ما يغضبها وأنصاع لرغباتها وألتزم بكل أوامرها.

ومرت فترة على تلك الحال، كنت أقوم فيها بكل ما تأمرنى به على أكمل وجه، وأنفقت كل ما أمتلكه من مال ومتاع عن آخره وكم عانيت فى تدبير أمور المعيشة اليومية، ولم أجد من يقرضنى فى هذا البلد الغريب، فاضطريت أحوالى كثيراً، ونال الضعف والوهن منى يوماً بعد يوم، وامتقع وجهى، ولكن لمن أشكو ضيق حالى، فما مر على القلب قد مر، وظالم الفقير على الفقير، (٢)، وأدركت الحساء ما أنا فيه من ضيق فقالت لى: «يا هذا!! إن ما قمت به من أجلى وفى خدمتى محفور فى قلبى كالنقش على الحجر، لكن ليس فى مقدورى أن أكافئك عليه فى الترو وال حال، فإن كنت لا تملك ما تنفقه على ما يلزم من الضروريات، فلا بأس عليك ولتحضر لى دواة وقرطاساً، ففكرت فى تلك اللحظة أن من تتحدث بهذه الطريقة هى بنت ملك من الملوك، وأحضرت ما طلبت فوراً، فكتبت تلك الفاتنة خطاباً مهوراً بإمضائها الخاص وأعطته لى قائلة: «اذهب إلى القلعة فستجد هناك مكاناً متسعاً فسيحاً، اسم مالكه شيدى بهار، أعطه هذه الورقة».

فوصلت إلى حيث وصفت لى، وأرسلت الخطاب مع الحارس فخرج على الفور شاب حبشى جميل ذو عمامة وإن كان لونه مائلاً للسمره لكنه حسن الطلعة، فأخذ الخطاب منى ورجع فوراً دون أن ينبس ببنت شفة، وبعد برهة جاء بصناديق مختومة يحملها الغلمان على رؤوسهم وأمرهم قائلاً: «أذهبوا برفقة هذا الشاب إلى بيته، فسلمت عليه ورجعت إلى البيت وعلى الباب ودعت الغلمان ليعودوا من حيث أتوا، وحينما قدمت هذه الصناديق إلى الحسنة قالت: خذ هذه الأكياس الأحد عشر الممتلئة بالنقد وأنفقها عن آخرها والله رازق إن شاء الله تعالى، فأخذت المال وكنت أنفقه حسب الحاجة، لكننى لم أكن مطمئناً وتساورنى التساؤلات والشكوك، إذ كيف بالله منحتنى تلك الفاتنة هذه الأموال دون ضمان، وإن سألتها عن مصدرها فهى قد نهتنى من قبل عن السؤال ولا أستطيع سؤالها خوفاً منها.

وبعد ثمانية أيام خاطبتنى تلك الحسنة قائلة: إن الله عز وجل أعطى الإنسان لباس الإنسانية الذى لا يبلى ولا يتمزق ولا يتسخ، وإن كان الإنسان لا تتبدل مكانته عند الله سواء كان رث الملابس أو عظيماً فإن بالى الملابس لدى الناس لا قيمة له، فلتذهب إلى دكان التاجر يوسف واشتر خلعين فاخرتين ثمينتين.

فركبت إلى حيث هذا الدكان، فوجدت شاباً بلبس ثوباً زعفرانياً جالساً على أريكة، وكان جميل السمات والقسمات حتى كان الناس يقفون لرؤية طلعه البهية، فسلمت عليه وجلست بالقرب منه وأنا فى غاية الشوق إلى قربه وقدمت إليه حاجتى وكانت لهجتى مختلفة عن لهجة أهل هذه المدينة، وقال لى هذا الشاب بحرارة: كل ما ترغب فيه موجود لدينا، لكن أخبرنى من أى البلاد أنت؟ وما سبب إقامة الغريب فى تلك البلدة؟ فإن أخبرتنى عن السبب فهذا فضل منك، ولم يكن لدى رغبة فى أن أطلع على أحوالى، فأجبت إجابة غير شاقية وأخذت الملابس والجواهر، ونقدته الثمن وهممت بالذهاب، فقال الشاب غاضباً: يا أخى إن كنت تريد أن تسلك هذا المسلك معى، فلم أبديت الصداقة أولاً؟ فالسلام له قيمة كبيرة لدى الكرام من الناس، فأنشرح صدرى لحديثه ووجدت أنه ليس من المروءة أن أكون معه على تلك الحال، فجلست إكراماً له، وقلت: أنا طوع أمرى ورهن إشارتك فسر كثيراً لقولى وضحك قائلاً: «ليتك تشرفنى فى دارى اليوم فسأقيم حفلاً لاستقبالك لتتسامر بعض الوقت، وتتناول العشاء سوياً، ولما لم أكن قد تركت تلك الحسنة بمفردها قط، لذا كنت أسوق لهذا التاجر الشاب الحجة تلو الحجة لكنه لم يتقبل عذرى قط.

وفى النهاية ودعنى بعد أن أقسمت له بأننى سأعود إليه بمجرد أن أوصل ما اشتريته من ملابس للبيت فأذن لى، فنهضت وحملت الملابس والجواهر إلى الحساء بالبيت فسألتنى عن قيمة تلك المجوهرات وصفات الصائع، فقصصت عليها كل ما حدث من أوله إلى آخره، وكيف أكرم هذا التاجر وفادتنى، وأنه وجه لى الدعوة لزيارته فى المساء، فشرعت فى الحديث قائلة: إن على الإنسان أن يفى بوعده، فلتف بوعدك وقسمك تاركا إيائى فى حفظ الله، فقبول الضيافة من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فقلت لها: لا رغبة لى فى أن أذهب وأتركك بمفردك لكن الأمر ما أمرت به وعلى الطاعة فسادى لكنى سأترك قلبى معك. ثم توجهت إلى دكان الصائع ووجدته جالسا فى انتظارى، فقال بمجرد أن رآنى: «تفضل فقد انتظرتك طويلاً».

وأخذ التاجر بيدى وذهبنا إلى حديقة غناء ذات نسيم عليل مليئة بالجداول والأنهار والنفورات، وتحفل بشتى أنواع الثمار والفواكه التى تهتز الأشجار تحت ثقلها، وعلى تلك الأشجار السامقة تصدح مختلف الطيور بأعذب وأشجى الألحان، وفى كل ركن من أركان الحديقة الرياش والبسط الفاخرة، وأجلسنى ذلك الشاب فى قصر على حافة نهر، وبعد برهة تركنى ومضى، ثم عاد ثانية وقد ارتدى ثوبا مناسبا فقلت بعد أن رأيته: تبارك الخلاق فيما خلق، جنبك الله عين الحسود، فابتسم وقال: من المناسب أن تبدل ملابسك أنت أيضا يا أخى: ولأجل خاطره بدلت ملابسى أنا أيضا، وقد أعد هذا الشاب كل أسباب الضيافة باهتمام وعناية وأحضر كل ما يجلب للقلب السرور، ثم بدأ يجاذبنى أطراف الحديث بحفاوة بالغة وفى أثناء ذلك أحضر الساقى دنان الخمر والكنوس البللورية وأحضر ما تشتهى الأنفس من صنوف الطعام، ودار الساقى بالشراب، وبعد الكأس الرابعة حضر إلى المجلس أربعة فتيان فى غاية الحسن مطلقى الشعر وأخذوا يغنون ويصفقون، ولو حضر إلى هذا العالم «تان سين» وسمعهم لنسى منه كله، وبعد أن يسمعه «بيجو باؤر» سيفقد عقله، ومن فرط المتعة أغرورقت عينا هذا التاجر الشاب وفاض دمه رغما عنه، فقلت له: «لقد توطدت وأصر الصداقة بيننا، ولا يجوز للصديق أن يكتم سره عن صديقه فى أى مذهب».

فقال ببساطة ودون تردد: «إن لى بالبيت حبيبة تجلس بمفردها، وأريد أن أدعوها إلى هذا الحفل لأسرى عن قلبها وقلبى لا يطيق فراقها لحظة واحدة».

قال هذا هو القول وهو فى غاية الشوق لدرجة أننى اشتقت إليها على الرغم من أننى لم ألتق بها من قبل .

فقلت له : «إننى مقدر لفرحك وسرورك فلتفعل ما شئت ولا تبطئ فلا لذة ولا متعة بدون الحبيب» .

فأشار هذا التاجر الشاب إلى مكان ما، فجاءت إليه امرأة سوداء - يموت الإنسان قبل أجله من رؤيتها - وجلست إلى جواره، فدب الخوف فى قلبى لرؤيتها وقلت فى نفسى : «هل هذه المرأة هى حبيبة هذا الشاب التى اشتاق إليها وأسهب فى مدحها؟» . وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله وسكت .

ودام المجلس ثلاثة أيام وفى الليلة الرابعة غلبنى السكر والنعاس فرحت فى سبات عميق، وعندما أصبح الصبح، أيقظنى الشاب وسقانى الخمر قائلاً لحبيبته : «ليس من اللائق أن تكلف هذا الشاب أكثر من هذا»، وقام الاثنان واستأذنت أنا فى الانصراف فأذن لى بترحاب، وارتديت لباسى القديم ورجعت إلى بيتى، ومثلت بين يدى تلك الحساء، ولم يكن قد سبق لى تركها بمفردها .

فاعتذرت لها وأنا فى غاية الخجل والأسف، وقصصت عليها وقائع حفل الضيافة، وكيف أن ذلك الشاب لم يسمح لى بالانصراف قبل مضى الثلاثة أيام، وكانت هذه الحساء من الفطنة والحكمة بحيث ابتسمت قائلة : «لا جناح عليك فقد فعلت ذلك من أجل صديقك وقد عفوت عنك فلا بأس عليك، وعندما يذهب الإنسان لى الآخرين لا يعود إلا برضائهم، لكن هل ستصمت أنت بعد هذه الدعوة؟ أم توجه إليه أنت أيضا الدعوة لينزل فى ضيافتك؟ عليك أن تدعو هذا التاجر وتكرم وفادته ولا تشغل بالك بكيفية حدوث ذلك، فسيكون كل شئ بين يديك فى الترو والحال بفضل الله تعالى، وسيشرف ضيفك المكان وينيره» .

فذهبت إلى الصائغ امثالاً لأمرها وقلت له : «أنا قبليت دعوتك على الرأس والعين فلتلب دعوتى»، فقال لى «طوع أمرك ورهن إشارتك» .

وقلت له : «لو تشرفنا بالحضور فهذا عين الكرم، فساق لى شتى الحجاج على عدم تمكنه من الحضور، لكننى ألححت عليه حتى قبل وأخذته معى إلى بيتى، لكننى فكرت فى نفسى أثناء الطريق وقلت : «لو كنت أقدر بنفسى على ضيافته، لكنت قد استصفتته حتى يسعد بهذه الضيافة ويتذكرها على الدوام، والآن سأذهب به وأنظر ماذا سيحدث» .

وفى هذه الأثناء بلغنا المنزل، ففوجئت بعلامات الفرحة والسرور بادية على البيت، ووجدت كل الأرجاء نظيفة تفوح منها رائحة العطر، والحرس قائمون عند الباب، فدهشت لكننى تيقنت من أنه بيتى فدخلته، ووجدت الرياش والمتاع والطنافس فى كل مكان والبسط ذات الألوان البديعة، وقد صفت الأوانى والقنينات فى كل مكان ورأيت كثيراً من التحف والنفائس وكانت المصابيح مضاءة فى الطاقات وقد ازدانت تلك الطاقات بالورود والزهور، ورائحة البخور والصندل تفوح وتتبعث من أحد الأركان والقناديل مضاءة بالشمع الكافورى فى الردهات والطرقات والثريات تتدلى من كل مكان وكل يؤدى واجبه ويشغل موقعه المحدد، ومن المطبخ تصدر أصوات القدور والأوانى ومكان الماء على أتم استعداد فقد وضع الماء فى الأباريق وربط بالقماش ليبرد، وقد صفت الأوانى والصحاف والأكواب ووضع الثلج فى الأباريق.

والخلاصة لقد كان كل شىء على أهبة الاستعداد للحفل والضيافة والراقصات والراقصون الذين يرتدون زى النساء والمنشدون يجلسون فى زى فاخر وينشدون الأغانى على إيقاع الموسيقى.

فأجلست هذا الشاب التاجر على أريكة وقد عقدت الدهشة لسانى، إذ كيف تسنى كل ما أراه فى هذا الوقت القصير ولماذا؟ وكنت أبحث عن الحسنة فى كل مكان لكننى لم أجدها، فذهبت إلى المطبخ فوجدتها هناك مرتدية حلة الطباخ، وكانت بدون زينة.

- ليس بحاجة إلى الزينة من وهبه الله الحسن

- فانتظر إلى القمر فهو جميل دون حلى أو زينة

وكانت الحسنة تشرف على الإعداد للحفل، وتقول مؤكدة ومحذرة لكل شخص، انتبه لابد أن يكون الطعام لذيذاً ويكون الماء والملح بالقدر المطلوب وكان العرق يتصبب منها.

فوقفت إلى جوارها ومدحتها ودعوت لها، فغضبت قائلة: «الإنسان يستطيع أن يفعل أشياء لا يقدر عليها الملائكة، فماذا فعلت أنا حتى تتحير وتندش؟» فاعتذرت لها فلم تقبل وقالت: «لماذا تركت الضيف بمفرده وحيداً وأخذت تتجول فى الأنحاء؟ وماذا سيقول فى نفسه الآن؟ اذهب بسرعة إلى المجلس لتؤنسه وادع حبيبته أيضاً إلى الحفل».

فذهبت إلى التاجر الشاب ورحت أجاذبه أطراف الحديث بحفاوة عظيمة وأثناء ذلك جاء غلامان وسيمان يحملان الشراب في القنينات وبدءا يدوران بالخمير، فقلت لهذا الشاب: «أنا طوع أمرك بيد أننى أريد أن أدعو الحسنة التى تميل إليها بقلبك فإن أذنت أرسلت فى دعوتها».

ففرح قائلا: «هذا حسن لقد نطقت بما يدور فى خلدى». فأرسلت إليها خدما، فحضرت هذه المرأة على هودج فى منتصف الليل، وقد استقبلتها بحفاوة رغم أنفى وأجلستها إلى جوارى ففرح هذا الشاب لرؤيتها كأنه نال نعيم الدنيا، وتعلقت هذه السوداء برقبتة، وبدأ هذا المشهد وكأن القمر خسف وهو بدر، فعرض الجميع أناملهم غيظاً لرؤيتهم هذا المشهد وكأن لسان حالهم يقول: أية مصيبة وقعت على رأس هذا الشاب؟ وشخص الحضور بأبصارهم إلى هذا المنظر تاركين كل ما يشغلهم من رقص وغناء فقال أحد الأشخاص: «أيها الأصدقاء إن بين العشق والعقل عداوة، فالعشق يخالف قواعد وأصول العقل، انظروا لليلى بعين المجنون، فقال الجميع: «أما بهذا القول».

ورغم كل هذا كنت أقوم على خدمته امتثالاً لأمر تلك الحسنة وكان هذا الشاب يداعب ويغازل حبيبته وكنت لا أرغب فى رؤية ذلك، لكننى قبلت مرغماً طاعة لأمرها، ولم ألتفت إلى ما يحدث بالحفل ولم أشارك فيه طبقاً لأصول الضيافة، ومرت ثلاث ليال، وفى الليلة الرابعة قال التاجر الشاب: «نحن نرغب فى أن تشاركنا الشراب، فلقد تركنا التجارة وكل شىء من أجلك منذ ثلاثة أيام، فقلت فى نفسى إن لم أقبل طلبه فقد يتضايق فلا بد من قبول طلب الصديق الجديد من أجل واجب ضيافته، فقلت للشاب: (أنا طوع أمرك وأمرك فوق الأدب) فقدم لى كأس الخمر فشربت، ثم بدأت الخمر تدور بالمجلس وغاب الجميع عن وعيهم وأنا معهم.

وحينما انبج الصبح وارتفعت الشمس فى السماء ذراعين استيقظت وفتحت عيني ونظرت حولي، فلم أجد حفلاً ولا مجلساً ولا حسنة، وكان هناك منزل خال كبير، إلا من غطاء ملفوف فى أحد الأنحاء، وعندما فتحته وجدت به الشاب وحبيبته مذبحين، وطاش صوابي من هول ما رأيته، وشل عقلى عن إدراك ما كان وكيف كان؟ وأخذت أنظر هنا وهناك متحيراً وأثناء ذلك رأيته خادماً كنت قد رأيته أثناء الحفل فاطمن قلبى لرؤيته بعض الشىء فسألته عما حدث فأجابنى قائلاً: «ما الفائدة فى أن تفتش وراء هذا الحادث؟ فأمنت فى

نفسى بصدق ما يقوله، وتأملت لحظة ثم قلت: «لا جناح عليك لو لم تخبرنى بالحقيقة، لكن لتخبرنى إذن أين عنوان حبيبتي؟» فقال: «لا شك أننى سأخبرك بكل ما أعرفه، ولكن وأنت صاحب عقل وبصيرة لماذا ذهبت إلى هذا الرجل واحتسيت الخمر معه دون تكلف على الرغم من أن معرفتك به لم يمض عليها أكثر من أيام معدودة؟».

فأخذنى عميق الندم وشديد الأسف من جراء نصيحته وما أقدمت على فعله، ولم أنبس ببنت شفة، إلا قولى ألتمس العذر إننى قد قصرت، فأشفق على هذا الخادم ودلنى على عنوانها وودعنى، وبدأ يفكر فى كيفية مواراة هاتين الجنتين، وكنت قد ذهبت بعيداً خشية أن تلصق بى هذه التهمة، وظللت أسير مضطرباً متعثراً أسقط ثم أنهض لأسقط ثانية لفرط شوقى إليها، حتى وصلت مساءً إلى عنوانها، وقضيت الليلة مضطرباً فى ركن بجوار باب منزلها، ولم أسمع أى صوت لوقع أقدام المارة، ولم يسألنى أحد عن هويتى، وأدركنى الصبح وأنا على تلك الحال من الشتات، وعندما أشرقت الشمس أطلت على الحساء من الشرفة وهى فى غاية الحسن بوجه قمرى، وفى هذه اللحظة اجتاحتنى نوبة عارمة من الفرح والسرور لا يستشعرها إلا قلبى، فحمدت الله كثيراً.

وبينما أنا كذلك إذ جاءنى أحد الخدم وقال لى:

«اذهب واجلس فى ذلك المسجد، ربما تدرك بغيتك وأمنية قلبك»، فتوجهت إلى المسجد حسبما قال لى، لكن العين ظلت معلقة ببابها لأرى ماذا سيأتى من وراء حجب الغيب؟ وقضيت اليوم منتظراً كالصائم الذى ينتظر موعد الإفطار، ودخل الليل وأنا فى شدة الاضطراب والقلق، ومر اليوم ثقيلًا على قلبى ثقل الجبال، وفجأة قدم الخادم - الذى كان دلنى على عنوان حبيبتي - إلى المسجد وبعد صلاة المغرب جاءنى - وهو لى بمثابة كاتم أسرارى - وربت على يدي مطمئناً وأخذنى معه حتى وصلنا إلى حديقة وقال لى: «اجلس هنا إلى أن تدرك بغيتك، وانصرف مودعاً، ورحت أشاهد جمال زهور ذلك البستان واللييلة مقمرة وأتطلع إلى الجداول والأنهار ذات النافورات وأستمع بجمال الطقس، وأخذت أتذكر حسن قوام حبيبتي كلما نظرت إلى تلك الأشجار والأزهار، وأتذكر جمال وجهها وبهائه كلما نظرت إلى القمر ولكنى من طول الانتظار أصبح هذا المنظر كله بالنسبة لى كالشوك.

وأخيراً ألقى الله فى قلبها الرحمة، وبعد برهة هلت على الحساء بالباب كالقمر فى ليلة تمامه، مرتدية غلالة على صدرها وثوباً ثقيلاً ثميناً محلى الذيل باللالء، وجاءت

متبخترة فى دلال، ثم توقفت وحينما وصلت أُنِعت الحديقة، وانشرح صدرى، وبعد لحظة من قدومها سيراً على الأقدام هنا وهناك توجهت إلى الأريكة وجلست، فتوجهت إليها كما يتوجه الفراش إلى المصباح، وعقدت يدى كالعبد بين يدى الملك، وكان الخادم موجوداً يشفع لى عندها، فقلت للخادم: «لقد أذنبت وقصرت، فإذا أرادت معاقبتى فسمعاً وطاعة، وكانت الحسنة غير راضية وقالت بحدة: من المناسب لهذا الرجل أن يأخذ مالاً ويعد العدة ويعود فوراً من حيث أتى» .

وبعد سماعى لقولها صرت كالخشب، إن يجرحنى شخص لا تخرج منى قطرة دم، وأظلمت الدنيا من حولى، وتأوهت آهة من القلب على إخفاقى فى تحقيق أملى، وجرى الدمع غزيراً من عيني، ولم يكن لى فى ذلك الوقت نصير سوى الله سبحانه وتعالى، وكنت يائساً محسوراً وقلت: «لتتريثى كثيراً قبل أن تقولى هذا القول، فلو كنت حريصاً على المال لما قدمت لك مالى ونفسى، وهل نسيت فى لحظة واحدة مدى تفانى فى خدمتك وفدائى لك بروحى، ثم يصدر منك هذا القول؟ وبعد كل هذا فلا حاجة لى للدنيا التى أحيأها، فالعاشق لا يستطيع أن يحيا بسبب عدم وفاء المعشوقة، كأنه يحيا بنصف روح» .

وما أن سمعت ذلك حتى اكفهر وجهها وتملكها الغضب وسخرت منى وقالت: «هل أنت عاشق لى؟، هل عضك ضفدع، لقد تجاوزت حدودك أيها الأحمق، إنك تعطى لنفسك أكثر مما تستحق، وهذا يدل على تفاهمك، (فقم صغير يصدر أقوالاً كبيرة)، فاصمت ولا تتحدث بمثل هذا الحديث التافه، وأقسم بالله لو صدر هذا الفعل من أحد غيرك لمزقته إرباً وألقيت به طعاماً للجوارح لكن ماذا أفعل؟ إننى أتذكر جمالك فمن الخير لك أن تمضى فى طريقك، لقد انتهى رزقك عندى عند هذا الحد» .

فقلت لها باكية: إن كان من المقدر لى ألا يتحقق أملى وأمل قلبى وأن أهيم على وجهى فى الغابات والجبال فأنا عاجز عن ذلك، فغضبت من قولى وقالت: «أنا لا أرغب فى سماع هذا الهراء، فقل هذا القول لمن يحبه، ونهضت غاضبة ودخلت بيتها وناديتها كثيراً لكنها لم تلتفت لى فاضطرت أن أودع هذا المكان حزياً يائساً» .

ومجمل القول فقد مرت أربعون يوماً على هذا الأمر وعندما يئست من التجوال فى المدينة خرجت إلى الغابة، وكلما مللت الغابة كنت أسير فى أنحاء المدينة كالمجنون لا أكل بالنهار ولا أنام بالليل (ككلب الغسال لا مأوى له بالبيت ولا بالعين) .

وحياة الإنسان بالطعام والماء، ووهن الجسد منى لدرجة أننى لم أكن أقوى على النهوض، فذهبت إلى المسجد ومكثت به، وذات يوم جاء الخادم الذى أعرفه لصلاة الجمعة، ومر بى وكنت أنشد هذا البيت بصوت خافت لضغفى:

من ألم القلب يموت الإنسان

أو يتحمل، فلتعجل يا إلهى بما قدرته لى

وكانت هيئتى قد تبدلت نهائياً، فتغير وجهى لدرجة أن من يرانى لا يستطيع أن يتعرف على ثانية، لكن هذا الخادم سمع صوتى المتألم وتوجه إلى، وتأسف لرؤيتى على تلك الحال وخاطبنى مشفقاً: كيف تدهور بك الحال إلى هذه الدرجة؟ «قللت: لقد مضى ما مضى فلقد قدمت لها المال، وبذلت لها الروح، وما هى ذى ترضى بما أنا فيه، فماذا أفعل؟».

وتركنى الخادم بالمسجد بعد أن سمع منى ذلك، وذهب إلى الصلاة، وبعد انتهاء الخطبة والصلاة خرج ووضعنى فوق محفة وتوجه بى إلى حيث توجد الحساء، وأجلسنى خارج بيتها ومع أننى لم يكن قد بقى فى وجهى أى ضياء لكننى مكثت عندها أياماً وليالى طويلة، فسألت الخادم عنى متجاهلة إياى من هذا؟ فأجابها الخادم قائلاً: «هذا هو التمس المنحوس الذى نال منك اللوم والعتاب، وأصبح على هذه الهيئة بسبب ذلك، وهو يصطلى بنار العشق ويطفئها بدموعه، لكنها تشتعل أضعافاً مضاعفة دون فائدة، هذا علاوة على موته خجلاً وندماً».

فقال هازئة به: «لماذا تكذب؟ لقد سمعت منذ وقت طويل أنه عاد إلى وطنه، والله أعلم من يكون هذا ومن تذكره عندى؟» وعندئذ التمس الخادم وعقد يديه متوسلاً:

«إن منحتنى الأمان فسأقول لك، قالت: «قل لك الأمان، فقال الخادم: «إنك ذات شأن عظيم، بالله عليك ارحمى هذا المسكين، وأصدرى أمرك للخدم ليأخذوه من هنا ولترحمى حاله، فليس من المناسب تجاهله، ترفقى به لينالك عنه الثواب، إننى أقول لك هذا والأمر لك فى النهاية».

ابتسمت الحساء وقالت: «أيا كان هذا الإنسان فلتذهب به إلى دار الشفاء، ويعد الشفاء نستعلم عن أخباره».

قال الخادم: «لو تفضلت ونصحت وجهه بماء الورد وتحديثت إليه بود وعطف، فسيسترد الأمل مرة أخرى ويتشبت بالحياة، فالأيس أمر مستبشع، فالدنيا قائمة على الأمل والرجاء. . ولم تحرك الحساء ساكناً، وكنت أشعر بالسقم والمال فقلت دون خوف، لا رغبة لى فى الحياة على هذا النحو، فقد صرت قدمى والقبر ولكل أجل كتاب وسأموت يوماً ما وعلاجى بيديك أيتها الأميرة فاقبلى أو أرفضى، .

وفى هذه المرة ألان مؤلف القلوب قلبها، فقالت شفقة بى: «احضروا أطباء الملوك على الفور، فاجتمع الأطباء من كل صوب وحذب، وبعد أن نظروا فى القارورة فكروا كثيراً فى نوع مرضى، وفى النهاية شخصوا هذا المرض على أن هذا الرجل عاشق، ولا علاج له قط إلا وصال معشوقته، فعندما يلتقى بها سيسترد عافيته، . فلما شخص الأطباء مرضى أمرت الحساء الخدم أن يأخذونى إلى الحمام قائلة: دعوه يستحم وألبسوه حلة فاخرة واحضروه، فأخذونى على الفور إلى الحمام وألبسونى لباساً فاخراً ثم عادوا بى إليها، فتحدثت إلى برقة وحفاوة بالغة قائلة: «لقد أذللتنى كثيراً وأسأت إلى سمعتى وشهرت بى والآن ماذا تريد؟ قل بوضوح كل ما يدور فى خلدك، .

إيها الإخوان، فى تلك اللحظة ضاق بى ثوبى من فرط الفرح والسرور. وتبدلت صورتى، وحمدت الله كثيراً وقلت لها: «فى هذه اللحظة، انتهى كل الطب إليك، فقد أحبيتتى من الموت بكلمة واحدة وانظرى كيف تبدلت أحوالى منذئذ إلى الآن؟ وبعد ذلك طفت حولها ثلاث مرات ثم وقفت بين يديها قائلاً: «أرجو من سموك والأمر لك أن تتفضللى وتتعتطفى وتقبلينى إلى جوارك فهذا عندى أفضل من ملك الأقاليم السبعة، وشرفينى بأن أقبل قدميك، .

فتريثت برهة ثم نظرت لى بحدة قائلة: «اجلس إن كل ما قدمت لى من خدمة ووفاء هو جميل فى عنقى، وكل ما تقوله له عندى القبول، .

وعندئذ جاءت الساعة المباركة وعقد القاضى القران، وبعد هذا الجهد الجهد والمشقة البالغة فى السعى إلى وصلها، أرانى الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم وحقق بغيتى، وعلى قدر ما كنت أرغب فى أن أسكن إليها وأبيت معها ليلتى، كنت أريد أن أعرف من هى تلك الحساء؟ ومن هو الرجل الحبشى الأسود الذى كتبت له الورقة فحصلت بها على المال

الكثير؟ وكيف أعدت الحفل الملكى فى لحظة واحدة؟ ولماذا قتل هذان البريتان فى هذا الحفل؟ ولماذا غضبت على بالرغم مما قدمت لها من خدمات جليلة؟ ولماذا رفعت شأنى هكذا فجأة؟ وبسبب تلك الأسئلة التى تدور فى خلدى، مكثت ثمانية أيام بعد عقد القران لا أرغب حتى فى الاقتراب منها، وكنت أبيت إلى جوارها بالليل لكننى لا ألمسها.

وفى أحد الأيام أمرت الخادم أن يقوم بتسخين الماء لكى أغتسل به، فقالت مبتسمة: «لماذا تغتسل؟»، فسكت لكن تلك الحسنة تحيرت من تصرفاتى وأمرى، وظهرت على وجهها ملامح الغضب والسخط، حتى قالت لى ذات مرة: «إنك لشخص غريب الأطوار، فليست لديك صفات الرجولة الحققة، لماذا تزوجتنى إن لم تكن لك القدرة على الزواج؟».

وهنا قلت بلا خوف: «يا حبيبتى فلتكونى عادلة فالعدل شرط، وينبغى للإنسان ألا يجانبه العدل والإنصاف قالت: «وهل من سبيل إلى الإنصاف؟ فما ينبغى أن يكون قد كان قلت: «فى الواقع كان لى أمل كبير فىك، فقلت لك فى قلبى رغبة فى أن أعرف توضيحاً لكل ما ربى من أحداث وأسمع تبريراً لتلك الأشياء منك بعد الزواج، فهذه الأمور لا يتقبلها عقلى، وسيطمئن قلبى بعد أن أسمع تفسيراً منك فقطبت جبينها قائلة: ما شاء الله هل نسيت ما كنا قد اتفقنا عليه من قبل؟ وإن عليك ألا تتدخل فى شئونى قط، ولا تعترض أبداً؟ فما الداعى لأن تخالف هذا الشرط وتخرج عن حدود الأدب؟ فضحكت وقلت: مثلما غفرت لى كثيراً من سوء أدبى، فلتغفر لى هذه المرة أيضاً فتبدلت ملامح وجهها وقالت غاضبة: الآن أنت تريد أن تركب على رأسى فاذهب واهتم بشئونك فما فائدة هذا الحديث بالنسبة لى؟ فقلت لها: إن أكثر ما يصيب الإنسان بالخجل والحياء فى الدنيا هو بدنه وقد أظهرته أنت لى، فلم لا تريد أن تكشف لى تلك الأمور أيضاً، لأنه ينبغى أن يعرف كل منا ما يخص الآخر. وأدركت ما أرمز إليه وفكرت قليلاً ثم قالت: «هذا قول صحيح، لكننى أخشى إن بحت لك بسرى، أن تنفر منى وتغضب، ثم تهجرنى».

فقلت لها: «ماذا تقولين؟، لا تخشى منى قط، ولا يتطرق إليك شك من ناحيتى، ولتقصى على باطمئنان كل ما مر بك فلن يخرج هذا الكلام من صدرى إلى لسانى فكيف يسمعه أحد؟ وعندئذ أدركت الحسنة أنها لا بد وأن تحكى قصتها لهذا الرجل العزيز، فقالت مضطربة: «عندما أحكى حكايتى ستجد فيها مفاصد كثيرة، فلماذا تلج على فى ذلك؟ لكن خاطرك عزيز عندى ولهذا سوف أحكيها لك ولتكنتم سرى ولا تبج به لأحد فهذا شرط ضرورى».

ومجمل القول أنها قالت بعد شدة تأكيد وتحذير: «أنا التعمسة ابنة سلطان دمشق، وهو أعظم الملوك شأنًا وقدرًا ولم يكن لديه من الأبناء سوى، ومنذ ولادتي أحاطني والدائي بالحب والرعاية والنعمة والتدليل، وعندما بلغت سن الشباب، تصادقت مع رفيقاتي من الحسنات وكانت دائمًا في رفقتي بنات الملوك والعظماء، وكانت الحوريات يقمن على خدمتي ورعايتي، وكنا نستمتع بمختلف ألوان الرقص والغناء دائمًا، ولم يكن لنا شأن بكل ما يحدث في الدنيا، وكنت لا أفتح فمي إلا لشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنا فيه من نعمة.

وحدث أن تبدلت طبيعتي تدريجياً، فأصبحت لا أصادق أحداً، ولا أستمع باللهو في أي مجلس، وتبدلت أحوالي وأصبحت حزينة حيرى، لا يسترعى انتباهي أي شخص ولا أريد أن أتحدث إلى أحد ولا أستمع بأي شيء.

وتملك الحزن كل من بالقصر بسبب ما اعتراني من تغير وأصيبوا بالحيرة، وكانوا يخرون على قدمي، وكان من بينهم خادم طيب القلب، هو موضع ثقتي وكاتم أسرارى ولا يخفى عليه شيء من أمري، وعندما أدرك ما أصابني قال: «لو أن الأميرة شربت من ماء «دوق الخيال، فإنها في الغالب ستعود إلى حالتها الطبيعية، وسيعود السرور إليها فاشتقت لشرب هذا الدواء بعد قوله هذا وقلت: «احضروا هذا الدواء فوراً». وخرج خادم القصر، وأعد كأساً من الشراب المثلج بعناية شديدة، وجاء معه غلام يحمل هذا الشراب فشربه، ووجدت منه الفائدة كما وصفها لي، فأنعمت على هذا الخادم بحلة فاخرة، نظير ما قدمه لي من خدمة عظيمة، وأمرته أن يحضر لي كأساً من الشراب يومياً في مثل هذا الوقت، ومنذئذ أصبح من المقرر أن يحضر - هذا الخادم معه - هذا التاجر الشاب وكان غلاماً آنذاك - حاملاً هذا الشراب فأشربه فإذا انتابتنى نشوة السكر، جعلت أتبسط مع هذا الغلام وأمازحه دون تكلف حتى أسرى عن قلبي، وبعد أن تجرأ هذا الغلام وتخلّى عن خوفه مني، أصبح يغازلني بمعسول الكلام ويأتى بأشياء غريبة مضحكة، ويكي ويتأوه أحياناً، وكان حسن الصورة فحاز مني القبول والإعجاب وكنت أميل إليه بلا إرادة، ومن شوق قلبي إليه وإعجابي بمرحه، كنت أنعم عليه كل يوم بإنعام، لكن هذا التعمس كان يأتيني في ملابسه العادية التي يأتى بها كل يوم، حتى إن هذه الملابس قد أصبحت رثة وبالية.

وسألته ذات يوم قائلة: «لقد نلت منى قدراً كبيراً من المال، ومع ذلك لم يتبدل حالك فما هو السبب؟ وكيف أنفقت هذه الأموال أو أين ادخرتها؟».

وعندما سمع الغلام هذا القول الرقيق وشعر أنني أهتم وأفكر في شئوننا، سمعت عيناه وقال: «كل ما قد منحني لعبدك وخادمك، أخذه الأستاذ (صاحب العمل) ولم يعطني شيئاً منه فأنى لى أن أشتري ثوباً آخر وأحضر به إليك؟ وليس هذا ذنبى فأنا مضطر: فأشفقت عليه وأمرت خادمى بأن يريه تحت إشرافه، وأن يلبسه ملابس فاخرة ويمنعه من الاختلاط برفقاء السوء وقلت له: «أريد أن تعلمه آداب مرافقة الأمراء، ثم أحضره بين يدى، فامتثل الخادم لما أمرته به وكان يعتنى به كثيراً بسبب ميلى إليه، وبعد فترة وجيزة ظهرت عليه أمارات العافية والنضارة بسبب الراحة والطعام الجيد، وأصبح وسيما حسن الطلعة، وكنت دائماً أحاول ضبط مشاعرى نحوه، لكن صورته كانت دائماً ملء قلبى ولا أريد أن أفارقه ولو لحظة، وبسبب الحب كنت أريد أن أدخله فى ثلبى، وفى النهاية ألحقته بخدمنى وحاشيتى، وأصبح من عادتى أن ألبسه الحلال الفاخرة والجوهر الثمينة وأنظر إليه، وأصبح قربه منى قرة لعينى وسكنة لقلبى، وكنت طوعاً لأمره فى كل لحظة، وفى النهاية أصبحت مضطربة، ولا أجد الراحة إذا غاب عنى ولو لأمر مهم.

وبعد عدة سنوات وصل إلى سن النضج والكمال، وبدأت تظهر عليه علامات الرجولة، وذاع صيته بين خدم القصر وكان الخدم جميعاً يمنعون من الدخول عندى، فتوقف عن المجيء ففقدت راحتى بدونه فماذا أفعل يا ربى؟ وأصابنى قلق شديد، وبسبب اضطرابى استدعيت ذلك الخادم الذى هو كاتم لأسرارى وقلت له: «إننى أبغى الخير لهذا الغلام، ولهذا أريد أن تمنحه ألف دينار، وتقيم له حانوتاً للمجوهرات فى الميدان، فيقوم بالإتجار فيه ويعيش حياته، وابن له قصرًا جميلاً يكون قريباً من قصرى، واستأجر له ما يلزمه من الخدم والغلمان ليستريح راحة تامة». فامتثل الخادم، وبعد فترة وجيزة أصبح هذا الدكان متجرًا كبيراً يشتري منه حتى الملوك ما يلزمهم من الحلى والجواهر، ووجد فى هذا المتجر ما لا يجده أى إنسان حتى الملك فى أى متجر سواه وكسدت تجارة جميع تجار الجواهر بسببه.

وخلصة القول أنه صار فى مرتبة لا يدانيها منزلة أى شخص فى هذا البلد، أو أى بلد آخر من بلاد الدنيا، وريحت تجارته آلاف الآلاف من الروبيات، وكان فراقه ينقص من طامعه بسى يوماً بعد يوم، ولا أجد حيلة لأراه ويطمئن فؤادى. وفى النهاية استدعيت ذلك الخادم للمشورة وقلت: «لا أجد حيلة لأراه ويهدأ بالى وأجد السلوى لقلبى، ولا صفر إلا إذا حفرت سرداباً بين قصرى وقصره، وبعد عدة أيام ووفقاً لأوامرى، أعد هذا السرداب، وكان

الخادم يأتيني بهذا الغلام ليلاً متخفياً، وكنا نقضى طوال الليل فى الشراب والشواء والمتعة والسرور فأجد السكينة فى لقائه، ويفرح هو لقربه منى .

وعندما يبرز الفجر ويؤذن المؤذن، كان الخادم يوصل هذا الشاب إلى بيته كل يوم من هذا السرداب، ولم يكن يعلم بهذا الأمر سوى هذا الخادم واثنان من الوصيفات اللتين قامتتا بإرضاعى ورعايتى وأنا صغيرة .

ومرت مدة على تلك الحال، وذات يوم وفق المتبع ذهب الخادم ليحضره، فوجده صامتا متفكراً، فسأله: «لعل الداعى خيراً ما الذى شغل تفكيرك اليوم، وكدر حالك؟» .

وصمت الشاب ولم ينبس ببنت شفة، فرجع الخادم بمفرده، وقص على ما جرى .

ولما سمعت ما أصابه لم ينسنى الشيطان حبه، ولو كنت أعرف أن العشق والحب لذلك الشاب عديم الوفاء سيسىء لسمعتى لما أحببته، وكنت قد تببت عن ذلك الأمر منذ هذا اليوم، ولم أذكر اسمه قط ولم ألب له رغبة ولم أمنحه قلبى، لكن هذا الأمر كان من قضاء الله وقدره ولا بد أن يحدث، من أجل ذلك لم أجعل من هذا الأمر مشكلة، واعتبرت عدم حضوره من دلال العاشقين، وأدركت أنت نهاية هذه القصة؛ دون أن ترى أين أنت وأين أنا منك، ولقد مضى ما مضى، والآن دعك من هذا الأحمق ولا تفكر فى شأنه .

الخلاصة، إننى أرسلت الخادم ثانية برسالة أخرى وقلت له فيها: «إن لم تأت أنت الآن فسوف أحضر أنا إليك بأية وسيلة، لكن فى حضورى أنا عيب كبير، فلو شاع هذا السر، فسيكون فيه لك الضرر الكبير، لهذا لا تفعل مثل هذا الأمر، فلن تجنى منه سوى العار، والفضيحة، فمن الأفضل أن تأتى بسرعة وإلا فاعرف أننى قادمة لا محالة» .

ولما بلغته تلك الرسالة، وأدرك منها مبلغ شوقى العظيم، حضر إلى مبدلاً صورته، وكأن له شأنًا كبيراً وعندما جلس إلى جوارى سألته: «ما هى العقبات التى حالت دون حضورك عندى اليوم؟ وما سبب غضبك؟ فأنت لم تأت بهذا السلوك من قبل فقد كنت تأتى دائماً دون تخلف، فأجابنى قائلاً: «إننى المسكين قد وصلت إلى تلك الحال، بفضل مساندتك ورعايتك، وبفضل مالك الذى منحتنى إياه وأحيا حياة رغدة بفضلك وأدعوك ولك ولمالك، قاتصفحى عن تقصيرى أنا المذنب ايته الأميرة، وأنا أرجو صفحك وعفوك» .

فقبلت قوله المفتعل بروحى وقلبى، ولم أهتم بهذا الأمر كثيراً، وسألته بكل عطف: «ما هى المشاكل التى تعانى منها وتجعلك متحيراً هكذا؟ فلتخبرنى بها وسأدبر لك حلاً». خلاصة القول إنه قال على سبيل التواضع: «لدى مشاكل عديدة لكنها تغدو سهلة يسيرة بمجرد رؤيتك».

وفى النهاية اتضح من حديثه أن حديقة غناء ذاتِ مبان شاهقة ونهيرات وجداول تقع بالقرب من منتصف المدينة معروضة للبيع هذه الأيام، ومع تلك الحديقة تباع أيضاً جارية بارعة فى علم الموسيقى والطرب، والحديقة والجارية تباعان فى صفقة واحدة ولا تباع الحديقة بدون الجارية أو العكس، وكأن القطعة فى عنق الجمل، فلا بد لمن يشتري هذه الحديقة أن يشتري هذه الجارية، ومن عجب أن ثمن تلك الحديقة مائة ألف روبية، وثمان تلك الجارية خمسمائة ألف روبية، وهذا الغلام لا يستطيع أن يدفع هذا الثمن الباهظ.

وقد أدركت أنه شديد الرغبة فى شراء هذه الحديقة وأنه مكتئب لذلك ويتنابه الحيرة والدهشة فى وجوده معى وكان حزينا ممتع الوجه، وفى تلك اللحظة أمرت الخادم أن يدفع قيمة الجارية والحديقة فى صباح الغد، يأخذ صك ملكية الحديقة والجارية ويعطيها لهذا الشاب، يأخذ ثمن هذه الأشياء من الخزانة الملكية، فامتثل الخادم لأمرى وأضاء وجه الشاب بالفرح والسرور، وقضيت الليلة كلها كسابق العهد بكل الفرح حتى بزغ الفجر وخرج، وقام الخادم بشراء هذه الحديقة وتلك الجارية، كما أمرته، وأخذ الشاب يحضر لى يومياً حسب المألوف.

وذات يوم من أيام الربيع، كان الطقس فى غاية الاعتدال والمطر . . . نط رذاذاً خفيفاً، والبرق يلمع فى السماء والأنسام العليقة تهب بين لحظة وأخرى، ولما وجدت أنواعاً مختلفة من الشراب مصفوفة فى الأباريق، أردت أن أحتسى رشفة من الخمر، ولما تناولت ثلاثة كئوس من الخمر تذكرت الحديقة الجديدة واجتاحتنى رغبة عارمة فى أن أذهب للزهوة فى تلك الحديقة فى مثل هذا الطقس البديع، وإذا أتى سوء الحظ وعقر الكلب الإنسان، فإنه يركب الجمل، واصطحبت خادمتى معى وعبرت هذا السرداب السرى إلى قصر ذلك الشاب، ومن هناك توجهت إلى حيث تلك الحديقة، فوجدت هوائها كما فى الجنة فقطرات الندى

على أوراق الشجر كأنها الدر المنثور والزهور مشربة بالحمرة في لونها كأنها وقت الشفق، وأمواج الجداول تتراقص ويينها تلك الوريقات الصغيرة ذات اللون الأحمر، والنهيرات كلها سمثلة وكأنها فراش من المرايا.

وكننت أتجول في هذه الحديقة حتى انتهى النهار، وحل المساء وعم الظلام، وأثناء ذلك رأيت هذا الشاب، وعندما رأيته أسرع إلى بكل أدب وأخذ بيدي بكل حفاوة وتوجه بي إلى قصر له اثنا عشر بابا ولما بلغته أنساني شكل القصر كل ما شاهدته في الحديقة، فالأضواء متألئة، والثريات تتدلى في كل مكان والمكان مكتظ بالمصابيح والفوانيس وأماكن الجلوس غاية في الإتقان والإبداع، والمشهد في هذا الموضع صورة ناطقة للبهاء والروعة. بحيث تبدو ليلة البراءة بكل ما فيها من ضياء أقل ضياء منه. وفي ركن من أركان القصر من يلعبون بالألعاب النارية، والمكان مفعم بكل أنواع الزهور المختلفة ألوانها وأشكالها.

وفي تلك الأثناء انقشع السحاب، ويزغ القمر كأنه المعشوق الذي يرتدى غلالة من النور، فانبهرت بهذا المشهد البديع، ولما سطع نور القمر قال لي الشاب: «الآن نذهب إلى شرفة الحديقة ونجلس بها، وقد صرت حمقاء لدرجة أنني أمتثل لأمره دون قيد أو شرط، احتال على أخذني إلى الشرفة، وكان مشهد المدينة من الشرفة بديها فالشرفة عالية إلى حد أن كل مكان بالمدينة من شوارع وأسواق وقصور ومصابيح بدت كأنها تقع كلها تحت الشرفة بالحديقة.

وجلست وطوقت عنقه بيدي، وعندئذ جاءت جاريت سوداء دميصة في يدها كأس من الشراب، ولم يرق لي دخولها في هذه اللحظة وانقبضت قايي لقلبي ه: فقبتها، نسألت الشاب: ومن هذه الجارية الدميصة؟ وأين ولدتها؟ فأجاب الشاب بتل وثار وأسود: «هذه الجارية هي التي اشتريتها بفصنك مع الحديقة».

فتملكني الشك والظن، أنه اشتراها عن طيب خاطر، ويمنتهي اللهفة، وأنه ربما يكون قد مال إليها بقلبه، فسكت رغما عني، أكن قلبي تكدر واحتل مزاجي، وكأن يوم الساعة قد حان، لأن هذا الشاب قد جعل من تلك الجارية ساقية، وهي على تلك الحال من الدمامة والقيح، وفي هذه اللحظة كنت كأني أشرب دمي، وكان هذا المشهد يبدو أمامي يراه (وكان شغصاً قد حبس الببغاء والغراب في قفص واحد) فلم تكن لي رغبة في البقاء ولا مفرا لي من الجلوس.

وخلصه القصة أن هذا الشراب عندما يتناوله إنسان يشد به السكر، وتتبدل أحواله ويصبح كالحيوان في سلوكياته فقدمت الجارية للشاب عدة كؤوس من الشراب المسكر وشربت أنا نصف كأس على شرفه ولخاطره ولإلحاحه بالرغم من أنه كان لى بمثابة السم الزعاف .

وفى النهاية أصبحت هذه المرأة اللعوب تأتى بأفعال فاضحة وغير لائقة مع هذا الشاب، وفقد الفتى عقله ووعيه أيضا بسبب السكر وأخذ يأتى بأفعال من شأن الصغار والأطفال، أما أنا فتملكتنى الغيرة حتى صرت أرجو أن تنشق الأرض وتبتلعنى، لكننى التزمت الصمت بسبب حبى له وصداقتى وصلتى به، ولفرط سذاجتى كنت أحتمل كل ذلك لأجله، لكنه لم يقدر هذا التسامح منى وشرب كأسين وفقد ما تبقى من وعيه ورفع كل أستار الحياء والخجل أمامى، وأخذ يطارح تلك المرأة الساقطة الغرام من غلبة الشهوة على مرأى ومسمع منى وكانت تلك المرأة الفاحشة الساقطة فى هذا الوضع المشين تتدلل، وأخذاً يتبادلان العناق والقبلات وما هو أكثر من ذلك ولم يكن لدى هذا الخائن ناقض العهد أى وفاء ولم يكن فى هذه الغانية أى خجل أو حياء، وعندئذ وفى هذه اللحظة صرت كمن تعمل فى تنظيف القاذورات، وأخذت أصب اللعنات على نفسى فى كل لحظة وألوم نفسى وأقول لماذا جئت إلى هنا؟ فقلت ما أستحق من عقاب، وإلى أى مدى سأحتمل تلك الأفعال؟ فاشتعلت النار بى من رأسى إلى أخمص قدمى، وكنت أتقلب على الجمر، ونهضت من مكانى قائلة: «لم يقفز الثور فمن قفز، ومن ينظر إلى هذا المنظر» .

ففكر هذا العريد الماخن فى قلبه محدثا نفسه: «إن غضبت هذه الأميرة فماذا يحدث؟ وماذا ينزل على رأسى من مصائب ومتاعب؟ فلو أمكننى قتلها» .

وقد ورد على باله هذا الخاطر بتحريض من تلك المرأة الساقطة، فجاء وسقط على قدمى يطلب الصفح والعفو، ولما كان قلبى متعلقا به ويهفو إليه وينساق لرغبته مهما كانت، وكنت كدمية فى يده يحركنى كيفما يرغب ويشاء ، فأخذ يستعطف قلبى حتى لنت له ونسيت ما حدث، وجاست إليه مرة أخرى، وشربت مرة ثانية عدة كؤوس أعطانها ذلك الشاب، وكنت فى شدة الغضب، وبعد هذا الشراب فقدت وعيى تماما ويسرعة، ثم اسئل هذا الخائن قاسى القلب خنجره وطمئننى به، وتوهم أنه قتلنى وعندئذ فتحت عيني وقلت بإسان هالى: «على كل حال فقد نلت جزاء ما فعلت، انقذنى يارب من هذا القتل والظلم» ،

- إن أمسك بتلابيبك ظالم
فاغسل دمي من ذيك فقد مضى ما مضى
ولا تبج بهذا السر لأحد قط

وأما أنا فقد قدمت لك نفسى وكل شىء، ثم فوضت أمرى إلى الله، وفقدت وعيى وغبت
عن الدنيا، وكأن هذا السفاح قد تصور أننى مت، فوضعتنى فى صندوق وعلقنى على سور
المدينة، فرأيتك أنت، وأنا لا أريد سوءاً بأحد لكن ما حدث كان قدر لى.

- لا يحى ما قد كتب فى القضاء والقدر
وكل هذا لأقيته بسبب عيى

فلولا شوقى لرؤية الفتيان ذوى الوسامة والحسن لما تعلقت بهذا الشاب النحس فالله عز
وجل هو من بعث بك إلى هذا المكان، فقد كان ينبغى لى أن أموت ولم يكن لى فى حياتى
أى أمل، بسبب تلك الفضائح، ولكن ماذا أفعل فالموت ليس بيدي، أمانتى الله ثم أحيانى،
فلنر ماذا يكتب فى القضاء والقدر من المصائب والمهلك؟، وكنت قد شفيت من جراحى
بسبب ما أوليتنى من عناية وجهد، فقد بذلت لى النفس والنفيس ولم تضمن على بكل ما
تملك، وفى هذه الأيام وجدتك مفلساً وفقيراً، فكتبت إلى صاحب الخزانة مرسوماً وقلت له
فيه: أنا بخير وعافية فى المكان الفلانى، ابلغ والدتى المحترمة أخبارى، فاعطاك صناديق
مملوءة بالمال لتنفقها، وعندما أرسلتك لشراء الحلوى والملابس من التاجر (يوسف)، كنت أثق
فى أن هذا التاجر يتمرف بالناس بسرعة وسهولة، وأنه غالباً سيدعوك لضيافته، وصادفته
نظراً لأنك غريب عن الديار، وحدث ما توقعت وقام بكل ما دار فى خلدى، وهينما جئت
إلى ما بعدما اتفقت معه على الذهاب إلى بيته وبينت حقيقة الدعوة، وأنه مصر على هذا
سررت فى قلبنى، وفكرت فى أنك بعد ما تذهب إليه وتشاركه الطعام والشراب، فسيتحتم
عليك أن ترد له الدعوة وتدعوه للنزول فى ضيافتك، وسيستجيب هو على الفور، ولهذا
سمحت لك بالذهاب فوراً.

وعندما رجعت بعد ثلاثة أيام، واعتذرت نادماً على تأخرى فى العودة، قلت لك
لأحلم أنك، لا حرج عليك، فعندما أذن لك المضيف عدت، وقلت لك: ليس من اللائق أن

تشاركه الطعام، ولا تدعوه لضيافتك فاذهب وادعه إلى الطعام واحضره معك، وعندما ذهبت أنت إلى بيته، وتلفت حولي لم أجد أياً من أسباب الضيافة ولوازمها، فماذا فعل إن حضر هو؟ لكنني وجدت الفرصة سانحة بأنه كان من عادة الملوك من أقدم العهود، أن يتغيبوا حوالي ثمانية أشهر لجمع الأموال ورعاية مصالح الدولة، وكانوا يقضون أربعة أشهر في الربيع في قصورهم، وفي تلك الأيام كان والدي جلالة الملك المعظم غادر المملكة لجباية الأموال والضرائب وما يخص الدولة من شئون ومصالح، وقبل أن تعود أنت مع التاجر (يوسف) أخبر الخادم أمي - أنا المذنبة - بأحوالي فمثلت بين يدي أمي الموقرة أسفة نادمة، وقصصت عليها كل ما مر بي، وبالرغم من أنها كانت تعرف كل ما حدث لي وأنا غائبة، لكنها رحمة بي وحكمة منها، كانت صامدة وتخفي بين جوانحها ذنبي وجريرتي، لأنها لا تدري ماذا فعل الله بي؟ وهي لا تريد أن تعاقبني وتأخذني بما فعلت، لكنها كانت لم تزل تبحث عني، وعندما رأنتي على تلك الحالة وسمعت قصتي، فاضت عيناها بالدمع وقالت: لقد وضعت هامة الملك في التراب عامدة أيتها التعسة الحمقاء، وأأسفاه وألف أسفاه، لقد أهدرت حياتك يا ليتني ولدت حجراً بدلاً منك فصبرت عليه، والآن استغفرى الله وتوبى إليه، فلقد كان ما كان من شأنك ولتنظري الآن ماذا تفعلين في المستقبل هل ستعيشين أم تموتين؟

فقلت وأنا في غاية الخجل: «لقد قدر لي وكتب في نصيبي أنا المذنبة أن أحيأ بسوء السمعة وسوء الحظ، متجنباً الكثير من الآفات والمصائب، فالموت لي أفضل من هذا كله، فبالرغم من الوصمة التي جالت جبيني، إلا أنني لم أفعل أى شيء من شأنه أن يخزى والدي والذتي، وأنا أشعر بالألم والأسى طالما لم أقض على هذين الماجنين، وتركتهما يضمنان باللهو والمجون سوياً، ويصيبني منهم الظلم والأذى، وسيكون من المؤسف ألا اتخذ قراراً حياً هذا، فرجائي إليك أن تأمرى بإعداد لوازم ضيافة هذين الماجنين على أكمل وجه في بيتي، لأحتال عليهما وأدعوشما، وبإلّا لن منى جزاء وفاقاً، وأقتص منهما على ما اقترفت أيديهما في حقى، وأمرقهما إرباً إرباً حتى يشفى غليل قلبي، لأننى أشتعل غضباً، وفي النهاية سأحترق بنار هذا الغضب».

وبعد أن سمعت أسمى هذا الكلام منى أشفقت على، وغلبتها عاطفه الأمومة وكنمت عيبي، وأمرت بإعداد كل ما يلزم الحفل والضيافة بإشراف هذا الخادم الأمين وكاتم أسرارى،

فحضر جميع الخدم والحشم وقام كل منهم بالمهمة الموكلة إليه، وفي المساء جلست أنت مع ذلك الشاب وكنت أرغب أن تأتي تلك العاهرة أيضا.

فأمرت أن تذهب إليها وتأتي بها، وعندما حضرت واكتمل المجلس ودار الشراب، وفقد الجميع وعيهم، وفقدت أنت أيضا وعيك، وصرت جثة هامدة، أمرت السيافة أن تضرب عنقهما بالسيف، وعندئذ استلقت السيف وفصلت رأسيهما عن جسديهما، وتركت الجثتين غارقتين في الدماء. أما سبب غضبي منك فهو أنني أذنت لك أن تذهب لتلبية دعوته فقط، وليس لتمكث هناك يومين، وتعتبره صديقا لك وتشاركه الشراب، وكانت نتيجة تلك الحماسة أنك فقدت وعيك، فلم يبق لدى أى أمل فى رفقتك، وصفحت عنك وعن تلك الحماسة منك بسبب ما قد أسديته لى من خدمات، وبسبب معروفك ودينك فى عنقى.

والآن هل بقى فى صدرك أى تساؤل أو فضول؟ فمثلا امثلت أنا لأمرى، عليك أنت أيضا بالامتنال، ونصحتى لك الآن ألا تمكث فى تلك المدينة والخيار لك.

يا عباد الله!! صممت الأميرة عند ذلك الحد، أما أنا فقد كنت رهنا لإشارتها بقلبي وروحي، وكنت أسيرا لمحبتها فقلت لها: كل ما يرضى خاطرك المبارك هو الخير وسأنفذه على العين والرأس بدون عذر.

ولما أدركت الأميرة أنني طوع أمرها وأننى خادمها أمرتني قائلة: أحضر جوادين نجيبين، يسيران بسرعة البرق من حظائر الملك الخاصة، فأحضرت فرسين قويين مسرجين، ولما انقضى الليل إلا قليلا تنكرت الأميرة فى ثياب الرجال متسلحة بالأسلحة فى قبضتها وامطلت جوادها وركبت أنا الآخر متسلحا وسرنا فى اتجاه واحد، وعندما انقضى الليل وكاد الصبح أن ينبلع، بلغنا شاطئ أحد الأنهار، فنزلنا واغتسلنا وتناولنا الإفطار بسرعة، ثم مضينا راكبين، وكانت الأميرة تتحدث أحيانا وتقول: لقد تخليت من أجلك عن الحياة والملك والمال والأهل، فلعلك لا تسلك معى نفس سلوك الظالم الخائن. وأحيانا أخرى كنت أتحدث أنا لنقطع الوقت والطريق وأجيب الأميرة أيضا قائلا: يا ابنة الملك لا يتساوى جميع البشر فى السلوك فريما يكون فى أصله عيب ولهذا بدر منه ما بدر، أما أنا فديتك بالروح والمال، وأنت أكرمتنى بكل وسيلة والآن أنا عبدك دون مقابل فإن شئت أن تلبسى حذاء من جادى قلن أتأوه. وهكذا أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، ونمشى فى طريقنا ليل نهار وأحيانا

نتوقف من التعب فنصيد الطيور وحيوانات الغابة، ونأخذ ملحاً من الملاحه وننضجه قليلاً على النار بعد أن نشعلها بالجمر، ونترك الجوادين يريان في الغابة ويأكلان العشب.

وذات يوم ذهبنا إلى ساحة خالية من الناس ولا يوجد بها إنسان قط، ومع ذلك وبفضل رفقة الأميرة كان اليوم عيداً والليل كليله البراءة، وأخذنا نسير حتى فوجئنا ببحر خضم، يرتعب القلب لرؤيته فوقفنا على شاطئه، ولم نر على مرمى البصر إلا ماء، ولم يكن هناك أى ميناء. يا إلهي !! كيف نجتاز هذا البحر الآن؟ فوقفت برهة متأملاً فلمعت فكرة في ذهني وهي أن أترك الأميرة في هذا المكان وأبحث عن قارب حتى تنال قسطاً من الراحة وأهين أسباب عبورنا لهذا البحر، فقلت لها: «أيتها الأميرة لو تأذنين أن نتفقد إتجاهات هذا البحر ونستعرضها فقلت: «لقد تعبت جداً وبدأت أشعر بالجوع والعطش ولهذا سأنال قسطاً من الراحة ولتدبر أنت هذا الأمر».

وفى أحد الأنحاء كانت شجرة سامقة وارفة الظلال، لو يجلس تحتها ألف مسافر لا يشعرون بالحرارة أو المطر فأجلستها تحتها، وأخذت أسير وأنظر في الجهات الأربع لكي أجد أى إنسان في البر أو في البحر، وبحث وحاولت كثيراً، لكنني ما وجدت أحداً، وفي النهاية عدت يائساً إلى ذلك المكان فلم أجد فيه الأميرة، فماذا أقول عن أحوالي في ذلك الوقت فقد فقدت وعيي تماماً ومسنى الجنون، فمرة أصعد الشجرة وأبحث بين الأوراق والغصون، ومرة أخرى أسقط من الشجرة على الأرض، وحيناً أبحث في جذر الشجرة وحيناً آخر أبكي وأنوح على قلة حيلتي، وأحياناً كنت أسير من الغرب إلى الشرق، وأحياناً من الشمال إلى الجنوب.

وبحثت عنها كثيراً فلم أجد لها أثراً على الإطلاق، وعندما لم أجدها صرت أبحث عنها في كل مكان باكية مهياً على رأسى التراب.

وخطر ببالي أنه ربما خطف هذه الحسناء أحد الجان وجرحني، أو ربما كان أحد من أهل بلدتها يتبعها فوجدها بمفردها فأخذها معه وعاد بها إلى الشام، وخلال تلك الأفكار تجردت من ملابسي، وكنت أطوف بلاد الشام صباحاً ومساءً، فقيراً غريباً عارياً أبحث عنها وأقضى الليل في أى مكان، وبحثت عنها في كل مكان، لكنني لم أجد لها أثراً. ولم أسمع مني عنها من أى شخص خبراً، ولم أعرف أى سبب لغيبتها، وورد بقلبي عندما لم أجد أى أثر

لحبيبتى أن لا فائدة من الحياة الآن، فأبصرت جبلاً فى غابة فصعدت الجبل، وأردت أن ألقى بنفسى من حالى، وحينئذ سأموت وأتخلص من حياتى وأستريح من تلك الفاجعة.

وهممت بأن ألقى بنفسى بل ورفعت قدمى، فأمسك بيدي شخص فى تلك اللحظة، وعندئذ ثبت لرشدى فأريت فارساً يرتدى ملابس خضراء، ويضع على وجهه نقاباً وقال لى: «لماذا تريد أن تتخلص من حياتك؟ فالفنوت من رحمة الله كفر، ولا بد أن يكون الرجاء رفيقك حتى الموت، ففى خلال ثلاثة أيام ستلتقى بثلاثة دراويش مثلك فى بلاد الروم، وهم مثلك فى هذه المحنة، وقد مروا بما عانيت من محن ومصاعب، وهناك ستجد أيضاً ملكاً يدعى . «آزادبخت»، وهو أيضاً يواجه مشكلة كبرى، وعندما يلتقى بكم أنتم الأربعة، فسوف يتحقق مراد كل منكم على خير وجه».

فأمسكت باللباس وقبلت الرجل وقلت: «يا ولى الله، اطمأن قلبى المضطرب بقولك هذا، لكن بالله عليك أخبرنى من تكون؟ وما هو اسمك الشريف؟».

فقال لى: «اسمى (المرتضى على)، وعملى هو أنه عندما تعترض شخص مشكلة عويصة أدللها له».

ويعد أن انتهى من حديثه غاب عن بصرى، ويعد أن اطمأنت ببشارة مولاي، توجهت إلى القسطنطينية ولاقيت من المصاعب ما قدر لى فى أثناء الطريق على أمل اللقاء بملك الأميرة، ووصلت إلى هنا بفضل الله تعالى ومن يمن الطالع أن تشرفت بالمشول بين يديكم، ويعد أن تلاقينا وتحدثنا، يجب علينا أن نتعرف على الملك «آزاد بخت»، ثم سيحدد موعد الوصول إلى هدفنا نحن الخمسة، ادعوا الله وقولوا آمين، يا هادى تلك هى قصة حياتى أنا المحزون، وقد سردتها لهؤلاء الدراويش، والآن نرى متى سبذل حالنا من الشقاء والبؤس إلى العادة بقاء تلك الأميرة».

وكان الملك «آزاد بخت» مستيقظاً فى أحد الأركان يستمع إلى حكاية الدراويش الأول، ويعد أن سمعها ليس «سرواً عظيماً»، ثم بدأ يستمع إلى قصة الدراويش الثانى.

قصة الدرويش الثانى

وحينما جاء دور الدرويش الثانى، جثا على ركبتيه وقال: أيها الرفاق إلى قصة هذا الفقير استمعوا سأرويها من البداية إلى النهاية فاستمعوا لا يستطيع أى حكيم شفاء لها، فليس لهذا الألم دواء، فاستمعوا يا أصحاب الدلق، هذا الفقير هو ابن ملك فارس، حيث نشأ أهل الكمال فى كل فن، وكانت مدينة أصفهان مدينة ذات شهرة، ولاتدانيها أى ولاية من ولايات الأقاليم السبعة، وجوها طيب، وأهلها ذوا خلق سمح، وهم كذلك أهل فطنة وذوق وقد هبأ لى والدى ملك هذه السلطنة منذ الصبا أستاذاً بارعاً فى كل مجال وفن ليعلمنى أصول وقواعد وقوانين المملكة، لأصبح ماهراً فى شتى أنواع المعرفة، وبفضل الله عندما بلغت الرابعة عشرة من عمري كنت قد برعت فى كل العلوم، وتعلمت آداب الحديث وكيف أحسن الجلوس والقيام ورسوم الملوك، وكان شغلى الشاغل وما أصبوا إليه ليل نهار، هو أن أجلس فى مجلس العلماء، لأستمع إلى سير الملوك وأحوالهم، وسير أولى العزم والمشهورين.

وذات يوم قال شخص حكيم ضليع فى معرفة التاريخ، وبصير بأحوال العالم: «على الرغم من أن حياة الإنسان لا يؤمن جانبها، لكن الخصال الحميدة تخلد ذكرى الإنسان على لسان الناس».

فقلت له: «لو أنك قصصت على شيئاً من تلك الأحوال بالتفصيل، استمعت إليها وعملت

بها».

فبدأ ذلك الرجل فى سرد سيرة «حاتم الطائي».

قصة حاتم الطائي:

كان في زمن حاتم الطائي ملك عربي يدعى «نوفل»، وكان على عداء شديد مع حاتم الطائي لشهرته وذبح صيته بين الناس، وقد جمع نوفل جيشاً كبيراً وجاء به لمحاربة حاتم الطائي، وكان حاتم رجلاً ورعاً صالحاً، وأدرك أنه لو أعد العدة لقتاله فسوف يقتل كثير من عباد الله وسيتحمل وزرهم في عنقه، فخرج بمفرده وصعد الجبل واختبأ بأحد الكهوف.

وعندما بلغ نبأ اختفاء حاتم، الملك نوفل ذهب إلى بيته، وصادر كل ممثلكاته، وأمر منادياً ينادى في البلاد، أن من يبحث عن حاتم ويقبض عليه، سيدال مكافأة من الملك قدرها خمسة آلاف دينار، وما أن سمع الجميع قدر المكافأة حتى طمعوا في البحث عن حاتم للحصول عليها.

وفي يوم من الأيام جاء شيخ وامرأته العجوز وثلاثة أطفال لجمع الحطب بالقرب من الكهف الذي اختبأ به حاتم، وبدأوا يجمعون الحطب فقالت العجوز: «ليت يومنا هذا يكون مباركاً، فنجد حاتمًا ونحصل على المكافأة، وعندئذ نعيش في رغد ونتخلص من المعاناة والمشقة». فقال الشيخ: «فيما تثرثرين؟ لقد قدر علينا قطع الحطب وحمله على الرأس وبيعه في السوق، فنحصل على ما يقيم أودنا أو نصيد أي حيوان من الغابة، فاعملى بجد أفضل من هذه الثرثرة، فكيف يقع حاتم في قبضتنا ويمنحنا الملك الجائزة؟». فزفرت العجوز زفرة حارة وصمتت.

وسمع حاتم ما دار بينهما من حديث ففكر في نفسه أنه ليس من المروءة والشهامة أن يخفى نفسه عنهما وألا يحقق لهما أمنيتهما، وفي الحقيقة إن لم يكن في قلب الإنسان رحمة وشفقة فهو ليس بإنسان، وإن لم يستشعر بقلبه آلام الناس فهو سفاح - خلق الإنسان ليشعر قلبه بآلام الناس وإلا فإن الملائكة وحدها تكفي لطاعة الله.

والخلاصة أن شهامة حاتم الطائي قد أثبت عليه أن يقبل الصمت والاختفاء بعد أن سمع هذين المعدمين فخرج على الفور وقال لهذا الشيخ: «يا عزيزي أنا حاتم الطائي، فخذني إلى نوفل، فحينما يراني سيمنحك المكافأة التي وعد بها، فأجابه الشيخ: «مما لاشك فيه أن هذه مروءة منك أن تسلك معنا هذا المسلك وتقوم بهذا العمل، لكنني لأدري ماذا سيصنع بك الملك، فماذا أفعل إن هو قتلنا؟ ولا أستطيع قط أن أقدمك إلى عدوك لطمعي في المكافأة،

والى متى نأكل بهذه المكافأة؟ وإلى متى نعيش؟ وفى النهاية سنموت، ثم ماذا أقول أمام الله سبحانه وتعالى؟،

فأصر حاتم أن يأخذه الشيخ إلى الملك قائلا: «أقول لك هذا القول وأنا راضٍ وأتمنى دائما أن أقدم نفسى ومالى للآخرين ليسعدوا به.

وفى النهاية أبى هذا الشيخ أن يأخذه إلى الملك ويأخذ المكافأة بأى وسيلة،

وأخيراً قال حاتم مضطراً: «إن لم تأخذنى أنت سأذهب أنا للملك بنفسى، وأقول له إن هذا الشيخ، أخفانى فى كهف فى الجبل، فضحك الشيخ وقال: «هل جزاء المعروف أن يقابل بالسوء، ومن تكرر هذا الجدل أقبل أناس كثيرون وتزاحموا وأدركوا أن هذا هو حاتم الطائي، فأخذوه على الفور وذهب هذا الشيخ أيضا معهم وهو فى غاية الأسف، وحينما وصلوا إلى نوفل سألهم من قام بالقبض عليه؟ فقال رجل قاس سبىء الطوية: «من يستطيع غيرى أن يقوم بهذا العمل؟ فهذا الفتح باسمى، وقال مدع آخر للعظمة: «لقد بحثت عنه عدة أيام، وأخذته من الغابة، فلتقدر مجهودى وعنائى وتمنحنى المكافأة»، ومن أجل الحصول على الدنانير كان كل شخص يقول أنا من قمت بهذا العمل، وكان الشيخ يقف صامتا فى أحد الأركان ويبكى لأجل «حاتم»، وعندما تحدث الجميع عن شهادتهم وشجاعتهم وعرضوها أمام الملك قال «حاتم، للملك: «إن شئت الحقيقة فإن هذا الشيخ الواقف بعيدا هو من أحضرنى، وإن أردت التأكد فلتسأل وتلقى بعهدك بتقديم مكافأة لمن يقبض على - فى جسد الإنسان لسان له أهمية كبيرة - وعلى الرجل أن يفى بما تعهد به، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لسانا للحيوان أيضا، إذن فما الفرق بين الإنسان والحيوان؟»،

فدعا «نوفل، هذا الشيخ الحطاب وسأله قائلا: أصدقنى ما هو أساس القصة؟ ومن قبض على حاتم؟ فبدأ الشيخ يقص الحكاية من البداية إلى النهاية، وقال إن حاتم جاء بمحض إرادته لأجل خاطرى، فاندش الملك نوفل لشجاعة «حاتم، وقال: بخ يخ أبلغ بك الكرم مبلغه حتى تخاطر بحياتك؟ وأمر أن يقذف من ادعى بأنه ألقى القبض على حاتم - بالحذاء خمسمائة قذفة بدلاً من خمسمائة دينار حتى يموت، فشرع الخدم على الفور فى تنفيذ ما أمر به، وضربوهم حتى سقط شعرهم من فوق رؤوسهم، فالحقيقة قول الكذب ذنب

لايدانيه ذنب آخر فليحفظ الله عز وجل الجميع من آفة الكذب ولايعودهم عليه، فكثير من الناس يفرطون فى الكذب لكنهم ينالون جزاءهم وقت الامتحان .

وخلاصة القول إن «نوفل» أنعم على الجميع كيفما رأى وفكر فى نفسه أن «حاتم» شخص يستفيد من كرمه كل الناس، ولايضن بنفسه فى سبيل الفقراء والمحتاجين، وهو يرضى بأن يبذل نفسه فى سبيل الله، ومعاداته وقتاله أمر بعيد عن الشهامة والمروءة، فشد الملك نوفل على يدي حاتم الطائي معرباً عن الصداقة والمودة وقال: «طالما أنت على هذه الشاكلة، فلم لأكون أنا أيضاً كذلك؟». وأجلسه على مقربة منه بغاية الذوق والاحترام، وعلى الفور رد عليه كل ماكان قد استولى عليه من أملاكه وأمواله، ونصبه من جديد زعيماً لقبيلة «طى»، وأنعم على الشيخ بخمسمائة دينار، فأخذها «الشيخ» ومضى فى طريقه داعياً له .

وحينما استمعت إلى قصة حاتم كاملة أخذتني الغيرة ودار فى خلدى أن «حاتماً» كان زعيماً لقومه فقط وذاع صيته فى كل الأنحاء لسخائه وجوده، وخلد ذكره حتى اليوم، وأنا ملك لإيران كلها بإذن الله، فإن كنت قد حرمت من نعمة الجود والكرم، فوالأسفاه على ذلك، فالحقيقة أنه ليس هناك خصلة فى الدنيا أفضل من الجود والسخاء، لأن الإنسان إذا بذل ماله ومتاعه فى سبيل الله وجد الجزاء فى الآخرة، وإذا بذر حبة واحدة فى الأرض حصد فى النهاية مئات الثمار، وعندما فكرت فى هذا طلبت أمير التشييد والتعمير وأمرته أن يبنى بسرعة مكاناً عالياً فسيحاً وله أربعون باباً خارج البلاد، وبعد فترة وجيزة شيد هذا البناء وفقاً لمشيتتى، وكنت أوزع الروبيات والدنانير على الفقراء والمساكين من الصباح حتى المساء، ومن يطلب منى شيئاً أمنحه له أضعافاً مضاعفة .

الخلاصة أن المساكين كانوا يدخلون من أربعين باباً ويأخذون مايشاءون . وذات يوم دخل فقير من الباب الأمامى (الرئيسى) وسألنى فأعطيته ديناراً ثم دخل نفس الفقير من الباب الثانى وطلب دينارين وقد عرفته لكننى صرفت النظر عنه وأعطيته وهكذا صار يدخل من كل باب وطلب دنانير حسب رقم الباب الذى يدخل منه، وكنت أتغاضى عنه فى كل مرة كان يدخل فيها وأعطيته مايسأل، وفى النهاية دخل من الباب الأربعين وطلب منى أربعين ديناراً فأعطيته، ثم عاد ودخل مرة ثانية من الباب الرئيسى وسألنى فأسأت من سلوكه وقلت له أيها الطماع كيف تكون فقيراً ولاتعرف الأحرف الثلاثة التى تتكون منها كلمة «فقر» والتى لابد للفقير أن يعمل بها؟ .

فأجابني الفقير: «أيها السخي فلتخبرني أنت، فقلت: «من حرف الفاء الغافقة، ومن حرف القاف «القناعة»، ومن حرف الراء رياضة. فمن لا يعمل بهذه الأحرف فهو ليس بفقير فكل وانفق مما حصلت عليه منى ثم عد واطلب منى مرة ثانية فإن الصدقة تمنح لرفع الغافقة لا لجمعها وادخارها أيها الطماع!! أنت أخذت من أربعين باباً وحصلت على الدنانير من واحد إلى أربعين فاحسب هذا وانظر كم العدد؟، ورغم ذلك كررت هذا الفعل مرة ثانية. وماذا ستجني من جمع هذه الأموال؟ على الفقير أن يفكر في قوت يومه، وفي اليوم الثاني الرزاق موجود يعطى رزقاً جديداً، استح واصبر واقنع، أعلمك المرشد أن يكون الفقر هكذا؟».

وما أن سمع الفقير هذا القول منى حتى ثار وأرغى وأزبد وألقى بكل ماأخذه منى على الأرض وقال: «اسمع ياهذا!! لا تغضب هكذا! خذ مالك وأملكك ولا تدعى الجود والسخاء فنعمة الجود والسخاء شيء صعب المزال وأنت لا تستطيع أن تتحمل عبء السخاء وأنى لك أن تصل إلى تلك المرتبة؟ فدهلى بعيدة جداً،^(٣) فللسخي ثلاثة أحرف أعمل بها أولاً فيقال عنك سخي، فخفت وقلت: «ياهذا!! أفهمنى ما معنى قولك هذا؟ فقال لى: «من حرف السين (سماء) فى جودها وسخائها، ومن الخاء خوف الله، ومن حرف الباء (ياد) يتذكر الإنسان لحظة ولادته وموته، فطالما لم تبلغ هذه المرتبة فلا تدعى الجود والسخاء، ومرتبة السخي أن يكون صديقاً لله عز وجل ولو كان غير صالح، إن هذا الفقير قد طاف بكثير من البلدان لكنه ما وجد سخيّاً غير ملكة البصرة، فلقد وقف الله السخاء على تلك الملكة فكل الناس تدعى السخاء لكنهم لا يقومون بما تقوم به هى».

وبعد أن سمعت هذا منه استحلفته وألححت عليه فى أن يعفو عني وقلت له: «خذ منى ماشئت لكنه أبى ومشى قائلاً: «لو أنك أعطيتنى كل ماتملك لما التفتت إليه ولا أخذته». واضطرب فؤادى، ولم يقر لى قرار وتمنيت أن أذهب إلى البصرة بأية وسيلة وأراها.

وفى تلك الأثناء توفى الملك وتوليت الملك خلفاً له لكن تلك الأمنية لم تزل عالقة بذهنى، فتشاورت مع الوزراء والأمراء ومسئولى الدولة فى أننى أريد السفر إلى البصرة، وعليكم بالاستعداد الكامل لإدارة شئون الدولة، ولو كتبت لى الحياة فسيكون السفر لفترة وجيزة وسأعود بسرعة، ولكن لم يوافقنى أحد قط على رغبتى، فصار قلبى مفعماً بالحزن والأسى، وذات يوم استدعيت الوزير الحكيم، وكلفته بالملك نيابة عني دون ذكر السبب وفوضت إليه جميع الأمور الأساسية للمملكة، وتخفيت فى ملابس الفقراء، وذهبت إلى البصرة بمفردى،

وبعد عدة أيام وصلت إلى حدودها، وكنت حينما أبيت بأى مكان أجد أخدم هذه الملكة يستقبلنى وينزلنى فى مكان لائق ويقدم لى كافة واجبات الضيافة، ويقوم على خدمتى طوال الليل، وفى اليوم التالى كنت أجد فى أى مكان آخر نظيراً لما وجدته فى الموضع السابق، وقضيت عدة شهور فى مثل هذه الراحة والدعة، وفى النهاية بلغت البصرة، فجاى إلى على الفور شاب فاخر الثياب وحسن الطباع دمث الخلق ذو مروءة وشهامة تبدو عليه أمارات الذكاء والفطنة، وبدأ يحدثنى برقة ولباقة قائلا: «أنا خادم الفقراء وأبحث دائماً عن فقير مسافر أو طالب للندى جاء إلى هذه البلدة، حتى يشرف بيتى بقدمه فليس هنا أى مكان سوى مكان واحد لينزل به الغرباء، فتفضل وشرفنا بالنزول فى ضيافتنا» .

فسألته: «ما اسمك الشريف؟ فقال: «اسم هذا المجهول، «بيدار بخت»، وأمثالا لإلحاحه وحسن سلوكه سرت معه وبلغنا بيته، قرأت قصراً منيفاً به لوازم وأمتعة ملكية وأجاسنى بالاستراحة، وجاء بماء ساخن وغسل قدمى ومد الطاهى أمامى مائدة حافلة بشتى صنوف الطعام مما لذ وطاب، عليها أربع صوان وعليها أطباق مختلفة وكل طبق فيه صنف مختلف من الأرز وكذلك الأرز الحلو وأنواع مختلفة من اللحم والخبز والشواء والكفتة ومختلف أنواع البيض ومختلف صنوف الأطعمة المكمورة ومختلف أنواع الحلوى والمشهيات وألوان من «الماس»، لدرجة أننى شعرت بالشبع بمجرد النظر إلى المائدة ولما تناولت لقمة من كل صنف امتلأت معدتى وتوقفت عن الطعام فبدأ الرجل يقول لى: «ماذا أكلت؟ إن كل الطعام موجود أمامك، كل دون حرج أو تكلف. قلت: لماذا أتكلف؟ عمر الله بيتك على الدوام، قد أكلت كل ما تستطيع معدتى أكله فكيف أعبر عن طيب مذاق هذا الطعام، فأنا أشعر بلذته على لسانى للآن، وحينما أنجشأتأتى رائحة الطعام الطيب فى فمى. وحينما انتهيت من الطعام أحضر ماء ساخنا وصابونا وقماشاً أملس وغسل يدى وأحضر لى التبول(٤)» .

وعندما حل المساء أضيئت المصابيح بالشمع الكافورى ولم يزل ذلك الرجل جالسا يتحدث إلى، وعندما انقضى جزء من الليل قال: «لقد انقضى الليل فلم الجلوس حتى الآن، هيا ادخل إلى تلك القاعة ونم» .

فقلت «يا فلان!! يكفيننا نحن الفقراء جلد الطيبى لننام عليه، لقد خلق الله هذه الأشياء متاعا لكم، أى أهل الدنيا، وأخذ الرجل يقول هذه الأمتعة للدراويش والفقراء ولأملك منها أى شىء، فذهبت إلى الحجرة ونمت بها بعد أن ألح على، وكان الفراش وثيراً أملس كأوراق

الزهور، وكانت الزهريات تحيط بالفراش من كلا الجانبين، وكانوا يطلقون البخور حول الفراش، وبأى جهة أوجه وجهى عند النوم أشم الروائح الطيبة، فينتعش مزاجى، فتمت فى هذا الجو، وعندما أشرق الصبح أحضروا لى الفطور: شراب من اللوز والرمان والعنب والتين والبلح وغير ذلك من الفواكه، وانقضت ثلاثة أيام على تلك الحال وفى اليوم الرابع استأذنت فى الرحيل، فعقد ذلك الشخص يده، وشرع فى الكلام وقال: «ربما بدر منى أى إساءة نحوك ياسيدى مما عكر صفوك». فانتابتنى الدهشة وقلت: «بالله عليك ماذا تقول؟ فمن شرط الضيافة أن تستمر ثلاثة أيام فقط، وقد قضيتها وليس من المستحب أن أزيد عليها، وإضافة إلى ذلك، فقد خرجت للتجوال والسياحة، ولو مكثت فى مكان واحد طويلا، فهذا شيء غير مناسب ولهذا أرغب فى الانصراف مع أن قلبى لا يريد أن يفارئك، فقال: «لأبأس إذا كان هذا يرضيك لكن لتتريث قليلاً حتى أخبر الأميرة، وبعد ذلك إذا رغبت فى الرحيل، فخذ معك كل أسباب العيش من راحة، وطعام ومال وستجدها فى تلك الغرفة ولا تفكر فى شيء فسأدبر لك الأمر كله.

فقلت: «لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم أنا فقير أم متسول؟ ولو كان هذا الحرص فى قلبى، فلماذا أصبحت فقيراً، وإلا لكنت حرصت وطمعت فى الدنيا فقال هذا الرفيق لو سمعت الأميرة بهذه الأحوال، لأدرى ماذا ستصنع بى؟ ستفصلنى من خدمتها، فإن كانت لارغبة لك فى هذه الأمتعة، فاتركها فى الغرفة وأغلقها بالقفل وستكون أمانة وأفعل ماشئت.

فلم أقبل ذلك، ولم يوافق هو أيضاً، وفى النهاية اضطرت أن أوافق مضطراً على أن نترك هذه الأمتعة فى الغرفة، ونقفل عليها بالقفل، وانتظرت الإذن بالرحيل. وفى تلك الأثناء جاء أحد الموظفين فى هيئة موقرة واضعاً على رأسه عمامة، وفى وسطه حزاماً، ويحمل فى يده عصا ذهبية، ومعه خدم وحشم وكان هذا الموظف مسئولاً كبيراً بالدولة، تبدو عليه أمارات السطوة والنفوذ فاقترب منى وشرع فى الحديث معى بلباقة وذوق وكياسة لأستطيع وصفها وقال: «ياعزيزى، إن تكرمت وتعطفت على العبد الفقير، وشرفت بيتى بقدموك الميمون، خدمة لعبد فقير، فهذا ليس ببعيد عن المروءة والفضل، فلعل الأميرة تسمع أن مسافراً جاء إلى هنا، ولم يقم أحد على خدمته بما يليق وكما ينبغى، ثم رحل، والله أعلم عندئذ ماذا سيحل بى من مصائب بل إن حياتى أيضاً ستكون فى خطر لكننى لم أقبل دعوته، فأخذ يلح على، وذهب بى إلى مكان أفضل من السابق وقدم لى كل واجبات

الضيافة كما حدث مع الرجل الأول، ومكنت في ضيافته ثلاثة أيام، فكان يقدم لى الطعام مرتين وبعد الظهر يأتى بالشراب، ويحضر لى مختلف أنواع الفاكهة وأخبرنى بأن كل مالدیه من طنافس ومتاع ورياش وبسط هو ملك لى فاصنع به ماشئت فانتابتنى الدهشة بعد سماعى لقوله وأردت الرحيل عن ذلك المكان بسرعة، ويعد أن رآنى على تلك الحال قال لى: «يا عبد الله!! إذا كان لك أى مطلب أو رغبة أخبرنى بها حتى أبلغها الأميرة» فقلت له: «أنا فى لباس الفقير، فماذا أطلب منك من متاع الدنيا فأنت تعطنى دون سؤال وأنا أرفضه». فأخذ يقول لى: «ليس هناك من لا يوجد أثر للحرص وطمع الدنيا فى قلبه، وقد قال الشاعر:

رأيت راهبا مقطوع الأذن طويل الشعر، وعلى بدنه اللآلى النفيسة

ورأيت فقيرا آخر يغطى وجهه وهو حليق الرأس

ورأيت مسرورا وفرحاً فى الغابة على الرغم من عدم استوائها

ورأيت الأصم والأعمى والبارع والأحمق

رأيت الغنى، رأيت الفقير من البداية

لكننى مارأيت أحداً قط ليس لديه طمع فى الدنيا

وبعد أن سمعت ذلك الشعر منه أجبت «هذا صحيح، لكننى لأبغى شيئا، لكن إن سمحت لى، فأنا أكتب رسالة أسجل فيها ماأريد فتوصلها للأميرة من فضلك، فتكون بذلك قد منحتنى مال الدنيا كله. قال: «على الرأس والعين، لأبأس فى ذلك، فاستهلت الرسالة بالحمد والثناء ثم كتبت «هذا عبد الله وصل هذه البلاد منذ عدة أيام فأتى أناس من أنحاء مملكتك ليقوموا على خدمتى وكنت قد اشتقت لزيارتك بعد سماعى عن جودك وكرمك وقد وجدت أكثر من ذلك بكثير، والآن يقول لى أركان دولتك اطلب ماتشاء وتبغى! ولهذا فأنا أبين لك ماأتمناه دون حرج، إننى لست فى حاجة إلى مال الدنيا فأنا أيضا ملك بلادى، وقد جئت إلى هنا على هذه الهيئة واحتملت كل ماصادفنى من مشقة فى الطريق لشدة شوقى لرؤيتك، وأرجو من سموك تحقيق أمنيى القلبية والأمر لك فى النهاية، لكن إذا لم يحظ طلبى بالقبول عندك فأنا أبذل الروح فى عشقك هائما على وجهى وأموت فى أى غابة أو جبل كالمجنون، وفرهاد».

كتبت هذا فى رسالتى وسلمتها له، فأوصلها بدوره للأميرة ثم عاد بعد لحظة داعياً إياى وأخذنى إلى القصر، فرأيت هناك امرأة عجوزاً تتحلى بالحلى جالسة على كرسى مذهب، ويصطف على جانبيها العديد من الخدم واقفين على خدمتها عاقدين أيديهم، فأدركت أن هذه العجوز هى امرأة ذات شرف وجاه، فرفعت يدي لتحياتها، فسلمت على بكل عطف وترحاب قائلة: «تفضل شرفتنا بمقدمك، فقد كتبت رسالة شوق لرؤية الملكة؟ فصمت خجلاً وخففت رأسى وجلست».

وقالت بعد برهة: «أيها الشاب إن الأميرة سلمت عليك وقالت: «لقد طلبتنى، ولا مانع عندى فى الزواج منك لكن ليس من اللائق التفاوض بالملك والحديث عنه فى الدنيا لأن كل الناس سواء فى الحقيقة، إلا من تشرف بدين الإسلام فهو الأفضل، وأنا أيضاً أتمنى الزواج منذ فترة طويلة، وكما أنت غنى عن ترف الدنيا أنا أيضاً مثلك أعطاني الله عز وجل مالا لا يعد ولا يحصى، لكن هناك شرطاً واحداً، هو أن تقدم لى المهر أولاً، ومهر الأميرة هو أمر يمكن أن تقوم به».

فقلت: «أنا طوع أمرها ورهن إشارتها ولن أدخر نفساً ولا مالاً فى سبيلها، فما هو الأمر؟ قوليه لأعرفه، فقالت: «امكث لدينا اليوم وسأخبرك غداً»، فقبلت بكل رضا واستأذنت وخرجت.

وانقضى اليوم وعندما حل المساء استدعانى أحد موظفى القصر إلى هناك، فرأيت هناك العلماء والأعيان والفضلاء وأصحاب الشرع، فجلست بينهم، ومدت المائدة ووضعت الصنوف المختلفة من الأطعمة الحلوة والعادية، وبدأ الجميع فى تناول الطعام وأشركونى أيضاً معهم، وبعد الفراغ من الطعام جاءت الخادمة وقالت: «اين بهروز؟» ادعوه، فأحضره المندوب الملكى على الفور، وكان مهيب الطلعة، ذا رجولة يعلق المفاتيح والروبيات الذهبية بخصره، جاء وسلم على وجلس إلى جوارى، وبدأت تلك الجارية تقول له «يا بهروز، قل كل ما شاهدته بالتفصيل».

فبدأ بهروز فى سرد تلك القصة مخاطباً إياى قائلاً: «باعيزى هناك آلاف الغلمان والخدام فى مملكة أميرتى يعملون بالتجارة وأنا أدناهم مرتبة بين خدمها، والأميرة ترسل بضائع وتجارة تساوى آلاف الآلاف من الروبيات لكل أنحاء الدنيا، وعندما يعود التجار

تسألهم الأميرة عن أحوال تلك البلاد، وحدث ذات يوم أن خرجت - أى بهروز - للتجارة ووصلت إلى مدينة «نيم روز» فوجدت أهل هذه المدينة متشحين بالسواد، ينوحون فى كل لحظة ويصعدون الزفرات، ويبدو أن مصيبة كبيرة قد حلت بهم وسألت عن السبب لكن ماأجابنى أحد قط .

ومرت عدة أيام فى تلك الحيرة، وذات يوم عندما أشرق الصبح، وخرج الجميع صغيرهم وكبيرهم حتى الشيوخ منهم وكذا الغنى والفقير، واجتمعوا فى ميدان، وخرج ملك تلك المدينة إلى الميدان أيضاً وسط أمرائه وحاشيته، فاصطف الجميع حينما وصل الملك، وكنت بينهم أشاهد ذلك المشهد، ويبدو أنهم كانوا ينتظرون شخصا ما، وبعد برهة جاء شاب ذو وسامة وملاحة يبلغ من العمر خمس عشرة أو ست عشرة سنة راكباً ثوراً وكان يحدث ضجيجاً ويحمل فى يده شيئاً، وقف فى مواجهة هؤلاء الخلق وترجل عن ثوره وهو ممسك بإحدى يديه بلجام الثور وبالأخرى سيفاً، وجثا على ركبتيه - وكان برفقته فتى حسن الطلعة فى جمال الحور - فأعطاه ذلك الشاب الشيء الذى كان معه، فأخذه الفتى وجال به على الحضور ليروه، وكان من يرى هذا الشيء يبكى بشدة رغماً عنه وبعد أن عرضه على الناس وأبكاهم عاد مرة ثانية إلى مولاه .

وحينما وصل ذلك الفتى إلى مولاه، نهض الشاب ووتر عنق الفتى بسيفه، ثم ركب وعاد من حيث أتى، وكان كل الناس يرقبون هذا المشهد، وعندما غاب عن الأنظار عاد الجميع إلى المدينة .

وكنت أسأل كل من ألقاه عن تلك الحادثة، بل أرغبه بالمال لكى يخبرنى، وأتوسل إليه ليخبرنى عن حقيقة ذلك الشاب ولماذا فعل ما فعل؟ ومن أين جاء؟ وإلى أين ذهب؟ لكن ما أخبرنى أحد قط، وما أدركت أنا أيضاً سر هذا اللغز، وبعدما رأيت هذا المشهد عدت إلى الأميرة وقصصت عليها ما حدث، فاندذهشت الأميرة، وأرادت أن تتحقق مما رويت!! وقررت أن من سيأتيها بحقيقة تلك الواقعة، ستكافئه بأن يكون إحضار الحقيقة مهراً لها، وتحبه وتملكه ملكها ونفسها .

ثم قالت الوصيصة لى: «لقد سمعت ما أعلنه الآن، فإن كان بإمكانك أن تأتى بخبر ذلك الشاب فاذهب على الفور لبلاد «نيم روز» وعد بسرعة وإلا فامض، ولترجع من حيث أتيت .

فأجبت - إن شاء الله - سأحضر النبأ اليقين والحقيقة الكاملة وأفوز بالجائزة، وإن لم يكن لى حظ فى بلوغ الحقيقة، فليست لى حيلة، لكن الأميرة لابد أن تؤكد لى أنها لن تخلف وعدها، ففى الحقيقة ينتاب قلبى بعض الخوف من ذلك، فياليت الأميرة تسمح لى بلقائها شفقة بقلبى وتعطفاً منها على باعتبار أننى غريب وعلى سفر وتجلسنى خلف سترها وتسمع منى وتجيبنى بنفسها، فسيكون فى ذلك راحة لبالى وأطمئنان لخطرى، وعندئذ سأتمكن من القيام بتلك المهمة.

فأبلغت هذه العجوز الأميرة بذلك المطلب، فأمرتها قائلة أحضره تقديراً منها لشخصى، فعادت الوصيصة واصطحبتنى إلى قصر الأميرة، وعندما ذهبت وجدت على الجانبين صديقات الأميرة فوصيفاتها وحشمها وخدمها وقيانها كل حسب منصبه طبقاً للمراسم الملكية، وكان المكان زاخراً بالخدم والحشم فكيف أصف هذا المشهد وأى لفظ يعبر عن كثرة الحضور، فصدرت منى آهة رغباً عنى واختلج قلبى لكننى تماسكت وسرت بين هذا الجمع ناظراً لهذا المشهد، وثقلت قدمائى فقد كانت الوصيفات على قدر عظيم من الحسن والجمال لدرجة أننى عندما كنت أمر بواحدة منهن لأستطيع أن أغادرها إلى الأخرى وكانت الأرائك مصنوعة من خشب الصندل، فأشارت الوصيصة لى بالجلوس، فجلست على إحدى الأرائك وجلست هى على العرش وقالت: قل الآن مايشاء لك القول حتى ترضى.

فأثنيته أولاً على الملكة وعلى حسن شمائلها وماتتمتع به من عدل وإنصاف، ثم بدأت أقول: منذ وطئت قدمائى حدود هذه البلاد وأنا أرى فى كل مكان داراً لضيافة المسافرين، وشاهدت المباني العالية فى كل الأنحاء والخدم والغلمان والموظفين لاحصر لهم كل فى وظيفته وحسب منصبه يقومون على راحة المسافرين والمحتاجين وقد قصيت أنا أيضاً فى إحدى تلك الدور ثلاثة أيام، وحينما قررت أن أغادرها فى اليوم الرابع لم يدعنى أحد أذهب قط وكان كل منهم يقول لى خذ معك كل مابالبيت من متاع ومال أودعه على سبيل الأمانة فهو ملك لك خذه وقتما تشاء، ففعلت ذلك وتركته على سبيل الأمانة لكننى فى دهشة فعندما تقومون بهذا السلوك معى فطبعاً أنتم تقومون به مع من يأتيكم غيرى أيضاً، وذلك يتطلب أموالاً طائلة فمن أين لكم بها؟ ومن أين جاء هذا المال؟ فإن تكن لديكم خزائن قارون، فما كانت لتكفى كل هذه النفقات فلن نظرنا إلى ماتملكه الأميرة فى ملكها ومايدره عليها من

ريح لوجدناه لا يكفى لنفقات الطعام فقط، فضلاً عن المصاريف الأخرى، فإن فسرت الأميرة لى هذا الأمر بنفسها لاسترحمت كثيراً، وأقصد مدينة «نيم روز» على الفور، وأبحث عن حقيقة أحوال ذلك الشاب ثم أعود لخدمة الأميرة وأنعم بقربها وأحقق أمنية قلبى.

وما أن سمعت الأميرة قولى حتى قالت بنفسها: «أيها الشاب، إن كنت تبغى أن تعرف السبب، فلتمكث اليوم فسأخبرك بأمر تلك الأموال الثابتة بلا نقصان مساء اليوم، ولما اطمأننت لحديثها توجهت إلى مكان إقامتى منتظراً حلول المساء حتى تتحقق أمنيتى، وفى أثناء ذلك جاء رئيس الخدم والحشم وبرفقته الغلمان يحملون الصحاف وبها مختلف صنوف الطعام الذى يُقدم على مأدبة الأمراء، وقال لى: هذا الطعام من طعام الأمراء فكله.

وحينما كشف الغطاء عن الطعام، انبعثت الروائح الزكية التى سال لها لعابى، وتناولت من الطعام ما طاب لى، وتركت مابقى وأرسلت شكرى وامتنانى للأميرة، وحينما دخلت الشمس بيتها بعد عشاء سفر يوم طويل، وخرج القمر فى ديوانه مع أصحابه، جاءت الوصيفة وقالت: «هيا، إن الأميرة تطلبك، فمضيت برفقتها، وأخذتلى إلى مكان خاص، وكان المكان مضيقاً لدرجة عالية جداً، وكانت الرياش الملكية هنا وهناك والأرائك منسوجة بخيوط الذهب والفضة، والوسائد يتدلى منها الدر، وذوائب، الستائر من الدر واللؤلؤ والستائر نفسها معلقة بأعمدة من الذهب الخالص، وأمام مسند الأميرة كانت هناك أشجار من الذهب وزهورها من الجواهر واللآلئ الثمينة، وتبدو هذه الأشجار وكأنها أشجار طبيعية، وكان البساط من الذهب الخالص يصطف حوله الخدم والحشم على كلا جانبيه لا تبدر منهم أى حركة احتراماً وتوقيراً، والقيان والمطريات يعزفن وينشدن الأغانى، وبعد أن رأيت ذلك المشهد خلب لى، فسألت الخادمة قائلاً: «النهار زينة وليل زينة كأن النهار عيد والليلة كليلة البراءة، بل إن هذه الراحة والدعة مما لا يتاح لملك من الملوك حتى وإن كان ملكاً للأقاليم السبعة». فبدأت الخادمة تقول: «إن كل ما رأيت هو من مصانع الأميرة وكلها تنتج متاعاً على هذا المستوى ولا يعترىها أى نقص بل إنها تزيد وتزدهر، فلتجلس هنا فإن الأميرة فى مكان آخر وسأخبرها بمقدمك».

ثم ذهبى الوصيفة وعادت من فورها وقالت: «تفضل وأمثل بين يدي الأميرة، وبمجرد أن دخلت ذلك المكان عقدت الدهشة لسانى حيث إننى لم أستطع أن أميز أين الباب وأين الحائط فقد كانت القاعة ممثلة بالمرايا المطعمة باللآلئ والجواهر، فمن ينظر فى المرأة يجد

الدر والجواهر التى فى المرأة المقابلة وهكذا، وفى أحد الأركان «ساتر» تجلس الأميرة خلفه، وجلست الوصيصة فى الناحية الأخرى للساتر وقالت لى: اجلس، وبدأت تتحدث بما تقوله لها الأميرة فقالت: «اسمع أيها الشاب الفطن سلطان هذه المنطقة كان أبى ملكاً عظيماً وله سبع بنات، وذات يوم أقام الملك احتفالات وجلس وأحاطت به بناته وقد تجلين فى أبهى زينة متحليات بأنفس الجواهر والآلى على أثوابهن ورءوسهن، فدار بخلد الملك أمر، فنظر إلى بناته وقال: لو لم يكن أبوك ملكاً، ولو كنتن قد ولدتن فى بيت فقير، فمن كان سيلقبك بالأميرات أو الملكات؟» احمدن الله سبحانه وتعالى بأنكن أميرات، فكل ماتنعمن به هو بفضلى، فأجابت ست منهن دفعة واحدة: «كل مايقول جلالكم هو الحق، فخيرنا فى سلامتك. وأما السابعة وهى الأميرة التى تحدثك الآن وهى أصغرهن سنا لكنها تبدو أرجحهن عقلاً، ظلت صامنة ولم تشاركهن الحديث لأن هذه الكلمة هى كلمة الكفر، فنظر الملك إليها غاضباً وقال: «لماذا لم تقولى شيئاً أنت أيضاً يا فتاتى؟» فعقدت الأميرة يديها وقالت: «إن أعطيتنى الأمان وهبتنى العفو والصفح فسأفصح عما يجول بخاطرى، فأجابها قائلاً: «قولى ماتريدين، قلت: «ياقيلة العالم لقد علمت أن الحق مر وأقول هذا وقد غسلت يدي من الحياة (أعرف أن حياتى فى خطر) وماكتبه الله لى فسيكون:

– إن كنت تمشى كثيراً أو تكثر السجود

– سيحدث لك ماسطر على جبينك

فالملك المطلق الذى جعلك ملكاً، هو الذى جعل الناس يدعوننى الأميرة، فلا خيار لأحد أمام قدرته وإن كان جلالتك ولى نعمتى وقيلتى وكعبتى ومن الجائز أن أكتحل بتراب قدميك المبارك، إلا أن النصيب مقدر لكل إنسان. فطاش صواب الملك لسماعه ذلك القول وقد شق على قلبه ذلك الجواب فقال مضطراً: «الفم صغير والقول كبير، فعقاب هذه أن تجرد من كل حليها وزينتها وتنفى فى غابة خالية من أى إنسان، لنرى ماذا سيكون مقدراً لها ومن نصيبها».

وطبقاً لأوامر الملك ساق الخادم الملكة فى جنح الليل وهى التى لم تغادر قصر والدها من قبل ولم تشاهد أى مكان آخر، وتركها الخادم فى مكان لا يستطيع الطير أن يطير فيه فضلاً عن الإنسان، وانتابتها حالة من العجب والدهشة فكيف كان حالها وكيف أصبح الآن؟

فحمدت ربها وأثنت عليه وقالت: «إنك أنت الصمد وقدرت وماشئت فعلت وستفعل ما تشاء، ولن أياس من رحمتك قط إلى أن يحين أجلى، وراحت فى سُبَات عميق، وما أن بزغ الفجر حتى فتحت عينيها وقالت: أأنتى بماء للوضوء. وعندما تذكرت كل ما مر بها بالليل وأين هى وماذا تقول، قامت وتيممت وصلت ركعتين للشكر. فيا أيتها الملكة إن قلبى ينفطر بسماع ذلك». (٦) وفى أثناء ذلك الحال كنت أتضرع إلى الله عز وجل وأنشد هذه الأبيات:

- عندما لم يكن لدى أسنان كنت تمنحنى اللبن.
- وعندما منحتنى الأسنان كيف لآتمنحنى الغذاء.
- فالله الذى رزق الطير والحيوان يرزقك أيضاً.
- فلا داعى للخوف لهذا القلب فلا حاجة به لذلك.
- فالرازق لكل ذى روح وغير ذى روح قادر على أن يرزقك.

الحقيقة أن الإنسان إذا مر بصائفة فإنه يلوذ بالله ويذكره، وإذا ماخرج من الصائفة فإنه يعتبر نفسه لقمان الحكيم أو ابن سينا، فلتز الآن وتسمع قدرة الله، فقد مضت ثلاثة أيام ولم يدخل فى جوف الملكة ولا حتى حبة خردل، فجف عودها وذبلت الزهرة وصارت شوكة وامتنع وجهها النضر وببست شفتاها وتحجرت عيناها وكادت تموت لكن أنفاسها كانت تتردد فى صدرها وكان لها رجاء فى الله ألا يحضرها الموت، وفى صباح اليوم الرابع جاء أحد الدراويش فى هيئة الخضر مضىء القلب والوجه، فقال لها بعدما رأى من حالها: «يابنيتى على الرغم من أن أباك ملك، إلا أن هذا الحال قد قدر عليك، الآن اعتبرى هذا الفقير خادماً لك واذكرى الله عز وجل وتضرعى إليه ليل نهار يفعل الله لك خيراً.

ووضع الفقير أمامها كل ما كان فى جعبته من طعام وذهب باحثاً عن الماء، فأبصر بئراً لكنه لم يجد دلو ولا حبلاً، فكيف يرفع الماء، فقطع أوراقاً من الشجر وصنع منها وعاء وأخذ من صدره حبلاً وريطه وأنزله فى البئر وأخرج الماء وأحضره لها وسقاها إياه. فاستعادت وعيها وطمأنها ذلك الرجل الصالح بالنسبة لوحدها وغريبتها فى ذلك المكان الموحش وأخذت فى البكاء، فلما رآته طمأنها وواساها، استقر قلبها واعتدل مزاجها، ومنذ ذلك اليوم صار من عادة الشيخ أن يخرج فى الصباح ويغيب طوال اليوم مستجدياً الطعام ويحضره لها

فى المساء، فمضت عدة أيام على هذا المنوال، وذات يوم أرادت أن تمشط شعرها، وتدهنه بالزيوت والعمور، وحينما حلت صفيرتها سقط من رأسها در ثمين فمئحته للدرويش وقالت له اذهب إلى السوق وبعه فذهب الفقير وباعه ثم عاد وأعطاها الثمن، فقالت له: «ابن فى ذلك المكان بيتاً مناسباً للإقامة» فقال الفقير: «يا بئيتى، احفرى الأرض واستخرجى منها التراب وفى يوم سأحضر مواد البناء وأضع الأساس، وطوعاً لأمره بدأت تحفر الأرض، وحينما حفرت متراً تحت الأرض ظهر باب تحت الأرض، فنظت ذلك الباب، فرأت بيتاً كبيراً ممثلاً بالجواهر والدنانير، فأخذت بضع حفنات من الدنانير ثم أغلقت الباب، ومهدت الأرض مرة أخرى، وأثناء ذلك عاد هذا الشيخ، فقالت له: «احضر العمال والفلة والمهندسين ليبنوا فى هذا المكان قصراً ملكياً يضاهى قصر كسرى ويفوق قصر النعمان، وأعدوا بسرعة حصناً وقلعة وحديقة ومولاً للمسافرين ليس لها نظير، لكن ليحضروا أولاً تصميماً على الورق لأوافق عليه».

وطوعاً لأمرها أحضر الفقير العمال والفلة وبدأوا يبنون القصر، وأحضر الموظفين والخدم والحشم المنتخبين من أفضل العناصر والمتخصصين فى كل شئون الخدمة، وأخذ صيت هذا القصر يذيع يوماً بعد يوم حتى بلغت أنبأؤه مسامع أبى الملك، فتعجب كثيراً وسأل كل من يقابله، من هذا الذى بدأ يبنى مثل هذه القصور؟ لكن لم يكن أحد يعرف شكلى ليخبره فأجاب الجميع بعدم معرفتهم بصاحب ذلك القصر فأرسل الملك أميراً ورسالة، إننى أريد أن أرى هذا القصر ولنعرف من أنت ومن أين جئت؟ ولأى أسرة تنتمين؟، وحينما سمعت هذا الخبر فرحت وأرسلت رسالة «سلمك الله يا ملاذ العالم، فلقد سررت كثيراً بأنك ستشرفنا بزيارتك فهذا شرف لى وعزة، ومن يمن طالع ذلك المكان أنك ستشرفه بخدمك المباركة، والقاطنون إلى جوارك وفى ظل ملكك لهم عزة ورفعة، وهذه الخادمة تأمل أن غداً يوم الخميس، يوم مبارك وأفضل عندى من «النوروز» وسموك تشرفنى كالشمس المشرقة وتشرفنى بنورك، فارفع من شأنى بتشريفك بالحضور، وبمقدمك ستكون المواساة للفقير والغريب، وودعت هذا الأمير بعد أن قمت بتحيته وإكرامه».

وبعد أن قرأ الملك رسالتها كتب إليها قائلاً: «إننى قبلت دعوتك ولاشك أننى سأحضر». وأمرت الخدام والموظفين بأن يعدوا لوازم الضيافة حتى تحظى بإعجاب الملك وسروره، وأعدوا طعاماً لذيذاً بحيث لا يبق أى طعام فى صحاف الملك، وطبقاً لأوامرها أعدت أنواع

من الطعام والحلوى لو أكلتها بنت «برهمن» (٧) لقاتل «لا إله إلا الله»، وعندما حل المساء وصل الملك في موكبه إلى بيتها فاستقبلته بين صديقاتها وخواصها. وحينما رأينا عرش الملك تلونا التحية الملكية فتحير الملك، ثم أجلسنا الملك على عرش مرصع وأعددنا منصة باهظة التكاليف فكانت تكاليفها مائة وخمسة وعشرين ألفاً من الروبيات وأعددنا له الهدايا والنذور من الجواهر والنقود والحريير والديباج والفيلة والخيول. ثم عقدت يداها ووقفت أمامه.

فقال الملك بكل عطف ومحبة: «أميرة أى إقليم أنت؟ وكيف قدمت إلى هنا؟»، فقدمت الملكة الاحترامات والتحيات في حضرة الملك الوالد واستأذنت وقالت: تلك الخادمة المذنبة التى أثارت غضب الوالد الملك فأرسلها إلى الغابة، وكل ماتراه الآن هو بفضل الله سبحانه وتعالى. فسرت دماء الحب فى عروقه فنهض وعانقها بكل الحب والمودة. وتناول يدها وأخذها وأجلسها على العرش إلى جواره، وكان والدها متحيراً ومتعجباً وأمر باستدعاء الملكة مع بقية بناتها وحينما وصلت، عرفت أمها وأخواتها وكوا جميعاً وحمدوا الله عز وجل، ونثرت الملكة الأموال والجواهر على أقدام أمها وأخواتها بما يفوق كثيراً ما فى خزائن الدنيا، ثم تناول الملك مع الجميع الطعام الملكى.

وكان الملك طوال حياته يزورها أحياناً مع أمها، وحينما مات الملك، ورثت الملكة كل ماتركه أبوها من ملك وثروة، لأن غيرها لم يكن جديراً بذلك.

هذه أيها الصديق قصة هذا المال الموهوب من الله عز وجل ولهذا هو دائم لا يزول، لكن لا بد أن يخلص الإنسان نيته وضميره لله سبحانه وتعالى، وكلما أنفق الإنسان من ذلك المال فى سبيل الخير زاد بركة ونماء، فلا يجوز فى أى دين أو عقيدة أن يتعجب الإنسان من قدرة الله عز وجل.

ويعد أن أتمت الرصيفة ذلك الحديث قالت: «إن شئت السفر إلى ذلك المكان «نيم روز» لتأتى بالخبر اليقين، فامض على الفور «فقلت: سأذهب الآن فوراً، وإن شاء الله أعود مسرعاً، ثم غادرت وتوجهت إلى تلك البلدة، أملاً فى رحمة الله تعالى، ووصلت إلى بلدة «نيم روز» خلال عام واحد بشق الأنفس، وكنت كلما قابلت شخصاً صغيراً كان أو كبيراً وجدته متشعاً بالسواد فرأيت بعينى كل ماسمعت، وبعد عدة أيام هلّ الهلال وكان اليوم الأول من الشهر، فاجتمع جميع أهل البلدة أمراؤهم وعظماؤهم وكبارهم وصغارهم ورجالهم ونساؤهم ووقفت

بين هذا الحشد الغفير متحيراً غريباً عن وطنى ومالى فى هيئة الفقير منتظراً لأرى ماسيحدث فى الغيب، وفى تلك الأثناء خرج شاب من الغابة راكباً الثور واضعاً يده فى فمه صائحاً، وأنا الذى تجشم العناء والمشقة لأكتشف حقيقة ذلك الأمر وقتت واجماً ناظراً إليه، وسلك ذلك الشاب نفس السلوك الذى بدر منه قبل ذلك وعاد من حيث أتى، وانصرف كل القوم إلى شئونهم، وحينما عدت إلى رشدى، تأسفت على ما فعلت وقلت: ماذا فعلت أنا؟ فلا بد لى أن أنتظر شهراً آخر، وفى النهاية عدت مع الجميع إلى البلدة، وقضيت هذا الشهر أعد أيامه يوماً يوماً وكأنه شهر رمضان ثم هل هلال الشهر الجديد، وكأن هذا اليوم عيد لى، وفى اليوم الأول اجتمع كل الناس فى نفس المكان، وكان العزم على ضرورة معرفتى لهذا السر الغريب هذه المرة مسيطراً على نفسى مالكاً لحواسى، وعندئذ وصل الشاب وفقاً لعادته راكباً على الثور ونزل وكان فى إحدى يديه سيف وفى الأخرى لجام الثور، وأعطى الغلام قدراً من الفخار، فعرض هذا الغلام القدر على جميع الناس فبكى الجميع بمجرد النظر إليه، وكسر الشاب هذا القدر، وضرب رأس الغلام بالسيف، فانفصل رأسه عن جسده، ثم ركب وعاد من حيث أتى، فبدأت أسير خلفه فجذبنى الناس من يدى وقالوا ماذا تفعل؟ لماذا تتعمد أن تجازف بحياتك، لو كنت غير راض عن الحياة فهناك طرق كثيرة للموت فمت بوسيلة أخرى فألححت كثيراً وحاولت أن أفر منهم، لكننى ما استطعت فقد أحاط بى أربعة أشخاص وحالوا دون تعقبى لذلك الشاب، وأخذونى إلى البلدة، فتأسفت كثيراً ومر على تلك الحال شهر كامل.

وعندما اكتمل الشهر، وحلت ليلة رؤية الهلال اجتمع الناس فى ذلك المكان كسابق عهدهم، وكنت قد استيقظت مبكراً وقت الصلاة، ثم توجهت إلى الغابة التى تشرف على الطريق الذى يأتى منه ذلك الشاب، واختبأت بها حتى لا يعترض طريقي أحد، وجاء ذلك الشاب كالمعتاد وقام بنفس الأمور التى كان يقوم بها فى كل مرة وبدأت أنتبج خطاه حتى لحقت به، فالتفت الشاب فجأة عندما شعر بأن هناك من يتبعه وصاح صيحة عظيمة واستل سيفه راغباً فى قتلى، فأنحيت تحية له وعقدت يدى وأنا فى طريقي إليه، فبدأ الشاب، يتكلم وقال: «أيها الفقير، كادت حياتك أن تضيع هباء، لكن عمرك طويل ولهذا كتبت لك النجاة، عد من حيث أتيت».

وأخرج من وسطه خنجراً مرصعاً بالدر والجوهر وأعطاني إياه وقال لى:

«خذ هذا فهو كل ماأملك الآن».

وقال: «اذهب به للملك فيعطيك ماتشاء».

فتملكنى الرعب والفزع لهيئته المهيبة ولم أقو على المسير وعقد الخوف لساني وتسمرت قدماى.

قال لى هذا القول ومشى صائحاً، فقلت فى نفسى: «ليكن مايكون فليس من المناسب أن أتراجع الآن، فلن تسنج لى هذه الفرصة مرة أخرى وحملت روجى على كفى وسرت خلفه».

فالتفت إلى مرة ثانية وصاح فى وجهى غاضباً ماذا تفعل يا هذا؟ وهم بقتلى، فأنحيت أمامه وقلت: «ياأيها الشاب، «رستم، اضرب عنقى بالسيف حتى تفصل رأسى عن جسدى كى أستريح مما أعانيه من حيرة واضطراب وضياح وقد أبحت لك دمي»، فقال: «أيها الشيطان لماذا تحملنى حرمة دمك فى عنقى؟ وتجعلنى مذنباً؟ فسر فى طريقك فهل يست من حياتك؟».

فما استجبت لأمره وشرعت فى المسير خلفه فتجاهلنى عامداً وسرت خلفه زهاء فرسخين حتى تجاوزنا الغابة ورأينا سوراً ووصل الشاب إلى بابه وصاح صيحة حتى انفتح الباب، فدخل وجلس وكنت أقف بالخارج وقلت متحيراً: «يارب ماذا أفعل؟» وبعد لحظة جاء الغلام وقال لى: «إن الشاب يدعوك لمقابلته، فكأن ملك الموت قد وصل، فأى سوء حظ قد قابلك، فقلت له: «هذا من حسن حظى، ودخلت معه فى الحديقة دون خوف».

وفى النهاية أوصلنى إلى حيث يجلس الشاب فألقيت عليه السلام بعدما رأيته، فأشار إلى بالجلوس، فجثوت على ركبتي، فوجدت ذلك الشاب يجلس على الأريكة منفرداً وأمامه أسلحة ثمينة وأشجار من الزمرد وحينما جاء وقت قيامه اختفى جميع الغلمان من أمامه فى الغرف، ودخلت أنا أيضاً فى إحدى الغرف خوفاً، فقام الشاب وأغلق جميع الأماكن وخرج إلى أحد الأنحاء فى الحديقة وبدأ يضرب ثوره الذى كان، يمتطيه، فوصلنى صياح الثور، فارتعد قلبى خوفاً، لكننى تحملت جميع المصائب لمعرفة هذا السر ففتحت الباب خائفاً واختبأت وراء شجرة ناظراً إليه، فترك الشاب السوط الذى يجلد به الثور، وفتح قفل إحدى الغرف ودخل مسرعاً ومسح على ظهر الثور وقبله ووضع أمامه العلف ثم عاد إلى الغرف

فأسرعت واختبأت بالغرفة ففتح الشاب جميع الغرف وخرج جميع الخدم وأحضروا وعاءً وأبريقاً للوضوء، فتوضأ الشاب وقام للصلاة وبعد أداء الصلاة قال منادياً: «أين الفقير الدرويش، فهدولت إليه ووقفت بين يديه بعد أن سمعت اسمي، فقال لي: «اجلس» .

فسلمت عليه وجلست، فجاء الطعام فتناول هو وأعطاني أيضاً فأكلت، وبعد الانتهاء من الطعام والاعتسال، قال الشاب للخدم: «اذهبوا للنوم والراحة، وعندما لم يبق أحد منهم وأصبحنا بمفردنا شرع في الحديث معي فسألني: «ياعزيزي ماذا حل بك فأنت تبحث وتجد وراء حتفك، فقصصت عليه قصتي من البداية إلى النهاية بكل تفاصيلها، وقلت له: «أرجو من حضرتك أن تبغني أُملي، وعندما سمع هذا زفر زفرة حارة، وخر مغشياً عليه وبدأ يقول: «ياإلهي، من يعرف أكثر منك ألم العشق؟ فمن لم يكابد آلام العشق لايعرفها، فالذي يشعر بالألم هو الذي يقدر آلام الغير» .

— يسأل العاشقين عن آلام العشق.

— أنى للفاسق أن يعرف؟ فليسأل الصادق.

وبعد لحظة استرد وعيه وزفر زفرة حارة وتردد صدى صوته في كافة الأرجاء، فتيقنت أنه أيضاً أسير للعشق ومريض بهذه الآفة، فقلت له: «لقد قصصت عليك قصتي، فلتحك لي حكايتك أيضاً لو تكرمت، فسأبذل جهدي لأسرى عنك حسب طاقتي وأحقق لك أمنيتك» .

فالخلاصة أن ذلك العاشق الصادق بدأ يقص قصته بعد أن جعلني كاتم أسرارهِ ورفيقهِ المقرب وقال: «اسمع ياعزيزي إننى محترق القلب ابن ملك هذا الإقليم «نيم روز» فالملك أبى دعا بعد ولادتي الرمالين والمنجمين وقارئ الكف وقال لهم اقرأوا طالع هذا الصبى وانظروا في يوم سَعده وأخبروني عما سيمر به طوال حياته يوماً بيوم وساعة بساعة وشهراً بشهر وعاماً بعام، فقام المنجمون طبقاً لأوامر الملك بعد النجوم وقراءة طالع الصبى، وبدأوا يخبرونه بما قرأوه في طالعهِ وقالوا: «من فضل الله، ولد هذا الصبى في وقت يمكن له أن يصبح ملكاً مثل الإسكندر، وعادلاً مثل أنوشيروان، ويتفوق في كل علم وفن، ويجد كل مايهفو قلبه إليه وينال شهرة في السخاء والشجاعة حتى ينسى الناس «حاتماً» و«رستم» ولكن بعد النظر إلى الشمس والقمر لأربع عشرة سنة يبدو خطر عظيم بل من المؤكد أنه سيصبح

مجنوناً ومختلاً عقلياً وسيقتل الكثير من الناس، ويخاف من القرية ويخرج للغابة ويتהלأ لرؤية الحيوان والطير، ويلتزم بأنه لا يرى الشمس ولا القمر ليل نهار، بل لا يرفع نظره إلى السماء وبعد انقضاء هذه المدة سيصبح ملكاً ويحيا حياة عظيمة مطمئنة.

وبعد أن سمع الملك ذلك القول، أنشأ هذه الحديقة، كما أنشأ العديد من المباني ذات الطرز المتعددة، وأمر أن أربى في قبر القصر ويكون فوقه برج ويوضع فوق هذا البرج قطعة من القماش الثقيل تحجب أشعة الشمس وضوء القمر، وأمر أن ترضعني مرضعة، وكنت أترعرع تحت رعاية الخدم والمربيات، وقد عين أبى لى أستاذا ذا حكمة وبصيرة وحذكة أيجلسنى كل العلوم والفنون ويدربنى على فنون الخط السبعة^(٨) وكان الملك دائم التتبع لأخبارى، وتأتية التقارير عنى كل يوم، وكان هذا المكان الذى تربيت فيه هو كل عالمى ودنياى ألعب فيه باللعب وكانت جميع أنواع الطعام موجودة بهذا المكان أتناول مأشأء وقتما أشأء، برعت فى جميع الفنون والصناعات وكان عمرى عشر سنين.

و ذات يوم رأيت زهراً غريباً تحت نافذة القبة، وكان ينمو كلما نظرت إليه فرغبت أن أشمه فكلما اقتربت يدى منه بعد عنها وكلما رفعتها إليه طال أكثر منها، وكنت أنظر إليه متعجباً فاذا بى أسمع صوت فهقهة، رفعت رأسى لأرى صاحب الصوت، فرأيت وجهاً بارع الحسن كالقمر وكانت تتطلع إلى بوجهها كالقمر فى السماء، وما إن رأيت ذلك الوجه حتى فقدت رشدى ووعى، فتماكنت نفسى، فرأيت هودجا يحمله أبناء الحور وفى هذا الهودج فتاة على رأسها تاج من الدر والجوهر ترتدى ثوباً براقاً وفى يدها كأس ياقوتية وكانت تجلس وكأنها احتست شراباً.

هبط الهودج تدريجياً فى القبة، فدعتنى تلك الحسناء وأجلستنى إلى جوارها وبدأت تتكلم معى حديث العشق واقتربت بغمها من فمى وأشربتنى ماء الورد، وقالت: «إن ابن آدم الإنسانى، لعديم الوفاء، لكن قلبى يميل إليك»، وتحدثت إلى بأساليب كثيرة فى دلال ورقة فخرج أمر قلبى من يدى، وسررت وكأننى وجدت لذة ومتعة الحياة، وأدركت أننى جميت هذا اليوم فقط إلى العالم.

الخلاصة إننى أعتقد أنه لست أنا فقط من لم يشاهد هذا المنظر، بل أنه ليس هناك من رآه قط ولا سمعه، وبينما كنا نجلس معاً فى تلك الحال من النشوة فاذا بكارثة تحل بى حيث أدرك حاملوا الهودج من أبناء الحور ماصار بينى وبين تلك الحسناء فجاءوا وهمسوا لها فتغير

وجيها بعد أن سمعت منهم وقالت لى: «ياحبيبي إن قلبى كان يهفر إلى البقاء إلى جوارك بعض الوقت لأسعد وأود أن آتى دائماً إليك أو آخذك معى لكن السماء لاتمنح شخصين فى مكان واحد الراحة والسعادة وإنى لذاغبة، فليحفظك الله» .

بعد أن سمعت هذا فقدت وعيى - وكان الببغاء طارت من يدى - وقلت لها: «متى نتقابل ولماذا تغضبين بهذا الخبر السيئ؟ فإما أن تعودى بسرعة وتجدينى على قيد الحياة أو تأسفى على وإما فلتخبرينى بعنوانك حتى أحاول أن أجذك وأصل إليك»، فقالت: «لا قدر الله، أبعد الله عنك هذا الشر وليطيل الله عمرك مائة وعشرين سنة، إن بقينا على قيد الحياة فسندلتقى إن شاء الله، أنا بنت ملك الجن وأقطن فى جبل «قاف»، ثم صعد الهودج تدريجياً كما هبط وطوال وجودها لم تغب عن ناظرى، وكانت أعيننا شاخصة إلى بعضنا البعض وحينما غابت عن نظرى، صرت كمن مسه الجنون وغلبنى الحزن الشديد وغاب عنى العقل والوعى، وأظلمت الدنيا فى عيني، وبكى مضطرباً وحيراناً وأنساب دمعى مدراراً، وكنت أهيل التراب على رأسى وأمزق ثوبى، ولأبالي بالطعام ولأميز بين الصالح والطالح:

— كم من مأس يسببها العشق

— فالقلب امتلاً بالأحزان والحيرة

وعلمت مربيتى ومعلمى بما حل بى من اضطراب، فأسرعا للملك خائفين وأخبراه أن الأمير أصبح غائبا عن العالم ولايعرف سبب ماحل به والذى أدى إلى تركه للراحة وزهده فى الطعام والشراب» .

فاستدعى الملك كل الأمراء والوزراء والحكماء البارعين والمنجمين الصادقين والصالحين وال دراويش والمجاذيب وأحضروهم إلى الحديقة .

فدهشوا أيضاً بعد أن رأونى على تلك الحال من الاضطراب والنواح والبكاء وغلبيهم البكاء وعانقونى، وأمرهم الملك بأن يتدبروا حلاً فكتب الحكماء ورقة بها دواء يقوى الدماغ والقلب وأعطانى المشايخ وال دراويش التعاويذ والتمايم لأعلقها وأشربها وبدأوا ينفخون على بعد قراءة الدعاء والرقية، وقال المنجمون إن دوران النجوم يتسبب فى هذا فتصدق، .

فبالخلاصة أن قال كل منهم وجهة نظره طبقاً لعلمه، أما ما كان بى فأنا وحدى الذى أعرفه، ولم تجد معنى مساعدة أو علاج، وازداد جنونى يوماً بعد يوم، وهزل جسمى بسبب البقاء دون طعام أو شراب، ولم أكن أقوى على شىء سوى الصباح ليلاً وضرب الجدران برأسى وقد مضت ثلاث سنوات وأنا على تلك الحال، وفى العام الرابع وصل تاجر للسياسة وأحضر معه الكثير من التحف العجيبة والغريبة من كل البلدان وقام بمصاحبتى واهتم الملك به كثيراً، وبعد أن قام بأداء واجب ضيافته سأله: «لقد طفت بكثير من البلدان فهل وجدت حكيماً ذا كمال ومهارة أو سمعت عنه؟»، فأجاب قائلاً: «ياقابلة العالم لقد طفت ببلدان كثيرة، لكن فى الهند وفى وسط البحر يوجد جبل وبه عابد زاهد هندوسى، وقد أسس هناك معبداً للإله «مهاديو» وسنكت، وحديقة غناء يقطن بها، ومن عادته أن يخرج من بيته فى اليوم الأخير من العام ويسبح فى البحر ويمرح وبعد انتهائه من السباحة يعود لبيته، وفى أثناء ذلك يجتمع المرضى من الأقطار المختلفة والبعيدة، ويحتشدون بالبواب.

إن ذلك العابد من الممكن أن يقال عنه أنه «أفلاطون»، ذلك العصر، يقيس النبض وينظر فى القارورة، ويصف الدواء لكل شخص يذهب إلى بيته لقد قدر الله على يديه الشفاء لدرجة أن المريض يشفى بمجرد أن يرتشف رشفة من الدواء ويذول المرض نهائياً، وقد رأيت ذلك بعينى رأسى، وأدركت قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق مثل هؤلاء البشر، فلو تأمر أن آخذ ابنك وأذهب به إلى هذا الناسك فلدى أمل قوى أن يشفى شفاء تاماً وبسرعة وفى الظاهر أن هذا التدبير حسن كذلك، لأن السياحة بين البلدان والأقطار وتناول مختلف الأطعمة والأشربة يكون من نتيجته اعتدال المزاج.

فاستحسن الملك هذا رأى أيضاً وقال مسروراً: «هذا أفضل وربما يفيد علاجه ويزيل من قلب ابنى الوحشة، فعين لى أميراً يعتمد عليه خبيراً مجرباً وهذا التاجر، وأعطانا الأشياء اللازمة للسفر كالأنواع المختلفة من السفن، وأركبنا البحر وودعنا. وقطعنا المسافة شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى المكان المقصود، فاعتدل مزاجى بسبب الطعام الجديد والماء والهواء العليل، لكن صحتى كانت على حالها، وكنت أبكى فى كل وقت، ولأنسى تلك الحسنة فى أى لحظة، وإن أنسى فأنشد هذا البيت:

ما عرفت حسناء شغلنت قلبي

من قبل وكان سليماً ولم يصبه شيء

وعندما مر حوالى شهرين أو ثلاثة اجتمع حوالى أربعة آلاف من المرضى، وكان الكل يقول إن شاء الله سيخرج العابد من سردابه وسنشفى جميعاً بقوله شفاءً كاملاً.

وتكملة القصة حينما جاء ذلك اليوم، خرج العابد من سردابه كالشمس واغتسل فى البحر وسبح وعبر البحر ثم رجع ومسح على بدنه بنوع من الرماد بهبهوت بهسم،^(٩) وأخفى جسمه الأبيض كالشعلة فى الرماد ووشم جبينه بعلامة «ملاكير»^(١٠) ولف الثوب حول وسطه ووضع المنشفة على كاهله وارتنى عباة، وقتل شاريه وانتعل وبدأ على وجهه أنه لا يعبأ بشيء فى هذا العالم، وكان يحمل دواة وقرطاساً وكان ينظر إلى كل من يقف أمامه ويصف له الدواء إلى أن وقف أمامى وحينما التقى نظره بنظرى، استغرق فى التفكير لحظة ثم قال لى تعالى معى، فصحبته، وحينما انتهى من الجميع أخذنى إلى الحديقة، وقال لى امكث هنا فى تلك الخلوة ذات النقوش والطلاسم، وذهب إلى سردابه، وبعد مرور أربعين يوماً جاء إلى ووجدنى أحسن من ذى قبل فابتسم وقال: «سر فى هذ الحديقة وإن أردت أن تأكل من ثمرها فكل، وأعطانى كويأ صينياً مملوءاً بالمعجون وقال لى: «كل من هذا المعجون كل يوم ستة مثاقيل صباحاً قبل الأكل، وذهب، وبدأت العمل بأوامره وبدأت استشعر القوة فى بدنى والفرح والسرور لكنه ماثراً على عشقى، وكانت صورة تلك الحسناء تتمثل دائماً أمامى.

وذاث يوم رأيت كتاباً فى طاق الحجرة فأنزله ورأيت أن جميع العلوم الدينية والدنيوية موجودة بهذا الكتاب، وكان البحر أدخل فى قرية، فكنت أطلعه فى كل وقت، فمكنتى هذا الكتاب من علم الحكمة وتسخير الجن بدرجة كبيرة، وفى ذلك الوقت كان قد مر عام، ثم جاء ذلك اليوم البهيج فى نهاية العام، فخرج العابد من سردابه فسلمت عليه فأعطانى دواة وقرطاساً وقال: «تعال معى، فصحبته وحينما خرجنا من الباب، دعا لنا الناس، وخر الأمير والتاجر على قدمى الناسك بعد أن رأيانى معه على تلك الحال وشكرا العابد قائلين: «لقد أصبح على تلك الحال بفضلك»، وذهب الناسك حسب عادته إلى البحر وسبح إلى الشاطئ الآخر ثم عاد وعبد كما كان يفعل فى كل سنة، وكان من عادته بعد السباحة أن يكشف على المرضى ويصف لهم الدواء، وحينما كان يقوم بذلك فى هذا العام أيضاً، رأى فجأة بين

المرضى، شاباً وسيماً لا يقوى على النهوض بسبب هزال بدنه ووهنه، فقال لى خذ هذا الشاب، وعندما انتهى من الجميع، جاء إلى سردابه وقطع خصلة من شعر ذلك الشاب، وأراد أن ينظف هذا التراب من رأسه بالمبرد، فورد بخاطري وقلت له: إنك لو وضعت هذا المبرد على النار ثم مررت به على ظهره لكان هذا أفضل فى إزالة تلك الأوساخ، لأنه إن استخدمت المبرد على رأسه فمن الممكن أن تصيب المخ وتقضى على حياته فلما سمع الناسك ذلك نظر إلى ونهض دون أن ينبس بكلمة وتوجه إلى ركن بالحديقة وكانت به شجرة وبها حبل ملفه على عنقه ثم شده، فذهبت إليه فرأيته ميتاً فتأسفت كثيراً ثم دار فى خلدى أن أدفنه، وعندما بدأت أقضله عن الشجرة سقط منه مفتاحان فأخذتهما ودفنت هذا الناسك وبدأت أفتح كل الأنفال انفتح بابان بهذين المفتاحين، وعندئذ رأيتهما مملوءتين بالجواهر الثمينة من الأرض إلى السقف، وفى ناحية صندوق مغطى بالمخمل وموشى بالذهب، ولما فتحته وجدت فيه كتاباً مكتوباً فيه اسم الله الأعظم، وطريقة تحضير الجن والحوريات واستدعاء الأرواح وتسخير الشمس، فسرت سروراً عظيماً بنيل هذا الكنز العظيم، وبدأت أعمل بما هو مكتوب به. وقلت لذلك الأمير ومن برفقته: «افتح باب الحديقة وأحضر السفن وحملها بكل هذا المتاع والمال والجواهر والكتب، وركب قارباً وسرت فى البحر حتى بلغت مشارف بلادى، وبلغ الملك نبأ وصولى فركب واستقبلنى وعانقنى بشوق، فقلت له بعد أن قبلت قدمه: «مر بأى أسكن فى الحديقة القديمة»، فقال لى: «يابنى ذلك المكان أصبح محسوراً عندى، لهذا أوقفت ترميمه وإعداده، وذلك المكان الآن غير صالح لأن يقيم به إنسان، فأنزل بأى قصر شئت فالتصور كثيرة فتخير أحسنها وكن تحت ناظرى، وجهاز هذه الحديقة كيفما يتراءى لك وتمتع بها كما يحلو لك». لكننى قمت بإعداد تلك الحديقة القديمة من جديد بعد إصرار وإلحاح منى، وزينتها كالجنة ودخلتها، ثم جلست خالى البال أربعين يوماً لأسخر الجن، وتجنبى أكل اللحوم وانشغلت بالتأمل، وحينما اكتمل الأربعون يوماً، هبت عاصفة هوجاء فى منتصف الليل، وسقطت المباني الكبيرة واقتلعت الأشجار وانجرفت، وظهرت كوكبة من الحوريات وهبط عرش من السماء، وكان يجلس عليه شخص مرتدياً حلة فاخرة من اللآلى فسلمت عليه لما رأيته بكل احترام، فرد على السلام وقال: «ياعزيزى، ماشأنك بنا وماذا تريد منا؟»، فقلت له: «إننى عاشق لابنتك منذ فترة طويلة ولأجلها احتملت

كثيراً من المصاعب والمتاعب، والآن أنا يئست من الحياة وألقيت بنفسى فى المهالك، وألتمس منك أن تشرفنى وتشملى بعطفك وعنايتك، وترىحنى برؤيتها فننال الثواب عند الله، وبعد أن سمع إلتماسى قال: «إن الإنسان خلق من طين ونحن خلقنا من نار، ومن الصعب أن يتواءما»، «فأقسمت بالله وقلت إننى أشتاق لرؤيتها ولأمل لى سوى ذلك، فأجابنى قائلاً: «إن الإنسان لا يتمسك بقوله، وبعد عند الحاجة ثم لا يفى بوعده، فأنا أقول هذا لصالحك، فإن كنت تقصد أنت شيئاً آخر فهذا فيه ضرر لك ولها، بل أنا أخشى على حياتكما، فقلت: «أنا لن أفعل شيئاً يضرنى أو يضرها فأنا أريد رؤيتها فقط، وفى أثناء ذلك وصلت تلك الحسنة التى نتحدث عنها فجأة وكانت فى أبهى زينتها، واختفى عرش الملك من أمامنا، فعانقتها وكأنها روحى رغما عنى، وأنشدت هذا الشعر:

– لماذا لا يمر السحاب على بيتى

– وقد قضيت أربعين يوماً لأجله

وبدأنا نعيش معاً فى تلك الحديقة فى جو من الفرح والسرور وكنت لأقربها خوفاً عليها وعلى بل أتمتع بوجودها بجوارى، وكانت تلك الحسنة مندهشة لأننى أفى بما وعدت، وتقول لى أحياناً: «يا حبيبى إنك صادق فى قولك، لكننى أنصحك لأجل الصداقة احذر من كتابك، لأن الجنى إن غفلت عنه سيسرقه فى أى يوم». فقلت لها: «أنا أحفظه كنفسى».

وفجأة ذات ليلة أغوانى الشيطان ووسوس لى، وراودتنى الشهوة، وقلت لنفسى إلى متى سأصبر فليحدث ما يحدث، فاحتضنتها وأردت الجماع، فإذا بصوت يقول: «أعطى هذا الكتاب، فإن به اسم الله الأعظم ولا تكن وقحاً وأعطيته دون أن أدري وأنا فى غمرة تلك الحالة من النشوة واللذة، فقالت تلك الحسنة بعد أن رأت هذا: «أيها الظالم، أخيراً أنت أخطأت ونسيت النصيحة، ثم أغمى عليها. ورأيت عند رأسها جنياً حاملاً الكتاب، فأردت أن أضربه واسترد الكتاب، وفى أثناء ذلك أخذ جنى آخر الكتاب وهرب، فأخذت فى قراءة الأدعية التى كنت قد رأيته بالكتاب، فمسح الجنى الموجود ثوراً لكن مع الأسف أن الحسنة لم تسترد وعيها، وبقيت على حالها، فاضطربت وأصبح عيشى مرأى.

ومنذ ذلك اليوم كنت ابغض الإنسان وأعيش فى ناحية من الحديقة، ولأريح قلبى كنت أصنع وعاء من الزمرد واللؤلؤ وأركب هذا الثور وأذهب كل شهر إلى ذلك الميدان وأكسر

الوعاء وأقتل غلاماً؛ رجاء أن يعرف الناس أحوالى ويأسفوا لها، فربما أجد شخصاً يدعو لى حتى أحقق أمنيتى.

ياصديقى: هذه هى حقيقة جنونى وقد شرحتها لك جملة وتفصيلاً.

وبعد أن سمعت هذا اغرورقت عينائى بالدمع، وقلت له: «أيها الأمير فى الحقيقة إنك احتملت كثيراً من المصاعب فى سبيل عشقك لكننى أقسم بالله أن أتنازل عن تحقيق أمنيتى فى سبيل تحقيق أمنيتك، والآن سأسيح معك ومن أجلك فى الغابات والجبال وأقوم بكل ماأستطيع، وودعت الشاب وكنت أسير فى القفار خمس سنوات لكننى ماحققت شيئاً، وفى النهاية صعدت الجبل بعد أن يكست وأردت أن ألقى نفسى لأموت، وإذا بذلك الراكب الذى ألقى على وجهى النقاب وقال: «لاتلق بنفسك بعد مدة قصيرة ستحقق بغيتك»، فقلت ياعباد الله: «لقد تشرفت برويتكم وآمل بفضل الله أن أجد أمنيتى قريباً وأجد سعادتى وفرجى، والجميع يحققون أمانيتهم».

وحينما أنهى الدراويش الثانى قصته، كاد الليل أن ينتهى وأشرف الفجر على البزوغ، فعاد الملك «آزاد بخت» إلى بيته صامتاً، بعد وصوله إلى البيت أذى صلاة الفجر ثم ذهب - إلى الحمام - واغتسل ولبس لباساً فاخراً، وجلس على عرشه فى الديوان العام، وأمر حاجبه قائلاً: «هناك أربعة من الدراويش فى مكان بالتحديد احضرهم معززين مكرمين».

فذهب الحاجب إلى هناك امبتثالاً لأمر الملك، فوجدهم يستعدون للخروج بعد الفراغ من غسل الوجه واليد، فقال الحاجب: «إن الملك يدعوكم جميعاً، فتفضلوا معى، فبدأ كل منهم ينظر إلى الآخر ثم قالوا له: «إننا ملوك قلوبنا فما شأننا بملوك الدنيا؟» فقال لهم الحاجب: «لابأس لكن ذهابكم إلى الملك خير كبير، وفى أثناء ذلك تذكر الأربعة أن ماقاله المولى «مرتضى» يتحقق الآن، فسروا وساروا مع الحاجب، وحينما وصلوا إلى القلعة وجلسوا أمام الملك، ودعا الدراويش الأربعة له بالخير، ثم جلس الملك فى الديوان الخاص واستدعى العديد من الأمراء والمقرئين، وقال لهم: «ادعوا الدراويش الأربعة، فحضرُوا بين يديه فأمرهم بالجلوس وسألهم قائلاً: من أين جئتم؟ وأين تقطنون؟ وإلى أين تذهبون؟».

فأجابوا: «يزيد الله سموكم عمراً ومالاً، نحن دراويش نصرب فى الأرض هكذا منذ أمد طويل تاركين البيت والأهل «إن مسكن الفقير هو المكان الذى يحل عليه كل مساء فأنى لنا

من قدرة لنبيين كل ما رأيناه فى هذا العالم الزائل، فواساهم الملك وخفف عنهم وأمر بالطعام وقدمه إليهم وبعد أن تناولوا طعام الإفطار قال لهم الملك: «احكوا لى حكاياتكم كاملة، ولن أدخر وسعاً فى خدمتكم» .

أجاب الدراويش: «لنستطيع أن نذكر كل ما مر بنا، إذ لن يسر الملك بالسمع؛ فسامحنا، فتبسم الملك وقال: «لقد سمعت كل ما حكيتم فيما بينكم ليلة أمس، فلقد كنت حاضرا هناك، وسمعت قصة درويشين منكم، والآن أريد سماع قصة الاثنى الآخرين، فلتبقوا عندى عدة أيام، فاخذوا يرتعدون بعد سماع هذا القول مطأطئى الرؤوس لا يستطيعون الكلام» .

وحينما رأى الملك أنهم فقدوا رشدهم ذعرا، قال: لا يوجد فى هذا العالم شخص قط لم تمر به الأحوال المختلفة خلال حياته، فبالرغم من إننى ملك إلا أننى قد مررت بمثل هذه الأحوال أيضا، وسأبدأ بقصتى أولا فآلقوا السمع» .

قال الدراويش الأربعة: «تفضل هذا كرم دائم من جلالتك» .

فبدأ بقص القصة قائلا:

أيها الدراويش هذه قصة الملك فاستمعوا
فلتستمعوا إلى كل ما رأيته وسمعته
سأقصها للدراويش حرفا حرفا
ولتنصتوا جيدا إلى تلك الأحوال

حينما مات والدى الملك، وتوليت أنا الحكم، كنت شابا وتخضع بلاد الروم لسلطتى، وفجأة جاء تاجر من «بدخشان، محملا بالبضائع، وأخبرنى الحجاب أن تاجرا كبيرا جاء إلى البلاد بما لم يأت أحد بمثله من قبل، فاستدعيته» .

فجاءنى وقدم لى التحف والنفائس التى تليق بى وكانت تلك التحف من شتى الأنواع، وفى أحد العلب كانت ياقوتة تتلأأ ذات لون بديع ووزنها خمس أوقيات، ورغم إننى ملك إلا أننى لم أر ولم أسمع بمثل هذه الياقوتة من قبل فأعجبت بها كثيرا، ومنحت التاجر كثيرا من الصلات وأعطيته وثيقة تجيز له التجوال فى البلاد، دون أن يتعرض له من يطالبه بالضرائب، وأينما ذهب وجد حسن المعاملة، من يعوضون له خسارته فى التجارة، وكان

التاجر على دراية بآداب مجالسة الملوك، صاحب بلاغة وفصاحة، يحضر بين يدي وقت انعقاد الديوان، أما أنا فكنت أطلب تلك الياقوتة كل يوم لأراها .

و ذات يوم كنت جالسا في الديوان العام، وعندى أركان الدولة وعظماؤها، وجميع سفراء ملوك البلدان المختلفة، الذين حضروا للتهنئة، وفي ذلك الوقت طلبت تلك الياقوتة كعادتي فجاء بها أمين خزانة الجواهر، فأخذت أمدحها، ثم أريتها لمندوب الإفرنج. فابتسم بعد رؤيتها وأخذ يتطلع إليها كل واحد من الحضور، وقالوا بلسان فرد واحد، من حسن طالع الملك أن تيسرت له هذه الياقوتة، فلم يحز مثلها ملك حتى الآن، في ذلك الحين كان وزيرى الكيس القطن، الذى يتولى خدمتى، حاضراً، فسلم علينا وقال: إذا سمحت لى يامولاي، أريد أن أقول كلمة .

فامرته أن يتكلم فقال: «يا قبلة العالم ، إنك ملك ومن الجدير بالملك ألا يمدح حجرا حتى وإن لم يكن له نظير فى اللون والدوع إلا أنه حجر، وكل السفراء والمندوبين ماثلون هنا الآن، وعندما يعودون إلى بلادهم ، سيقولون إن الملك وجد حجرا، وجعله تحفة نفيسة يعرضها على الناس كل يوم ويثنى عليها بنفسه، وحينما يسمع الملوك هذا الخبر سيضحكون، وبالله إن فى «نيسابور» تاجرا علق اثنتى عشرة ياقوتة فى رقبة كلب ووزن كل ياقوتة سبعة مثاقيل، .

و حينما سمعت قوله تملكنى الغضب، وقلت بحدة: «اضربوا عنق هذا الوزير، فأسرع الجلادون والسيافون على الفور وسحبوه من يده وأرادوا أن يأخذوه خارج الديوان .

وعندئذ وقف أمامى سفير ملك الفرنجة عاقدا يديه، فسألته ماذا بك؟ فقال لى: أرجو من سموك أن تتحقق من تقصير الوزير، فقلت له: وهل هناك ذنب أكبر من الكذب ؟ خاصة أمام الملوك؟ فقال لى: لم يثبت كذبه، ربما كان كل ما ذكره حقيقيا ومن غير المناسب الآن قتل البريء، فاجبته قائلا: إنه لا يدخل فى عقل أن من يتاجر ليتكسب قوته ويعانى فى جمع القليل من المال ويجوب البلدان والأقطار بتجارته من أجل الدوايق، يعلق اثنتى عشرة حبة من الياقوت ووزن كل منها سبعة مثاقيل فى عنق كلب فقال السفير: لا عجب فى قدرة الله، إن معظم التجار والفقراء، يحصلون على هذه التحف والأشياء لأنهم يجربون معظم البلدان والأقطار، ومن رأى يا جلالة الملك، أنه إذا كان الوزير مخطئا فليسجن، لأن الوزراء

يكونون بمثابة العقل للملوك، وليس من اللائق بالملوك، أن يأمرُوا بالقتل عقاباً لهذا الخطأ، فضلاً عن أنهم لم يتحققوا من صحته، وينسون كل ما قدموا وبذلوا من مهام بإخلاص ووفاء.

أيها الملك!! إن الملوك في البلدان الأخرى شيدوا السجون ليسجن بها من يغضب عليه الملك، وتمر أيام الغضب ويظهر الحق، ويعفى الملك من إراقة الدماء دون سبب وبهذا لا يتحمل الوزير يوم القيامة.

وطالما جادلته كي يقتنع، لكنه كان يتكلم كلاماً معقولاً لدرجة إنني لم أستطع أن أرد عليه فقلت: «حسناً وهو كذلك، فقد عدلت عن قتله، وإليق في السجن فإن ثبتت صحة قوله بوضع الياقوت في رقبة الكلب خلال عام صفحت عنه، وإلا سأُنزل به عقابي وغضبي، ثم قلت: اذهبوا به إلى السجن»، وحينما سمع المندوب هذا قبل الأرض بين يدي وسلم على.

ولما بلغ الخبر بيت الوزير تبدل حال أهل البيت وصار مأتماً، وكان للوزير بنت جميلة ذكية عمرها بين أربعة عشر وخمسة عشر عاماً، وكانت محبوبة لدى الوزير وقد بنى لها قصرًا خلف ديوانه، وألحق بخدمتها بنات الموظفين والموظفات لتمرر وتلعب معهن.

ويوم أن أرسل الوزير إلى السجن كانت البنت تلعب وتلهو مع صويحباتها وتزوج الدُمى وكانت هناك طبول ودفوف وكانت تعد لليلة زفاف الدُمى، وبينما كانت هي وأترابها يطبخن الحلوى للصدقات، إذ جاءت أمها وهي باككية ممزقة الثياب، حافية القدم حاسرة الرأس، وضربت على رأس البنت قائلة: «لو أن الله رزقني ابناً أعمى بدلاً منك لقربت عيني وصار معاوناً لأبيه ومرافقاً له» فسألت ابنة الوزير: «بماذا يفيدك الابن الأعمى؟ فما يستطيع أن يقوم به، أستطيعه أنا أيضاً» فأجابتها الأم: «تبا لك، إن أباك قد ذكر شيئاً أمام الملك، كان من جرائه أن زج به في السجن» فسألت بنت الوزير: «وما هو هذا الكلام؟ أريد أن أسمع»، فقالت زوجة الوزير: «قال أبوك، إنه يوجد في «نيسابور» تاجر قد علق اثنتي عشرة حبة من ياقوت وزن كل منها سبعة مثاقيل في عنق كلب، لكن الملك لم يصدقَه وظنه كاذباً فسجنه، فلو كان لي اليوم ابن، لكان قد حاول أن يتحقق من هذا القول، ويأتى بدليل يثبت به براءة أبيه، ويلتصم العفو من الملك حتى يفرج عنه».

قالت ابنة الوزير: «يا أمى العزيزة!! إن القدر لأيحارب، عندما يبئلى الإنسان عليه بالصبر وبالأمل والرجاء فى الفضل الإلهى، فإنه كريم، لا يدخل الإنسان فى مأزق إلا وعنده منه المخرج، فلا يجب البكاء، ربما وشى به أحد من الأعداء، وبسبب هذا حل به غضب الملك، بل ادعى الله، نحن من عباده وهو معبود لنا، إنه غاضب علينا وهو أيضاً رحيم بنا». وأخذت البنت تهدئ من روع أمها حتى هدأت واستكانت، ثم ذهبت إلى قصرها وصمتت، وعندما حل المساء وأظلم الليل، دعت كبير الموظفين وخرت على قدميه باكية راجية له وقالت: «أريد ألا تبقى لعنة أمى على، ويفرج عن أبى، فإن رافقتنى سأسافر معك إلى «نيسابور»، وأعود معى بالتاجر الذى علق اليواقيت فى عنق كلبه، بأية وسيلة وبأى ثمن، وأخلص أبى من السجن».

رفض الموظف أولاً، ثم عاد ووافق بعد ذلك نتيجة لإلحاحها ورجائها، فقالت له بنت الوزير: «قلتعد أسباب السفر والتجارة الجديرة بالملوك، ولتكنتم الأمر، واجمع الغلمان والخدم والموظفين كلهم». فوافق الخادم وشرع فى إعداد مأمريت به، وعندما تم الاستعداد وحملت أسباب السفر على ظهور البعير والحمير خرجوا وسافروا، وقد تخفت ابنة الوزير فى زى الرجال وسافرت معهم دون أن يعرف أحد قط. وحينما أشرق الصبح شاع الخبر فى بيت الوزير أن ابنة الوزير غائبة ولا يعرف أين هى.

ومع هذا فقد أخفت الأم أيضاً غياب ابنتها خشية الفضيحة وسوء السمعة، وجعلت بنت الوزير من نفسها ابناً لتاجر، ووصلت إلى «نيسابور» بعد قطع مسافات طويلة، ونزلت فى قصر المسافرين وهى فرحة، وأنزلت أسباب التجارة وقضت الليلة، وفى الصباح لبست لباساً فاخراً كزى أهل بلاد الروم، ثم خرجت تتجول فى البلاد، حتى وصلت إلى مفترق طرق، ووقفت ورأت فى أحد المواضع دكاناً للحلى والجواهر وبالدكان الكثير من المجوهرات ويقف به الغلمان لابسين لباساً فاخراً عاقدين أيديهم وكبيرهم عمره خمسون عاماً حسن المظهر يرتدى ملابس كالوزراء، يلتف حوله العظماء من ذوى الجاه والسلطان، على الأرائك يتحدثون فيما بينهم.

وحينما رأت ابنة الوزير - التى عرفت نفسها بأنها ابن تاجر - هذا الرجل تعجبت وحدثها نفسها قائلة: «ليت الله لا يجعلنى كاذبة»، هذا هو الرجل التاجر الذى علق اليواقيت فى عنق الكلب ففى الغالب أنه هو، يا إلهى أظهر لى أحواله.

فجأة رأى ابن التاجر - أى بنت الوزير - حانوتاً فى الجانب فيه قفصان معلقان وفيهما رجلان محبوبسان، تبدو عليهما سمات الجنون، لم يبق منهما إلا الجلد والعظم، وقد طالت أظافرهما وشعرهما وجلسان منكسى الرأس، ويقوم على حراستهما حبشيان قبيحا الهيئة، فاندھش ابن التاجر وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله والتفت إلى ناحية أخرى فرأى حانوتاً مفروشاً بالبسط وبه أريكة مصنوعة من سن القيل مكسوة بقماش لين، وعلى هذه الأريكة كلب فى عنقه قلادة من الجواهر ومقيد بسلسلة من الذهب، وغلaman من الفتيان الحسان يقومان على خدمته، وكان أحدهما يمسك بمروحة يهوى بها عليه، والثانى يمسك منديلًا مطرزا ومزركشاً يمسح به على وجهه وأرجله، فأمن ابن التاجر النظر فرأى أن فى قلادته اثنتى عشرة حبة من الياقوت موجودة فعلاً كما سمع، فشكر الله، وبدأ يفكر كيف يذهب بهذه اليواقيت إلى الملك ويطلق سراح أبيه؟ كان ابن التاجر على تلك الحال، أما الآخرون فكانوا فى حيرة من شدة حسنه وجماله ويتحدثون فيما بينهم، أنهم مارأوا قط فى جمال هذا الشخص ورآه أيضاً السيد صاحب الكلب، فأرسل غلاماً إليه قائلاً آت به إلىّ وقل له تفضل وشرف بالحضور.

وذهب إليه غلام وأبلغه رسالة سيده وقال له: «لتتكرم وتقبل دعوة السيد فهو يتوق للقاءك، وكان ابن التاجر يريد هذا فقال: «لأبأس، حسناً ومأن رأى السيد ابن التاجر حتى أصابه سهم العشق بطعنة فى قلبه، فخف لتحيته فأدرك ابن التاجر أن السيد أصبح فى قبضته، فتعانقا وقبل السيد جبين ابن التاجر، وأجلسه إلى جواره، وبعد تبادل المجاملات قال السيد لابن التاجر: «من أنت؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين تمضى؟ فقال: «موطن هذا الفقير هو بلاد الروم (التي كانت تعرف قديماً باستنبول زاد) وسيدى تاجر، وبسبب كبر سنه لا يستطيع السفر وقد أرسلنى لأتعلم التجارة، ولم أخرج من قبل من البيت، وهذا هو أول سفر لى، ولم أسلك طريق البحر بل أخذت طريق البر وسمعت فى ملك العجم عن سمو أخلاقك ومحاسنك، فما جئت إلى هنا إلا للقاءك، وها أنا ذا أشرف باللقاء وقد وجدت فيك مما سمعت، وتحققت أمنيى حفظك الله، والآن أريد أن أغادر إلى بلادى». ولما سمع السيد هذا النقول منه طاش صوابه وقال: «يا ولدى لا تنقل هذا، ولتشرفنا يوماً فى بيتنا المتواضع وأخبرنى أين أمتعتك وخدمك وموظفوك؟» فقال ابن التاجر: «سكن المسافرين فى منازل المسافرين وقد

تركت الجميع هناك وجئت إليك، فقال السيد: ليس من اللائق أن تنزلوا فى منازل الغرباء والمسافرين، ولى مكانة واعتبار وشهرة فى هذا البلد، فاذهب وادعهم على وجه السرعة، فقد خصصت لك بيتاً ولغلمانك وموظفيك، ولتعرض على كل مامعك من تجارة، حتى أهيب لك كسباً وفيراً يسرك وأخفف عنك مشقة الترحال لبيعه، وتفضل على بنزولك فى ضيافتى.

فاعتذر ابن التاجر ظاهرياً عن النزول فى ضيافته، لكن السيد ألح فى دعوته، وأمر الخدم أن يرسلوا الدواب بسرعة لتحمل أمتعة التاجر وتجارته وتضعها فى مكان عينه لهم، فأرسل ابن التاجر غلاماً زنجياً كان معه ليحمل الأمتعة وجلس هو مع السيد حتى جاء وقت المساء، فأراد السيد أن يذهب إلى بيته، فاصطحب أحد الغلامين الكلب وحمل الثانى الكرسي ووضعاه هذا الكلب والكرسي على الرجلين المحبوسين فى القفص وساروا، وأمسك السيد بيد ابن التاجر وذهبا إلى القصر وهما يتحدثان، ووجد ابن التاجر قصرًا منيفاً يليق بالملوك والأمراء، وقد فرش على حافة نهره فرش فضى، وقد صفت أمام الأرائك أسباب المتعة والرفاهية ووضعت هناك أريكة للكلب أيضاً، وأكرم السيد وقادة ابن التاجر وشربا معاً دون تكلف، ولما دار بالخمر رأسهما، طلب السيد الطعام، فمدت المائدة ووضع عليها مالذ وطاب من الطعام، ومن نعم الدنيا، ثم أحضروا للكلب صينية الطعام مغطاة، ومدوا مائدة موشاة بالذهب أمام الكلب، ونزل الكلب من مكانه وأكل ماشاء، وشرب من إناء ذهبى، ثم ذهب وجلس على السرير، فجاء الغلمان ومسحوا على فمه ويديه، ثم حملوا تلك الأطباق والدورق إلى قفص السجينين وضربوهما بالسياط، ثم أطعموهما بقايا طعام الكلب وسقوهما من نفس الدورق، ثم أغلقوا القفص وردوا المفتاح إلى السيد.

وبعد هذا كله بدأ السيد يأكل، وأما ابن التاجر فلم يعجبه ماحدث، وامتنع عن الطعام، على الرغم من أن السيد ألح عليه كثيراً إلا أنه أبى فسأله السيد عن السبب قائلاً: لماذا لا ترغب فى الطعام؟

فقال ابن التاجر: وإننى كرهت فعلك هذا؛ لأن الإنسان أشرف المخلوقات، والكلب نجس العين، ففى أى مذهب يجوز إطعام العبيدين بقايا طعام الكلب؟ ألا يكفى أنهما فى حبسك؟ وإن لم يكونا فى حبسك فهما وأنت سواء، والآن أنا أشك إن كنت مسلماً أم لا ولا أدري من أنت؟ أتعبد الكلب؟ وليس من المستحب أن آكل طعامك إلى أن يزول هذا الشك من قلبى.

فقال السيد: «يا بني!! أنا أدرك أنك على حق فيما نقول، ولهذا فقد صرت سيء السمعة في البلد، وقد سماني الناس «بعباد الكلب، واشتهرت بهذا، لكن لعنة الله على الكفار والمشركين، ثم نطق بالشهادتين وطمان ابن التاجر، فسأله ابن التاجر: «لو كنت مسلماً، فلماذا تفعل هذا حتى تسيء لسمعتك؟، فقال السيد: «يا بني!! لقد اقترن اسمي بسوء السمعة كما أننى أودى للدولة الضرائب أضعافاً مضاعفة، حتى لا يفشو هذا السر بين الناس، فهذه حكاية غريبة كل من يسمعا لا يملك إلا الغضب والحزن، فاصفح عني أنت أيضاً، حيث إننى لن أستطيع أن أحكيها لك . ففكر ابن التاجر في نفسه قائلاً: «مالى أنا ولهذا لقد جئت إلى هنا لغرض خاص، وقال للسيد: «حسناً إن كنت لا تستطيع أن تبوح بهذا السر فلا جناح عليك، ثم بدأ ابن التاجر في تناول الطعام، وقضى مع السيد شهرين بذكاء وفطنة حتى لا يتضح لأحد أنه فتاة، وتأكد الجميع أنه رجل، وقد ازداد حب السيد له يوماً بعد يوم، حتى أصبح لا يطيق أن يغيب عن ناظره .

وذات يوم أثناء احتساء الخمر بدأ ابن التاجر يبكي، فأخذ السيد يواسيه ويكف دمه، وسأله عن سبب البكاء، فقال ابن التاجر: «ياسيدى ماذا أقول؟ ليتك لم تخدمنى هكذا ولم تعطف على، الآن تعترضنى مشكلتان فأنا لأريد أن أفارقك كما لا يمكننى أن أمكث معك على الدوام، والآن على بالذهاب، لكن لا يبدو لى أى أمل فى الحياة بعد فراقك .

ومأناً سمع السيد هذا القول منه حتى انخرط فى البكاء وأخذ ينتحب وقال: «يانور عيني كيف شبت بسرعة من رفقة هذا الشيخ، لدرجة أنك تريد السفر محزناً قلبى؟ فلتصرف النظر عن سفرك هذا، فلن تفترق عني لحظة قط، طالما أنا على قيد الحياة، وإلا مت قبل الأجل، فجو بلاد فارس طيب ومناسب لك، ومن الأفضل أن ترسل رجلاً يعتمد عليه لأبوليك ليدعوهما مع أمتعهما، وكل ما يلزم للنقل سأوفره، وعندما يصل ذورك تستقر هنا وتعمل بالتجارة، فقد تحملت أنا أيضاً كثيراً من المشاق والصعاب وتجولت كثيراً بمعظم البلدان، والآن صرت شيخاً، ولم أرزق بابن وأعتبرك أفضل ابن لى، وستخلفنى من بعدى، وأنت عاقل وخبير فى عملى، وطالما أنا حى فيكفينى أن تعطينى لقمة خبز، أما إن مت فادفنى وخذ أموالى، فرد ابن التاجر قائلاً: «فى الحقيقة إنك تواسينى وتطمئننى أكثر من والدي حتى نسيتهما، لكن والد هذا الإنسان سمح له بالسفر لعام واحد فقط، ولو تأخرت فإنه

يموت فى شيخوخته، ورضاء الأبوين من رضاء الله، فلو أنهما غضبا على أخشى أن يدعوا على فأكون محروماً فى الدنيا والآخرة، فإن تعطفت وتكرمت فمرنى بأى شىء أستطيع القيام به لأؤدى حق والدى على، وأما عناية جنابك بى فلن أنساها ماحييت وهى دين فى عنقى، ولو عدت إلى بلادى سأذكرها على الدوام، والله مسبب الأسباب، ربما يكون هناك سبب كى أقبل قدميك مرة أخرى.

والخلاصة أن ابن التاجر أخذ يماطل السيد ويراوغه حتى اضطر السيد إلى أن يعرض على شفتيه أسفاً، فقد كان شغوفاً به مفتوناً، وأخذ يقول: «حسناً إن لم ترض أن تمكث هنا فسأذهب معك، فأنت لى بمثابة الابن والنفس والروح فلو خرجت الروح فما فائدة البدن؟ فإن كان رضاؤك فى هذا فلتذهب وأنا معك»، وبعد ذلك أخذ السيد يعد العدة للسفر برفقة ابن التاجر، وأصدر أوامره لمن حوله ليعدوا للسفر لوازمه على وجه السرعة.

وحينما ذاع نبأ سفر السيد تهيأ التجار أيضاً للسفر بعد عملهم بذلك، وأخذ السيد عابد الكلب معه الكثير من المجوهرات والتحف والخدم والغلمان والبضائع والمتاع الذى يلقى بالملوك، وخرج من المدينة مسافراً وأقام الخيام ونزل فيها وأخذ التجار من البضائع على قدر استطاعتهم حتى أصبحوا كالجيش الجرار.

وذاث يوم تحينوا الساعة المباركة وبدأوا رحلتهم، وقد حملت حقائب المتاع والبضائع على ظهور آلاف الجمال كما حملت صناديق الأموال والجواهر على ظهور البغال، وركب خمسمائة من غلمان صحراء «قباق»، ومسلحون من الزنج والروم وسيافون على الخيول التركية والعراقية والعربية، وخلفهم جميعاً السيد وابن التاجر فى ملابس فاخرة، راكبين على محفيتين وهودج بغدادى مربوط بظهر الجمل ينام عليه الكلب، وقفص السجينين معلق فى جانب واحد، وعندما ينزلون فى أى موضع يأتى الجميع إلى السيد يلتفون حوله ويتناولون الطعام معه على مائدة واحدة ويحتسون الخمر والشراب، وكان السيد يحمد الله ويشكره لأنه برفقة ابن التاجر ويقطعان الطريق سوياً.

ووصلا إلى حدود القسطنطينية بخير وعافية ونزلوا خارج المدينة، فقال ابن التاجر: «ياسيدى لو تأذن لى فى أن أذهب لوالدى كى أخصص قصراً لجناحك، وعندما ترغب فى دخول المدينة فلتدخل».

فقال السيد: «من أجلك جئت إلى هنا، حسناً فلتذهب لوالديك ولكن عد بسرعة بعد لقائهما، واجعل لى قصراً بالقرب منك» .

فودعه ابن التاجر، وحينما دخل الفتى البيت دهش الجميع من هذا الرجل الذى دخل البيت ؟ وتوجه ابن التاجر - أى بنت الوزير - إلى أمها، وخرت على قدميها وهى تبكى وتقول «أنا ابنتك، وحينما سمعت زوجة الوزير هذا أخذت تسبها قائلة: «أيتها البنت سيئة السمعة الساقطة، لقد بعث كرامتك وعزتك وسودت وجهك وألحقت المعرة بأسرتك، لقد بكيناك ثم تذرنا بالصبر، فلتغري عن وجهي، فخلعت بنت الوزير العمامة عن رأسها قائلة: «يا أمى ماذهبت إلى مكان سيئ وما ارتكبت أى جرم وكل ما قمت به كان لكى أطلق سراح أبى من السجن، حسب أوامرك، والحمد لله ويفضله وببركة دعائك قمت بكل ما أستطيع وأحضرت معى التاجر مع الكلب الذى علق فى عنقه اليواقيت وماخنت الأمانة، فقد تنكرت فى زى الرجال وسافرت، ويقى عمل اليوم فقط، وبعد قيامى به سوف أطلق سراح أبى وأعود إلى بيتى، فلو أذنت فأعود وأبقى يوماً خارج البيت» .

وحينما تأكدت أمها أنها فعلت مثل الرجال وحفظت شرفها وكرامتها، سجدت لله شكراً وضمت ابنتها إلى صدرها وقبلتها ودعت لها وودعتها قائلة: «أفعلى ماترينه مناسباً فأنا مطمئنة» .

وتنكرت بنت الوزير فى هيئة ابن التاجر مرة أخرى وذهبت إلى السيد المولع بالكلب، وكان السيد هناك يعانى من غيابه عنه فخرج مضطراً، فتقابلا فجأة فى الطريق فقال السيد حين رآه: «يا عزيزى!! أين ذهبت تاركاً إياى ؟» . فقال ابن التاجر: «ذهبت بعد أن استأذنتك إلى البيت، لكن الشوق إلى قريبك منعنى من البقاء، وشاهدوا حديقة وارفة غناء على شاطئ نهر فنزلوا فيها بخيامهم، وكان السيد وابن التاجر يشريان ويأكلان الشواء سوياً، وحينما حل وقت العصر، خرجا من الخيمة ليروحا عن نفسيهما ويتنزها وجلسا على الأرائك» .

وفجأة مر بهما صياد الملك، واندعش بعدما رأى قيامهما وجلسهما والقافلة التى معهما وقال فى نفسه، لعلمهم رُسل أى ملك، ووقف يتطلع إلى ماحوله، وفى أثناء ذلك رآه تابع السيد، فدعاه وسأله: «من أنت؟» فقال: «أنا صياد الملك، فأخبر التابع السيد بأحواله فقال السيد لفلام حبشى: «قل لهذا السوقى إننا مسافرون، إن أردت فتفضل واجلس، والقهورة حاضرة فى الإبريق، وحينما سمع الصياد اسم التاجر تعجب، ودخل إلى مجلس السيد، ورأى

هناك الغلمان والحراس ومظاهر البهجة، فحيا السيد وابن التاجر، وشاهد ما للكلب من منزلة رفيعة، فعدت الدهشة لسانه، واستضافه السيد لشرب القهوة، وسأل الصياد الملكى السيد عن اسمه وغير ذلك ثم استأذنه فى الانصراف، فأذن له بعد أن منحه الأتواب الفاخرة والتحف الثمينة.

وحينما حضر الصياد (الjasوس) إلى قصر الملك، أخذ يقص على حاشيته أحوال السيد التاجر، فوصلنى الخبر تدريجيا فاستدعيت الصياد الملكى وسألته عن أخبار التاجر، فأخبرنى بكل ما رآه، وحينما سمعت عن كيفية تدليل الكلب وعن السجينين غضبت وأمرت بوجوب قتل ذلك التاجر، فأمرت الجلادين أن اذهبوا بسرعة واقطعوا رأس هذا المارق، ومن قضاء الله وقدره أن نفس السفير الإفرنجى كان حاضرا بالقصر فابتسم، فازداد غضبى فقلت: «يا وحق!! ياسيىء الأدب!! الضحك فى حضرة الملوك دون سبب خروج عن الأدب، فالبكاء أحسن من الضحك دون سبب». فاعتذر السفير والتمس العفو وقال: «يامولاي كثير من الأمور قد دارت فى ذهنى لهذا ابتسمت، أولاً: أن الوزير صادق فيفرج عنه ثانيا: أن الملك قد برئ من إرقة دم الوزير دون وجه حق، ثالثاً: سيادتكم أمرت بقتل التاجر دون سبب أو جرم، فلهذه الأسباب تعجبت من أنك تأمر بقتل أى شخص دون تحقيق آخذاً يقول أى أحقق، والله أعلم ماهى أحوال السيد فى الحقيقة، فلتطلبه وتسأل عن حاله، فإن كان مخطئاً ومقتصراً فجلالتكم الخيار لتفعل معه ما تشاء».

وحينما وضع السفير مسلكه بهذا الإسلوب، تذكرت قول الوزير وأمرت أن يحضر التاجر وابنه والكلب على الفور.

فذهب الضابط فأحضرهم جميعاً: أولاً جاء السيد وابنه فى لباس فاخر، فتعجب الجميع وخلص لبهم من جمال وحسن ابن التاجر، وكان فى يده صينية مملوءة بالجواهر، وكل جوهرة تضئء المكان، وقدم الجواهر، أمام العرش وحيانى التحية اللائقة ثم ظل واقفاً!!

وقبل السيد الأرض بين يدى، وبدأ يدعو لى بلسان عذب كالبلبل، واستحسننت فعله هذا، لكننى قلت له على سبيل العتاب: «أيتها الشيطان فى صورة إنسان، أى شباك نصبتها وأية بئر حفرت فى طريقك، مادينك وما سنتك؟ ومن أمة أى نبى؟ فإن كنت كافراً فلماذا تلك التصرفات التى تبدر منك؟ وما اسمك وماذا تفعل هنا؟. فقال: يامولاي زادك الله عزرة وسلطاناً وعمراً، دين هذا العبد أن الله واحد لا شريك له، وأشهد بأن محمداً صلى الله عليه

وسلم نبي الله، وبعده اعتبر الإثنى عشر إماماً هم قدوتى وأصلى كل يوم خمس مرات، وأصوم، وحجبت بيت الله، وأودى زكاة الخمس^(١١) وأدعى مسلماً لكن هذه العيوب الظاهرة التى تبدو على والى تثير غضب جلالتك على، وجعلتنى سيء السمعة بين الناس جميعاً لا أستطيع أن أبوح بسرها، ورغم إننى قد اشتهرت بـ (عابد الكلب) وأدفع الضريبة أضغافاً مضاعفة، إلا أننى لم أبح بسرى لشخص قط.

فازداد غضبى لمكره وسعة حيلته وقلت: إنك تسترضينى بالقول، ولن أقبل هذا قط حتى تسوق لى حجة مقنعة لما أنت فيه من ضلالة، فإن أتيتنى بالحجة والبرهان، سأصفح عنك وتكون قد حفظت حياتك، وإلا فجزاء ذلك أن أشق بطنك حتى تكون عبرة لمن لا يعتبر وحتى لا يخرج أى شخص عن شرائع الدين الإسلامى.

فقال السيد: «أيها الملك، احقن دماي فعندى مال كثير لا يعد ولا يحصى فخذ كله واتركنى وابنى فداء لعرشك واصفح عني».

فابتسمت قائلاً: أيها الأحمق!! اتغرينى بالمال؟ لا مفر ولا سبيل إلا بالصدق.

وما أن سمع السيد قولى هذا حتى انسابت دموعه رغماً عنه وقأوه بعد نظره لابنه قائلاً: إننى سأقتل لأننى صرت مذنباً فى نظر الملك، الآن ماذا أفعل؟ ولمن أفوض أمرك؟ فنهرته قائلاً: «أيها الخبيث لقد أسرفت فى الاعتذار فلتكلم فوراً».

فتقدم ذلك الرجل وخر وقبل الأرض بين يدى وقال بعد المدح والثناء: أيها الملك!! لو لم يكن حكمك بقتلى مسلطاً على، لاحتملت جميع المصائب ولم أبج بهذا السر، لكن الحياة أعز من كل شيء، ولا يلتقى أحد بنفسه فى البئر، فالحفاظ على الحياة واجب، وترك الواجب مخالف لحكم الله، فلو رضيت جلالتك بهذا، فاستمع إلى ما مربى أنا الضعيف، لكن أولاً فلتأمر بإحضار هذين القفصين لهذين المسجونين وعندئذ سأحكى لك، فإن أخطأت أو كذبت فى أى موضع فاسألها ثم اعدل وانصف. فاستحسن رأيه هذا فطلبت القفصين وأخرجت الحبيسين وأوقفتها أمام السيد.

قال السيد: «أيها الملك!! هذا الرجل الذى فى يمينى هو الأخ الأكبر لهذا الغلام، وأما الذى فى يسارى فهو الأخ الأوسط لى، وأنا أصغرهما، وكان أبى تاجراً فى بلاد فارس، وحينما بلغت الرابعة عشرة من عمرى توفى أبى، وبعد الانتهاء من مراسم الدفن جاءنى أخواي هذان ذات يوم وقالوا: الآن نقوم بتقسيم تركة أبينا، وليفعل كل منا ما يريد بنصيبه.

فقلت: يا أخوى ماذا تقولان؟ أنا غلامكما، ولا أدعى بأننى أخ لكما، مات أبونا وأنتما فى منزلة أبى، أريد خبزاً يابساً ليقيم أودى، وسأقوم على خدمتكما، ولا شأن لى بالتقسيم والتوزيع، أنا أسد جوعى ببقايا طعامكما وأكون برفقتكما، فأنا صغير قليل الخبرة، لا أستطيع أن أفعل شيئاً بدونكما. والآن عليكما أن تربيانى، فقالا هل تريد أن نجعلنا محتاجين وفقيرين مثلك؟ فانصرفت إلى البيت باكياً، ثم طمأنت قلبى قائلاً لنفسى، أخواى أكبر منى وهما يزجرانى لأتعلم، ثم أخذنى النوم وأنا أفكر فى هذا وما أن أشرق الصبح حتى جاء مندوب القاضى وأخذنى إلى المحكمة، فرأيت أخوى هناك، فقال القاضى: لماذا لا تقسمون ميراث أبيكم؟ فقلت له مثلما قلت لهما فى البيت من قبل:

فقال أخواى: إن كنت تقول هذا من قلبك فاكتب لنا وثيقة تثبت أنك ليس لك حق فى ميراث أبينا، فأدرت من قولهما أيضاً، أنهما أخواى الكبيران وأنهما يريدان النصح لى حتى لا أسرف فى انفاق مال أبى، فكتبت لهما وثيقة وختمتها بخاتم القاضى، فرضيا بذلك ورجعت إلى البيت، وفى اليوم التالى جاء إلى وقالا: يا أخى!! إن هذا البيت الذى تقطن فيه نحن نحتاج إليه فلننتقل إلى مكان آخر لتعيش به، فأدرت أنهما لا يرضيان بأن أقطن بقصر أبى، فاضطرت أن أنتقل من هذا المكان، فيا ملاذ الدنيا (الملك) حينما كان أبى على قيد الحياة كان يأتى بتحف ونفائس من جميع البلدان التى يسافر إليها، ويعطينى إياها لأننى صغيرهم والكل يحب الصغار، وكنت أبيع هذه الأشياء وأدخر ثمنها وأشتري به ما أريد، وفى إحدى المرات أعطانى أبى جارية من تركستان وفى مرة أخرى جاء بمجموعة من الخيل من بينها حصان قوى تبدو عليه أمارات الذكاء، فأعطانيه وكنت أحضر له الكلاً بنفسى.

وفى النهاية بعدما وجدت منهما الخسة اشتريت قصراً وتوجهت إليه وكان معى هذا الكلب، وأثنت البيت بكل ما يلزمه من أمتعة وأساس ورياش واشتريت غلامين للخدمة، وفتحت دكاناً بما تبقى لدى من أموال وتوكلت على الله راضياً بحظى ونصيبى، فإذا كنت وجدت سروراً معاملة من أشقائى، فإننى وجدت الله بى رحيماً، فأصبح الدكان خلال ثلاث سنوات مشهوراً ومعروفاً بين الناس، وأصبح العظماء والأكابر يأخذون من دكانى كل ما يحتاجون إليه من التحف النادرة، وريحت أموالاً وبدأت أعيش فى غاية الرغد والثراء وكنت أحمد الله سبحانه وتعالى فى كل لحظة وأعيش مستريحاً.

وكننت بالبيت فى أحد أيام الجمعة . وذهب غلامى إلى السوق ليشتري بعض الأشياء، وإذا به يعود باكياً فسألته عن السبب قائلاً: ماذا بك؟ فقال غاضباً: ماذا يهكم؟ فلتفرح، ولكن بماذا ستجيب يوم القيامة؟ فقلت: أيها الحبشى، أى مصيبة قد حلت بك؟ فقال: سبب هذا الغضب أن يهودياً قد ربط أخويك فى الميدان وأخذ يضربهما بالعصا ضاحكاً قائلاً لهما: إن لم تعطيانى النقود سأضربكما حتى الموت وسأنال الثواب، هذه هى حال أخويك وأنت غافل عنهما فهل هذا صواب؟ وماذا سيقول الناس.

وحينما سمعت هذا من الغلام فارت الدماء فى عروقى وجريت إلى السوق حافياً، وقلت للغلامين لى: أسرعاً بالنقود. وحينما وصلت هناك تأكدت من صدق رواية الغلام. واليهودى يضربهما، فقلت لعسكر الحاكم لو سمحتم سأذهب إلى هذا اليهودى وأسأله لأى ذنب تفعل هذا بهما؟.

وبعد هذا ذهبت إلى هذا اليهودى وقلت: اليوم هو يوم الجمعة، فلم تضرب هذين بالسلسلة؟.

فأجابنى: إن أردت أن تكون أحمق فلتكن غاية فى الحمق، أعطنى أموالاً فدية لهم، وإلا فعد من حيث أتيت:

فقلت: لماذا تطلب مالاً؟ أعطنى وثيقة أعطيك مالاً.

فقال: أعطيت صك الدين للحاكم، وأثناء ذلك جاء الغلامان بالمال، فأعطيته لليهودى وأفرجت عن أخوى وكانت أحوالهما غاية فى السوء، فقد كانا جائعين، عطشائين بالية ثيابهما فأخذتهما معى وجعلتهما يفتسلان وألبستهما لباساً جديداً وأطعمتهما، لكننى لم أقل لهما ماذا فعلتما بأموال أبيكما؟ حتى لا يخجلا، أيها الملك: هاهما حاضران بين يدى جلالتك فسلهما هل أنا صادق أم لا؟ وعندما نجيا من الضرب وتحسنت أحوالهما قلت لهما ذات يوم: أخوى!! لقد أصبحتما فى هذا البلد بلا اعتبار ولا احترام. ومن الأفضل أن تسافرا بعض الوقت، فسكتا فعرفت من سكوتهما أنهما راضيان، فبدأت أعد العدة للسفر، فجهزت الحافلات والأنعام، واشتريت بضائع التجارة بعشرين ألف روية، وأرسلتهما مع قافلة للتجار قاصدة مدينة (بخارى).

وبعد عام رجعت القافلة، لكننى ما وجدت أى خبر عنهما وأخيراً سألت من أعرفه، واستحلفته أن يخبرنى خبرهما.

فأجابني: «حينما ذهبنا إلى بخارى بدأ أحدهما يقامر، فخسر جميع أمواله وعمل خادماً ينظف مكان المقامرة ويخدم المقامرين فيعطونه بعض المال، على سبيل الصدقة وقد ظل هناك خادماً، أما الثاني فقد ارتبط بعشق ابنة لبائع خمر وأنفق عليها جميع مايملك والآن يجول حول الحانة ويخدم فيها، وأهل القافلة لا يخبرونك حتى لا تخجل».

وبعد أن سمعت هذا جفاني النوم وتبدلت أحوالي فتزودت وذهبت إلى بخارى، وبعد وصولي هناك وجدتهما وأخذتهما معي وجعلتهما يفتسلان وألبستهما ملابس جديدة وأطعمتهما، لكنني ما قلت لهما شيئاً حتى لا يخجلا، ثم أعددت لهما أسباب التجارة، وأردت أن أذهب إلى البيت، وحينما وصلت مشارف «نيسابور» تركتهما في قرية مع الأموال والأمتعة والتجارة لكي لا يعرف أى شخص بقدمي.

وبعد يومين أعلنت أن أخوأي قد وصلا من السفر، وسأخرج غداً لاستقبالهما، وحينما أردت صباحاً أن أخرج إليهما جاء إلى مزارع من نفس القرية منادياً، وحينما سمعته خرجت له سائلاً إياه: لماذا تصيح وتبكي؟ قال: لقد سلبت أموالي بسبب أخويك لينك ما تركتهما هناك،.

فسألته: «ماذا حل بك؟» قال: «جاء قطاع الطرق ليلاً وسلبوا أموالهما وأموالي أيضاً. فأسفت وسألته أين هما الآن: قال: جالسان خارج المدينة في حالة سيئة عاريان جائعان فأخذت على الفور ملابس وألبستهما وأخذتهما إلى البيت وكان الناس يأتون لرؤيتهما، لكنهما ما كانا يخرجان لشعورهما بالخزي».

وبعد مرور ثلاثة أشهر على تلك الحال، فكرت في نفسي أنه إلى متى يجلسان في البيت ويختبئان؟ لو أمكنتني فساأخذهما معي في سفر، وقلت لأخوي لو أذنتما فساذهب برفقتكما، فسكتا، فأعددت كل أصناف التجارة وكل ما يلزم السفر وذهبت معهما.

وحينما أدينا ذكاة المال وحملنا البضائع على السفينة ورفعت المراساة وأبحرت السفينة، كان الكلب ينام على حافة السفينة، ولما رأى السفينة تهتز من تلاطم الأمواج أخذ ينبج من الخوف والدهشة، وقفز في البحر وأخذ يسبح فأرسلت خلفه قارباً صغيراً فأخذ القارب الكلب وأعادته إلى السفينة.

ومر شهر على خير في ركوب البحر، ثم وقع أخى الأوسط في عشق خادمة وذات يوم قال لأخي الأكبر: «نحن في خجل بسبب إحسان إخيना الأصغر، فكيف نتدارك هذا الأمر؟

فأجاب الأكبر: «لنى رأى فى هذا الشأن، نعمل به إن استطعنا، وأخيراً اتفق الاثنان بعد التشاور على قتلى والاستيلاء على كل أموالى والتصرف فيها.

وذاى يوم كنت أنام فى غرفة من غرف السفينة، والخادمة تلك قدى، فجاء أخى الأوسط وأيقظنى فتنبهت واستيقظت وخرجت وجرى الكلب خلفى، فرأيت أخى الأكبر متكئاً على سور السفينة ليشاهد البحر وكان ينادينى فذهبت وقلت له: «خيراً، فقال: «ما أبعد المنظر، فأناسى البحر أخذوا قواقع اللؤلؤ والشجر وأخذوا يرقصون». ولو قال لى شيئاً آخر خلاف القياس لما صدقته، وقد صدقت أخى الأكبر وأحيت رأسى لأرى ذلك المشهد، فأمنعت النظر لكننى لم أر شيئاً، وكان أخى يقول لى سترى الآن، لكن كيف أرى إذا لم يكن هناك أى شىء؟ فرأى أخى الأوسط أننى غافل فدفعنى إلى الماء، فسقطت رغماً عنى، وبدأ أخواى يبكىان ويصيحان: «هيا، هيا لقد سقط أخى، لقد سقط أخى. وسارت السفينة وحملنى موج البحر من موضع إلى آخر، وكانت موجة تفرقنى وموجة ترفعنى وكنت أصرخ وسط الأمواج وأخيراً تعبت، وأخذت أذكر الله وأستغيث به ولاأستطيع أن أفعل شيئاً وإذا بى أتعلق بشىء فجأة، وفتحت عينى وإذا بى أرى الكلب لعله وثب فى البحر حين دفعنى أخى، وكان يسبح معى، فأمسكت بذيله وجعله الله سبباً فى حياتى، وقد مرت بى سبعة أيام وسبع ليال على تلك الحال، وفى اليوم الثامن وصلنا إلى شاطئ البحر وقد خارت قواى تماماً، فأخذت أتحرج على جنبى حتى وصلت إلى البر وطوال يوم كامل فقدت الوعى تماماً، وفى اليوم الثانى بلغ سمعى صوت الكلب، فعدت إلى صوابى، وحمدت الله وكنت أنظر هنا وهناك فرأيت ظل المدينة من بعيد، لكن لاطاقة لى كيف أبلغ تلك المدينة؟ لكننى كنت مضطراً، فبدأت أخطو خطوتين، ثم أقف، ثم أسير، وهكذا سرت قرابة كيلو مترين حتى المساء وأنا على تلك الحال، وأبصرت فى الطريق جبلاً، فقضيت ليلتى به ودخلت المدينة صباحاً، ولما دخلت السوق رأيت دكاكين الحلوى والخبز، وكان لعابى يسيل للطعام لكننى لم أكن أملك نقوداً، ولم أكن أتسول من أحد وكنت أطمئن قلبى بأننى سأأخذ من الدكان وأمشى وفى النهاية مابقى لى أى طاقة ويطنى تصرخ جوعاً، وكادت الروح تفارق البدن، حين رأيت شابين لابسين لباس العجم يمسكان بيد بعضهما البعض، ففرحت لرؤيتهما، لأننى فكرت أنهما من وطنى وربما كنت أعرفهما وأشكر لهما حالى، فلما اقتريا رأيت أنهما شقيقاى، ففرحت كثيراً وحمدت الله أنه حفظنى من أن أتسول أمام الغير، فافتريت وسلمت وقبلى يدا

شقيقى الأكبر، فنظرا إلى وبدءا يصرخان، ولطمنى شقيقى الأوسط حتى سقطت على الأرض وأمسكت بذيل ثوب شقيقى الأكبر لعله يحمينى فركلنى برجله .

الخلاصة أنهما إنهما لا على ضرياً وفلا بى كما فعل أخوة يوسف عليه السلام، فتضرعت إليهما واستحلفتها بالله أن يتركانى لكنهما لم تأخذهما بى رحمة ولاشفقة، واجتمع الخلق وسألوهما ماذنبه؟ فقال الشقيقان: «هذا الخسيس كان خادماً لشقيقنا فألقاه فى البحر وأخذ جميع أمواله، وكنا نبحت عنه منذ فترة طويلة فوجدناه اليوم، وكنا يسألانى: أيها الظالم بماذا وسوست لك نفسك حتى تقتل شقيقنا؟ هل قصر فى شأنك؟ وهل أخطأ حينما جعلك مختاراً لديه؟ ثم مزقا ثوبهما، وأخذا يتباكيان ويضربانى بالأيدى والأقدام .

وفى أثناء ذلك جاء عسكر الحاكم، وغضبوا عليهما قائلين: «لماذا تضرباه؟» وأخذوا بيدي إلى رئيس الشرطة، وذهب شقيقاى أيضاً وقصا على الحاكم نفس الحكاية، وأعطياه رشوة وطلباً منه الإنصاف وإدعيا على أنى قتلت نفساً بغير حق، فسألنى الحاكم، وكانت حالتى بسبب الجوع والضرب غاية فى السوء بحيث لم أستطع أن أنبس ببنت شفة، وسكت، محنى الرأس، فتأكد الحاكم من أننى مجرم وقاتل، وأمر بإعدامى فى الميدان .

أيها الملك: «أنا دفعت المال لليهودى وأفرجت عنهما وهما دفعا للحاكم لقتلى، وهما حاضران فاسألتهما أنا أكذب أو أغير القصة؟ على أية حال، ساقونى للموت وحينما رأيت مكان الإعدام فنصت يدي من الحياة، ولم يكن معى سوى هذا الكلب ييكى على، وأخذ الكلب ينبح ويتمسح بأقدام الناس، وكان بعضهم يضربه بالعصى وبعضهم بالحجارة، لكنه لم يتزحزح عن مكانه وكنت متوجهاً نحو القبلة داعياً الله عز وجل ومتضرعاً إليه: يا الله ليس لى من يحمينى سواك فاحم هذا البرىء وساعده، فإن كتبت لى النجاة سأنجو . وبعد هذا نطقت بالشهادتين وهويت على الأرض .

ومن حكمة الله أن ملك تلك البلاد أصابه مرض عضال فاجتمع الأمراء والحكماء والأطباء يعالجونه دون جدوى، فقال شيخ: «أحسن دواء أن تتصدقوا على المحتاجين، وتفرجوا عن السجناء، ففى الدعاء أكثر مما فى الدواء . وحينما سمع خدام الحاكم قوله جروا إلى دور السجناء .

وفجأة جاء واحد منهم إلى هذا الميدان، وحينما نظر إلى الزحام عرف أن ثمة رجلاً سيعدم، ويعد أن عرف هذا ترجل عن الجواد بالقرب من الدار، وقطع حبل المشقة بالسيف،

وزجر عساكر الحاكم ونبه عليهم قائلاً: «إنكم تقتلون عبد الله، بينما حالة الملك فى غاية الحرج والسوء، وأطلق سراحى».

فذهب الشقيقان مرة ثانية لرئيس الشرطة وطلبا منه قتلى، وكان الحاكم قد أكل الرشوة وقبلها، ولهذا نزل على طلبهما. وقال لهما: «اطمئنا سأحبسه حتى يموت جوعاً وعطشاً ولا يعرف بخبره أى شخص قط».

فأخذونى إلى أحد الأماكن خارج المدينة على بعد عدة أميال، حيث يوجد جبل، كان جن سليمان قد حفروا به بئراً ضيقاً ومظلماً، وكان البئر يعرف «بسجن سليمان»، وكان الملك عندما يغضب على أحد غضباً شديداً، يسجنه فى هذا البئر، حتى يقضى نحبه بنفسه. الخلاصة، عندما أظلم الليل أخذنى أخواى وحاشية رئيس الشرطة إلى هذا الجبل وألقونى فى الجب السحيق، واطمأنوا ورجعوا، أيها الملك كان هذا الكلب معى، وحينما ألقونى فى الجب، جلس هذا الكلب على حافته، وفقدت وعيى فى هذا البئر، وحينما استرددت وعيى قليلاً حسبت نفسى ميتاً، واعتبرت المكان قبراً، وسمعت صوت شخصين يتكلمان، فحسبتهما منكراً ونكيراً (من ملائكة القبر) وأنهما جاءا لسؤالى، وسمعت صوت احتكاك الحبل بجدار البئر، كأن شخصاً ألقاه، وكنت فى حيرة أنبش الأرض فأجد عظماً.

وبعد ساعة بلغ مسامعى صوت كأنه صوت شخص يأكل، فقلت: «يا عباد الله من أنتم بالله أخبرونى، فضحكوا وقالوا: «هذا سجن خادم سليمان، ونحن سجناء، فسألتهم: «هل أنا حى؟، فضحكوا عالياً وقالوا: «إلى الآن حى ولكنك سوف تموت». فقلت لهم: ماذا تأكلون؟ أعطونى شيئاً منه حتى آكله، فنهرونى ولم يعطونى أى شىء، وناموا بعد الأكل والشرب، وأما أنا فبسبب ضعفى ووهنى صرت فاقدًا لوعيى وكنت أبكى وأذكر الله، يا قبله العالم!! سبعة أيام فى البحر ثم عدة أيام فى البئر، بسبب بهتان أخوى وظلمهما لم أجد أى حبة من طعام وبدلاً من الطعام أكلت المضرب وحبست حتى لايجول فى خاطرى، أى طريق للخلاص.

وفى النهاية جاء وقت الاحتضار، وأخذت الروح تدخل وتخرج، لكن كان هناك شخص يأتى بعد منتصف الليل ويلقى بالخبز فى المنديل وينزل قرية من الماء، وينادى وكان الشخصان المحبوسان معى يأخذان لنفسيهما الطعام والشراب ويأكلان ويشريان وكان الكلب يرى كل هذا، وفكر أن هذا الشخص كما ينزل الخبز والماء أنا أيضاً أفعل هذا وأنفذ مالكى، ثم

ذهب إلى المدينة وكان في دكان الخباز متصدة عليها الخبز، فوثب الكلب وأخذ خبزاً وفر هارياً فجرى الناس خلفه يضربونه بالحجارة، لكنه ماترك الخبز فعاد الناس متعبين، ثم جرى وراءه كلاب المدينة، فتشاجروا ثم انصرفوا عنه حتى وصل إلى البئر حاملاً للخبز، فألقى به في البئر وكان الصبح قد أشرق فرأيت الخبز أمامي وسمعت صوت الكلب فأخذته، ورجع الكلب للبحث عن الماء.

وكان في ناحية القرية كوخ لامرأة عجوز وبجوار الكوخ عربة يد وعليها إبريق مملوء بالماء، وكانت العجوز تغزل، فاقترب الكلب من الإبريق وأراد أن يأخذه فزجرته العجوز، فسقط الإبريق من فمه على القدر فكسره، وسكبت باقى القدر، فتناولت العجوز عصاً لتضربه فاخبت الكلب في ذيل ثوبها، وأخذ يلعب ساقها بفمه ويحرك ذيله ومشى نحو الجبل ثم رجع، وأحياناً يمسك الحبل وأحياناً يمسك الإبريق، وحيناً آخر يمسح قدميها بفمه ويأخذ ذيل رداءها ويجذبه صوب الجبل، فألقى الله عز وجل في قلبها رحمة فأخذت الدلو والحبل ومشيت معه وكان الكلب أمامها آخذاً بطرف ثوبها.

وفي النهاية بلغا الجبل، فأدركت العجوز من حركة الكلب أن مالك هذا الكلب حبيس في هذا البئر، وأن الكلب يريد الماء من أجله، الخلاصة، أن الكلب جاء بها إلى حافة البئر، فأنزلت الإبريق بالحبل فأخذت الإبريق وأكلت الخبز وشربت شيئاً من الماء (وأرضيت كلب البطن)، وحمدت الله وجلست في ناحية منتظراً رحمة الله، وماذا سيحدث الآن؟ وكان هذا الحيوان الأعجم يأتي بالخبز كل يوم ويشربني عن طريق العجوز وحينما رأى الخبازون أن هذا الكلب يأتي كل يوم ليأخذ خبزاً، ترفقوا به وقرروا أن يعطوه الخبز كل يوم بأن يلقوه أمامه، وكانت العجوز تأتي وتسقيني الماء رغم أنها لأنها إن لم تأت به سيكسر الكلب قريتها وقدورها، فكان هذا الرقيق يمدني بالخبز والماء ويمكث على حافة البئر، وقضينا ستة أشهر على هذا الوضع، لكن كيف يكون حال من يعيش في الحبس بعيداً عن الدنيا؟ فلم يبق مني إلا الجلد والعظم فقط، وأصبحت الحياة عذاباً، وكان يدور في ذهني: «ياربى إن أمت فسيكون ذلك الأفضل لى».

وذات يوم ليلاً حينما كان المسجونان نائمين أردت أن أتصرع إلى الله، فأخذت أبكى بين يدي الله رغماً عني، فرأيت وقت الغروب أن حبلاً ينزل في الجب بقدرة الله وسمعت صوتاً خفياً يقول: «أيها التمس، خذ بطرف الحبل بشدة واخرج من هنا». ففكرت في نفسي، أن

أخوى جاء أخيراً مشفقين على لصلة الدم، ليخرجاني من هنا، فريطت الحبل فى وسطى فرحاً مسروراً وجذبنى أحد لأعلى، وكان الليل مظلماً حتى إننى لم أتعرف على من جذبنى، وحينما خرجت قال لى ذلك الشخص: «تعال بسرعة، ليس هذا مكان وقوف، ورغم أننى لم أكن أملك أى قوة إلا أننى سرت خوفاً، وكنت أسقط ثم أنهض وأسير مرة أخرى، حتى نزلت من الجبل، فرأيت فرسين مسرجين قائمين، فأركبني ذلك الشخص على فرس وركب هو على الآخر وسرنا وكنت أسير خلفه حتى وصلنا إلى شاطئ البحر.

وطلع الصبح وكنا قد تجاوزنا هذه المدينة بأكثر من عشرين ميلاً فوجدت ذلك الشاب جندياً مسلحاً لابساً زى الجندى ودرعه، وأيضاً الفرس كان مدرعاً، وكان الجندى ينظر لى نظرة غاضبة وبعض أصبعه، واسئل السيف وضربنى لكننى سقطت من فوق الجواد قبل أن يصيبني ويدأت أقول: «أنا برىء أنا برىء لم أرتكب أى إثم فلماذا تقتلنى؟ أيتها الشهم لقد أنقذتني من السجن، فلماذا تقوم معى بهذا السلوك الآن؟ فقال: «قل الصدق من أنت؟ فقلت: «أنا مسافر قد سجت دون وجه حق، وخرجت بفصلك حياً من السجن، ثم مدحته.

فألقي الله فى قلبه الرحمة، فأعاد سيفه إلى غمده وقال: «يفعل الله مايشاء، لقد صفحت عنك، اركب بسرعة، ليس هذا مكان الوقوف، وركبنا الجوادين ومشينا، وكان يتأسف نادماً على مافعله خلال الطريق، ووصلنا إلى جزيرة وقت الظهر، فنزل عن فرسه وأنزلنى أيضاً. وحل السرج وأطلق الفرسين للرعى، وخلع درعه وجلس ثم قال: «أيتها اللعس!! احكى لى حتى أعرف من أنت؟ فذكرت له اسمى، وماحدث لى ومامر بى من البداية إلى النهاية.

ويعد أن سمع الشاب حكايتى أخذ يبكى، وخاطبنى قائلاً: «أيتها الشاب اسمع حكايتى، أنا بنت ملك مملكة «زيرباد، والسجين فى سجن سليمان واسمه «بهره مند، هو ابن وزير أبى، وذات يوم أمر الملك أن يخرج جميع الأمراء والعظماء إلى الميدان ويمارسوا الرماية ويتبارزوا حتى تظهر مهارتهم وتفوقهم، وكنت أجلس إلى جوار الملكة الأم فى الشرفة وكانت الوصيفات والجاريات حاضرات ينظرن إلى المشهد، وكان هذا المسجون أجمل من الجميع وكان يظهر البراعة والتفوق فوق صهوة الجواد وهو يدور به، فأعجبني وشغفنى حباً، وظلت قصة حبنى خافية مدة طويلة.

وأخيراً حينما اضطرتت بحت بسرى لوصيفتى وأعطيتها كثيراً من الهبات والإنعام فجاءت بذلك الشاب بالحيلة والوسيلة إلى بيتى فبدأ هذا الشاب أيضاً يهيم بى حباً.

وذات يوم رآه الحراس فى منتصف الليل داخل القصر وهو مسلح، فقبضوا عليه وساقوه إلى الملك، فأمر الملك بإعدامه فالتمس الجميع من الملك العفو عنه، حتى صفح عنه وأمر بسجنه فى سجن سليمان، والسجين الآخر الذى برفقته هو أخوه، وكان معه فى ذلك اليوم فألقوهما فى الجب، وهما محبوسان فى البئر منذ ثلاث سنوات لكن ماسأل أى أحد لماذا دخل هذا الشاب إلى القصر؟ فلقد سترنى الله عز وجل، فقررت منذ ذلك اليوم أن أتصدق فى كل يوم بالطعام والشراب حمداً وشكراً لله، ومنذ ذلك الحين وأنا أتى كل أسبوع وأحضر لهما طعام الأسبوع.

ورأيت البارحة فى المنام أن أحداً يقول: «يا فتاة، انهضى وخذى معك الفرس والثياب والنقود واذهبى إلى تلك البئر وأخرجيه منها، ونهضت فزعة بعد أن سمعت هذا القول، وتكررت فى زى الرجال فرحة مسرورة، وملأت صندوقاً بالجواهر والدنانير وامتنطيت هذا الجواد آخذة معى بعض الملابس، وذهبت حيث توجد تلك البئر لأخرجه بالحبل، فكان من نصيبك أنت أن تخرج من هذا السجن ولا غصاضة فى فعلى هذا، فربما أرسلنى المعبود لأفرج عنك، فعله خير فقد صار ماكان فى نصيبى قالت هذا وفتحت المخللة وأخرجت طعاماً من البقول والخضر والخبز وأخرجت سكرًا وأذابته فى الماء وأضافت إليه المسك وأعطتنى إياه فتناولته وشربته، وأكلت قليلاً من طعام الفطور، وبعد برهة قالت لى: اليس المتشفة وتعال إلى البحر وقصت شعرى بالمقص وقلمت أظافرى وألبستنى بعد الغسل لباساً نظيفاً وجعلتنى إنساناً من جديد، واستقبلت القبلة وصليت ركعتين للشكر، وكانت تلك الحساء ترقب أفعالى.

وحينما فرغت من الصلاة، أخذت تقول لى: «ماذا كنت تفعل، فقلت: «الخالق الذى خلق جميع الخلق، وجعلك تسدين الخدمات لى وتترفقى بى، والذى خلق جميع الخلق، والذى فك قيدي، وأفرج عنى، واحد لا شريك له، فعبدته، وشكرت له وحمدته، فقالت لى: «أأنت مسلم؟ فقلت: «الحمد لله، قالت: «فرح قلبى لقولك هذا، علمنى أن أنطق بالشهادة، فقلت فى قلبى: «الحمد لله لقد دخلت فى دينى».

نهاية القول، قلت: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وجعلتها تنطق بها وركبنا الفرس ومشينا من ذلك المكان، وحينما هبط الليل، كنا نتحدث عن الدين والإسلام، فأبين وأشرح، وتسمع وتفرح ومضى بنا شهران على هذا المنوال نسير نهاراً ونتحدث ليلاً، وفى النهاية

وصلنا إلى ولاية، كان في منتصف حدودها ملك «زيرباد وسراندیب، ورأينا مدينة كانت أكبر عدداً من سكان «استانبول، وكان نسيمها عالياً وماؤها زلالاً، ونظراً إلى أن ملك تلك المملكة كان أعدل من كسرى ومحباً للرعية، مال إليه فؤادي، فاشتريت قصراً وقررت الاستقرار هنا، وبعد مرور عدة أيام، وحينما استرحنا من وعناء السفر أعددت العدة وتزوجت تلك الحسنة على سنة الله ورسوله، وبدأت أعيش معها، وفي خلال ثلاث سنوات قابلت الصغار والكبار هناك حتى صرت ذا مكانة مرموقة بينهم، واتسعت تجارتى حتى تفوقت على جميع التجار.

وذات يوم ذهبت إلى كبير الوزراء لأسلم عليه، ورأيت كثيراً من الناس مجتمعين في الميدان، فسأل شخص «لم هذا الزحام؟، فعرفنا أن شخصين سرقا وزنيا ولعلهما قتلا أيضاً، فجاء بهما الناس ليرجموهما، فتذكرت أحوالي وأنى ذات يوم قبض على وسيق بى لأرجم فأنقذنى الله سبحانه وتعالى، فمن ياترى هذان اللذان قد وقعا في تلك المصيبة، والمحنة؟ لا أدري هل اقترفا تلك الجرائم أم أنهما قد اتهما بها ظلماً مثلى؟ فأفسحت الطريق واخترقت الزحام لأرى من هما؟ فرجدهما أخوى، وكانا صدرهما عارياً حفاة الأقدام، وعندما وجدتهما على تلك الحال جرى دم الأخوة في عروقي، واحترق صدرى، فأعطيت الحراس حفنة من الدنانير وقلت لهم: انتظروا قليلاً وأسرعتم إلى الحاكم وقدمتم له ياقوتة لا تقدر بثمن وشفعت لهما لدى الحاكم، فقال: «هناك شخص قد ادعى عليهما مافعله، وقد ثبتت إدانتهم، وأمر الملك برجمهما فأنا عاجز لا حيلة لى أمام هذا، وبعد كثير من التوسل والإلحاح على الحاكم، استدعى الحاكم المدعى على أخرى واسترضاه بخمسة آلاف روبية ليعفو عنهما، فأحصيت الروبيات وقدمتها إليه، فكتب تنازلاً عن الدعوى ضدتهما، وأفرجت عنهما من تلك المصيبة.

ياملجاً العالم، أسألها هل أنا صادق أم كاذب؟ وكان شقيقاى واقفين خافضين رأسيهما نادمين، فأفرجت عنهما واصطحبتهما للبيت وجعلتهما يغتسلان، وألبستهما ملابس فاخرة وأعطيتهما مكاناً في الديوان، وفي هذه المرة أخفيتهما عن الناس، وكنت أقوم على خدمتهما دائماً وأكل معهما، وفي وقت النوم أذهب إلى بيتى وظللت فى خدمتهما ثلاث سنوات ولم يبدر منهما أى فعل شائن وحينما كنت أذهب إلى مكان آخر، كان يمكن بالبيت.

وحدث ذات يوم أن ذهبت زوجتى الصالحة إلى الحمام ولما خرجت للديوان ولم تجد أحداً، خلعت نقابها، وكان أخى الأوسط مستلقياً على الفراش ولكنه يقظ، وحينما رآها وقع في

عشقها وأخبر أخى الأكبر فاتفقا على قتلى، ولم أعرف شيئاً عن فعلهما بل كنت أفكر وأحمد الله أنه لم يبدر منهما أى سوء هذه المرة وانصلح حالهما وكأنتى أثرت فيهما.

وذات يوم بعد أن فرغنا من الطعام، اغرورقت عين أخى الأكبر بالدمع وأخذ يمدح الوطن ويذكر محاسن إيران، وتأثر أخى الأوسط هو الآخر لقوله فقلت: «لو أردتما الذهاب إلى الوطن فأنا أبغى رضاكما وأتمنى هذا أنا أيضاً، وإن شاء الله سأكون برفقتكما، وحدثت زوجتى عن حزن أخوى وبرغبتي أنا أيضاً، فقالت تلك العاقلة: «تلك إرادتك، لكنهما يريدان أن يخدعاك، فهما عدواك، لقد رببت الأفعى فى كمك، وتركن إلى صداقتكما، قافل ماتشاء لكن احذر من إيذائهما». وبعد فترة وجيزة أعددت العدة للسفر وجهزت الخيام، فاجتمعت قافلة كبيرة واتفقوا على أن أقودهم، فخرجت فى ساعة مباركة، وكنت أطيعهما فى كل شىء لكنى كنت على حذر منهما.

وذات يوم قال لى أخى الأوسط فى أحد الأماكن: «على بعد ثلاثة أميال عين ماء كالسلسيل، حولها ميدان يمتد لميلين وقد نبتت به الزهور والبرود كالنرجس وشقائق النعمان وغيرها. وفى الحقيقة إنه مكان بديع للسباحة والرياضة، ولو كان الأمر بيدى لذهبت حيث هذا المكان لأروح عن نفسى وأزيل عنها عناء الطريق ووعناء السفر، فقلت له: «أنت مخير والأمر بيدك، لو تأمر نذهب إلى هناك غداً فقال: «لا شىء أفضل من هذا».

فأمرت أن تتحرك القافلة من غد، وقلت لخادى الخاص: «أعد العدة وجهز كل ما تحتاج إليه من طعام وأدوات، وعندما طلع الصبح، استيقظ أخواى وارتيديا ملابسهما وذكرائى بضرورة الرحيل مبكراً قبل أن ترتفع الشمس ويشد القيظ، فطلبت المركبة فقالا: «لو ذهبنا سيراً على الأقدام لازدادت متعتنا وكان هذا أفضل، وهذا شىء معروف فأمرت الخدم أن يحضروا الخيل فى إثرنا.

وحمل الغلامان وعاء القهوة ومشيا وأخذوا يرميان بالسهم، وحينما أصبحنا بعيداً عن القافلة أرسل أخواى أحد الغلامين ليقوم بمهمة ويقى واحد وبعد قليل أرسله هو الآخر ليؤدى عملاً، وكنت أنا التمس الذى ينصاع لرغبتهما دائماً، كأن ختماً قد ختم فمى حتى لأنبس ببنت شفة، وكانا يحدثانى ليصرفا ذهنى عما يدبران، وكان برفقتى هذا الكلب.

وبعدنا كثيراً، ولم نجد عين الماء ولا الحديقة، لكن رأينا أرضاً غير ذات زرع ليس بها إلا الشوك، وكنت أقضى حاجتى، فأبصرت بريقاً كأنه بريق السيف من خلفى، ماكدت التفت

خلفى حتى رأيت أختى الأوسط يشج رأسى بالسيف وأردت أن أقول له يا ظالم لماذا تضربنى، فعاجلنى أختى الأكبر بضربة أخرى على كتفى، وكان الجرحان عميقين، فهويت على الأرض فأخذ القاسيان يضرباننى ليتأكدا من موتى، جرحانى وطعنانى وكان هذا الكلب يرى ما يحدث لى فنبههما، فطعناه أيضاً ثم جرحا نفسيهما، وجريا إلى حيث القافلة عاريين، وقالوا: «إن اللصوص قد قتلوا أخانا وتشاجرنا معهم فجرحنا، فأسرعوا وإلا سيسطون على القافلة ويسرقونها كلها، وحينما سمع رجال القافلة أن اللصوص البدو قد سطوا على القافلة، فزعدوا وفروا على الفرور خوفاً ورعباً وكانت زوجتى سمعت بسلوكهما وخداعهما لى من قبل، وحينما سمعت بقصة موتى طمعت نفسها وفاضت روحها.

أيها الدراويش!! حينما حكى المولع بالكلب مامر به وما نزل به من المصائب، جعلت أبكى رغماً عنى، وقال التاجر: «يا قبلة العالم!! لولا خشية سوء الأدب لبرهنت لجلالتك على صدقى وخلعت ثوبى لترى جروحى، وقد تلايبيه وأطلعنى على جراحه، وفى الحقيقة حينما نظرت إلى جسده لم أجد شبراً واحداً يخلو من جرح، وخلع السيد عمامته فوجدت برأسه جرحاً عميقاً يمكن أن يدخل فيه ثمر الرمان كله، وحينما نظر الحضور من أركان الدولة إلى رأسه أغمضوا عيونهم ولم يقفوا على إطالة النظر.

ثم قال السيد: «يا جلالة الملك!! حينما ذهب هذان الأخوان بعد أن قتلانى بزعمهما، كنت ملقى على الأرض والكلب إلى جوارى، وقد سال الدم من جسدى حتى خارت قواى وأغشى على، لأدري أين كانت الروح معلقة حتى بقيت حياً؟ وكان المكان الذى كنت ملقى فيه على حدود سرانديب، وبالقرب من ذلك المكان مدينة عامرة، وبها معبد كبير للأوثان، وكانت ابنة ملك المدينة بارعة الحسن والجمال.

ومعظم الملوك وأبناء الملوك أضاعوا حياتهم فى عشقها، ولم يكن ارتداء الحجاب عادة فى تلك المدينة، لذلك كانت تخرج للصيد مع أترابها وللسياحة أيضاً وكان بالقرب من موضعى حديقة ملكية، وفى ذلك اليوم خرجت بنت الملك بعد إذن والدها إلى تلك الحديقة عابرة من ذلك المكان وكانت تركب معها بعض الخادومات والوصيفات، فسمعت تلك الوصيفات تأوى وأنيى فأتين إلى، وبعد أن رأينى على تلك الحال ذهبن بسرعة إلى ابنة الملك قائلات: «هناك رجل وكلب غارقان فى دماثهما، فلما سمعت ذلك جاءت إلى وتأسفت قائلة: «انظرن هل مازال على قيد الحياة؟، فنزلت اثنتان وقالتا: «نعم هو على قيد الحياة حتى الآن، فأمرت بأن تحملانى على محفة وتنقلانى إلى الحديقة.

وبعد نقلى إلى هناك استدعت الأميرة جراح الملك وأكدت عليه ضرورة علاجى أنا والكلب، وأغرته بالمكافأة والجائزة، فمسح الجراح على جسدى، وغسل جرحى بالخمير وخاط الجرح ومسح عليه بالمرهم وألقى فى فمى عرق المسك بدل الماء، وكانت ابنة الملك تجلس عند رأسى وتأمر بخدمتى، وتسقىنى بيدها عدة مرات فى الليل والنهار.

وحينما استرددت الوعى، وجدت ابنة الملك تتأسف قائلة: «من هو الظالم القاتل الذى ظلمك ولم يخش المعبود الكبير، وبعد عشرة أيام حينما فتحت عينى بقوة الشراب والطعام والمقويات رأيت أن الجميع قد التفوا حولى، وعلى رأسهم ابنة الملك، تأوهت وأردت أن أتحرّك لكننى لم أستطع، فقالت الأميرة مشفقة علىّ: «أيها العجمى!! اطمئن ولا تكتئب، وإن كان ظالم جعل حالك بمثل هذا السوء فإن المعبود الكبير قد جعلنى رحيمة بك، فستسترد عافيتك» أقسم بالله الذى لا شريك له، أننى قد فقدت وعيى بعد رؤيتها أيضاً، فسقتنى ماء الورد بيدها، وفى خلال عشرين يوماً إندمل الجرح وشفيت، ودائماً كانت الأميرة تأتىنى ليلاً حين ينام الجميع وتطعمنى وتسقىنى.

مجمل القول إننى شفيت بعد أربعين يوماً، فسرت الأميرة غاية السرور ومنحت الجراح مكافأة عظيمة، وألبستنى الملابس، وبفضل الله تعالى ورعاية الملكة وعنايتها أصبحت فى تمام الصحة والعافية، وصرت ممثلى البدن، وأصبح الكلب أيضاً سميناً، وفى كل يوم كانت تسقىنى الشراب وتستمع إلى حديثى وتسريه وتفرح، وكنت أنا أيضاً أقص عليها غرائب القصص حتى تسعد وينشرح صدرها.

وسألتنى ذات يوم قائلة: «قص لى أحوالك ومن أنت ولماذا مرت بك هذه الأحداث؟» فقصصت عليها أحوالى كلها من أولها إلى آخرها، وماأن سمعت قصتى حتى أخذت فى البكاء قائلة: «من الآن سأعاملك معاملة تجعلك تنسى مصيبتك».

فقلت: «فليحفظك الله، لقد أنقذت حياتى من جديد، لقد وهبتك حياتى، إننى رهن إشارتك، بالله عليك اعتنى بى دائماً على هذا النحو». المهم أنها كانت تصاحبنى وتجلس إلى طوال الليل بمفردها وأحياناً تكون برفقتها الوصيغة، وتحكى كل شىء وتسمع كل شىء وحينما تمضى الأميرة أبقى وحيداً، فأتوصلاً وأصلى مختبأ فى ركن من أركان البيت.

وذات مرة حدث أن ذهبت الأميرة إلى أبيها، فتوضأت باطمئنان وشرعت في الصلاة، فإذا بالأميرة تحضر فجأة مع خادمتها قائلة: «لننظر ماذا يفعل العجمي في هذا الوقت، أنائم أم مستيقظ؟ لقد تعجبت الأميرة عندما لم تجدني في مكاني وتساءلت أين هو؟ هل تعلق بأى شخص؟ وأخذت تجوب أرجاء البيت باحثة عني، وأخيراً وصلت إلى المكان الذي كنت أصلى فيه، وكيف لهذه الفتاة أن تعرف الصلاة؟ فجمدت في مكانها ناظرة إلى، وحينما فرغت من الصلاة ورفعت يدي بالدعاء ثم سجدت داعياً، ضحككت متهقمة وقالت: «ماذا يفعل هذا وماتلك الحركات الغريبة التي يقوم بها؟». وحينما سمعت صوت ضحكها خفت في قلبي، وجاءت أمامي وسألتني: «أيها العجمي ماذا تفعل؟، فلم أستطع الرد عليها، فقالت الوصيصة: يا صاحبة السموانى أشعر أنه مسلم وعدو ثلاث ومناة، يعبد الله الذى لا يرى.

وبعد أن سمعت الملكة هذا، ضربت كفاً بكف، وقالت: لم أكن أعلم أنه مسلم ومنكر لألهتنا، لهذا كان صنمنا غاضباً عليه، آويته في بيتى دون فائدة، قالت هذا وهى تمشي وبعد أن سمعت هذا منها طاش صوابى منتظراً ماذا ستفعل معى؟ وجفانى النوم خوفاً وبكيت كثيراً حتى الصباح، وغسلت وجهى بالدموع، ومرت ثلاث ليالى وثلاثة أيام وأنا بين الخوف والرجاء، لم يغمض لى جفن وفى الليلة الثالثة جاءت الملكة وخادمتها وهى ثملة إلى مكاني، وجلست فى مقدمة الحديقة خارج البيت وفى يدها سهم وقوس وكانت فى ثورة الغضب، وطلبت قدح الشراب من الخادمة وشربت ثم قالت: «أيتها الخادمة، هل العجمي الذى كان مغضوباً عليه من آلهتنا مازال على قيد الحياة؟، فقالت الوصيصة: «إنه حى يا صاحبة السمور، قالت: «لقد سقط من نظرنا لكن استدعيه كى يخرج» فاستدعنى الوصيصة، فأسرعت إليها، فرأيت وجه الأميرة منتفخاً من الغضب، ثم تضرع وجهها بالحمرة، فخرجت روحي من جسدى خوفاً، وسلمت ووقفت عاقداً يدي فرمقتنى غاضبة وقالت للوصيصة: «إن رميت عدو ديننا هذا بسهم هل تعفو عني آلهتنا العظيمة أم لا؟ لقد ارتكبت جرماً عظيماً بأن آويت ورعيت هذا الكافر».

فكانت الوصيصة: أى ذنب جنته الأميرة؟ فأنت آويته ورعيت دون أن تعرفى أنه عدو، لقد أشفقت عليه، فأنت جديرة بالثوبة لأنك قصدت خيراً، أما هو فسيجنى ثمرة فعله من آلهتنا الأعظام، وبعد أن سمعت هذا قالت لوصيفتها: «دعيه يجلس وأشار إلى أن أجلس فجلست، وقالت للوصيصة: «اعط هذا الوضع كأساً واحدة من الشراب ليقتل بسهولة» فناولتنى الوصيصة

كأساً فشربت دون اعتراض، وسلمت لكنها لم تنظر لى، ثم أخذت تختلس النظر لى شذراً،
وحينما شربت الخمر انتابتنى النشوة، ودارت الخمر برأسى فأخذت أنشد هذا الشعر:

— أنا قى قبضتك فما الفائدة فى أن أظل حياً؟

— فماذا يجنى أى أحد إن وضع عنقه تحت حد الحسام؟

وتعد أن سمعت هذا ابتسمت ونظرت إلى وصيفتها قائلة: «هل انتابك النعاس؟»، فقالت بعد
أن رأت رضاها: «نعم غلب على النوم، فصرفتها الأميرة، وبعد لحظة طلبت منى الأميرة
الكأس فأعطيتها إياها بسرعة، فتناولتها منى برقة، وشربتها فخررت على قدميها فريبت
الأميرة على قائلة: «أيها الجاهل!! ماذا وجدت من عيب فى آلهتنا العظام حتى تعبد المعبود
الغائب؟».

فقلت: «الإنصاف شرط، لو تكرمت فلتفكرى فى أن الخالق الذى خلق الحبيب مثلك من
قطرة ماء ووهبك هذا الحسن والجمال لتخلبى لب آلاف البشر فى آن واحد، هل هو جدير
بالعبادة؟ وما الصنم حتى تعبدينه؟ إنه حجر نحتته النحاتون وجعلوا له صورة وخدعوا به
الحق من الناس، حرضهم الشيطان، وهم يعتقدون أن المصنوع هو الصانع، فالذى
يصنعونه بأيديهم يحنونهم وهم أمامه، ونحن المسلمين نعرف الذى خلقنا ونعترف به، وقد
جعل لهم جهنم وجعل لنا الجنة، ولو تشرفت الأميرة بشرف الإسلام، فستدرك حلاوة
الإيمان، وتفرق بين الحق والباطل وتدرك خطأها».

وحينما استمعت إلى تلك النصائح، بدأ قلبها الحجرى يلين وأخذت تبكى بغضل الله
سيحانه وتعالى، وقالت: علمنى دينك فلقنتها الشهادة، فنطقت بها بقلب صادق، وتابت إلى
الله واستغفرت وشرفت بالإسلام، فركعت على قدميها وأخذت تتلو الشهادة، وتستغفر وتكثوب
حتى الصباح، ثم بدأت تقول: «إننى قبلت دينك لكن أبى وأمى كافران فماذا نفعل بشأنهما؟»،
فقلت لها: «ما شأنك أنت، أى شخص كما يدين يدان»، قالت: «لقد خطبونى إلى ابن عمى
وهو وثلى يعبد الصنم فلولا قدر الله زوجونى من هذا الرجل غدا وهو كافر وحملت منه فما
أقبح هذا وأبشعه!، فلا بد أن تفكر فى هذا الأمر حتى أتخلص من هذا البلاء». فقلت لها:
«قولك معقول فافعلى ماتشائين»، قالت: «لن أمكث هنا وسأرحل».

فسألتها كيف تستطيعين الهرب؟ وإلى أين تهربين؟ فأجابتنى: «أولا إذهب أنت والحق
بالمسلمين، فحينما يعلم الناس بخروجك بمفردك قلن يظنوا أننا هربنا سوياً، وأبحث عن

السفن الزاهية إلى بلاد العجم وأخبرنى وسأرسل دائماً الخادمة إليك لهذا الغرض، وحينما تخبرنى سأخرج ونركب السفينة ونذهب، ونخلص من هؤلاء التصاء الكفرة، .

فقلت لها: «إننى فداء لحياتك ودينك، ماذا ستفعلين مع وصيفتك؟». قالت: هذا أمر سهل، نسقيها كأساً من سهم الهلاهل وهذا أصلح، وحينما أشرق الصبح، ذهبت إلى مكان القوافل واستأجرت حجرة لأسكن فيها، وكنت أعيش فى هذا الفراق أملاً فى الوصل واللقاء، وبعد شهرين اجتمع تجار الروم والشام وأصفهان فأردت أن أسافر برقتهم، وبدأت أحمل أمتعتى على السفينة، وبسبب الإقامة فى مكان واحد عرفنى كثير من الناس، وقال الذين يعرفوننى: «أيها السيد نعال معنا، فإلى متى تمكث فى بلاد الكفرة؟، فأجبتهم: «ليس هناك مايدعونى للعودة إلى وطنى، لست أملك إلا خادمة والكلب والصندوق، فباليتمك تمنحوننى مكاناً على السفينة لأسافر على أن أدفع أجرة السفر فأطمئن وأركب.

وأعطانى التجار حجرة، ونقدتهم الأجر، وذهبت إلى الجارية بحيلة بعد أن تماكنت نفسى وقلت لها: «سأعادر هذه البلاد وأعود لوطنى فجئت لأسلم عليك، إن تفضلتى وجعلتى ألقى نظرة واحدة على الأميرة كان ذلك فضلاً عظيماً منك، . فوافقت الخادمة، فقلت لها سوف أحضر ليلاً فى المكان الفلانى، قالت: «حسناً»، ثم رجعت إلى القافلة، ونقلت الصندوق والمتاع إلى السفينة، وأعطيتها إلى ريان السفينة قائلاً: «سوف أحضر مع الخامة صباحاً». فقال الريان: «لا تتأخر، سترفع المرساة فى الصباح الباكر، . فقلت: «حسناً جداً»، وحينما أرخى الليل سدوله، ذهبت إلى المكان الذى عينته للخادمة ووقفت هناك، وحينما انقضى هزيع من الليل انفتح باب القصر وخرجت الأميرة متخفية فى ثوب قذر حاملة صندوقاً للجواهر، فأعطتنى هذا الصندوق وصاحبتنى، قبلنا شاطئ البحر مع شروق الشمس، فركبنا أولاً قارباً طويلاً أقلنا إلى السفينة، وكان هذا الكلب الوفى معنا، وحينما أشرقت الشمس بوضوح رفعت المرساة وأبحرت السفينة، وكنا نساfer مطمئنين فإذا بنا نسمع صوت قذف المدافع، فتحيرنا وبدأنا نفكر ماذا حدث؟ فأوقف الريان السفينة وبدأنا نتحدث فيما بيننا، فربما يكون القائد الأعلى للميدان يخذعنا، وإلا فما السبب فى قذف المدافع؟.

وكان مع كل تاجر بعض الجوارى الحسان وخوفاً من أن يستولى عليهن رئيس الميناء أخذوا يخيلونهن ففعلت ذلك أنا أيضاً، وأخفيت الأميرة فى صندوق وأقفلته، وأثناء ذلك ظهر

رئيس الميناء فى قارب مع حراسه ومعاونيه، وسار حتى وصل السفينة وصعد إليها، لعل سبب مجيئه أن نبأ موت الجارية بلغ الملك كذلك اختفاء الأميرة ولكنه لم يذكر اسمها بسبب الحياء وخشية الفضيحة، لكنه - أى الملك - أمر رئيس الميناء قائلاً: «إننى سمعت أن التجار العجم يملكون جوارى فانتنات وأنا أريد أن آخذهن لخدمة ابنتى الأميرة فأحضرهن جميعاً أمامى لأنتنقى منهن أفضلهن لخدمتها وأدفع ثمنها، وإلا فليرجعن، وبموجب أمر الملك حضر رئيس الميناء إلى السفينة الآن، وكان إلى جوارى تاجر يملك أيضاً جارية حسناء أخفاها فى صندوق وجلس رئيس الميناء على ذلك الصندوق، وبدأ يخرج الجوارى، وحمدت الله على أنه ليس هناك ذكر لبنت الملك.

الخلاصة، حمل أتباع رئيس الميناء الجوارى على القارب وسأل الرئيس ذلك التاجر الذى كان جالساً على صندوق يملكه: «هل معك جارية؟ فقال ذلك الأحق: «أيهها الرئيس لست وحدى من فعل هذا، بل جميع التجار يخبتون جواريهن فى الصناديق خوفاً منك». فأخذ رئيس الميناء يبحث فى كل الصناديق، وفتح صندوقى أيضاً، وأخذ الأميرة مع الجميع، وتملكنى بأس شديد، وقلت لنفسى: «ماذا حدث الآن ذهبت حياتى هباءً، ترى ماذا سيصنع الملك بالأميرة؟».

وكنيت أفكر فيها لدرجة أننى غفلت عما يهدد حياتى بالخطر، وكنيت أتضرع إلى الله بالدعاء طوال الليل، وعندما انبج الصبح أعادوا كل الجوارى اللاتى أخذوهن إلى السفينة مرة أخرى وسعد التجار بعودتهن، واسترد الجميع جواريهن وجئن كلهن ماعدا الأميرة، فسألت: «ألم تعد جاريتى ولما لم تعد؟». فأجابونى: «نحن لانعرف، ربما يكون الملك قد استحسناها، وأخذ الجميع يهدثون من روعى ويطمئنونى قائلين: «ماحدث قد حدث، فلا تبتأس وسوف ندفع لك جميعاً ثمنها قطاش صوابى وقلت: «لن أسافر إلى بلاد العجم، وقلت لبعض الرفاق: «أيهها الرفاق خذونى معكم وأنزلونى على الشاطئ، فقبلوا، وركبت قارباً بعدما نزلت من السفينة وكان الكلب معى.

وعندما وصلت إلى الميناء حملت صندوق الجواهر الذى أحضرته الأميرة معها فقط، أما باقى الأمتعة فأعطيتها لخدم رئيس التجار، وتجست فى كل مكان علنى أسمع أى نبأ عن الأميرة وذهبت ذات ليلة متخفياً إلى قصر الملك لكننى لم أعثر لها على أى أثر ولم أجد أى خبر، وبحثت عنها جوالى شهر فى كل صوب وحذب، وقد أشرفت على الهلاك بسبب هذا

الحزن، وكنت أطوف فى هيئة التجار، وأخيراً دار فى خلدى أنه لابد وأن تكون الأميرة فى بيت رئيس الميناء ولن تكون إلا هناك وكنت أطوف حول قصر رئيس الميناء لأجد أى وسيلة للدخول.

فرايت منفذاً ضيقاً يسمح بمرور شخص واحد، لكنه كان فى أوله سلك حديدى، فأردت أن أدخل من هذا الطريق، فخلعت ثيابى ونزلت فى طين نجس وتجشمت كثيراً من العناء حتى كسرت هذا الحديد، ودخلت عن طريق دورة المياه، وتمثلت فى هيئة امرأة وأخذت أنظر هنا وهناك وبلغ سمعى صوت من أحد الأركان، وأرهفت السمع، وكأن شخصاً يبتهل ويتضرع، فتقدمت فرايت الأميرة تبكى فى حالة يرثى لها وهى تفرط فى الابتهاال والتضرع وتدعو الله قائلة: «يا إلهى تقبل دعائى بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله الأشراف الأطهار أنقذنى من بلاد الكفر هذه، واجعلنى ألقى من دلتى على طريق الإسلام على خير، وحينما رأيته ذهبت إليها وسقطت على قدميها وعانقتنى وغبنا عن الرعى كلانا، وعندما أفقنا سألت الأميرة عن حالها فقالت: «حينما أخذ رئيس الميناء جميع الجوارى إلى الشاطئ سألت الله ألا يفشو سرى وألا يعرفنى أحد، ولا تنزل أى مصيبة بك، والله عز وجل ستار العيوب فلماذا لم يسأل شخص قط هل هذه الأميرة؟ وكان رئيس الميناء ينظر إلى جميع الجوارى كأنه يشتريهن، وحينما جاء دورى استحسنتى وأرسلنى إلى بيته سراً وعرض الأخريات على الملك.

وحينما لم يجدنى أبى بينهن سمح لهن بالانصراف، وكان قد فعل كل ذلك من أجل استردادى، وبعدها أذاع أن الأميرة مريضة جداً فإن لم أظهر فسيعلن نبأ موتى، حتى لا يلحق الخزى والعار بسمعة الملك، لكننى فى عذاب وشقاء لأن أمير الميناء يريد منى شيئاً آخر، إنه يطلب منى مطارحته الغرام، ولم أرض بذلك لكنه يلح كثيراً، ثم يلزم الصمت انتظاراً لموافقتى ولهذا فإننى مضطربة، فإلى متى تستمر هذه الحال؟ ولقد قررت الانتحار إن صمم على أن ينال غرضه منى، لكننى طالما وجدت لك فإننى لدى حيلة تساعدنى على التخلص من أمير الميناء إن شاء الله، وليس لنا حيلة غيرها، فقلت لها تفضلى ما الحيلة؟ وبدأت تقول: «إن بذلت الجهد فمن الممكن أن تجد تلك الحيلة، فقلت لها: «أنا طوع أمرك، فإن تأمرى؛ ألقى بنفسى فى النار، وأن أجد سلاًماً سعدت به إلى السماء من أجلك، مرينى فأنا ملك يمينك».

قالت الأميرة: «أذهب إلى معبد الصنم الأكبر وهناك ستجد موضعاً فيه سجادة سوداء، يخلع الناس عليها نعالهم، وعادة هذه البلاد أن من يكون فقيراً محتاجاً يجلس في هذا المكان، ويضع تلك السجادة على رأسه، وكل من يدخل المكان للزيارة يمنحه الإحسان والصدقة، كل حسب قدرته، وبعد مرور عدة أيام عندما يجمع الكثير من المال، يخلع عليه البرهمن الخلع والعطايا من المعبد، ويأذن له في الانصراف فيعود وقد أصاب ثروة كبيرة وغنم مالاً وفيراً، ولا يعلم أى شخص من هو، فإذهب أنت أيضاً إلى ذلك المكان وأفعل هذا وأخف وجهك جيداً ولا تتكلم مع أى شخص وعندما تأخذ المال وحينما يعطيك البرهمن الخلعة، بعد مرور ثلاثة أيام ويأذن لك في الانصراف لاتصرف، وعندما يلحون عليك في الانصراف قل لهم: «لا أحتاج إلى المال، لست طامعاً في مال، بل أنا مظلوم وجئت للشكوى، إلى أم البرهمن، فإن لم تتصفتنى، فسيتصفتنى الصنم الأكبر، ويقتصر لى من الظالم، وإن لم تأت لك أم البرهمن فلا ترض عن ذلك بديلاً، ففي النهاية ستضطر للحضور إليك، فهي عجوز لها من العمر مائتان وأربعون سنة، ولها ثلاثون ولداً وكلهم رؤساء المعبد، ولها منزلة رفيعة عند الصنم الأكبر، ولهذا فأمرها نافذ، يشعر الصغير والكبير بالسعادة البالغة حينما تقول له شيئاً ويمتثل الجميع لأمرها طائعين صاغرين، فخذ ذيل ثوبها وقل لها: «يا أمى!! لو لم تتصفتنى هذا المسافر المظلوم، فسأذهب إلى الصنم الكبير وأتشبث به حتى ينصفتنى، ففي النهاية سيشفع لى عندك».

وحينما تسألك أم البرهمن عن أحوالك فقل لها: «أنا من بلاد العجم جئت لزيارة الصنم الأكبر، وسمعت بعدلك فجئت إليك من مكان بعيد، وعشت هنا عدة أيام براحة وسكون، وكانت معى زوجتى وهى شابة جميلة فاتنة الملامح، ولأدرى كيف رآها أمير الميناء، فأخذها منى ليغتصبها قهراً وذهب بها إلى بيته، وفي شريعة المسلمين أن الذى ينظر إلى غير محرم أو يغتصبها يجب على المسلمين أن يقتلوه بأى وسيلة ويستردوها، وإلا فإنهم يضربون عن الطعام والشراب احتجاجاً على ذلك، وتصبح حراماً على زوجها طالما بقى المغتصب على قيد الحياة، وجئت إلى هنا مضطراً لأرى كيف ستصفتينى يا أم البرهمن؟ وحينما علمتنى الأميرة هذه الأشياء كلها خرجت من الماسورة، وعبرت الشبكة الحديدية ثانية».

ولما طلع الصبح ذهبت إلى المعبد، وتحدثت بتلك السجادة السوداء، وتجمع لدى مال كثير فى ثلاثة أيام أصبح كومة كبيرة وفى اليوم الرابع جاء البرهمن إلى تالين الأوراد والأدعية

حاملين خلعة ويدأوا يودعوننى فلم أقبل الانصراف، وقلت: «بحق الصنم الأكبر، إننى لست سائلاً بل جئت إلى أم البرهمن والصنم الكبير، طالباً الإنصاف وطالما لم يتحقق مطلبى، فإن أنصرف من هنا، وبعد أن سمعوا هذا توجهوا إلى تلك العجوز، وذكروا لها أحوالى، فجاء أحدهم لى وقال: الأم تطلبك لتتفضل، فذهبت إلى المعبد ملتحفاً بتلك السجادة السوداء، فرأيت عرشاً كبيراً مرصعاً بالياقوت واللآلئ والماس وعليه الصنم الأكبر، وهناك كرسى ذهبى عليه فرش كبير، وتجلس عليه عجوز متشحة بالسواد، متكئة على أريكة، وغلaman على يمينها وشمالها فى وقار وحشمة، ودعنتى أن أتقدم للأمام، فتقدمت بأدب واحترام وقبلت أعتاب العرش، وأخذت طرف ثوبها، فسألتنى عن أحوالى، فشرحت لها حالى كما علمتنى الأميرة فقالت: «هل يجعل المسلم امرأته فى حجاب حتى لا يراها أحد؟»، فقلت: «فليحفظ الله أولادك، نعم هذا هو شرعنا القديم»، فقالت: «مذهبكم جيد، الآن أنا أمر بأن يحضر أمير الميناء مع زوجتك، وألقنه درساً حتى لا يقترب هذا الإثم ثانية، ذلك النجس، ويأخذ الجميع عبرة»، وبدأت تسأل من حولها، من هو أمير الميناء؟ كيف يجرؤ ويغتصب امرأة غيره؟ فقال الناس هو فلان، فقالت للغلامين الجالسين عندها: «خذاه بسرعة إلى الملك وقولا له: تقول أم البرهمن: «هذا حكم الصنم الأكبر أن أمير الميناء يظلم الناس، فقد اغتصب امرأة هذا الأجنبى، وهو مذنب فى هذا، فسارع إلى أخذ التعويض من مال هذا الضال، أعطه لهذا المفضل لدى، وإلا ستهلك ليلاً، وسيحل بك غضبى».

فقام الغلامان من مكانهما وركبا وأحاط بهما جميع البراهمة، يتلون الأدعية والأناشيد ويعزفون.

فبالخلاصة كان الصغير والكبير يتبرك بالتراب الذى تطؤه قدما هذين الغلامين، ويكتحلون به، حتى وصلوا إلى قصر الملك فوصل الخبر إلى الملك فخرج لاستقبالهما حافى القدمين، وأجلسهما على العرش بكل تكريم واحترام بالقرب منه وسألهما: «لماذا تفضلتما وشرفتماني بقدمكما اليوم؟»، فحكى الغلامان ماسمعا من الأم وحذراه من غضب الصنم الكبير، فأمر الملك فور سماعه ذلك قائلاً: «حسناً، فليذهب المحصلون إلى الميناء، ويحضروا أمير الميناء مع تلك المرأة، وسأعاقبه على قدر ذنبه».

فخفت فى قلبى من هذا الأمر لأن الأميرة إذا حضرت مع أمير الميناء، فسيفتكشف الأمر وماذا ستكون العاقبة؟ فاضطربت كثيراً وتوجهت إلى الله بالدعاء، وتغير لون وجهى وبدأ

جسمى يرتعد خوفاً، وحينما رأى الغلامان شحوب وجهى أدركا أن هذا الحكم لا يرضينى فقاما غاضبين قائلين للملك: «أيها الرجل هل أنت مجنون حتى تخرج من طاعة الصنم الكبير؟ وما صدقت قولنا واعتبرته كذباً وتريد التحقيق؟ احذر، فأنت فى غضب الصنم الكبير، قد أبلغناك الأمر والآن أمرك موكول إلى الصنم الكبير» .

وبعد هذا تغير حال الملك، فوقف عاقداً يديه واهتز من رأسه إلى أخمص قدميه وطلب العفو منهما لكنهما لم يجلسا، وبقيا واقفين، وفى تلك الأثناء بدأ الأمراء جميعاً يقولون: «إن أمير الميناء رجل سيئ الخلق آثم بطبعه ويأتى بأفعال شنيعة، فماذا نقول وماذا نحكى للملك؟ كل ما قالته أم البرهمن حق، إذ كيف يكون حكم الصنم الكبير كاذباً؟»، وحينما سمع الملك من الجميع نفس الكلام ندم على قوله، فأعطانى خلة فاخرة على الفور ومنحنى وثيقة مختومة بخاتمة وكتب خطاباً آخر إلى أم البرهمن وقدم للغلامين الجواهر والدنانير وودعهما، فرجعت إلى المعبد فى فرح وسرور وذهبت إلى تلك العجوز، وكان مكتوباً على خطاب الملك بعد الألقاب والتحية: «تقرر أن يكون أمير الميناء خادماً لهذا المسلم، ويعطى هذا المسلم خلة والآن هو مخير فى قتله، وجميع أمواله وأملاكه لهذا العجمى يفعل بها ما يشاء وأرجو العفو عن تقصيرى وذنبى» .

فقال أم البرهمن مسرورة: «فليعزف العازفون نشيد المعبد، وليقذف خمسمائة من رماة الجيش بالألعاب النارية، وأرسلت معى جنوداً مسلحين وأمرتهم: «اذهبوا إلى الميناء وفيدوا الأمير وسلموه إلى هذا المسلم كى يعذبه كما يشاء، واحذروا أن يدخل القصر أحد سواء، واعطوه أمواله وأملاكه، فإن ردها له برضاه فأحضروا لى منه وثيقة بذلك، وأعطتنى صنماً من المعبد وأركبتنى وودعتنى، وحينما وصلت إلى الميناء كان قد تقدم أحدهم وأخبر أمير الميناء، فجلس متحيراً حتى وصلت، وكنت ممثلاً بالغضب، فما أن رأيته حتى ضربت عنقه بسيفى ففصلته عن جسده، وأمرت بالقبض على أمين الصندوق والحاكم والضباط واستوليت على الدفاتر، ودخلت القصر فقابلت الأميرة وعانقتها وبكىنا وحمدنا الله وكفكت دموعها ودموعى ثم جلسنا على العرش وأنعمنا بالعطايا على كل من يستحقها وعيناها فى الوظائف ورفعنا من شأن الخدم والعبيد، ومنحنا الجوائز والهدايا لمن جاء معى من عند أم البرهمن، وودعنا الرسل ومنحناهم الهبات، وأخذنا الأموال والجواهر الثمينة والأثواب الحريرية القيمة ذات الألوان الجميلة الموشاة بالذهب والتحف والنفائس التى أحضرت من كل الممالك

لنقدمها للملك والأمراء والأكابر كل وفق منزلته، ولزوجات الكهنة، وذهبنا بكل هذا بعد أسبوع إلى المعبد وقدمناها للأم قرباناً وأضحية فأعطتني خلعة للرفعة ومنحتني لقباً، ثم ذهبنا بتلك الأشياء إلى الملك وقدمتها إليه وطلبت منه أن يوقف الظلم الذي قام به أمير الميناء لهذا رضى عنى الملك والأمراء والتجار ومنحونى خلعة وفساً كما أقطعونى إقطاعاً وأعلوا من شأنى.

وحينما خرجت من عند الملك، منحت الهبات لحاشيته حتى بدأوا يلهجون بالثناء علىّ. خلاصة القول أننى بدأت أعيش فى بحبوحة ورغد من العيش بعد زواجى من الأميرة، وكنت أعبد الله ويسبب عدلى وإنصافى كانت الرعية تعيش فى أمان واستقرار ورضاء بى وكنت أذهب مرة واحدة فى الشهر إلى المعبد وإلى الملك، وكان الملك يجزل لى العطاء مرة بعد مرة.

أخيراً اتخذنى خليلاً وكان لا يقوم بأى أمر إلا بعد مشورتى، وبدأت أفضى الأيام دون فكر وهم، والحقيقة يعلمها الله أننى دائماً كنت أفكر فى أخوى، أين هما؟ وكيف حالهما؟ وبعد عامين جاءت إلى الميناء قافلة تجار من بلاد «زيرباد»، كانوا مسافرين إلى بلاد العجم، وأرادوا أن يعودوا إلى بلادهم عن طريق البحر، وكانت تقاليد تلك البلاد أنه إذا أتت قافلة، أن يقدم قائدها التحف والنفائس إلىّ، وأذهب أنا إليه فى اليوم التالى وأحصل منه الضرائب والهدايا وفى اليوم التالى ذهبت إلى خيمتهم فرأيت شخصين يأتیان حاملين صرر الملابس وكانا يعرضان علىّ ما يحملانه، ثم يعودان به مرة ثانية وهكذا.... وكانا يتجشمان كثيراً من العناء والمشقة فى هذا.

وحينما أمعنت النظر، وجدت أنهما أخواى، فأبت على غيرتى وحميتى أن أراهما يخدمان هكذا، وحينما ذهبت إلى منزلى قلت لهؤلاء الناس: أحضروا هذين الرجلين، وعندما أحضروهما ألبستهما لباساً فاخراً، واستصفتهما عندى وذات ليلة دبر هذان الخائنان قتلى وعندما انتصف الليل، وأدركا غفلة الناس زحفا كالنمل إلى حيث أكون، وكنت قد عينت الحراس على بابى خوفاً على حياتى من غدرهما، وهذا الكلب الوفى كان ينام عند سريرى وما أن استلا سيفهما، حتى أخذ الكلب ينبج نباحاً شديداً، استيقظ الجميع على صوت نباحه،

وتنبهت أنا أيضاً من نومى، وعندئذ قبض الحراس عليهما، وعرف الجميع أنهما أخواى، فبدأوا يلعنونهما قائلين: أيقعلان هذا بعد إكرامهما!!

يا جلالة الملك، لقد خفت على حياتى وعلى حد قول المثل المشهور: خطأ وإثتان وصفح أما الثالث فلا عفو فقررت أن أقبض عليهما، لكننى إن حبستهما فى السجن فمن يرعاهما؟ فسيموتان جوعاً وعطشاً وربما يأتيان بحيلة أخرى.

لهذا وضعتهما فى قفص ليكونا دائماً تحت رعايتى، واطمئن من جانبهما، واحتاط من أن يكدى إلى مرة أخرى إن غابا عن ناظرى، وأكرمت الكلب لأنه وفى مخلص سبحانه الله الإنسان هو الخائن السيئ، والحيوان هو الوفى هذه هى قصتى، قصصتها عليك، والآن الأمر لك، تقتلى أو تحفظ على حياتى.

ففرحت وسررت بهذا الشاب المؤمن وقتلت له: لا شك أنك لست مقصراً فى المروءة وهما ليسا مقصرين فى الخسة والدناءة وفى الحقيقة: إن ذيل الكلب لو يدفن فى الأرض اثنتى عشرة سنة لا يستقيم ثم سألته عن حقيقة اليواقيت الاثنتى عشرة المعلقة فى رقبة الكلب؟ فقال السيد: أطال الله عمر مولانا الملك مائة وعشرين سنة، فى ذلك الميناء الذى كنت أحكم فيه، سعدت ذات يوم لأعلى القصر لأتمتع بمشاهد البحر والصحراء كنت أطيل النظر هنا وهناك، إذ بى أرى شبحين كأنهما شخصان يسيران فى الغابة ولم يكن بها طريق للمرور، فشاهدت عن طريق المنظار المكبر شخصين فى هيئة غريبة، فأرسلت الخدم ليدعوهما وحينما أقبلتا علىّ، وجدت أن أحدهما امرأة والآخر رجل، فبعثت بالمرأة إلى داخل القصر عند الأميرة، وأحضرت الرجل أمامى فوجدته شاباً فى العشرين أو الثانية والعشرين من عمره ويبدو أن شاربه قد نبت حديثاً بعض الشيء، ويسبب حرارة الشمس صار لون وجهه أسود كالمرجل وطال شعره وأظافره أيضاً كأنه يعيش فى الغابة وعلى كاهله طفل فى الرابعة أو الخامسة من عمره وكان هذا الرجل يعلق فى عنقه جرابين مملوءين، وكان شكله وهيئته فى غاية العجب، فسألته وأنا فى شدة الحيرة: أيها العزيز، من أنت وما بلادك وما تلك الهيئة التى تبدو عليها؟ فبدأ الشاب يبكى رغماً عنه وفتح كيس النقود ووضع أمامه وقال: إنه الجوع، أعطنى شيئاً لوجه الله، فأنا آكل الكلاً منذ مدة طويلة وكذلك أوراق الشجر، حتى خارت قواى فأحضرت له على الفور الشواء والخبز والشراب، فبدأ يأكل، وأثناء ذلك أحضر مسئول القصر العديد من أكياس النقود والذهب التى أحضرها ذلك الشاب معه، ففتحت

الأكياس كلها فرأيت الجواهر من كل الأنواع وكل حبة منها تساوى خراج السلطنة، وكل واحدة أفضل من الأخرى، وتعطر المكان بعد فتحها، ولما أكل وشرب وتنفس الصعداء واسترد قواه سأله: من أين أحضرت تلك الجواهر؟ قال: أنا من ولاية آذربيجان وكنت قد تجشمت كثيراً من المتاعب والمشاكل فى الطفولة بعد تركى أهلى ووطنى وعشت مدفوناً حياً لمدة طويلة، ونجوت بأعجوبة من برائن ملك الموت أكثر من مرة.

فقلت: أيها الرجل فصل القول لأعرف، فبدأ يحكى قصته: كان أبى تاجراً، وكان يسافر إلى الهند والروم والصين والخطا والإفرنج وحينما بلغت العاشرة من عمرى، أراد أبى أن يسافر إلى بلاد الهند وأن يأخذنى معه، فأصرت أُمى وخالتى وعمتى وزوجة خالى على أننى صغير ولا أستطيع تحمل وعناء السفر، لكن أبى رفض قائلاً: إننى أصبحت كهلاً، ولو لم يترعرع ولدى أمامى، فستصحبنى الحسرة فى قبرى، الآن هو طفل، وإن لم يتعلم الآن فمتى يتعلم؟

وبعد هذا أخذنى وغادر البلاد وقطعنا الطريق بخير وعافية وعندما وصلنا إلى الهند، بعنا شيئاً من السلع واشترينا الهدايا والتحف ثم سافر إلى بلاد زيرباد، وأنهينا هذا السفر على خير ما يرام واشترينا وبعنا هناك أيضاً، وركبنا السفينة نعود إلى وطننا، وبعد شهر بدأت العواصف تهب وثار الطوفان وهطل المطر مدراراً، وأصبحت الأرض والسماء كلها كالدخان، وانكسر شراع السفينة، وبدأ الريان يضرب رأسه فزعاً واستمرت الحال هكذا عشرة أيام، وكان الموج يعذف بالسفينة هنا وهناك، وفى اليوم الحادى عشر اصطدمت السفينة بجبل وتحطمت، ولم أدر أين ذهب أبى ولا الخدم والاعلمان؟

وجدت نفسى ممدداً فوق لوح خشبى، وكنت أسبح متعلقاً باللوح الخشبى طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال واللوح يتحرك تلقائياً، وفى اليوم الرابع وصل اللوح إلى الشاطئ ولم يبق فى إلا الروح، فنزلت عن ذلك اللوح وحبوت حتى وصلت إلى الأرض بصعوبة، ورأيت الزراعة على بعد وقد اجتمع كثير من الناس هناك، وكانوا جميعاً ذوى بشرة سوداء، عراة الأبدان كما ولدتهم أمهاتهم، وتحدثوا معى ولكننى عجزت عن فهم لغتهم، وكانت الزراعة هناك هى الحمص، وكانوا يجمعونه قبل الحصاد، ويشوونه ويأكلونه، ورأيت العديد من المنازل وكان أهلها يأكلون هذا الطعام ويعيشون عليه، فدعونى للطعام فاقتلعت الحمص من الأرض وشويته وأكلته وشربت قليلاً من الماء وانتحييت جانباً ونمت.

عد وقت استيقظت فجاءنى أحدهم ودلنى على الطريق كى أنصرف، فاقتلعت الحمص ومشيت وكان الميدان من الطول بحيث يبدو وكأنه صحراء القيامة وكنت أسير وأكل هذا الحمص الذى اقتلعت من الأرض، وبعد عدة أيام رأيت قلعة فاقتربت منها فوجدتها عالية مبنية بالحجر وكانت تمتد من جميع النواحي إلى أربعة كيلو مترات بابها منحوت من حجر واحد وعليه قفل كبير، لكننى ما وجدت بها أثراً للإنسان، فتجاوزتها فرأيت تلا وكان لون ترابه كلون الكحل فتجاوزته أيضاً، فرأيت مدينة كبيرة محاطة بسور وفيها أبراج متجاورة وبجوار المدينة بحر خضم، فتقدمت إلى البوابة وسميت باسم الله ودخلت، فوجدت داخل البوابة شخصاً لابساً زياً أفرنجياً جالساً على مقعد، وحينما رأتى وسمعتنى أقول باسم الله دعائى قائلاً: أقبل فحييته فرد تحيتى بأحسن منها، وأحضر لى على الفور رغيفاً أفرنجياً وقدم لى الشراب والشواء من لحم الدجاج وقال لى: تفضل وكل حتى تشبع هنيئاً مريئاً، فتناولت شيئاً من الشواء والشراب ونمت ملاء جفونى، وحينما أرخى الليل سدوله استيقظت فاغتسلت بالماء ثم اطعمنى وقال لى: يا بنى احك لى ما مر بك من أحداث فقصصت عليه كل ما لاقيته من مصائب وعناء فقال لى: لماذا جئت إلى هنا؟ فأجبته رغماً عنى: لعلك مجنون، لقد بلغت تلك المدينة بعد كثير من المشاق والمصائب، وأوصلنى الله عز وجل إلى هنا، وأنت تسألنى هذا السؤال؟ فقال لى: استرح الآن، أما فى الغد فسأقول لك ما أريد.

وحينما أصبح الصبح قال لى: احضر غربالاً وفأساً وكيساً جليداً فقلت فى نفسى: الله أعلم إن هذا الرجل قد أطعمنى ويريد منى أن أعمل لديه نظير ذلك، فأحضرت كل ما طلبه منى رغم أنفى، فقال لى: اذهب إلى هذا التل واحفر حفرة عمقها حوالى متر، وكل ما يخرج منها تغريله، وما يخرج منه ضعه فى الكيس وأحضره لى، فذهبت إلى هناك وقمت بما أمرنى وما تبقى من الغريلة كان جواهر وآلئى ثمينة ومتنوعة خطفت بصرى وبهرتنى، وأحضرت إليه الكيس مملوءاً حتى حافته فرآه ثم قال: خذ ما فيه وأنصرف من هنا، فليس من الخير بقاؤك فى هذه المدينة فأجبته: يا سيدى لعلك أكرمتنى بهذا، ماذا أصنع بتلك الآلئى والجواهر، إذ جعت هل أكلها؟ وإن أعطيتنى أكثر من ذلك فماذا يجدينى؟ فابتسم قائلاً: إننى أرثى لحالك فأنت أعجمى، ولا أستطيع أن أدخلك المدينة، فإن أردت الدخول فأنت وشأنك، ولكن خذ خاتمى معك وحينما تبلغ منتصف المدينة ستجد شخصاً ذا لحية

بيضاء جالسا وشكله يشبه شكلى فهو أخى الأكبر، فأعطه هذا الخاتم وسيرعاك وعليك بالامثال لنصحة، وإلا ستقتل هباء، فسلطتى تنتهى عند هذا الحد وليس لى دخل بالمدينة.

فأخذت منه ذلك الخاتم وسلمت عليه وانصرفت إلى المدينة وكانت غاية فى الجمال والنظافة وكان الرجال والنساء يختلطون ببعضهم فى الأسواق دون حجاب، والجميع فى لباس جيد، كنت أمشى وأشاهد ما حولى، وعندما بلغت ميدانا وسط المدينة وجدت ازدحاما شديداً لدرجة أننى لو قذفت طبقاً لنزل على الرؤوس ولم يبلغ الأرض، وكان من الصعوبة السير فى هذا المكان، ولما خف الزحام تقدمت إلى هذا الموضع مفسحاً لنفسى الطريق بجسدى فرأيت ذلك الشخص جالسا على أريكة، فقدمت إليه التحية وذلك الخاتم فرمقنى بغضب قائلاً: لماذا جئت إلى هنا وألقيت بنفسك فى التهلكة؟ ألم يمنعك أخى الأحق؟

فقلت له: لقد منعنى فعلاً لكننى لم أستجب، وحكىته له قصتى من البداية إلى النهاية، فقام وأخذنى إلى بيته، وكان بيته مثل بيوت الملوك وله كثير من الخدم، وحينما جلس فى الخلة قال لى معاتباً: يا بنى لم أقدمت على هذه حماقة حتى صرت على حافة القبر؟ فكل من يأتى هنا يكون تأساً قليل الحظ فقلت: لقد أخبرتك بأحوالى من قبل وجاء بى حظى إلى هنا، لكن إن تكرمت خبرنى بأعراف تلك البلاد لأعرف سبب منعكم لى من الدخول؟

فقال الرجل: إن ملك هذه المدينة ورئيسها كلهم مكروهون ومذهبههم ومعاملتهم غريبة وفى هذه المدينة يوجد معبد فيه صنم يتكلم من بطنه شيطان، وينبئ عن اسم ونسب وأصل ودين كل من يأتى إلى هنا، وحينما يأتى مسافر غريب وأجنبى يبلغ نبأ وصوله إلى الملك، فيأخذه إلى المعبد ويسجده أمام الصنم، فإن سجد فحسناً وإلا أمر بإلقائه فى البحر، وإن أراد أن ينجو من ذلك البحر فهناك أشخاص يجرونه على الأرض، فهذا عرف هذه المدينة، وأنا أشفق على شبابك، لكننى سأدبر لك حيلة لتعيش وتنجو من العذاب.

فسألته وما الحيلة قال: سأزوجك بنت الوزير فقلت له: كيف يعطى الوزير ابنته لهذا المفلس، إلا إذا كنت ساقبل دينه؟ وهذا ما لا أستطيع أن أفعله. قال: من عادة هذه المدينة أنه إذا سجد أى شخص للصنم وهو فقير ويطلب بنت الملك، فيعطيه الملك ابنته ليشمله الفرح والسرور، ولى أيضاً مكانة عند الملك وهو يرفع شأنى ولهذا فإن جميع الوزراء وكبار الدولة يقدروننى ويوقروننى ونحن نذهب مرتين كل أسبوع إلى المعبد ونعبد الصنم، وغداً سيجمع الجميع وسأخذك معى.

وبعد ذلك أطعمنى وسقانى ثم استسلمت للنوم، وحينما طلع النهار، أخذنى إلى المعبد، فرأيت الناس يأتون ويؤدون طقوس العبادة، بينما يجلس الملك والأمير فى حضرة البرهمن عارى الرأس بأدب واحترام وكان الغلمان والفتيان والبنات العذراوات فى جمال الحور يلتقون حوله، فخاطبنى الرجل قائلاً: قم بما أمرك به، فقلت: سمعاً وطاعاً قال: أولاً قبل قدمى الملك ثم خذ بطرف ثوب الأمير ففعلت هذا فسأل الملك: من هذا، وماذا يقول؟ فأجاب الرجل: هذا الشاب من أقاربى جاء من بعيد يقبل قدمى الملك، راجياً أن يجعله الوزير فى خدمته ويرفع من شأنه، لو أذن الصنم الكبير وشاء الملك، فقال الملك: لو يقبل مذهبى ودينى وعرفى، فمبارك عليه، وبعد فترة وجيزة بدأ العزف والإنشاد فى المعبد وألبسنى خلعة فاخرة، ووضعوا حول عنقى قيوداً سوداء وجردونى أمام الصنم، وجعلونى - أسجد أمامه، وأنبعت صوت من الصنم يقول: يا ابن السيد، حسناً أنت جئت فى سبيل عبادى، والآن تطمع فى رحمتى ورضائى ثم سجد الجميع وأخذوا يتمرغون على الأرض وقالوا: هدياً لك، ستكون صاحب عزة وجاه.

وتمت مراسم الزواج، وقدمنا لى بنت الوزير، ومعها الكثير من الأشياء الثمينة على سبيل الهدايا، وقال لى: طبقاً لأوامر الصنم الكبير، زوجناك هذه العروس. واسكنونا فى مكان واحد، وحينما رأيت هذه العروس، وجدتها فى جمال بنات الحور، مليحة الوجه صحيحة البدن مشوقة القوام، وكل ما نسمع عن جمال بنات الحور حسنهن كان موجوداً لديها بوفرة، فتمتعت بها، واغتسلت صباحاً ثم ذهبت إلى الملك، فخلع على الملك خلعة الصهر، وأمرنى بالحضور كل يوم، وأخيراً بعد عدة أيام صرت من المقربين إلى الملك وأصفيائه.

وكان الملك سعيداً بوجودى ويغدق على بالنعم والعطايا رغم زهدى فى متاع الدنيا، لأن قبيلتى لديها من الأموال ما لا يدخل تحت حصر وعد، وقضينا عامين فى رغد وهناء. وحدث أن حملت ابنة الوزير، ومرت الشهور حتى جاءها المخاض وحضرت القابلة واستقبلت المولود وبعدها مرضت ابنة الوزير وماتت، فأصببت بالجنون حزناً عليها، فأى مصيبة قد حلت بنا، وكنت أبكى عند رأسها وارتفع صوت نحيبى وبكائى فى جنبات القصر، وأقبلت النسوة من كل مكان، وكل من تأتى تخط على رأسى وتقف أمامى وتبكي وتنوح، وكادت روحى تخرج من بدنى.

وأثناء ذلك جذبنى شخص من الخلف فالتفت فوجدته ذلك العجى الذى زوجنى وقال لى: أيتها الأحمق لماذا تبكى؟ فقلت: وأيتها الظالم!! كيف تقول لى هذا الكلام؟ ضاع ملكى وفقدت راحة بيتى، ثم تقول لى لماذا أنت حزين؟ فقال ذلك العزيز مبتسماً إنك تبكى لأجل موتك، لقد قلت لك سابقاً، لعل أهلك قد أتى بك إلى هذه المدينة، وقد حدث، وليس لك سبيل إلا الموت، وأخيراً أخذنى الناس إلى المعبد، فوجدت الملك والأمراء وستة وثلاثين من الرعية مجتمعين هناك، وقد جمعوا كل أموال وأملاك ابنة الوزير وكل من يريد شيئاً يأخذه ويدفع ثمنه.

الخلاصة أن ثمن كل المتاع أصبح نقداً، واشترت جواهر بتلك الأموال، وأغلق عليها الصندوق، ووضع فى صندوق آخر الخبز والحلوى والشواء ولحم وفاكهة طازجة وجافة ومأكولات أخرى، ووضع جثمان السيد فى صندوق وحمل الصندوق على ستم الجم، وأركبوني ووضعوا صندوق الجواهر تحت إيطى، وشرع سدة المعبد فى تلاوة الأذكار ونفخ النغير وسار خلفنا خلق كثير يرددون: «مبارك مبارك»، وخرجنا على هذا النحو من بوابة المدينة التى دخلت منها من قبل وما أن رأنى حارس البوابة، حتى أخذ يبكى ويقول: أيتها التمس الذى أخذه الموت إنك لم تستمع إلى نصحى من البداية وأهلك نفسك هباء، وأنا لم أقصر فى منعك، قال الرجل هذا وأنا فى غاية الحيرة والدهشة، وسمح لى الحارس أن أجيبه، فأجبت قائلاً: لكننى كنت أريد أن أعرف كيف ستكون نهايتى؟

وأخيراً أوصولنى إلى تلك القلعة التى رأيت بابها مغلقاً قبل ذلك، وفتح قفلها حشد كبير من الناس، وأخذوا الصندوق والتابوت وأدخلوهما، واقترب منى البرهمى ووعظنى قائلاً: الإنسان يولد يوماً، ويموت يوماً، وهذا هو دستور الحياة، وهذا هو عيب الدنيا، وهذه هى زوجتك، وهذا هو المال والطعام يكفى لأربعين يوماً، خذها وامكث هنا حتى يشفق عليك الصنم الأكبر فتملكنى الغضب وأردت أن ألعن ذلك الصنم الأكبر، وسكان تلك المدينة وعرفها وأن اضرب ذلك البرهمى، ولكن ذلك العجى حال دون ذلك بلسانه قائلاً: إيانك وأن تقول شيئاً، فإن تقل شيئاً سيحرقونك الآن، على كل حال كل شىء بقضاء وقدر، ولا تقط من رحمة الله لعل الله يخرجك من هنا حياً.

أخيراً ذهب الجميع وتركونى وحيداً وأغلقوا الباب مرة ثانية، وعندئذ بكيت رغماً عنى بسبب قلة حيلتى ووحدى، وانهلت على جثة زوجتى ضرباً بالأقدام قائلاً: أيتها الميتة، لماذا

تزوجتني فقد كان عليك أن تعيش طالما تزوجتني، ولماذا ولدت؟ وبعد ما ضربتها جلست صامتا، وأثناء ذلك ارتفعت الشمس في كبد السماء واشتد قيظها، وكادت روجي تخرج من رائحة العفن، حيث كنت أرى عظام رفاة الموتى في كل الأنحاء وكذلك صناديق المجوهرات فوضعت فوق صندوقها صندوقاً وتحت صندوقاً لأحميه من الشمس نهارة ومن الندى ليلا، وبحثت عن ماء فرأيت في أحد الأركان صنوبراً من الحجر منحوتاً في جدار القلعة، وقصّيت عدة أيام بفضل هذا الماء والشراب.

وفي النهاية نفذ الماء فخفت وتضرعت إلى الله وهو كريم، فأجابني إلى دعائي، وفتح الباب وجاءوا بميت وكان معه رجل كهل وتركوه أيضاً فجال في خاطري أن أقتله وأخذ صندوق طعامه، فأخذت عصا من الصندوق ووجدته جالساً واضعاً رأسه بين ركبتيه حائراً فضربت على رأسه من الخلف حتى خرج لسانه من فمه ومات على الفور، وأخذت صندوق طعامه وأكلته، وظللت مدة طويلة أقتل من يأتي وأكل طعامه براحة.

وبعد مدة طويلة جاءت فتاة مع تابوت، وكانت حسنة فأردت أن أقتلها أيضاً فرأيتني، وفقدت وعيها خوفاً، فأخذت صندوق طعامها أيضاً، لكنني لم أكن أتناوله بمفردي بل كنت عندما أشعر بالجوع أذهب إليها وأأكل معاً، وحينما رأت الفتاة أنني لا أؤذيها بدأ خوفها مني يزول يوماً بعد يوم وأخذت تقترب لي وتأتيني حيث أكون وذات يوم سألتها عن أحوالها قائلاً: من أنت؟ أجابت: أنا بنت وكيل الملك كنت مخطوبة لابن عمي، وليلة عرسى أصابه المرض وأخذ يتلوى من الألم وفي النهاية فاضت روحه، فجاءوا بي معه وتركوني هنا.

ثم سألتني عن أحوالي فقصصت عليها كل ما قد مر بي، ثم قلت: أرسلك الله لي فسكنت مبتسمة.

وهكذا توطدت علاقتنا وازداد حبنا في خلال عدة أيام، فعلمتها أركان الإسلام ولقنتها الشهادة، ثم عاشرتها فحملت وأنجبت ولداً، ومضت ثلاث سنوات على تلك الحال، وعندما فطم الطفل عن الرضاع قلت لزوجتي: إلى متى نظل هنا؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟ قالت: لو شاء الله فسنخرج وإلا سنموت هنا هكذا؟ فأصابني الغم من قولها ومكوثنا في هذا المكان، وبكيت ثم نمت، ورأيت في المنام أن شخصاً يقول لي: إن كنت تريد أن تخرج من هنا، فلتخرج مع مجرى الماء. فنهضت فرحاً من هذه المفاجأة وقلت لزوجتي: اجمعي كل

ما تجدينه فى الصناديق من أسياخ وحديد، وبدأت أوسع مجرى الماء بأن أضرب بالحديد على فتحته بالمطرقة، وظللت أعمل وأتعب فأسترح وأعمل ثانية وهكذا حتى مر عام كامل، فأصبحت فتحة المجرى تسمح بمرور شخص منها.

وبعد ذلك حملنا ما نستطيع من الجواهر الثمينة وخرجنا من ذلك الطريق فشكرت الله عز وجل، وحملت طفلى على كتفى، وبعد شهر تركنا الطريق العام خوفاً، وسلكنا طريق الجبال والغابات، وكنا عندما نشعر بالجوع، نأكل العشب والكلى، ولم يكن لى طاقة على الكلام هذه هى قصتى وقد سمعتها.

سلمك الله أيها الملك، فأشفت عليه ويعنت به ليغتسل وأنعمت عليه بلباس فاخر، وجعلته فى خدمتى.

وأنجبت الأميرة لى عدة أطفال لكنهم ماتوا فى الصغر إذ مات أكبرهم فى الخامسة من عمره، وماتت الأميرة حزناً عليه، وقد حزنت عليها كثيراً، وبدأت الوحدة تنهشنى بدونها، فأردت السفر إلى بلاد العجم، فالتفتت من الملك أن يكون هذا الشاب خادماً له، ومات الملك أيضاً فى تلك الفترة فأخذت ذلك الكلب الوفى والمال كله والجواهر إلى «نيسابور» لكى لا يعرف أحد أحوال أخوى، واشتهرت وعرفت بالسيد عابد الكلب،، وبسبب سوء السمعة هذا أدفع محصولاً مضاعفاً لحكومة إيران.

وحدث أن ذهب ابن التاجر إلى هناك، فشرفت بلقاء الملك بسببه، فسألته: أليس هذا ولدك؟ فأجاب السيد: ياملاذ العالم ليس هذا ابنى فهو من رعيك لكن تستطيع أن تقول الآن أنه مالكى ووارثى، وبعد ذلك سألت ابن التاجر: ابن أى تاجر أنت؟ وأين يسكن أبوك وأمك؟ فقبل الولد الأرض وطلب الأمان على حياته وقال: إن ابن التاجر ليس إلا بنت وزير سموك، وقد سجن والدى ظلماً بسبب هذا السيد، وقد صدر الأمر الملكى بأنه لو لم يثبت صدق قوله عن هذا السيد فليقتل، وبعد أن سمعت هذا الحكم بدلت هيتى وذهبت إلى «نيسابور» وبفضل الله أحضرت السيد مع كلبه واليواقيت فى خدمة سموك، والآن لقد سمعت جلاتك بكل ما حدث، فألتمس من سموك أن تطلق سراح أبى المسن.

وما أن سمع السيد قول بنت الوزير حتى تأوه وخر مغشياً عليه، فنثروا عليه ماء الورد حتى استرد وعيه وقال: وأأسفاه جئت متحملاً كل تلك المشاق والمصاعب أملاً فى أن اتبنى

ابن التاجر واكتب له وثيقة ليورث كل متاعى وأموالى ليبقى اسمى، ويدعوه الناس بابن التاجر، لكن خاب أملى والأمر أصبح معكوساً، والمرأة خدعت رجلاً مسناً، وأنا وقعت فى قفص مكرها وخداعها، وصرت جديراً بهذا القول: لم يعد يذهب إلى بيت أو إلى معبد وذاع صيته وساءت سمعته (١٢).

خلاصة القول أننى أشققت عليه لاضطرابه ونحيبه وعويله، فاستدعيته بالقرب منى، ويشترقه فى أذنه وقلت: لا تحزن، سأزوجك إياها، ولو شاء الله سيكون لك أولاد منها، وتكون هى ملكتك فاطمأن وهذا بعد أن سمع هذه البشرى، ثم قلت: خذوا بنت الوزير إلى القصر، وأخرجوا الوزير من المعبد وألبسوه لباس الإعزاز وأحضروه أمامى بسرعة وحينما جاء الوزير استقبلته استقبلاً حاراً وعانقته باعتباره أكبر منى، ووليته الوزارة من جديد ومنحت السيد أيضاً منصباً رفيعاً وزوجته بنت الوزير فى ساعة مباركة.

وخلال عدة سنوات ولد للسيد ولدان وبنت، وأصبح الابن الأكبر شاهبندر التجار والأصغر وكيلاً لأملاكى.

أيها الدراويش: لقد نقلت أمامكم قصتى لأننى سمعت فى الليلة الماضية قصة الدراويشين وبقيت قصتكما، فاعتبروني خادكم وهذا البيت بينكم، وامكثوا عندى، وقصا على قصتكما.

ولما رأى الدراويش من الملك عطفاً ووداً بدأوا يقولون: نحن نقص عليك قصتنا لأنك أحببتنا.

جلس الدراويش الثالث القرفصاء وبدأ يحكى قصته:

- اسمعوا أيها الأصدقاء ما حدث لهذا الفقير

أعنى اسمعوا قصة ما جرى لى وما مربى

- وكيف كان مسلك ملك العشق نحوى؟

فسوف أبينه بالتفصيل؛ فأسمعوه

هذا الحقيير ابن ملك من بلاد العجم، فقد كان أبى ملكاً هناك، ولم يكن له ولد غيرى، وكنت فى شبابى ألعب مع أترابى الألعاب المختلفة كالورق والشطرنج والنرد، أو نركب الخيل ونخرج للصيد والنزهة.

و ذات يوم أعددت الركائب وأخذت جميع الأصدقاء وخرجت إلى الميدان ، وأطلقت الصقور والنسور خلف الطيور، وتتبعهم إلى بعد، وشاهدت هناك مكاناً وطقساً بديعاً وكأنه الربيع، وكل مكان كنت أنظر إليه وكنت أرى على مرمى البصر المروج الخضراء والأزهار الياضعة، وما أن رأيت هذا المنظر حتى ترجلت عن جوادى، ورحت أسير راجلاً، وإذا بى أرى غزالا عليه سرج مرصع بالدر والجوهر، وفي عنقه قلادة ذات أجراس مصنوعة من الذهب الخالص وكان يرمى ويمرح فى طمأنينة فى تلك الساحة التى لا يقدر على دخولها إنسان أو أن يحلق فوقها طير، وحينما سمع وقع حوافر جوادى انتبه وشخص ببصره، وبدأ يمشى على مهل، وحينما رأيته اشتقت أن أقول لأصدقائى امكثوا هنا، وأنا اصطاده حياً، واحذروا ولا تتقدموا خطوة واحدة من هنا وتتبعونى، وكان جوادى الذى أركبه متمسكاً فى صيد الظباء والغزلان، فحثثته على اللحاق به لأناله وحينما أبصر جوادى الغزال أسرع الخطى وكأنه يسابق الريح لكنه لم يصل إلى غبار أقدام الغزال وتصيب الفرس عرقاً، وتحجر لسانى فى حلقى لشدة العطش، لكن لم نتمكن منه، وحل المساء دون أن أشعر من أين جئت وإلى أين وصلت؟ وحينما يئست منه تركته حتى غفل عني ثم تناولت سهماً من الكنانة ورميته بالفوس قائلاً: الله أكبر فأصاب السهم رجله، فمشى مترنحاً إلى الجبل، فترجلت عن الفرس وسرت خلفه راجلاً، فوجدته متوجها ناحية تل، وكنت أفتفى أثره، وبعد الهبوط والصعود عدة مرات رأيت قبة وحينما اقتربت منها رأيت حديقة وعين ماء وكان الغزال قد غاب عن ناظرى، وكان التعب قد نال منى، فبدأت أغسل قدمى ويدي.

وفجأة سمعت صوت بكاء ينبعث من داخل القبة، وسمعت صوت شخص يقول: يا بنى!! فليصب سهم آلامى من رماك بالسهم، ولا يهناً بشبابه، وليجعله الله يائساً مثلى. ويعدما سمعت ذلك ذهبت إليه فرأيت شيخاً ذا شعر أبيض فى لباس حسن جالساً على مسند، والظبي ممدد أمامه وهو يخرج السهم من رجله ويدعو على من رماه به.

فسلمت عليه وعقدت يدي قائلاً: حفظك الله، هذا الخطأ الذى أصاب هذا الغلام قد قدر منى دون قصد، فاعف عني لوجه الله، فقال الشيخ: إنك جرحت أعجمياً، فإن صدر هذا منك دون قصد، فقد عفا الله عنك فجلست إلى جواره وشارحته فى إخراج السهم، وأخرجت السهم بصعوبة بالغة، وعالجت الجرح بالمرهم، ثم غسل الشيخ يده وأحضر لى ما كان موجوداً لديه وأطعمنى إياه فأكلته ونمت.

نمت كثيراً لأننى كنت متعباً، وسمعت أثناء نومي صوت نواح ونحيب، فأستيقظت وفركت عيني فلم أجد أحداً فى ذلك المكان، لا الشيخ ولا الطبي، كنت بمفردى على الفراش، والمكان خال، فنظرت فى كل الأرجاء مندهشاً، ورأيت سائراً فى أحد الأركان، فذهبت ورفعته، فوجدت سريراً، تتكى عليه حورية ذات أربعة عشر عاماً، ينساب شعرها على كتفها لابسة ثوباً (إفرنجياً) تجلس مبتسمة وتتنظر بدلال شديد والشيخ يبكى واضعاً رأسه على ركبتيه كأنه غائب عن الوعي، وحينما رأيت أحوال هذا الشيخ وحسن هذه الحورية وفننتها فقدت حيويتى وسقطت مغشياً على، ولما رآنى الشيخ على تلك الحال أحضر لى زجاجة ماء ورد وبدأ ينثرها على، ولما أفقت قمت وألقيت السلام على تلك الفتاة، فلم تمد يدها ولم تدبس ببنت شفة فقلت لها: أيتها الحسنة فى أى دين أو مذهب يجوز هذا الغرور والكبرياء وعدم التحية؟

.. لاشك أن قلة الكلام نوع من الدلال لكن ليس

.. إلى درجة أن يموت العاشق والحببية لم تتفوه

بالله الذى خلقك وصورك قولى شيئاً، لقد جئت أنا أيضا إلى هنا فجأة، ولابد من إكرام الضيف تحدثت إليها كثيراً دون جدوى، ولم تزل صامئة كالصنم، فتقدمت وضربت بيدي على رجلها، فوجدت ساقها كالبحر، وأخيراً عرفت أن هذا الآذرى قد نحتها من الحجر وشكلها (١٣) فسألت هذا الشيخ عابد الصنم قائلاً: لقد رميت رجل ظبيك بسهم، وأنت جرحت قلبى بسكين العاشق، لقد استجاب الله لدعائك، والآن لتشرح بالتفصيل لماذا صنعت هذا التمثال؟ ولماذا تركت القرية وتعيش فى الغابة والجبل؟ قص على ما مربك.

ولما ألححت عليه أجابنى قائلاً: إن هذا الأمر قد أضربى فهل تريد أن تسمعه حتى تهلك أنت أيضاً؟.

قلت: دعك من المراوغة وقل الحقيقة وإلا سأقتلك، وحينما وجدنى مصراً قال: أيها الشاب حفظ الله كل إنسان من لفحة العشق، انظر ما جاء العشق به من مصائب وآفات، فبسبب العشق تفنى المرأة عمرها وتقضى على حياتها، كما هو معلوم للجميع من قصة «فرهاد والمجنون»، فماذا سيجديك من سماع ذلك؟ فستترك البيت والمال دون فائدة.

فأجبتة: انتهى إذن، أطوبساط الصداقة، واعتبرنى عدوا لك، لو كانت حياتك عزيزة لديك فقل بكل وضوح. فاضطرب ودمعت عيناه وقال: حقيقة هذا الشريد أن اسمى «نعمان سياح، كنت تاجرا كبيرا، ويسبب التجارة زرت الأقاليم السبعة، وتشرفت بالمثل أمام جميع الملوك.

وذات مرة جال بخاطري أننى زرت جميع البلاد، لكننى ما ذهبت إلى جزيرة الإفرنج، وما كنت قد رأيت ملكها ورعيته وما عرفت عاداتها وتقاليدها، فرأيت أنه من الأفضل أن أذهب إليها عزمتم على السفر بعد مشاورة الزملاء والأصدقاء، وأخذت معى التحف، والهدايا التى تليق بتلك الجزيرة، وجمعت قافلة التجار وركبنا السفينة، وكان الريح مواتيا فوصلنا الى تلك البلاد فى عدة شهور، ووجدت أن الشوارع فى الأسواق والحوارى ممهدة ومرصوفة ومعطرة، وكانت نظيفة بدرجة لا مثيل لها، ولا توجد بها شائبة واحدة، وكانت المباني ذات طرز مختلفة وألوان متعددة، والمصابيح مضاءة فى كل موضع، وكانت الحدائق خارج المدينة تشتمل على زهور نادرة وفواكه عجيبة لعلها لا توجد إلا فى الجنة، الغرض أن كل مدح أو ثناء فيها هو فى محله.

وأخيرا انتشر خبر وصول التجار، فجاء إلى السيد المقرب من الملك برفقة الخدم والحشم وسأل التجار: «من هو كبيركم؟

فأشار الجميع إلى، فدخل السيد إلى حيث كنت، فعظمته وتبادلنا السلام وأجلسته على البساط، وقدمت إليه الوسادة باحترام ثم سأله: «عن سبب تشريفه، فقال: «سمعت الأميرة أن قافلة من التجارة قد وصلت حاملة أشياء كبيرة، فأمرتني أن أدعوك لمقابلتها، فأحضر معك جميع السلع اللائقة بمهام الأميرة، وتشرف بالمثل بين يديها فأجبتة: «اليوم أنا عاجز عن الذهاب لشدة التعب والنصب، وسأحضر غدا إن شاء الله بالنفس والمال، وكل ما أملك سأقدمه فى خدمة الأميرة لتنتقى ما تشاء، وبعد أن وعدته، وأهديته العطر والتمبول هو ومرافقيه وودعته، ثم استدعيت التجار الذين كانوا معى وجمعت كل التحف والنفائس التى كانت فى حوزتهم، وأخذت ما كان فى حوزتى أيضا، وفى الصباح توجهت الى قصر الأميرة.

فأبلغ الحراس والحجاب الأميرة بقدمى، فأمرتهم أن يحضرونى فخرج لى نفس السيد وأخذ يدي وسار بى الى حيث توجد الأميرة متحدثا إلى بكل ود وترحاب، وسلك بى طريقا

خاصا لايمريه كبار الزوار، ووصلنا الى قصر عال شامخ، ويا عزيزى لن تصدقنى إن قلت لك أننى رأيت وكأن الحوريات به قد قطعت قيود أجنتها وأطلقت، وحينما أنظر إليهن تتسمر عيناي عليهن، وكانت قدماى لانتقيان على السير، فتماكت نفسى بصعوبة، وحينما وقع بصرى على الأميرة فقدت وعيى وغشى على وارتعدت يداى ورجلاى، وعلى كل حال قرأت السلام، وكانت الحسنات قمرىات الوجه يصطففن على كلا الجانبين عاقدات أيديهن لا يحركن ساكنا، ثم قدمت كل ما كان معى من تحف وجواهر وأمتعة، وحينما وضعت أمامها أوانى الجواهر والبضائع، أعجبتها كل الصنوف ومختلف الأنواع وسرت بها وقدمتها الى خازن القصر قائلة: ادفع ثمن كل هذه الأشياء غدا .

فقدت إليها التحية وسر خاطرى لقيمتها وأننى ساتى فى الغد أيضا، وحينما خرجت نطقت بكلام بينما كنت أريد أن أقول شيئا آخر وعدت وأنا على تلك الحال إلى القافلة فاقد الصواب، فبدأ الرفاق يسألوننى: ما بك ؟ فأجبتهم قائلا : لقد زاد لهيبى بسبب الذهاب والإياب .

خلاصة القول أننى قضيت تلك الليلة مضطرباً، ثم ذهبت إليها فى الصباح وأخذنى نفس السيد الى القصر، ورأيت نفس العالم الذى رأيته قبل ذلك، ورأيتى الأميرة فأرسلت كل من عندها إلى أعمالهم وشئونهم، وحينما خرج الجميع، ذهبت إلى مكان خال وطلبتنى، وحينما ذهبت إليها أمرتنى بالجلوس، فجلست بعد أن قبلت الأرض بين يديها، فقالت : لقد أحضرت البضائع، فكم تريد ثمننا لها ؟ قلت : كانت رؤية قدميك أمنية لى، فوفقنى الله لهذا، ونلت كل ما أردته كما أننى قد فزت بمقابلتك بسعادة الدنيا والآخرة، والثمن المدون فى القائمة ساخذ نصفه، أما النصف الآخر فهدية لك ؟ فقالت : لا بل نقدم لك الثمن الذى كتبتة، علاوة على النعم والجوائز شريطة أن تؤدى لنا خدمة، أرجو أن يكون فى مقدورك القيام بها .

قلت: لو كان فى بذل روحى ومانى من أجلك يفيدك فلن أتوانى لحظة واحدة على العين والرأس .

وبعد هذا طلبت دواة وقرطاسا وكتبت رسالة ووضعتها فى كيس اللآلىء ، ثم لفتها بمنديل شفاف، وأعطتنى إياه، وأعطتنى خاتمها وقالت: فى تلك الناحية بستان كبير اسمه «دل كش» ستجد هناك رجلاً شرطياً اسمه «كيخسرو» أعطه هذا الخاتم فى يده وبلغه دعائى،

واطلب منه الرد على هذه الرسالة وعد مسرعاً - فأر تآكل هناك تشرب هنا - هم سأمحك جائزة كبيرة . فاستأذنت وانصرفت، وقطعت الطريق سائلا عن المكان، ولما قطعت ما يقرب من ميلين لاح لى البستان من بعيد، وحينما اقتربت منه أخذنى جندى مسلح، فرأيت شاباً معتداً بنفسه كالأسد جالساً على كرسى ذهبى لابسا درعا داودية رابطاً فيها أربع مرايا، واضعاً خوذة فولاذية على رأسه، جالساً فى هيئة مهيبه، وحوله خمسمائة شاب فى أيديهم السيوف والأقواس والسهام على أهبة الاستعداد .

فقرأت عليه السلام، فدعاني بالقرب منه، فقدمت إليه ذلك الخاتم وبعد الترحيب قدمت إليه المندبل الذى أعطتني ليراه، وبعد أن أسمعتة الحكاية، عض على أنامله بالتواجد أسفاً ودق على رأسه قائلاً: لقد ساقك حتفك إلى هنا، على كل حال اذهب إلى البستان، ستجد هناك قفصاً حديداً معلقاً بشجر السرو، فيه شاب مكبل بالأغلال، إعطه هذا الخطاب واطلب منه رداً، وعد مسرعاً، فدخلت البستان مباشرة وكان البستان جنة على الأرض، حدائقه غناء تزخر بشتى أنواع الزهور والرياحين وأندرها، وفيه فواره تغور بالمياه وتصوح به مختلف أنواع البلابل والطيور، فسرت فى طريق مستقيم، فرأيت شاباً وسيماً، فأنحنيت وسلمت عليه باحترام وقدمت إليه الرسالة من خلال القضبان، وبدأ الشاب يقرأ الخطاب ويسألنى عن أحوال الملكة مشتاقاً.

وبينما كنا نتحدث إذا بقوات الزنج تظهر وتطبق على من كل ناحية، وأخذت ترمينى بالسهام، وماذا يستطيع أن يفعل رجل أعزل فى هذا الموقف ؟

وفى لحظة واحدة أصابونى بجرح عظيم غابت على أثره عن الوعي، لما أفقت وجدت نفسى على محفة يحملها اثنان ويمشيان ويتحدثان فيما بينهما فقال أحدهما: من نرمى جنة هذا الميت حتى تأكله الغربان والكلاب ؟ وقال الآخر: لو بعث الملك - عرف بأمره سيدفنا أحياء ؟ ويسفك دماء أبناءنا، قبل ضائت بنا حياتنا ؟ .

وحينما سمعت حديثهما قلت ليهدين الياجرج ولماجوج: ترفقا بى، إننى على قيد الحياة . وحينما أموت افعلوا بى ما تشاءان (فالميت يكون كالحى الثمل) ، لكن أخبرانى ماذا حدث لى ؟ ولماذا ضربونى ومن أنتما ؟ هيا خبرانى ؟ .

فقالا مشفقين: ذلك الشاب المكبل بالأغلال فى القفص، ابن أخ ذلك الملك، وكان أبوه ملكا قبل ذلك وأوصى أخاه عند وفاته قائلاً: إن ابنى الذى سيربئنى صغير السن قليل

الإدراك، فلتتول أنت زمام الأمور وتفعل ما تراه مناسباً، وحينما يبلغ ابني سن الرشد، زوجة ابنتك وأمنحه الحكم والخزانة، ثم توفي الملك بعد أن قال ذلك وتولى أخوه الصغير شئون المملكة، ولم يعمل بوصية أخيه، بل أذاع أن ابن أخيه مجنون، وحبسه في القفص وعين الحراس حول الحديقة لدرجة أنه لا يمكن لطير أن يطير خارج البستان، وقدم إليه السم الزعاف عدة مرات، لكن لبنيته القوة فلم يؤثر فيه السم.

والآن فإن الأمير والأميرة عاشقان، وهو مضطرب في قفصه وهي مضطربة في بيتها، وقد أرسلت الأميرة معك رسالة الشوق إليه، فأبلغ الرسل الخبر إلى أبيها، فأرسل جنداً في إثراك فضربوك، ثم سأل الملك الوزير عن حيلة لقتل هذا الشاب، فاقنع هذا الوزير الخسيس الأميرة لتقتل الأمير بيدها.

قلت: إذن قلدر ماذا ستصنع الأميرة بالأمير؟ وأنا على تلك الحال، وأخيراً اتفقنا أن نقف صامتين في ناحية، فرأينا الملك جالساً على العرش والسيف المسلول في يد الأميرة، ثم أخرجوا الأمير من القفص وتقدمت الأميرة كالسياف، لتقتل عاشقها وحينما اقتربت رمت السياف واحتضنته، فقال العاشق: أنا راض بمثل هذا الموت، فأنت، أمنيته هنا وأمنيته هناك (الدنيا والآخرة) قالت الأميرة: جئت لأراك بهذه الحيلة وحينما رأى الملك هذا المشهد، اشتد غضبه ونهر الوزير قائلاً: هل جئت بى لأرى هذا المنظر؟ فأخذ الحاجب الأميرة إلى داخل القصر، ورفع الوزير السياف غاضباً، وتقدم مسرعاً إلى الشاب ليقتله بضربة واحدة، ولما هم بضربه، جاءه سهم الغيب فأصابه في جبينه فسقط حينما رأى الملك هذا المنظر، دخل قصره، وسجنوا الأمير في القفص مرة ثانية، ثم خرجت أنا من مكمنى ودعاني رجل إلى الأميرة وحينما وجدتنى جريحاً، طلبت الجراح وأكدت عليه أن يعالجنى معالجة جيدة حتى أشفى، فامتثل الجراح لأمر الأميرة وبذل كل ما في وسعه حتى شفيت في أربعين يوماً، واغتسلت غسل الشفاء وأرسلنى إلى الأميرة حيث سألتنى: هل بقى بك شىء من الجرح والألم؟، فقلت: الحمد لله أنا بصحة جيدة بفضل عناية سموك فأعطتنى الأميرة الخلع والأموال الكثيرة نظراً لما قدمته إليها وودعتنى.

فرحلت مع الرفاق والخدم من هناك وحينما وصلت قلت للجميع اذهبوا لأوطانكم، وقررت أن أبنى بيتاً على هذا الجبل وأسكن فيه، وأطلقت سراح الغلمان والخدم بعد أن كافأتهم كل على حسب منزلته وقلت لهم: عليكم أن تهتموا بإعداد طعامى في أوقاته المناسبة

مدى حياتى، وبعد ذلك أنتم طلقاء، ولهذا ويسبب جميلى معهم، فقد فقد اعتنوا بتغذيتى، أما أنا فقد أخذت أعبد هذا الصنم بكل حواسى وأصبح هذا هو شغلى طوال الحياة هذه هى قصتى التى سمعتها.

يا أيها الدراويش، بمجرد أن سمعت هذه القصة وضعت الكفن فى عنقى ولبست لباس الفقير، وخرجت مشتاقاً لأرى ملك الإفرنج. ويسبب الأسفار وطول الترحال فى الغابات والقفار أصبح شكلى كـ «المجنون»، و «فرهاد» (١٤).

وأخيراً ساقنى الشوق إلى هذا البلد وكنت أجوب الأزقة كالمجنون، وأقضى معظم الوقت بالقرب من قصر الأميرة، لكننى لم أجد أى حيلة لأصل إليها، كنت مضطرباً لأننى جئت لأحقق هذا الهدف ولم أحققه وذات يوم كنت فى السوق وإذا بى أرى الناس يفرون هنا وهناك ويغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم فقد كان السوق عامراً وصار خراباً، وفجأة خرج من ناحية شاب ضخم الجسم يزأر كالأسد، وفى يده سيف ويلوح به ويلبس درعاً على صدره، وخوذة على وجهه ورأسه متمنطقاً بحزام، ويتمتع بأشياء غير مفهومة وخلفه غلامان لابسان رداء النساء، وكان على رأسيهما تابوت من القطيفة، وحينما رأيت هذا المنظر أردت أن أسير فى الموكب معهم وكان كل من يرانى يمنعى، ولكن لماذا أسمع كلامهم؟، وتدرجياً وصل هذا الشاب إلى مكان مرتفع وأنا فى إثره، قالتفت إلى وأراد أن يشطرنى شطرين بسيفه فاستحلفته أن يفعل، وأبحت له دمي، وقالت له: على أية حال إنك ستخلصنى من هذه الحياة، فلقد ضقت ذرعاً بالدنيا، وجئت لك عمداً فلا تبطئ وحينما رأى أننى مصر على الموت، ألقى الله عز وجل فى قلبه الرحمة وزال عنه الغضب، وسألنى بمنتهى الشفقة والعطف من أنت، ولماذا أنت معرض عن الحياة هكذا؟

قلت: اجلس قليلاً حتى أحكى لك حكايتى الطويلة، إننى أسير العشق ولا حيلة لى ولما سمح هذا فتح حزامه وجلس وغسل وجهه ويديه وتناول الإفطار، وأشركنى معه وبعد أن فرغ من تناوله طعامه قال: قص على ما مر بك، فقصصت عليه كل شئ وحكاية الأمير والأميرة، وذهابى هناك، فما لبث أن بكى وقال: تبا لذلك التعس فكم من بيوت دمرها؟ علاجك فى يدي، وفى الغالب أنك ستجد بغيتك بسبب ذلك العاصي، فلا تبتأس وقر عيناً، ثم استدعى (الحجام) وقال له: قص شعره ودعه يغتسل وبعد ذلك ألبسنى الغلام رداء نظيفاً،

ثم بدأ يقول أى: إن التابوت الذى رأيته هو تابوت الأمير المرحوم الذى كان حبيباً فى القفس، قتله الوزير الثانى، لا شك أنه قد تخلص من هذا المظلوم، لكننى - وأنا عمه - أطحت برأس الوزير بالسيف، وأردت أن أقتل الملك أيضاً، فقد استعطفنى وأقسم أنه برىء فتركته، ومن ذلك الحين، أنا أحمل هذا التابوت فى الخميس الأول من كل شهر، وأطوف به أنحاء البلد وأقيم له مأتماً.

وبعد أن سمعت هذا اطمأنتت على أنه لو شاء وأحسن الله عز وجل إلى لتحقيق أملى فى أن يجعل هذا المجنون مشفقاً على، فالحقيقة لو أراد الله الرحمة، فإن الكل يكون رحيماً.

وحيثما أمسى الليل وغربت الشمس، أخرج الفارس ذلك التابوت ووضع على رأسى بدلاً من الغلام وأخذنى معه وقال: سأذهب للأميرة حتى أشفع عندها لك حسب المستطاع ولا تتحرك أنت وأجلس صامتاً وأسمع كل شيء.

قلت له: أمرك! افعل ما تشاء حفظك الله إنك تشفق على، ثم قصد إلى البستان الملكى ولما دخل البستان رأى مصطبة من المرمر لها ثمانية أضلاع، وكان عليها رداء حريرى يتدلى من أطرافه الدر والجوهر، وكان عليها وسائد للزوم والجلوس، فوقف الفارس عليها وقال: ضعا التابوت هنا، وقال لنا: اذهبا واجلسا عند تلك الشجرة.

وبعد ساعة ظهر نور المشعل وجاءت الأميرة مع خادمتها وكان الحزن بادياً على ملامحها، وجلست على الأريكة وكان هذا العم واقفاً عاقداً يديه، ثم ابتعد عن الفرش وجلس بأدب وقرأ الفاتحة، وبدأ يتحدث قليلاً، وكنت أستمع إليه، قال الفارس: أينها الأميرة.. حفظك الله، إن ابن ملك العجم سمع عن جمال معشرك وحسنه، وترك البلاد وأصبح فقيراً ووصل هنا بعد مشقة طويلة ومن أجلك ترك مدينة بلخ، وهو يتجول منذ فترة طويلة فى المدينة وسار فى أثرى راغباً فى الموت وهددته بالسيف فوضع رقبته أمامى، والآن أريدك ألا تتمنى فقد اختبرته ووجدته ثابتاً فى عشقك، وهو جيد من كل ناحية، ولهذا أزيكه عندك، فلتترقى به فهو مسافر، فهذا أوجب لتقوى الله وحسن عبادته.

وحيثما سمعت الأميرة هذا قالت: أين هو؟ لو كان ابن ملك فلا حرج فليأت أمامى، فجاء ذلك العم وأخذنى إليها، ففرحت جداً لرؤية الأميرة، لكن عقلى طار لرؤية حسنهما الفتان وغبت عن الدنيا، ولم أستطع أن أقول شيئاً، وبعد برهة انصرفت الأميرة وعاد العم

إلى بيته أيضاً وأنا معه، وبعد وصوله إلى البيت، قال: لقد حكيت للأميرة قصتك من البداية إلى النهاية، وتشفعت لك، ولتذهب إليها كل ليلة بانتظام وأنعم بحياتك كما تشاء. فانحنيت أقبل قدميه، فإذا به يعانقني، وظللت طوال اليوم أعد الساعات ليأتي المساء، ولما أقبل الليل ودعت العم وذهبت إلى ذلك البستان وجلست على الأريكة.

وبعد ساعة خرجت الأميرة بمفردها مع خادمة واحدة فقط وجلست على الأريكة، وكان هذا اليوم بمثابة العيد بالنسبة لي وقبلت قدميها فرفعت رأسي بين يديها وعانقتني وقالت: انتهز هذه الفرصة وأخرجني من هنا معك إلى أي بلد فقلت: تفضلي ثم خرجنا من البستان، وقد ارتعدت قدماي من الدهشة والفرحة حتى أنني ضللت الطريق، وبدأنا نهيم في البلاد دون مأوى، فقالت الأميرة غاضبة: لقد تعبت، أين بيتك؟ عليك أن تسرع ماذا تنتظر لقد تورمت قدماي، وإلا فسأجلس في الطريق. قلت: بيت غلامي قريب، سنصل إن شاء الله، استمرى في السير ولا تتوقفي كذبت لكنني كنت متحيراً إلى أين أذهب؟ ورأينا على الطريق باباً مقفلاً، فكسرته بسرعة ودخلنا، ووجدنا بيتاً جميلاً مفروشاً بالسجاد، وفي الطاقة كانت زجاجات الخمر ممتلئة عن آخرها والكتاب والخبز معدان في المطبخ، وكان التعب قد بلغ منا كل مبلغ، فاستمتعنا طوال الليل بتناول الطعام والشراب، وحينما طلع الصبح انتشر خبر اختفاء الأميرة في المدينة كلها، وخرج المنادي يطوف الأحياء والأزقة منادياً معلناً اختفاءها، وخرجت قوات الحرس للبحث عنها وإعادتها، وجلس الغلمان على أبواب الدور لعلمهم برونها، وصدرت الأوامر لحرس الحدود ألا يسمحوا بخروج أحد من المدينة حتى وإن كانت نملة بدون تصريح من الملك، وأعلن أن من سيأتي بالأميرة سينال جائزة كبيرة قدرها ألف أشرفي وخلعة ملكية فاخرة، وكانت هناك حارسات أيضاً من النساء أخذن يبحثن عن الأميرة في كل بيت، وكان من سوء الحظ أنني لم أغلق باب البيت، فجاءت العجوز خالة الشيطان سود الله وجهها، وكانت بيدها مسبحة، وتستتر بنقاب، ووجدت الباب مفتوحاً فدخلت، ووقفت أمام الأميرة رافعة يدها داعية الله عز وجل قائلة: اللهم احفظ هذين الزوجين، اللهم أبقهما طويلاً، إنني فقيرة لي بنت حامل تتضور جوعاً وليس في مقدوري أن أشعل موقداً فمن أين آتى بالطعام؟ وإن ماتت ابنتي كيف أكفنها، وإن وضعت فمن أين أدفع للقبالة، وأقدم لها ما يلزم في ذلك الحين، فابنتي جائعة وعطشى منذ يومين، أيتها الأميرة لو تكرمت وتفضلت، فأعطني شيئاً تتقوت به ابنتي.

فدعت الأميرة العجوز مشفقة عليها وأعطتها أرغفة ولحماً وكباباً، وانتزعت خاتماً من أصبعها ومنحته لها، وقالت: قومي بببيع هذا الخاتم وبثمنه احترفي صناعة الحلى لتعيشي، ولتأت في أي وقت فالبيت بيتك ونالت العجوز ما جاءت من أجله، فخرجت مسرورة، وألقت بالكباب والخبز في مدخل البيت لكنها أخذت الخاتم ليكون دليلاً على عثورها على الأميرة، ثم أراد الله أن يحفظنا من هذه المصيبة، فحضر صاحب البيت راكباً فرسه معلقاً ظلياً اصطاده في سرج الفرس، ولما رأى أن قفل الباب مكسور والباب مفتوح والعجوز خارجة منه، تملكه الغضب وجذبها من شعرها وشد رجلها بالحبل وعلقها على الشجرة، فماتت في التو واللحظة، وحينما رأينا هذا الرجل كدنا أن نفقد وعينا، وارتعدت فرائصنا، ولما رأنا صاحب البيت خائفين متحيرين، طمأننا وهدا من روعنا وقال: هذا جهل كبير منكم، إنكما فعلتما هذا وتركتما الباب مفتوحاً.

فقال الأميرة مبتسمة: لقد قال لي الأمير إن هذا بيت غلامى فادخلى فيه . فقال صاحب البيت: لقد قال صدقاً، فجميع خاق الله غلمان وجواري الملوك، فكلهم يعيشون ببركتهم ويفيضهم، وهذا الغلام غلامكم المشتري بدون مال، لكن إخفاء السر من مقتضى العقل، أيها الأمير إن بقاءك وبقاء الأميرة في هذا البيت شرف لي وسعادة في الدنيا والآخرة، لقد شرفتماني بقدمكما وأنا مستعد لبذل الروح من أجلكما ولن أدخر وسعاً في بذل الروح والمال وستعيشان في أمان واطمئنان في هذا البيت، فلورجعت هذه العجوز حية إلى المدينة نجاءت بالمصائب والآن ابقيا ما شئتما واطلبا منى كل ما تريدانه، وأنى للملك أن يعرف مكانكما فحتى الملائكة لا تعرفه قال هذا الرجل كل ما يطمئن قلوبنا، فقلت: أحسنت وحقاً أنت رجل والرجال قليل، وسأكافئك جزاء هذا العون والإحسان، ما اسمك؟ قال: اسم هذا الغلام «بهزاد خان» الخلاصة أنه خدمنا ستة أشهر بكل تقان وإخلاص، وقصينا تلك المدة في راحة ودعة، وذات يوم تذكرت وطنى ووالدى فكنت أجلس حزينا، ولما رآنى بهزاد خان حزينا وقف أمامى عاقداً يديه وقال: لو صدر من هذا الغلام حامل حذاء الملوك أى خطأ فأخبرنى قلت: ماذا تقول؟ لقد عاملتنى بهذه المعاملة حتى عشنا في هذا البلد كما يعيش الجنين في بطن أمه، وإلا كان قد صدر منا فعل لا تحمد عقباه أغضب جميع الناس، جزاك الله خير الجزاء. ثم قال: لو أنك سئمت من هذا المكان فأنا أوصلك إلى حيث تشاء. قلت: لو أصل إلى وطنى لأرى والدى، وهذا حالى ولا أدري كيف حالهما؟ لقد تركت بلادى

ووجدت ما تركتها من أجله، والآن يجب على أن أذهب كي أقبل أقدامهما، فهما لا يدريان إن كنت حياً أم ميتاً، أى قلق يعيشان فيه؟

فقال الشاب: مبارك، فلتتفضلا وبعد هذا أحضر فرساً تركيا يستطيع أن يمشى مائتى ميل ومهرة فنية للأميرة، وأركبنا عليها، ثم لبس درعاً وخوذة وركب فرساً وقال: سيتقدمكما الغلام ولتتبعانى وحينما وصل عند باب المدينة رفع صوته وكبر وكسر القفل، ونهر الحراس وأفرعهم وقال: اذهبوا وقلوا لملككم: إن «بهزاد خان» يأخذ معه الأميرة «مهرگار» والأمير «كام گار» الذى هو زوج ابنته، فإن كنت رجلاً فاخرج واسترد الأميرة ولا تقل أنه أخذها سراً، وإلا فلتزمن القلعة مستسلماً للراحة!!

ووصل هذا الخبر إلى الملك، فأمر الوزير والقائد أن يحضرا هؤلاء مقيدين أو يأتيا براء وسهم. وبعد لحظة ظهرت بعض القوات، وأغبرت السماء والأرض من سنايك الخيل: وأنزلنى «بهزاد خان» أنا والأميرة على جسر مثل جسر «جنيور» وشد سرج فرسه وعاد إلى القوات وزار كالأسد واخترق صفوفهم كالسهم المارق، حتى وصل إلى قائد الجيش فقتلها، ولما قتل القائدين تفرقت القوات (عندما تكون ثمرة البيل على الشجرة فهى ثابتة، أما إذا سقطت تناثرت وصارت مثل حبة الخردل)^(١٥) ثم خرج الملك بنفسه مع الجيش، فهزمه ذلك الشاب هو وجيشه.

انهزم الملك، والحقيقة أن النصر والفتح من عند الله، وأبدى «بهزاد خان» شجاعة وجسارة لم ييدها رستم، وحينما رأى «بهزاد خان» أن الجو صاف وليس هناك أحد يتعقبه، جاء إلى حيث كنا وأخذنا معه وعمر السفر يكون قصيراً فوصلنا بعد عدة أيام إلى حدود بلادنا.

فكتببت خطاباً إلى الملك الذى هو والدى بأننى وصلت بصحة وسلامة، فسر الملك براءة الرسالة وصلى ركعتين لله شكراً، وكان الماء قد وصل إلى الأرز الجاف فأحضر الأمراء معه وجاء لاستقبالى عند شاطئ البحر، وأمر أمير البحر ليحضر سفينة ليقابلنى، وعندما رأيت موكب الملك عند الشاطئ ألقيت الفرس فى البحر، وأخذت أدفعه فى الماء حتى وصلت إلى خدمة الملك وتشرفت بالمثل بين يديه، وعانقنى أبى عناق الشوق، وعندئذ حدثت مفاجأة وهى أن الفرس الذى كنت أركبه لأنه ابن المهرة أو لأنه من جنسها فقد قفزت خلفه فى الماء

وأخذت تسبح وصاحت الأميرة مضطربة وكانت المهرة غير متمرسه وعندما شددت الأميرة لجامها انقلبت المهرة وغرقت هي والأميرة ولم يظهر لهما أى أثر، وحينما رأى بهزاد خان، هذا المشهد قفز بفرسه أيضا وحدث له ما حدث للأميرة، وحاولنا كثيراً إنقاذهما، لكننا لم نفلح قط وأمر الملك أن تطرح الشباك فى البحر لالتقاطهما وأمر الملاحين والسباحين ليخرجوهما، فبحثوا فى البحر كله وجاءوا بالطين من داخل البحر لكنهم لم يجدوا لهما أى أثر، أيها الدراويش بسبب هذه الحادثة أصبحت مجنوناً وفقيراً تلك هى حالة العاشق، فانظر إلى كلتا الحالتين لو غابت الأميرة أو ماتت لاطمأنتت أو خرجت للبحث عنها وصبرت، لكننى حينما رأيتها تغرق فى البحر ولم أستطع أن أفعل شيئاً أردت أن ألقى بنفسى فى البحر لعلى أجدها بعد موتى.

و ذات ليلة هممت أن أغرق نفسى فى ذلك البحر ولما وصل الماء إلى عنقى وأردت أن أتقدم وأغوص إذ وصل نفس الفارس الملم الذى بشركم، وأخذ بيدى وقال: اطمئن إن الأميرة «بهزاد خان» على قيد الحياة، فلماذا تودى بحياتك بغير حق، مثل هذا يحدث فى العالم (فلا تيأس ولا تقنط من روح الله)، فإذا كنت حياً ستقابلهما ذات يوم، والآن اذهب إلى بلاد الروم، والحق بالدرويشين اللذين ذهبا إليها وحينما تقابلهما ستجد بغيتك، أيها الفقراء: «امتنالاً لهذا الحكم حضرت إلى خدمتكم، وأرجو أن يصل كل إنسان إلى مبتغاه».

هذه هى قصتى التى قصصتها عليكم من البداية إلى النهاية.

قصة الدرويش الرابع

بدأ الدرويش الرابع يحكى حكايته وهو يكي:

اسمعوا قصتي التي ليس لها بداية ولا نهاية..

فانتبهوا واستمعوا لكل أحوالى..

وكيف وصلت إلى ما أنا فيه من الضياع..

سأوضح كل شيء بالتفصيل فاستمعوا إلى السبب..

أيها المرشدون !! التفوتوا قليلاً، هذا الفقير أسير هذه الحالة هو ابن ملك الصين، وقد تربى في دلال ونعمة، وتلقى تربية حسنة، ولم يكن يدرى ما يجرى في زمانه من سيىء أو حسن، وهو يظن أنه سيحيا هكذا دائماً، وفجأة توفى قبله العالم والد ذلك اليتيم وأثناء احتضاره وهو فى سكرات الموت طلب أخاه الصغير الذى هو عمى وقال: «إننى مشرف على الرحيل، تاركاً هذا الملك وهذه الأموال لكننى أوصيك بأمر عليك تنفيذه، وهو أن تتولى الملك نيابة عن ابنى حتى يبلغ سن الرشد، ثم توليه الملك، واحرص على شئون الملك والرعية، وحينما يبلغ ابنى مبلغ الرجال، فهمه الأحوال ثم ولّهُ الملك وزوجه ابنتك» روشن اختر، وهكذا سيقى الحكم فى أسرتنا، ولن يحدث فيه أى خلل، وبعد ذلك انتقل والدى إلى رحمة الله وتولى عمى الملك، وبدأ يدير شؤنه وأمرنى أن أقيم حيث تقيم الحريم، ولا أبارحه طالما أننى لست شاباً وقد عشت حتى سن الرابعة عشرة مع الحريم ولعبت معهم، وكنت سعيداً

بأننى سأتزوج بابنة عمى، وكنت أحيا مستريحاً بلا هموم على هذا الأمل وأقول فى نفسى: «سيأتينى الحكم فى يوم ما، إن الدنيا قائمة على الأمل». وكان حبشياً اسمه «مبارك» قد تربى على يد أبى وكان له مكانة كبيرة، وكان ذا حس مرهف ووقياً، وكنت أجلس معه فى أغلب الأوقات وكان يكن لى حباً كبيراً ويسعد بأننى أنمو يوماً بعد يوم، ويقول: «الحمد لله أيها الأمير أن شبيبته عن الطوق إن شاء الله سيعمل عمك بوصية أبيك، ويسلمك ملك أبيك ويزوجك ابنته».

وحدث ذات يوم أن لطمتنى على وجهى إحدى صديقات الأميرة بدون ذنب حتى ظهر أثر أصابعها الخمسة على وجهى، فذهبت إلى «مبارك» باكياً فعانقنى وكفكف دموعى بكمه، وقال: «اليوم أصبحك إلى الملك لعله يشفق عليك ويعطيك حقه» فرافقه إلى عمى فى نفس اليوم، وقابلنى عمى بشفقة ومودة وسألنى: «لماذا أنت حزين؟ ولماذا جئت إلى هنا؟».

قال مبارك: «جئنا لنعرض أمراً، وبعد أن سمع هذا بدأ يقول: «الآن نزوجك، قال مبارك: هنيئاً إن شاء الله». وفى نفس اللحظة طلب الملك المتجمين والرمالين وسألهم متظاهراً بالموافقة عن الساعة المباركة لإتمام الزواج والشهر واليوم، فأدركوا نية الملك، وأرادوا رضاه فقالوا: إن هذا العام كله نحس، ولا يوجد فى أى شهر منه أى يوم مبارك، ولو مر هذا العام بخير وعاقبة فالقادم هو الخير».

نظر الملك إلى مبارك ثم قال له: «خذ الأمير إلى القصر، وبعد مرور هذا العام سارد إليه أمانيته، عليه أن يطمئن ويتعلم». فألقى مبارك السلام وصحبنى إلى القصر، وبعد عدة أيام ذهبت إلى «مبارك»، وحينما رأتى بدأ يبكى فدهشت وسألته: خيراً يا جدى لماذا تبكى؟ فقال المخلص الذى يحبنى بالقلب والروح: «ذلك اليوم الذى صحبتك فيه إلى ذلك الظالم الذى هو عمك، ما ذهبت بك إليه». قلت مندهشاً: «وأى سوء فى ذهابى إليه؟ أخبرنى، قال: لقد سر جميع الوزراء والأمراء وكبار الدولة وصغارها ويشكروا الله أن ابن ملكهم ذلك الغنى قد كبر وأصبح لائقاً للملك فيعطى كل ذى حق حقه، ويكرم الصغير والكبير. ووصل هذا الخبر إلى ذلك الظالم، فكان الثعبان قد مر بصدرة، فدعانى فى الخلوة وقال: «يا مبارك أقتل الأمير بأية حيلة، وابتعد خطره عن قلبى حتى أعيش مطمئناً ومن ذلك الحين وأنا أعيش بلا وعى لأن عمك أصبح عدواً لحياتك، وحينما سمعت هذا الخبر السعيد من «مبارك»، مت بغير أجل، وسقطت على قدميه خوفاً على الحياة، لقد ضاعت السلطنة فبالله عليك أنقذ روحى!! فرفع

الخادم الوفى رأسى وضمنى إلى صدره وقال لا خطر، فقد وجدت حيلة، فإن حل المساء فلا خوف، فإن بقيت الحياة فكل شيء موجود، وفى الغالب أنك ستنجو من هذه المؤامرة وتحقق أمنيتك. وبعد هذا أخذنى إلى ذلك المكان الذى كان أبى يجلس فيه وبنام، وطمأننى، وكان هناك كرسى فى أحد الأركان، فنقل الكرسي من مكانه ورفع السجادة من تحته وبدأ يحفر الأرض وفجأة ظهر شبك فيه قفل وسلسلة، ثم دعانى فأدركت أنه سيذبحنى ويدفننى فى هذه الحفرة، ورأيت الموت بعينى فتقربت إليه ونطقت بالشهادة، وحينما اقتربت رأيت أن تحت الشباك بناء وأربع غرف، وفى كل ردهة عشرة صناديق مربوطة بسلاسل ذهبية وفى هذه الأماكن كان هناك تسعة وثلاثون قدراً وعلى قم كل قدر حجر ذهبى وقرد مصنوع من الزمرد، ورأيت صندوقاً مملوءاً بالأموال لا يوجد عليه قرد ولا حجر، وحوضا مملوءاً إلى حافته بالجواهر، فسألت مبارك: يا جدى؟! ما هذا الشيء العجيب؟ الشيء وما شأنها؟ قال: «قصة هذه الأشياء التى تراها، أن أباك قد تصادق منذ شبابه مع الملك «صادق»، ملك الجن وكانا يتزاوران، فكان يذهب إليه مرة فى كل عام، ويهدى إليه التحف والعطور والهدايا وكان يقيم هناك حوالى شهر وعندما يغادر يعطيه الملك «صادق» قرداً من الزمرد، وكان الملك يأتى بهذا القرد ويضعه فى هذا السرداب ولا يعرف هذا الأمر إلا أنا، وذات يوم سألته أنا الغلام: «أيها الملك إنك تذهب إليه بالهدايا الثمينة، وتأتى من هناك بحجر أصم، فما الفائدة؟»، فرد على سؤالى مبتسماً وقال: حذارى أن تخبر أى أحد، إن كل ميمون تراه بلا روح، يتبعه آلاف الشياطين (المردة) لكن شرط استخدامه أن يبلغ عدد التماثيل أربعين، وإلا فلا طائل منه، فتوفى الملك قبل أن يكتملوا هكذا لم يأت جهده كله بأى ثمرة، أيها الأمير: حينما رأيت عجزك تذكرت وقررت أن أوصلك إلى الملك «صادق»، وأخبره ظلم عمك، وغالباً فإنه سيتذكر صداقة أببك ويعطيك ميموناً ليكتمل العدد المطلوب ويرجع ملكك إليك، تكون مطمئناً، وبهذه الحيلة تنقذ حياتك فى الحقيقة، وإن لم نجن من هذه الحيلة أى شيء، فلا مناص ولا مفر لنا للإبقاء على حياتك، فقلت له بعد ما سمعت كل هذا: «يا جد!! الآن أنت مفوض فى أمرى، فافعل كل ما هو صالح لى». ثم ذهب «مبارك» إلى السوق ليشتري العطور والبخور المناسب ليذهب به إلى الملك.

وفى اليوم التالى ذهب الخادم إلى العم الكافر الذى كان بمثابة «أبى جهل»، وقال: «يا ملجأ العالم!! قررت حيلة لقتل الأمير، لو أذنت سأقوم بعرضها عليك، ففرح اللعين وقال: «ما هى

الحيلة ؟ قال مبارك: «لو قتلته هنا بأية وسيلة فهذا يسىء لسمعة سموك، لكن لو أخذته إلى الغابة وقتلته ودفنته، فلن يدرى أى شخص ماذا حدث ؟، وحينما سمع هذا قال: «حسن جداً، إننى أريد ألا يبقى على قيد الحياة وألا يهددنى أى خطر من جهته، فإن أنت خلصتنى منه فسأقدم لك جائزة عظيمة فافعل ما تشاء حتى تأتيني ببشرى أنك قتلته» .

وبعدما اطمأن «مبارك» من جانب الملك اصطحبني وذهبنا إلى الملك «صادق»، وسرنا لمدة شهر، وذات ليلة كنا نمشي فقال «مبارك»: «أشكر الله على أننا قد بلغنا المنزل المنشود، قلت: ماذا قلت يا جدى ؟ قال: أيها الأمير ألا ترى جنود الجن ؟. قلت: إننى لا أرى غيرك فتناول «مبارك» الكحل السليمانى وكحل عيني مرتين، فإذا بى أرى جند الجن، فوجدتهم فى شكل جميل وهيئة جميلة، وأخذوا يعانقون «مبارك»، وكأنهم يعرفونه منذ أمد بعيد، وأخذوا يمازحونه.

وأخيراً وصلنا إلى خيمة الملك ومثلنا فى حضرته، ورأينا المصاييح والمقاعد مصطفة على كلا الجانبين، يجلس عليها العلماء والفضلاء والأمراء والوزراء والفقراء وغيرهم، وجبابة الضرائب قائمون عاكفون أيديهم وفى المنتصف عرش مرصع يجلس عليه الملك «صادق» لابساً تاجاً وعمامة يتدلى منها اللؤلؤ متكناً على المسند فى هيبة وعظمة، فاقتربت وقدمت التحيات والتعظيمات بين يديه، فأمرنى بالجلوس بشفقة، ثم أحضروا الطعام، وبعد الفراغ منه إلتفت الملك إلى «مبارك» وسأله عن أحواله فقال «مبارك»: إن عم هذا الأمير قد تولى الحكم بعد أبيه وأصبح عدواً لحياته، لهذا جئت به إليك هارباً منه، وهو يتيم والملك حق له، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً دون مرب، وبفضل رعاية جلالكم سيجد هذا الأمير من يرعاه تذكر خدمة أبيه وانصره وساعده، وأعطه القرد الأخير ليكتمل عدد القردة أربعين قرداً، وسيدعوك حينما يسترد حقه، فهو ليس له ملجأ سواك» .

وبعد ذلك تأمل الملك «صادق» برهة، ثم قال: «إن حقوق خدمة وصداقة المرحوم على كثيرة، وهذا المسكين جاء إلى تاركاً هذا المال الموروث حفاظاً على حياته ولجأ إلى، وإننى لن أدخر أى مسعى لكن لى خدمة إن قام بها خير قيام ولم يخن وأتمها ونجح فى الامتحان فأتعهد بأننى سأعامله معاملة أحسن من الملوك وأبلغه ما ينشده . فعقدت يدى ملتصقاً وقلت: «إننى سأقوم بخدمة سموك قدر المستطاع، وسأؤديها على العين والرأس بأمانة وفطنة، فهذا شرف لى فى الدنيا والآخرة» .

قال الملك: إنك صغير الآن، لهذا أؤكد مراراً وتكراراً أنه لا قدر الله إن تقصير أوتحيى في هذا الأمر ستلقى بنفسك في التهلكة. قلت: يسهل الله عز وجل من أجلك وسأحاول حسب القدرة واحضر الأمانة إلى جنابك فدعاني الملك «صادق» قريباً منه، وأخرج ورقة من الحافظة وعرضها على قائلاً: انظر لهذه الصورة عليك أن تحضر من يماثلها في الشكل تماماً وتحضره من أجلي، فحيث تعلم أنه موجود أبحث عنه، وحين تذهب إليه أبلغه عظيم شوقي، وإن أسديت لى هذه الخدمة فستنال منى أكثر مما تتوقع وتنتظر وإلا فإن الجزء من جنس العمل.

ولما نظرت إلى الورقة رأيت فيها صورة كدت أفقد وعيى على أثر رؤيتها فتمالكت نفسي خوفاً وقلت: حسناً سأغادر الآن، إن أراد الله سبحانه وتعالى لى خيراً سأقوم بهذه الخدمة كما تشاء، ثم خرجت من الغابة مع مبارك وبدأت أطوف قرية قرية وبلداً بلداً أسأل كل من أقابله عن صاحب هذه الصورة ولم يقل لى أحد إننى أعرفه أو سمعت عنه، وقضيت سبع سنوات على تلك الحال، ثم وصلت إلى مكان به مبان عالية وعامرة، وكل شخص فى هذا المكان يذكر الاسم الأعظم ويعبد الله. ورأيت هتدياً فقيراً أعمى يتسول لكن لا أحد يعطيه أى مال ولا كسرة خبز، فدهشت وأشفقت عليه فتناولت أشرفى من جيبى وأعطيته إياه فأخذه وقال: أيها المعطى أحسن الله إليك لعلك مسافر، ولست من أهل البلاد.

قلت: فى الحقيقة إننى أدمر حياتى منذ سبع سنوات، ولم أجد أى خبر لما خرجت من أجليه، واليوم وصلت إلى هذه المدينة.

فانصرف العجوز عنى داعياً فسررت خلفه، ورأيت مكاناً عالياً خارج المدينة، دخل العجوز فيه وتبعته أنا أيضاً ورأيت هناك بعض المباني المهتمة، ولا يقوم أى أحد بترميمها، فقلت فى نفسى إن هذا المبنى يليق بالملوك، لقد كان شامخاً عند تأسيسه، والآن ألم به الخراب ولا أدرى لماذا لا يسكن هنا أى شخص؟ ولماذا يعيش هذا الأعمى هنا؟ الأعمى هنا؟ وكان الأعمى يسير متكئاً على عصاه إذ سمعت صوتاً كأنه يقول: أيها الأب، خيراً لماذا عدت اليوم مبكراً؟ قال العجوز: يا بنيتى إن الله عز وجل جعل شاباً مسافراً رحيماً بى لقد أعطانى ديناراً، وإننى ما أكلت منذ فترة طويلة طعاماً لذيذاً، فاشتريت لحمًا وتوابل وزيتاً ودقيقاً وملحاً وثوباً لك قصيه وخيطيه، وألبسية وعندما تطهين الطعام ونأكله، ادعى لهذا الشاب، إننا لا ندري ما هو مقصوده! لكن الله عز وجل سميع بصير، إنه يقبل دعاء الفقراء.

وعندما سمعت أحوال فقره جال بخاطري أن أعطيه عشرين أشرفيا لكننى حينما سمعت نظرت فرأيت امرأة تشبه الصورة التى أحملها فتنازلت الصورة وقارنت بينهما فما وجدت أى فرق، فخرج من قلبى صوت وفقدت وعيى، وجلس مبارك بجوارى واحتضنى وأخذ يحرك مروحة على وجهى، فأفقت قليلا وأخذت أنظر إليها، فسألنى مبارك: ماذا أصابك؟ وقبل أن أجيب قالت الحسنة: أيها الشاب اتق الله ولا تنظر إلى غير محرم، فالخجل والحياء من حسن الأدب لكل شخص.

تكلمت بأسلوب أعجبني، وبهرت بحسنها وخلقها، وكان مبارك يرعاني لكنه لا يعرف حالة قلبى، وأخيراً ناديت: يا عباد الله !! ويا سكان هذا المبنى إننى غريب على سفر، إن دعوتهمونى وأعطيتهمونى مكاناً لأقيم فيه، فتلك مروءة منكم فدعاني الأعمى بالقرب منه وعرف صوتى فعانقنى وأخذنى إلى حيث تجلس الحسنة وكانت قد اختفت فى أحد الأركان، فقال لى الشيخ الأعمى: إحك لى ما جرى لك؟ لماذا تركت أهلَكَ وتعيش وحدك وعن تبحر؟ فلم أذكر أمامه الملك «صادق»، وما يتعلق به، وقلت: إن هذا الأمير من الصين وما أدراك ما الصين، وهذا لأن أبى هو ملكها الآن، اشتريت هذه الصورة بمئات الآلاف من الروبيات، وحينما نظرت إليها فقدت كل حواسى وراحتى، وألم بى الفقر وهممت أبحث عنها فى جميع أنحاء الدنيا، والآن وجدت ما أبحث عنه فلك الخيار.

وعندما سمع الأعمى هذا صاح صيحة وقال: إن أبنتى تعاني مصيبة عظيمة ولا يستطيع أى أحد أن يتزوجها ويجنى ثمار الزواج قلت: أرجو أن تفصل الكلام فبدأ الأعمى يحكى قصته قائلاً: أسمع يا ابن الملك: أننى رئيس هذا البلد سيبىء الحظ وكان أبائى وأجدادى ذوى أنساب عالية رزقنى الله تعالى بهذه البنت وعندما بلغت سن الرشد ذاع صيت حسننها وجالها وعرف الجميع أن جمال بنت فلان لا يضارعه أى حسن أو بهاء حتى الحور تستحى منها وبلغ هذا الثناء ابن الملك فعشقها دون أن يراها وزهد فى الطعام والشراب ولازم الفراش.

ووصل هذا الخبر إلى الملك فدعاني فى الليل منفرداً وتحدث عن هذا الموضوع وحاول أن يقتنعنى، وأخيراً نجح فى محاولته، وفكرت فى نفسى أن لى بنتاً وعلى أن أزوجه من أى شخص إذن فمن الأفضل أن أزوجه ابن الملك حتى يكون الملك ممتناً لى أيضاً فقبلت وغادرت ومن ذلك الحين بدأ الطرفان يعدان العدة لحفل الزفاف، وذات يوم مبارك وفى

ساعة مباركة اجتمع القاضى والمفتى والعلماء والأكابر وتم الزواج، وذهبت العروس إلى بيت العريس فى بهجة وسرور.

وبعد الفراغ من مراسم حفل الزفاف، اختلى العريس بالعروس وأراد أن يغشاها إذ سمع الجميع ضجة واندھشوا وأرادوا أن يدخلوا غرفة العريس لكن الباب كان موصداً، وسمعوا صوت بكاء فكسروا الباب ووجدوا العريس مقطوع الرأس والعروس متمرغة وملطخة بدماء العريس.

فقد الجميع وعيهم برؤية هذه المصيبة التى حلت بهم فى وقت الفرح والسرور، ثم بلغ الخبر الملك، فجاء حزيناً ضارباً رأسه، واجتمع جميع أركان المملكة لكن لم يستطع أحد منهم قط أن يعرف ماذا حدث، وماذا يفعلون، أخبروا أمر الملك بقتل العروس التبعة، وما أن أمر الملك بذلك حتى سمعوا ضجة كبيرة، ففر الملك حفاظاً على حياته وأمر بإخراجها من القصر، فأوصل الخدم ابنتى إلى بيتى وذاع هذا الخبر فى الدنيا كلها، وذهل من سمع هذا الخبر، وبسبب قتل ابن الملك أصبح الملك وجميع سكان هذه المدينة أعداء لحياتى.

وبعد الفراغ من الحداد والنواح وانقضاء الأربعين شاور الملك أركان الدولة فى هذا الشأن وسألهم: «ماذا نفعل الآن؟»، قال الجميع: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً، سوى أن تأمر جلالتك بقتل تلك الفتاة وأبيها، والاستيلاء على أملاكهما وذلك للتسرية عن قلوبنا ولو ظاهرياً!! وعندما قرروا عقوبتى هذه جاء رئيس الشرطة مع معاونيه وحاصروا ابنتى، ونفخوا فى النفير، وأرادوا أن يدخلوا بيتى تنفيذاً لحكم الملك وبدأت الأحجار والأجر تمطر عليهم من الغيب فلم يستطيعوا تحملها وفروا، وسمع الملك فى قصره صوتاً مهيبة يقول: «أيها الملك لا تتبع خطوات الشيطان، وإن أردت خيراً لك فلا تتعرض بالسوء لهذه الفتاة، وإلا ستترى بسبب عداوتك لها ما رآه ابنك بالزواج منها، ولو أذيتهما بعد ذلك سيتنازل العقوبة».

خاف الملك وأمر أتباعه على الفور «بالألا تتعرضوا لهذين ولا تظلموهما وإتريكوهما فى حالهما فى البيت، ومنذ ذلك اليوم بدأ النساك يقرأون الدعاء والرقية والأوردة، وبدأ سكان المدينة يذكرون الله ويقرأون القرآن الكريم، وحتى الآن لم يستطع أحد أن يطلع على شىء من هذه الأسرار! أعلم منها شيئاً، ولكننى سألت ابنتى ذات مرة: ما الذى رأيته تلك الليلة؟، قالت: «إننى لا أدري شيئاً إلا أن زوجى حاول أن يغشانى، فرأيت أن السقف ينشق،

ويخرج منه عرش مرصع ويجلس عليه شاب وسيم يرتدى لباس الملوك ودخل معه أناس كثيرون وتصدوا لقتل ابن الملك، واقترب الشاب منى وقال: «يا حبيبتي والآن أين تفرين منى؟». وكانت أشكالهم مثل الآدميين لكن أرجلهم كانت مثل أرجل الأغنام فبدأ قلبى يخفق خوفاً وفقدت وعيى ثم لا أدرى ما حدث فى النهاية؟».

ومنذ ذلك الحين ونحن نعيش فى هذا البيت العتيق وانصرف عنى جميع أصدقائى خوفاً من غضب الملك وعندما أخرج لأتسول لا يعطينى أحد شيئاً حتى «المليم» بل لا يسمحون لى بأن أفق أمام متاجرهم، وليس عند ابنتى أى ثوب يستر بدنهما ولا طعام تسد به جوعها، وأرجو من الله أن يتوفانا أو تنشق الأرض لتبتلع هذه التعسة، فإن الموت أفضل من هذه الحياة، لعل الله أرسلك لأجلنا، إنك أعطيتنا ديناراً فاشترينا الطعام والكساء لابنتى وحمدت الله عز وجل ودعوتها، ولو لم تصب ابنتى بمس من الجن والشيطان لزوجتك إياها وكان هذا هو منتهى السعادة والأمل، هذه أحوالى فلا تلح وانصرف عن قصدك.

وبعد كل ما سمعت ألححت وأصررت وقلت: «لا بد وأن تقبلنى كابن لك، وليحدث ما قدر الله، فما قدر لى من سوء حظى سيحدث». ولم يقبل الشيخ وحينما أمسى الليل غادرته وذهبت إلى مبارك فقال لى: أيها الأمير مبروك مبروك لقد هيا الله لك الأسباب، وما ضاع هذا الجهد قلت: لطالما ألححت وتوسلت اليوم لكن ذلك الأعمى القاسى القلب لم يقبلنى والله أعلم إن كان سيقبل أم لا؟ ومر الليل على قلبى وأنا على تلك الحال بصعوبة بالغة، وكنت أتحرق شوقاً لطلوع الصبح لأذهب إليه وأحياناً يرد فى ذهنى أنه لو قبل الرجل فسيأخذها «مبارك»، إلى الملك «صديق» ثم قلت فى نفسى: نأخذها أولاً، ثم نبحث عن حيلة ونرضى مبارك ثم نعيش سوياً، وأحياناً يأتى فى خاطرى أنه لو قبل «مبارك» فسيصنع بى الجن ما صنعوه بزوجه السابق، وكيف يقبل ملك هذه المدينة أن يقتل ابنه ويسعد آخر.

وطار النوم منى طوال الليل وقضيته فى إعداد هذه اللحظة وحينما طلع الصبح خرجت واشتريت من السوق أثواب القماش الجميلة وما يزينها والفواكه الجافة والطرزجة وذهبت بها إلى الشيخ الأعمى ففرح جداً وقال: «إن الحياة أغلى من كل شىء، لكن لو تنفك حياتى فلن أدخر وسعاً فى بذلها من أجلك، وأزوجك ابنتى الآن، لكننى أخاف أن يؤدى هذا إلى هلاكك، ويكون هذا وصمة ذنب فى جبينى إلى يوم الدين».

فقلت: «إننى بدون مأوى فى هذه القرية وأنت والذى فى الدين والدنيا لقد تجشمت كثيرا من العناء فى تحقيق أمنيته هذه حتى وصلت إلى هنا، ووجدت مطلبى أيضا، وجعلك الله رحيما بى حتى قبلت لكك تتردد كن منصفاً فى تفكيرك وأخبرنى أى مذهب يسمح للإنسان أن ينقذ رقبته من سيف العشق وينجو بحياته؟ إننى ضيعت حياتى، وأعتبر حياتى فى وصال المعشوق، ولا أبالى بالموت أو الحياة ولو خاب أملى فساموت قبل أجلى وأتشبث بذلك حتى يوم القيامة».

خلاصة القول أنه قد مضى قرابه شهر كامل فى القول والرد والإلحاح والإصرار، كل يوم أذهب إلى هذا الشيخ وأتوسل إليه، وحدث أن مرض الشيخ وكنت أقوم على خدمته وأذهب إلى الطبيب وأخذ وصفة العلاج وأشتريها وأطعمه وأشتري غذاء أقدمه إليه، وذات يوم أشفق على وقال: «أيها الشاب!! أنت عنيد، لقد حاولت كثيرا أن أمنعك عن هذا وبينت لك جميع المخاطر، ولكك تريد أن تلقى بنفسك فى البئر، وعلى كل حال اليوم أذكرك عند ابنتى فأرى ماذا تقول؟».

يا فقراء الله!! عندما سمعت هذا الخبر السعيد لم تسعنى ثيابى فسلمت عليه وشكرته وقلت: «الآن أنت فكرت فى حياتى، وغادرتك وذهبت إلى مبارك وكنا نتحدث فى هذا طوال الليل فأنى للثوم أن يداعب عيوننا وأنى للجوع أن ينتابنا؟ وحينما طلع الصبح ذهبت إلى الشيخ وسلمت عليه فقال: خذ ابنتى، بارك الله لك فيها وأستودعها الله الذى لا تضيع ودائعها، وكونوا أمام عينى طول حياتى، وعندما أموت فأنتم مخيرون».

وبعد أيام أسلم الشيخ الروح، فبكينا وحزنا عليه ودفناه وبعد الفاتحة الثالثة ذهب «مبارك» إلى تلك الحساء وجاء بها فى هودج، وقال لى: «هذه أمانة للملك «صادق»، واحذر أن تخونه فيها، وتضيع جهدك ومشقتك: قلت؟ يا عم!! أين الملك «صادق»، هنا، قلبى لا يستطيع صبرا؟ فليحدث ما يحدث، أموت أو أحيأ الآن أعيش، وبعد أن اضطرب مبارك نهرنى قائلاً: لا تسلك سلوك الأطفال ربما يحدث فى لحظة واحدة أى شىء هل تعتقد الملك «صادق» بعيد؟ فلا تطيع أمره؟ إنه نبهنا على كل شىء وقت مغادرتنا، إن عملت بنصيحته وأوصلتها له بالسلامة بدون أى تقصير، فإنه كملك ربما يعطيك إياها تقديراً لجهدك فلزمت الصمت بعد أن أخافنى وحيرنى، فأشتري مركبتين، وركبنا وتوجهنا إلى الملك «صادق»، وكنا نمشى وإذا بنا نسمع صنجيجا قال مبارك: الشكر لله أن جهدنا لم يضيع هباء، فقد وصل

إلينا جماعة الجن، قابلهم مبارك وسألهم: إلى أين؟ فقالوا قد كلفنا الملك باستقبالكم ونحن في خدمتكم، وأن تأمرونا نوصلكم في لحظة قال «مبارك»: انظروا كيف أعزنا الله ورفع قدرنا عند الملك بعدما تحملناه من جهد؟ فعلىنا أن نسرع، فلولا قدر الله وحدث أى تقصير سيضيع جهدنا أدراج الرياح ويحل بنا غضب الملك. قال الجميع: «إنكم مخيرون امضوا كيف تشاءون، ورغم أن سبل الراحة كانت متاحة لنا، إلا أننا كنا نمشى ليل نهار ولا مفر لنا من ذلك.

وحينما اقتربنا ووجدت «مبارك» نائما وضعت رأسى على قدمى تلك الحسناء وبسبب اضطراب القلب وقلة حيلتى أمام مبارك بدأت أقول لها: إننى منذ وقع بصرى على صورتك حرمت على النوم والأكل والراحة، وعندما أتاح الله هذه الفرصة، أصبحت غريباً عنك.

فقلت: «إن قلبى مائل إليك أيضاً لأنك عانيت كثيراً من المتاعب بسببى أنا وجئت بى إلى هنا، أذكر الله ولا تنسى، وانتظر ما يحدث من الغيب. وبعد هذا صاحت صيحة شديدة ويكت بكاء مريراً وانتحبت وهذه كانت حالى، وهذا كان حالها، وأثناء ذلك استيقظ «مبارك»، فبدأ يبكى لبكائنا نحن المشتاقين، وقال: اطمئنوا عندى زيت أمسح به على جسد الفتاة، فينفر من رائحته الملك «صادق»، وغالباً ما يعطيك إياها.

ولما سمعت من «مبارك» هذه الحيلة اطمأن قلبى وعانقته وأنهزت حبى له وقلت: يا جدى!! أنت الآن فى منزلة أبى لقد أنقذت حياتى، والآن تعمل أيضاً ما يضمن حياتى، وإلا سأموت بهذا الحزن فطمأننى كثيراً.

وحينما طلع الصبح سمعنا صوت الجن، ورأيت خدام الملك «صادق»، قادمون، وقد خرجوا عن آخرهم لاستقبالنا ومعهم هودج من اللآلى، فمسح «مبارك» على جسد الأميرة بالزيت وألبسها لباساً وذهب بها إلى الملك، وحينما رآها الملك أكرمنى وأجلسنى بإعزاز وقال: سأعاملك معاملة لم يعاملك بها أحد من قبل قط، إن ملك أبيك هو لك وعلاوة على ذلك أنك ستكون بمثابة الابن لى، وكان يتحدث عن هذا إذ جاءت الأميرة أمامه وحينما اشتم رائحتها تبدل حاله ولم يستطع الصبر عليها فخرج مسرعاً ودعانا وتوجه إلى «مبارك» وقال: «لماذا ياعزيزى لقد وفيت أنا بالعهد وكنت قد حذرتكما أنكما إن خنتما الأمانة، سيحل غضبى بكما، ما هذه الرائحة؟ والآن سترى ماذا أفعل بك، وحينما اشتد غضب الملك خافه «مبارك».

وفتح إزاره وقال للملك: «انظر عندما حذرتنا من الخيانة قطعت «عضوى»، ووضعت في ظرف وختمته بالختم ووضعت في الخزانة، واستخدمت المهرم ثم ذهبت في مهمتى وعندما سمع الملك من «مبارك» هذا القول نظر إلى شذرك وقال: «هل أنت فعلت هذا؟ وغضب غضباً شديداً وبدأ يتفوه بكلام بذيء..، وفهمت من أسلوبه أنه يريد القضاء على، فأخزجت الخنجر من طيات ملابس «مبارك» وطمعته دون أن أبالي بحياتى، وحينما أصابه الخنجر انحنى ثم ترنح فظننت أنه مات، لكننى فكرت أن الضربة لم تكن بهذه القوة فماذا حدث؟ ورأيت أنه يتدحرج ويتقلب حتى أصبح كالكرة ثم طار في السماء حتى غاب عن ناظرى وبعد برهة نزل محدثاً صوتاً كالصاعقة متفوهاً بما ينم عن غضبه، وضربنى برجليه، فسقطت مستلقياً على ظهرى، والله أعلم كم من الوقت قد مر على فى هذا الوضع حتى استرددت وعيى؟ ولما فتحت عيني وجدت نفسى فى الغابة وليس هناك سوى الأشجار والأحجار، ولم يرد فى ذهنى ماذا أفعل وأين أذهب؟ وأخيراً انتابنى بأس عظيم وصرخت صرخة مدوية ومثيت، وكلما قابلت شخصاً سألته عن الملك «صادق»، فيجيبنى كأنى مجنون ويقول ما سمعت اسمه قط.

و ذات يوم صعدت الجبل وأردت أن ألقى بنفسى من فوقه، وعندما هممت بإلقاء نفسى، إذ جاء نفس الفارس صاحب ذى الفقار ملثماً وقال: لماذا تنهى حياتك؟ إن الإنسان يمر بالحزن والألم، والآن انتهت أيامك السيئة وجاءت أيامك السعيدة، اذهب بسرعة إلى بلاد الروم، سبقك ثلاثة أشخاص مثلك، قابلهم وقابل السلطان هناك، وأنتم الخمسة ستجدون بغيتكم فى مكان واحد.

هذه هى قصة هذا الفقير التى حكيتها، وبسبب هذه البشارة حضرت إلى مرشدى المولى الذى يفرج الكرب، ومثلت فى خدمة الملك ظل الله، والآن ينبغي أن يطمئن قلب الجميع.

وبينما كان هذا الحوار يدور بين الدراويش الأربعة والملك «آزاد بخت»، إذ جاء الخادم من قصر الملك مهرولاً وقدم التحيات وقال: «مبارك يا مولاي لقد ولد لسموك أمير وسيم يستحق من حسنه الشمس والقمر». تعجب الملك وسأل: «ما كان هذا فى الظاهر، هذه الشمس سطعت من أى برج؟» قال الخادم: «إن ذات الوجه القمري من الخواص التى حل بها غضب الملك منذ فترة طويلة، والتى تعيش فى ناحية من أنحاء القصر كالمسكينة ولا يسأل عن حالها أحد خوفاً من بطش الملك، قد أكرمها الله عز وجل بأن أنجبت ولداً كالقمر».

ففرح الملك كثيراً، ودعا له الدراويش الأربعة بالبركة قائلين: «عمر الله بيت جلالتك وبارك لك فيه، وأطال عمره، وجعله يبلغ سن الشباب والشيخوخة في ظلك، قال الملك: هذه بركة قدومكم فقط، وإلا فإنه ما خطر في بالي، لو تسمحون لي فأذهب لأراه» قال الدراويش: تفصل: «بسم الله، دخل الملك القصر واحتضن الأمير وشكر الله عز وجل وقر قلبه وجاء به إلى الدراويش ضاماً إياه إلى صدره، فقرأ الدراويش الرقية والأدعية على رأسه، وأعد الملك العدة للاحتفال وفتح أبواب الخزائن وأعطى الفقراء أموالاً طائلة حتى أصبحوا أصحاب مئات الألوف، وأصدر فرماناً بمضاعفة أملاك ومخصصات أركان الدولة، ومنح قوات الجيش راتب خمس سنوات، ومنح الأوسمة الرفيعة للأكابر والمشايخ وملاً كثوس الفقراء والمساكين بالدنانير والروبيات، وأعفى الرعية من الضرائب ثلاث سنوات وسمح لهم أن يأخذوا الحاصلات الزراعية كلها دون اقتطاع أى جزء منها، وأمر أن يكون الاحتفال بالرقص والغناء من بيت إلى بيت، وصار الصغير والكبير ملك الزمان من الفرح والسرور، وفي أثناء هذا كله ارتفع صوت البكاء والنواح من القصر الملكى، وخرج جميع الخدم والحشم والجواري نائرين التراب على رؤوسهم وقالوا للملك: «عندما حضنت الوصيقة الأمير بعد الفراغ من غسله، نزلت قطعة من السحاب وأحاطت بالخدمة، ثم رأينا بعد لحظة أن الخادمة فقدت وعيها والأمير غائب، أهذه القيامة؟ ذهل الملك وارتفع العويل فى البلاد كلها وقضى أهل البلاد يومين بدون طعام وشراب.

وخلصة القول كنا بدون حيلة وظللنا نعيش هكذا، وفى اليوم الثالث نزل نفس السحاب بمهد مرصع باللالئ ووضعته فى نفس المكان وتركه وغاب، فرأى الناس الأمير الوليد يرضع أصبعه، فأخذته الملكة بسرعة وضمتها إلى صدرها ورأته لابساً ثوباً مرصعاً بالدر والجواهر وموشى بالذهب والفضة وفى معصميه وقدميه أساور مرصعة وفى عنقه سلسلة وفى يده جرس ولعبة، وفرح الجميع وبدأوا يدعون له قائلين: «أثلج الله صدر أمك بك، وأطال عمرك حتى تصير كهلاً».

وبنى الملك قصراً جديداً وأثنه وأسكن الدراويش فيه وكان يذهب إليهم فيه حينما يفرغ من شئون الحكم ويجالسهم ويعتنى بهم، وكان السحاب ينزل فى أول خميس من كل شهر ويأخذ الأمير، وبعد يومين يعود به مع الهدايا واللعب من كل نوع ومن كل البلاد تحار العقول من جمالها، وبلغ الأمير سبع سنوات والحال على ما هو عليه، وفى يوم الاحتفال

بمولده قال الملك «آزاد بخت، للدراويش: يا فقراء الله!! نحن لا ندرى من يأخذ الأمير ثم يرجعه، هذا شيء غريب فلننظر في هذا الأمر ونرى ماذا سيكون مصيره؟ قال الدراويش: «خذ ورقة واكتب رسالة وقل فيها: «أنا مشتاق لرؤيتك بسبب حبك لى وأرجو على سبيل الصداقة أن تطلعننى على أحوالك لأطمئن ويزول العجب». فكتب الملك ما قاله الدراويش ووضعه الرسالة فى طيات ملابس الأمير.

غاب الأمير كالمعتاد وحينما أمسى الليل جاء الملك «آزاد بخت، إلى مخدع الدراويش وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث، إذ بورقة ملفوفة تسقط عليهم، وحينما فتحها الملك رأى أنها جواب الرسالة مكتوب فيه: «اعتبرنى مشتاقاً إليك، وسيهبط عرش من السماء فلو تكرمت اركبه وتعال إلى سيكون هذا أفضل، أن نلتقى وكل أسباب العيش والراحة متاحة والمكان خال لك فقط.

ركب الملك «آزاد بخت، مع الدراويش قطار العرش كعرش سليمان وبعد قليل هبط فى مكان به مبان شاهقة وكل شيء على ما يرام لكن لا يبدو به أثر لإنسان، أو أن شخصاً يعيش فيه، وفى أثناء ذلك وضع شخص فى عيونهم كحلاً سليمانياً، فنزل دمعهم فرأوا جماعة من بنى الحور قائمين لاستقبالهم فى أزياهم المختلفة وفى أيديهم الزهور، وحينما سار الملك «آزاد بخت، رأى أبناء الحور يقفون على كلا الجانبين فى أدب ووقار وفى الوسط رأى عرشاً زمردياً يجلس عليه الملك «شهبال بن شاه رخ، متكئاً على أريكة بهيبة وعظمة وتجلس أمامه حورية تلعب مع الأمير «بختيار، ويجلس أبناء الحور على المقاعد والمساند المصطقة على الجانبين، وعندما رأى الملك «شهبال، الملك «آزاد بخت، نهض ونزل عن العرش وعانقه وأخذ بيده وأجلسه إلى جواره وبدءا يتحدثان فى جو من الصداقة والمودة، وطوال اليوم عم الفرح والسرور، وقدمت لوازم الضيافة من طعام وشراب وفاكهة وعطور وغناء، ثم اجتمع الملكان فى اليوم التالى فسأل الملك «شهبال، الملك «آزاد بخت، «لماذا جئت بالدراويش معك؟».

فقص الملك قصة هؤلاء الدراويش الأربعة كما سمعها بالتفصيل وقال وهو يشفع لهم: إنهم عانوا مصائب جمة، والآن لو نالوا بغيتهم بسبب عناية جلالكم فلك عظيم الثواب، وهذا المخلص (الملك) سيكون شاكرًا ممتنًا لك طوال حياته، وبفضلك ستروى سفنهم على شاطئ الأمان بعد طول إبحار.

فقال الملك «شهبال»: على الرأس والعين، فهذا هين ويسير على. قال هذا ونظر بشفقة للجن والحرور وكتب خطاباً إلى جميع زعماء الجن أنه: عليكم بالحضور مباشرة عقب قراءة فرمان، وإن تأخر أو تردد أى منكم سينال عقابه ويأتى محبوساً، وعليكم بإحضار أى رجل أو امرأة من بنى الإنسان يكون موجوداً لديكم وإن حدث وأخفيتم أحدهم وظهر بعد ذلك، فإن من يفعل ذلك ستقتل نساؤه وأطفاله ولن يبقى له اسم أو أثر.

وأرسل الرسالة مع عفريت إلى كل الجهات، وأخذ الملكان يتحدثان سوياً بود وحب، وأثناء ذلك خاطب الملك «شهبال»، الملك آزاد بخت، قائلاً: «كان لى أمنية كبيرة وهى أن أرزق بولد، وعاهدت نفسى أنه إن رزقت بولد أو بنت سأزوجها بولد يولد ببنت ملك ملوك بنى الإنس، وبعد هذا علمت بحمل زوجتى الملكة، وبدأنا نعد الشهور والأيام حتى حان الوقت وأنجبت بنتاً، وحسب العهد أمرت أولاد الجن أن ابحثوا فى العالم كله عن ولد يولد فى بيت ملك وأحضروه بحرص وبسرعة، فانتشر الجن فى العالم كله وأحضروا هذا الأمير بعد لحظة.

شكرت الله واحتضنته ودخل فى قلبى حبه أكثر من ابنتى ولا تقبل نفسى أن أتركه ولو للحظة واحدة، لكننى أرسله لأن والديه لولم يرياه فماذا سيحدث لهم؟ لهذا أطلبه كل شهر مرة واحدة وأبقية عدة أيام عندى ثم أرسله والآن قابلتك فإن شاء الله تعالى نزوجه، فكل نفس ذائفة الموت، فنرى زواجهما فى حياتنا.

سر الملك «آزاد بخت» من قول الملك «شهبال»، وبرؤيته وقال: «كنت أخاف من قبل على ابنى لماذا يغيب ويعود؟ لكننى حينما تحدثت معك اطمأنتت، والآن هو ابنك وأنت مخير فافعل ما تشاء. وهكذا صارت الصداقة بين الملكين كالسكر واللبن، وبدءا يتمتعان بكل متع الحياة، واجتمع خلال فترة من خمسة إلى عشرة أيام الملوك الكبار لـ «ككستان آرم»، و«كوهستان» و«الجزر» الذين عين الملك الخدام، لإحضارهم، ومثلوا بين يدى الملك، فقال أولاً للملك صادق: أحضر من عندك من بنى آدم، فاحضر بعد الغم والحزن «گلعدار»، وطلب من ملك ولاية «عمان»، الأميرة التى أصبح ابن ملك «نيم روز» راكب الثور مجنوناً بسببها، فاحضرها بعد الأسف والاعتذار، وعندما طلب الملك بنت ملك الإفرنج و«بهزاد خان»، انكر الجميع وأقسموا بسليمان، وأخيراً سأل ملك بحر القلزم، فخفض رأسه وسكت،

فاستحلفه الملك «شهبال» ووعده بإعطائه الجوائز وحذره من مغية العصيان فبدأ يقول وهو عاقداً يديه: «حفظ الله الملك، فى الحقيقة عندما جاء الملك لاستقبال ابنه وألقى الأمير فرسه فى البحر ليصل إليه بسرعة، كنت قد خرجت فى نفس ذلك اليوم للصيد، فمررت بنفس المكان وكنت واقفاً أشاهد هذا المنظر ورأيت الأميرة أيضاً تلقى بفرسها فى البحر، ولما رأيتهما خرجت قلى من حوزتى وأمرت أبناء الحور بأن يحضروا الأميرة مع فرسها وعندما ألقى «بهزاد خان» فرسه فى البحر وبدأت تبتلع الأمواج أعجبته شجاعته ورجولته، فأخذه أيضاً، وأحضروهما، والآن هما عندى بصحة وعافية».

وبعد قوله عن هذه الأحداث دعاها أمامهم ثم طلب الملك بنت سلطان الشام وبحث عنها كثيراً وسأل الجميع بشدة عنها، لكنه لم يجد لها أى خبر، ثم قال الملك «شهبال، هل غاب أى أمير أو ملك أم حضروا جميعاً؟ قال الجنى: «يا ملاذ العالم!! حضروا جميعاً ما عدا «مسلسل جادو» الذى أسس قلعة فى جبل «قاف» بسحره ولم يحضر مستكبراً، ولا نستطيع أن نحضره بالقوة لأنه قوى وشجاع وشيطان كبير».

وعندما سمع الملك غضب وعين قوات الجن والعفاريت وأبناء الحور وقال لهم: قولوا «المسلسل جادو» أن يحضر مع الأميرة فإن قبل فيها وإلا قدموا كل ما يملكه وأحضروه مكبلاً واحرقوا أرضه وأملاكه وفى لحظة واحدة ذهبت القوات وأحضروه بسرعة فسأله الملك «شهبال، مهدداً ومتوعداً، ولكن ذلك المغرور أبى وتكبر فغضب الملك وقال: اقطعوا كل عضو لهذا المرتد وانزعوا جلده واحشوه بالقبن، وأمر بنى الحور بأن يذهبوا إلى جبل قاف ويبحثوا عن الأميرة فذهبوا وأحضروها، فشكر الدراويش الأربعة والأسرى الملك «شهبال، نظراً لعدله وإنصافه ودعوا له وفرحوا وفرح الملك «آزاد بخت» أيضاً ثم أمر الملك «شهبال، الخدم بأن يدخلوا الرجال فى ديوان خاص وأن يدخلوا النساء إلى قصره وأمر بأن يعدوا العدة للزواج بسرعة، وبمجرد أن أمر كأنهم كانوا فى انتظار أمره».

وذاث يوم فى ساعة طيبة ومباركة عقد الملك قران الأمير «بختيار» على ابنته الأميرة «روشن اختر» وزوج سيد اليمن من أميرة دمشق، وابن ملك فارس من أميرة البصرة، وابن ملك العجم على ملكة الإفرنج، وبنت ملك «نيم روز» من «بهزاد خان»، وزوج أمير «نيم روز» من أميرة الجن، وأمير الصين من بنت ذلك الأعجمى العجوز التى كانت فى قبضة

الملك صادق وبلغ الجميع مقصودهم بسبب الملك «شهبال» ودام الاحتفال أربعين يوماً وقضوا الأيام والليالي في الفرح والسرور.

وأخيراً ودع الملك «شهبال» كل أمير مع التحف والهدايا والأموال إلى أوطانهم فعادوا جميعاً بالفرح والسرور ووصلوا أوطانهم بخير وعافية، وبدأوا يحكمون لكن «بهزاد خان» وسيد اليمن فضلاً أن يبقيا مع الملك «آزاد بخت» وأخيراً جعل الملك «آزاد بخت» ابن سيد اليمن أمير «خانسمان» وجعل «بهزاد خان» قائداً للجيش ، وأخذ الجميع يقضون حياتهم في رغد وسعادة .

يا الله كما نال الدراويش الأربعة والملك «آزاد بخت» هدفهم، بلغ كل من لا يجد بغيته بفضلك ما يصبوا إليه، بحق محمد ﷺ وفاطمة وعلى كرم الله وجهه والإمام الحسن والإمام الحسين وبحق الإثنين عشر إماماً والأربعة عشر معصوماً عليهم الصلاة والسلام .

خاتمة الكتاب

وحيثما اختتم هذا الكتاب بفضل الله عز وجل أردت أن أسميه باسم يبدو منه التاريخ
الذى أنجز فيه وعندما حسبت فإنى بدأت بكتابته هذا فى نهاية ١٢١٥ هـ، وبسبب ضيق
الوقت انتهيت منه فى سنة ١٢١٧ هـ وحيثما كنت أفكر
بباغ وبهار، لأن هذا اسم جيد ويبدو منه التاريخ فسميت
حديقة بل إن الحديقة قد تعانى من الخريف، لكن هذا الكتا
يانعاً.

عندما تم ترتيب «باغ وبهار»
كان العام هو ألف ومائتين وسبعة عشر
تنزهوا فيه ليلاً ونهاراً
لأن اسمه وتاريخه (١) «باغ وبهار»
لا يلحق به أثر لخريف
فإنه يكون ربيعاً متجدداً فى دوام
لقـد ارتوى من دماء قلبى
وجميع أوراقه فلذات كبدى

(١) اسم الكتاب بحساب الجمل يسارى (ب=٢، أ=١، غ=١٠٠٠، و=٦، ب=٢، هـ=٥، ا=١، ر=٢٠٠) = ١٢١٧.

سينساني الناس بعد الموت
 لكن هذا الكلام يبقى كذكرى
 فعلى الذى يقرأه أن يتذكرنى
 هذا هو مطلبى من القراء
 لو وجدوا فيه أى خطأ فمعفوا
 لأنه تحت الأزهار تخفى الأشواك
 إن الإنسان مركب من السهو والخطأ
 فإنه يخطئ فى كل لحظة، فانتبهوا
 ولا أريد شيئاً غير هذا
 هذا هو دعائى يا إلهى
 أن أبقى فى ذكرك يا إلهى كل لحظة
 وهكذا أقضى الليل والنهار
 وألا يكون لى الحسب بشدة
 ولا أسأل عن الأيام والليالى
 يا ربى أبقنى فى العالمين بلطفك
 يا إلهى بحق الرسول العظيم

هوامش الفصل

- (١) يجرى هذا الشعر مجرى النمل على لسان أهل الهند والغرض منه أن يعتبر الإنسان ويدرك المهالك قبل أن يقع فيها، و (دبا كبيرا) اسم من الأسماء الهندية القديمة.
- (٢) «قهرديش برجان درويش» مثل في اللغة الأردية.
- (٣) كناية عن طول الأمد فيرى أن أحد ملوك الهند عندما أشرف المحتلون على احتلال بلاده كان غارقاً في ملذاته، وقالوا له الأعداء قادمون فقال إن دهلي بعيدة جداً.
- (٤) التبول: نبات عطري له رائحة طيبة ويكسب القم لونا أحمر، وهو مكون من القرنفل واللجهان ومزيج من الأعشاب الهندية.
- (٥) لقب خاص للخادم .
- (٦) هذه الجملة الاعتراضية إما روتها الوصيصة أو أن الملكة تخاطب نفسها.
- (٧) برهن: إحدى قبائل الهندوس المعروفة بتعصبها للهندوسية.
- (٨) فنون الخط السبعة هي: النسخ. التعليق. الریحان. شكست. خط گلزار. كوفي. خط غبار.
- (٩) نوع من الرماد يستخدمه التناك الهندوس بعد الغسل (أنظر: آداب سلطنة ورسوم معاشرت ص ٦٣)
- (١٠) نوع من الرماد يشبه لونه لون خشب الصندل يصنعه الهندوس على جبينه (نفس المرجع ص ٧٤).
- (١١) المقصود بركة الخمس: خمس مال الغنائم ويوقف للإتفاق على الفرياء وأبناء السبيل ومن انقطع من أهله . (فيروز اللغات مادة خمس).
- (١٢) أي لم يحدث شيء وفصح أمره دون ثمن ولا مقابل.
- (١٣) آذر: هو صنائع تماثيل الألهة في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام.
- (١٤) فرهاد: ويسمى حافر الجبل، وهو صاحب شيرين، وفي القصص أن الملك خسرو يرويز أمره بحفر طريق في جبل بيتسون وضرب له موعداً قريباً لإنجاز مهمته، فأنجز فرهاد حفر الطريق إلا أنه لم يحقق الأمل . وقد نظم القصة نظامي الكتجوي، وتلاثره شعراء الفارسية والتركية والأردية. وضعدوا القصة مضامين صوفية. (انظر حسين مجيب المصري: المعجم الفارسي العربي للجامع، مكتبة الأنجلو ١٩٤٨م).
- (١٥) كناية على تفرق القوات بعد مقتل قائدها .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٩ / ١٥١٥٥

I. S. B. N 977 - 01 --- 6504 - 2

هذا كتاب من تأليف (ميرآمن الدهلوى) أشهر أدباء الأردية
عبر عصورها المختلفة ، وفيه يحكى قصة ملك وأربعة دراويش
لكل درويش حكاية تحكى على غرار حكايات ألف ليلة وليلة،
حيث يتحدث كل درويش عما لحق به من صروف الأيام ومحن
الزمان، مما دفع بهم جميعاً إلى سلوك طريق التصوف بعد أن
تخلوا عن مباهج الدنيا وعروشها، ولبسوا أسمال الطريقة
وخرقها، وصيغت الحكاية فى أسلوب شيق جذاب وتحمل عبق
الشرق. وقيمته وتراثه وفكره. ولقد تأثر الأدب الأردى بالأدبين
الفارسي والعربي ومثلت الآداب الثلاثة حاجة للفكر الإسلامى
ومنظومة فكرية كبرى ساهمت فى نقل الأدب والفكر الإسلامى
إلى أدب اللغات الأخرى.